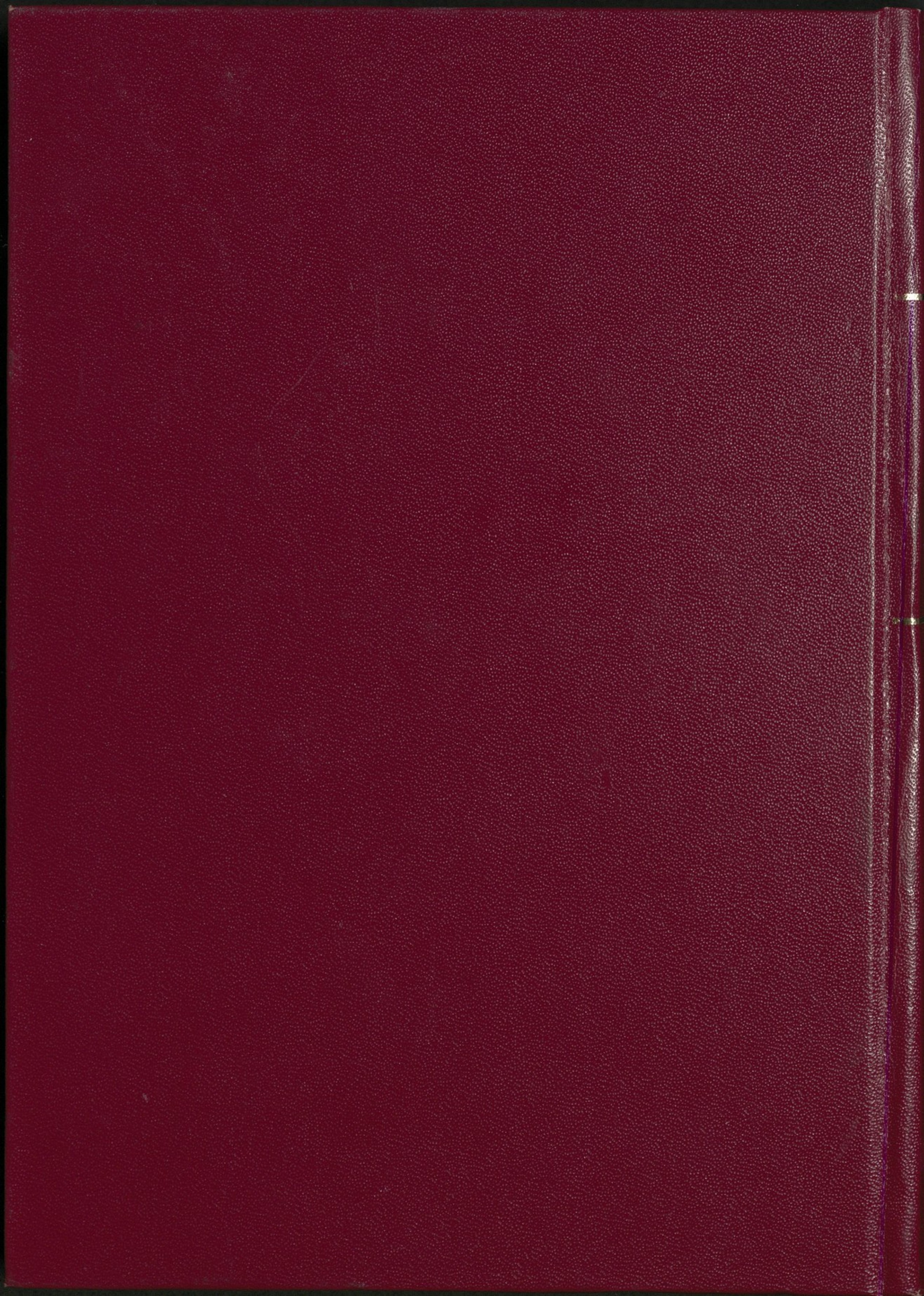
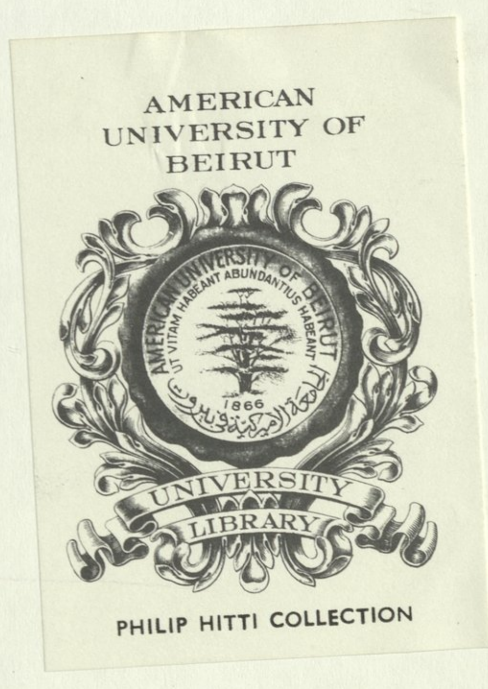
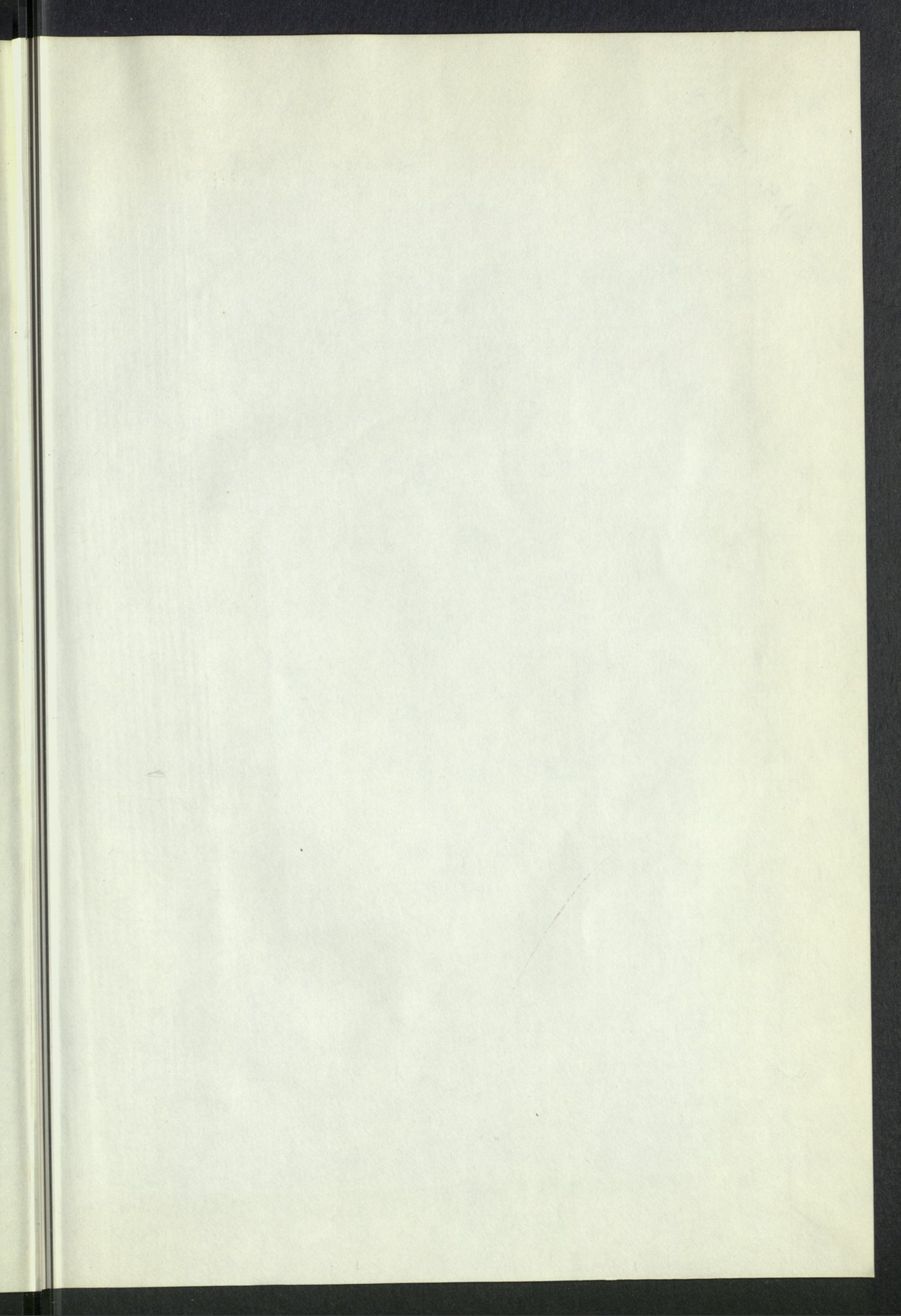
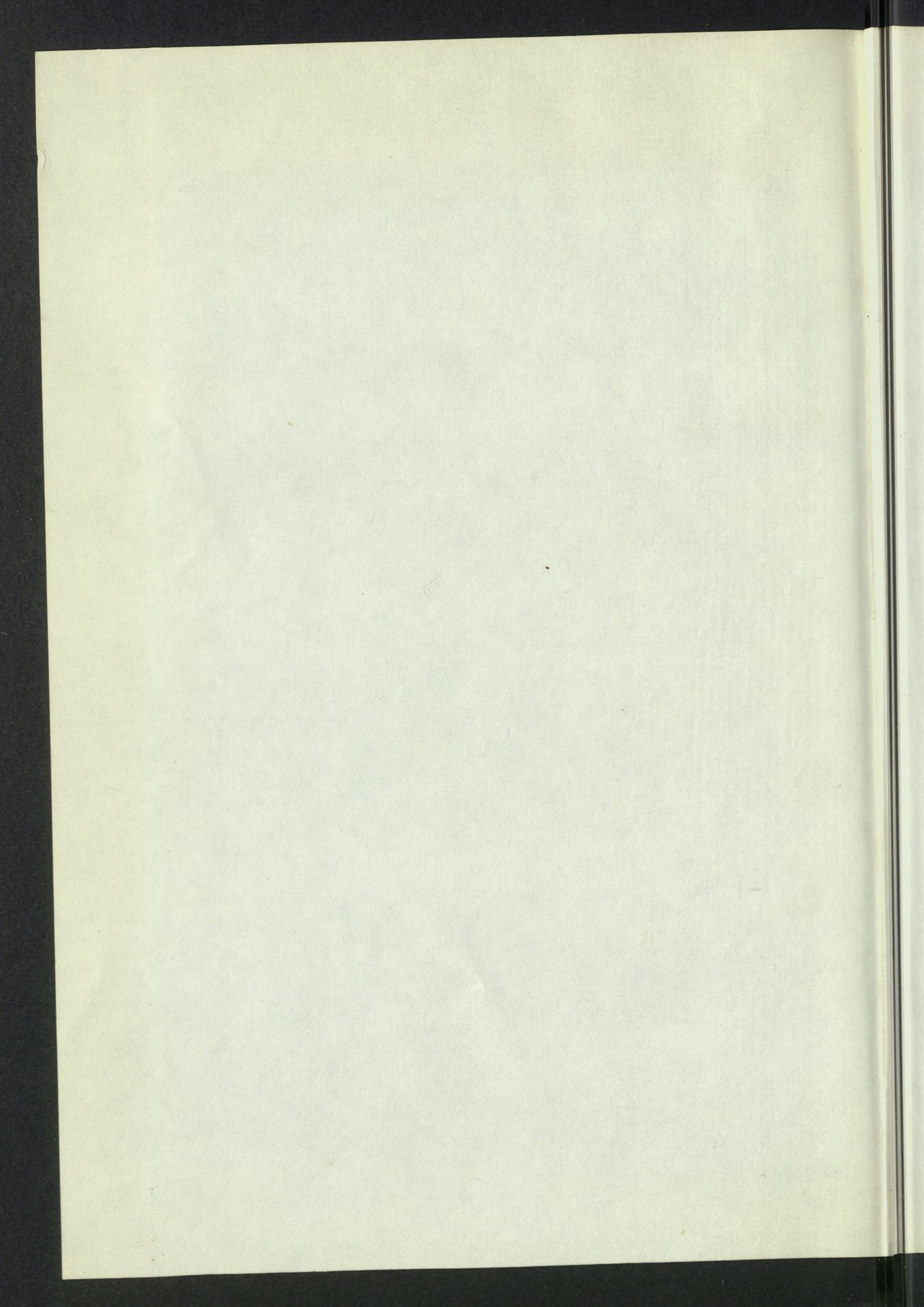



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY
PHILIP HITTI COLLECTION

CLOSED
AREA





مع تحية المؤلف

أنيس الخوري المقدسي

استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

انيس

من منشورات الدائرة العربية

في

جامعة بيروت الاميركية

طُبع على نفقة وقفيَّة ثيودور

في الجامعة المذكورة

المطبعة الاميركانية

١ ايلول ١٩٣٦

وتناولنا من امرائه ثمانية فدرسنا عصرهم وشعرهم على الطريقة التحليلية الحديثة ، وقرنّا ذلك بذكر اهم المصادر التي يُرجع اليها في دراستهم، وبطائفة كبيرة من روائعهم الشعرية. فتمّ لنا بذلك غرضان ، غرض علمي وهو الجري في ميدان البحث الحرّ، وغرض ادبي وهو التفقه بالادب نفسه .

ونحن نعلم ما سنستهدف له بسبب اختلاف الآراء . فان مقاييس البحث في الادب ليست مقاييسه في العلوم الطبيعية والرياضية . وانما نحن نعرض هذه الابحاث للمتأدّبين المفكّرين ، ولطلّاب التخصّص الاولي مدرجة الى التخصّص العالي ، وسعياً وراء الحقيقة العلمية . وانّا لنرحّب بكل انتقاد مبني على الدرس والانصاف واصول البحث والمنطق .

وقد كان معوّلنا في اختيار هؤلاء الثمانية شهرتهم ، وانهم اعمق اثراً من سواهم في تاريخ الشعر العبّاسي، ولا يُعنى بذلك انه لا يوجد بين سائر الشعراء من يرتفع الى درجتهم، او من يفوقهم في بعض المناحي ، وانما يُعنى انهم يمثلون العصر العباسي افضل تمثيل ، وفي درسهم درس لذلك العصر ودرس للحركة الادبيّة فيه

وها نحن نتقدم الى العالم العربي بالطبعة الثانية من هذا الكتاب بعد ان بذلنا الجهد في ضبطها وتنقيحها . وانا نلفت النظر الى ما اضفناه اليها من دراسة ابن الفارض وتحليل شعره . فعلنا ذلك نزولاً عند رغبة بعض العلماء والاساتذة ، وحبّاً باكمال هذه السلسلة الشعرية العظيمة التي تعكس لنا العواطف العربيّة في اخصب العهود الادبيّة .

جامعة بيروت الاميركية   ١ ايلول ١٩٣٦

ا . خ . م

القسم الاول

في الجو الذي نشأ فيه الشعر العباسي ورجاله

العوامل السياسية والاجتماعية والفكرية

واثرها في تطور الشعر

العوامل السياسية في الخلافة العباسية

نظرة عامة

حكم العباسيون في بغداد خمسة قرون كان عرشهم فيها ملعباً للاهواء والحركات السياسية المختلفة . وقد رأينا تمهيداً لهذا البحث ان نقسم مدة حكمهم اقساماً توضح لنا العوامل التي كانت تعمل فيها والتي ادّت اخيراً الى انحلالها . وهي عند التحقيق خمسة نطلق عليها اسم « ادوار سياسية »

الدور الاول — دور القوة المركزية

اي قوة الخلافة ، ويمتد من بدء الدولة الى اواخر حكم المتوكل ، فيشغل نحو قرن من الزمان بلغت فيه الخلافة اقصى قوتها وازهى مظاهر مجدها . وفي هذا الدور كانت بغداد عاصمة لسلطنة واحدة تمتد مما يقرب من الهند الى افريقيا (تونس)

الدور الثاني — دور الجندية

كان الخليفة المعتصم قد نظّم من فتيان الاتراك جنداً يعتمد عليه في حماية العرش . فلما مات المعتصم اصبح نفوذ امراء الجند شديداً في الخلافة . ولم يكد يقتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ حتى اصبح الخليفة في قبضتهم يتصرفون به كما يشاؤون . ويمتد هذا الدور الى سنة ٣٣٤هـ ، على ان الخلافة فيه بقيت برغم استبداد الجند محافظة على شيء من رونقها ، وكان لها وزارة وعمال . ومما يذكر في هذا الدور ان ديوان الخلافة كان قد نقله المعتصم سنة ٢٢١هـ الى سامرّا وبقي فيها نحواً من ٥٨ سنة ثم اعيد الى بغداد

الدور الثالث — الدور البويهي (٣٣٤ هـ — ٤٤٧)

وفيه كانت السلطة الحقيقية في يد بني بويه « وصارت الوزارة من جهتهم والاعمال اليهم »

واصبح الخليفة لا يملك من المال الاَّ راتباً يتقـاضاه . على ان البويهيين كانوا اهل سياسة ودهاء، فابقوا للخلافة نفوذها الاسمي ، وصاروا يحكمون في الدولة ظاهراً بامرة الخلفاء . وبقوا كذلك الى ان ضعفوا ثم زال ملكهم بقيام السلاجقة

الدور الرابع — الدور السلجوقي (٤٤٧—٥٩٠)

فيه كانت السلطة للسلاجقة ، وهم دولة تركية قويَّة عرضت مملكتها واستولت على الامر في بغداد وضربت باسم سلاطينها النقود وخطب لهم على المنـابر . على انهم كانوا كالبويهيين يحافظون على الخلافة ويظهرون التبجيل لصاحبها

الدور الخامس — دور الاحتضار

انقرضت دولة السلاجقة من بغداد ايام الناصر ولكن الانحلال كان قد تمكّن من جسم المملكة العباسية . فلما ذهب بنو سلجوق لم يبق للخلافة في بغداد سوى بعض انحاء العراق . فكانت الخلافة في طور الاحتضار ، ولم تزل كذلك حتى جاءها المغول سنة ٦٥٦ هـ فنهبوا بغداد وقتلوا آخر خلفائها ومحوا ما كان قائماً من معالمها .

***

هذه نظرة عامة نلقيها عن بعد على العصر العباسي . وانما نحن في ذلك كالواقف على ربوة مشرفة على سهل عامر يسرّح نظره في اقسامه العامة ويتبين معالمه الرئيسية ، دون ان يتغلغل فيه ليطّلع على دواخله وخوافيه . وغايتنا من ذلك معرفة الخطط السياسية العامة تمهيداً لدرس حالة العصر النفسية ، وتوصلاً الى فهم ادابه . فنحن هنا انما نحاول درس الجو الذي نشأ فيه ادب القوم لا تاريخهم السياسي ، والا فالافضل الرجوع الى المطوّلات التاريخية كالطبري والمسعودي وابن الاثير ومسكويه وصاحب الفخري والذهبي وابن خلدون وسواهم ممن خاضوا عباب هذا البحث وجاءوا بالاخبار الوافية .

. . .

ولما القينا نظرتنا العامة على هذه القرون الخمسة ظهر لنا في حياة الدولة العباسية وما تقلّب عليها من غِيَرَ الدهر ظواهر كبرى تمثل لنا ما نحن بصدده ، اهمها ما يلي :

١ — التنافس على السيادة بين العناصر الجنسية

٢ — ضعف الخلافة وتجزّؤها الى امارات مستقلة

٣ — الحركات الهدّامة الداخلية

٤ — غارات الروم والافرنج على اطرافها

وقد كان يجدر بنا ان نتجاوز ذلك الى الكلام عن احوال الممالك الاسلامية ، ولا سيما البلاد العربية بعد سقوط بغداد ، ونربط ذلك بقيام العثمانيين وانتزاعهم الخلافة من العباسيين في مصر ، وما كان من احوال الادب في ايامهم ، ثم نسوق الكلام الى حالة الناطقين بالعربية في العصر الاخير ، وما كان لهم من النهضة بعد الحرب الكبرى . وانما ذلك خارج عن موضوعنا فنرجئه الى فرصة اخرى نتناول فيها الادب العربي الحديث واثر التطور فيه ، ونعود الآن الى الظواهر السياسية الكبرى في العصر العباسي

التنافس بين العناصر الجنسية

واخصُّها العربي والفارسي

في الفتوح الاسلامية الاولى وضع حجر الزاوية لبناء الملك العربي العام . فبعد ان كان معظم العرب في جاهليتهم قبائل متفرقة ضاربة في اجواز الفلاة ، وبعد ان كانت حكوماتهم في العراق والشام وسواهما خاضعة لاحدى الدول السائدة من فرس او روم ، اصبحوا في عهد الراشدين دولة واحدة ذات سيادة ، فنما فيهم حب الفتح والسلطان ، ووصل الى اشدّه في دمشق ايام الامويين ، واستمر على ذلك في بغداد الى ايام المعتصم . فعصر السيادة العربية لم ينته بغتةً بانتهاء الدولة الاموية بل بقي نحو قرن بعدها . نعم ان عوامل الضعف كانت قد بدأت تعمل في جسم الدولة والخلافة ، ولكن سيادة العنصر العربي اخذت تهبط تدريجياً وبقي العرب على شيء كبير من القوة والنفوذ طيلة العصر العباسي الاول .

في هذا العصر بلغت الخلافة اوج قوتها ، فكانت بغداد كما كانت دمشق قبلها عاصمة سلطنة مترامية الاطراف لا تقل عن سلطنة رومة في ابّان مجدها ، وكان الخليفة العربي الحاكم المطلق يتصرف بشؤون الدولة واموالها كما يشاء

اما الروح الفارسية التي كانت تمثل عظمة الفرس الماضية وامالهم في استرجاعها فقد كانت في احط دركاتها ايام الامويين ، ولكنها اخذت تنتعش في اواخر حكمهم ، ولم تلبث ان تجسّمت بروح الثورة الخراسانية يقودها ابو مسلم لنصرة العباسيين . وعرف العباسيون ذلك للفرس فاتكلوا عليهم في الادارة والوزارة ولذا راينا نفوذهم يتعاظم ، ورأينا التنافس بينهم وبين العرب يشتد . وعلى ذلك يعدُّ الجاحظ دولة العباسيين اعجمية خراسانية ودولة بني مروان عربية اعرابية وفي اجناد شامية[1] . وقال ابن خلدون «كان بنوامية يستظهرون بجروبهم وولاية اعمالهم برجال العرب مثل عمر بن سعد وعبدالله بن زياد والحجاج بن يوسف والمهلّب بن ابي صفرة وخالد القسري وابن هُبيرة وبلال بن ابي بردة ونصر بن سيّار وامثالهم ، وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيه ايضاً برجالات العرب . فلما صارت الدولة للانفراد بالمجد وكُبح العرب عن التطاول للولايات ، صارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبني سهل وبني طاهر وسواهم[2]»

على ان العباسيين الأول كانوا اصحاب بطش وقوة ، فانهم مع اتكالهم على الفرس لم يستسلموا لهم ، بل ابقوا للخلافة العربية جلالها . يدلك على ذلك ما فعله المنصور بابي مسلم حين خشي منه الطغيان[3] ، وكذا ما فعله الرشيد بالبرامكة حين اخذته الغيرة من تعاظمهم وابّهة دولتهم[4] ، والمعتصم بالافشين لطمعه او لانه على ما قيل كاتب بعض امراء العجم واحبَّ ان ينقل الملك اليهم :[5] بل كانت سياستهم حفظ التوازن بين العرب المضرية واليمنية والخراسانية منعاً لاستبداد فريق بالدولة[6] . وكانت جيوشهم مؤلفة من عرب وفرس ، ثم جاء المعتصم فقطع عن هؤلاء المال وجعل جنده من الاتراك

ومما يدلك على هذا التنافس بين العنصرين العربي والفارسي مدائح الشعراء الذين نبغوا في ذلك العصر . فاذا اعتبرت اهم شعرائه تجدهم في اول الامر يتسابقون الى باب الخليفة ويتنافسون في مدحه ، ثم تجدهم يتحوّلون الى امراء الدولة من عرب وفرس . ويزداد هذا التحوّل مع الزمن الى العنصر الاخير ، فقد نبغ بين ايام المامون والمعتضد ثلاثة من اكبر شعراء العرب هم ابو تمام والبحتري وابن الرومي ، وكان اكثر مديح الاول (وهو اقدمهم) في المعتصم وبعض كبار العرب كأبي سعيد الثغري والقاضي احمد بن دواد وخالد بن يزيد

---

(١) البيان والتبيين (س) ٣ — ٢١٧ (٢) المقدمة (بيروت) ١٨٣
(٣) المسعودي ٦ — ١٨٣ الفخري ١٢٤ (٤) المقدمة ١٦ و١٧ الفخري ١٥٥
(٥) مختصر الدول لابن العبري ٢٤٢ واليعقوبي ٢—٥٨٢ (٦) ابن الاثير ٥ — ٢٢٣

ومالك بن طوق وابي دُلَف العِجلي . ومدح الثاني المتوكل واختص به ، ومع ذلك كانت مدائحه في كبار الدولة من الفرس تفوق مدائحه في امراء العرب . اما ابن الرومي فليس له في الخلفاء شيء يذكر ، واهم ممدوحيه من الاعاجم كآل وهب وآل طاهر وامثالهم . وسيأتي تفصيل ذلك في كلامنا عن الشعراء واحوال ممدوحيهم

ولو تحرّيت الاسباب التي آلت الى وهن العرب ، وهم اصحاب الخلافة ، ومنافسة الاعاجم لهم في الرئاسة والادارة ، ثم تغلُّبهم عليهم لرايت من اهمها — عدا انقسامهم بين يمنية ومضرية — تناحرهم على الامر بين عباسية وعلوية ، بل العباسيون انفسهم لم يكونوا يداً واحدة فراجت بينهم سوق الاغتيال والدسائس والفتن : من ذلك قتل المنصور لعمه عبدالله[1] ، وفتنة الامين والمأمون ، وثورة ابرهيم بن المهدي عم المأمون وطلبه الخلافة ، وما كان من قتل المتوكل وغير ذلك من الحركات السياسية التي اوهنت قوى العنصر السائد ، ومهدت السبيل لانحلال عصبيته

***

بدأ نفوذ الفرس في الدولة العباسية منذ نجح الخراسانيون في الدعوة لبني العباس ومبايعة السفّاح . وقد ظلت كفة العرب وكفة الفرس متكافئتين حتى انتصرت خراسان مرة اخرى وجلس المامون على العرش . فتعاظم نفوذ الفرس جداً وما زال كذلك حتى بلغ اوجه ايام عضد الدولة البويهي الذي قبض على زمام الامر في بغداد ، فتحول الامر بعد ذلك الى نزاع بين الفرس والترك انتهى بقيام السلاجقة كما سيذكر في حينه . ولم يبق للعرب في الدولة من قوة تذكر الاّ في بعض امارات حكموها ، كامارة بني حمدان في حلب وامارة بني الاغلب في تونس ، وسواهما من الامارات التي ستذكر في كلامنا عن تجزُّؤ المملكة العباسية

ضعف الخلافة
وتجزُّؤها الى امارات مستقلة

كانت خلافة الراشدين زعامة دينية دنيوية والدين فيها اقوى واظهر ، واصبحت في

(١) ابن الاثير ٥ — ٢١٥

عصر السيادة العربية (العصر الاموي وصدر العصر العباسي) ملكاً عظيم الشان واسع الاطراف ذا قوة مركزية عظيمة. فلما انقضى هذا العصر، وفسدت عصبية العرب التي كانت ركن القوة الحربية في الدولة، اخذت الخلافة تتحول تدريجياً من سلطة ملكية مسيطرة الى زعامة دينية مستضعفة. قال ابن خلدون ثم تغلب العجم الاولياء على النواحي وتقلّص ظل الدولة، فلم تكن تعدو اعمال بغداد حتى زحف الديلم اليها وملكوها وصار الخلائف في حكمهم، ثم انقرض امرهم وملك السلجوقية فصاروا (الخلفاء) في حكمهم[١]

وجاء في الفخري قوله واصفاً دولة بني بويه — « فدوّخت الامم واذلّت العالم واستولت على الخلافة، فعزلت الخلفاء وولّتهم، واستوزرت الوزراء وصرفتهم، وانقادت لاحكامها امور بلاد العجم والعراق، واطاعتهم رجال الدولة بالاتّفاق[٢] ». وكذلك كان السلاجقة كما ذكر ابن خلدون، على ان هذه الدول المسيطرة لم تتطاول الى مقام الخلافة فكانوا يدينون بطاعة الخليفة تبرّكاً[٣]. وكانوا على ما ذكر القلقشندي مع غلبتهم على امر الخلفاء يقتصرون على متعلّقات الملك في الجهاد والتصرف بالاقوال، ويكلون امر الولايات الى الخليفة يباشرها بنفسه فتكتب عنهُ العهود والتقاليد على ما يشهد به الموجود من انشاء الصابي وغيره[٤]

وقد وصف صاحب كتاب الفخري هذه الحالة احسن وصف اذ قال — ثم طرأت عليها (اي على الدولة العباسية) دول كدولة بني بويه وفيها كبشهم وفحلهم عضد الدولة، ودولة بني سلجوق وفيها مثل طغرلبك، وكالدولة الخوارزمشاهية وفيها مثل علاء الدين، وجريدة عسكره مشتملة على اربعمئة الف مقاتل، ... الى ان يقول ولم تقو دولة على ازالة ملكهم ومحو اثرهم بل كان الملك من هؤلاء المذكورين يجمع ويحتشد ويجرُّ العساكر العظيمة حتى يصل الى بغداد. فاذا وصل التمس الحضور بين يدي الخليفة، فاذا حضر قبّل الارض بين يديه، وكان قصارى ما يتمناه ان يوليه الخليفة، ويعقد لهُ لواء ويخلع عليه[٥]. فمن كل ذلك نستنتج ان هؤلاء الملوك كانوا يتصرفون بامور الدولة كما يشاؤون الا انهم كانوا يظهرون التبجيل لصاحب الخلافة فيقدّمونه ويقبّلون يديه ويتبركون به، وهم في الواقع اصحاب الامر ليس للخليفة منه شيء، وانما كانوا يفعلون ذلك لما كان للخلفاء من المنزلة الدينية في نفوس الناس

***

---

(١) المقدمة ١٥٥ (٢) الفخري ٢٠٦ (٣) المقدمة ٢٠٨

(٤) صبح الاعشى ١١—٧٣ (٥) الفخري ١٠١

ولم يكد يدخل القرن الرابع الهجري حتى ضعفت الحكومة المركزية في بغداد جداً ولم يبق للخلافة من نفوذ فعلي في المملكة . فكانت خلافة الراضي ، وبلاد فارس في يد بني بويه ، والموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر في يد بني حمدان ، ومصر والشام في يد محمد بن طُغج ثم في ايدي الفاطميين ، وخراسان والبلاد الشرقية في ايدي السامانية . وثمّت امارات اخرى ، واليك ذلك ببعض التفصيل :

الامارات المستقلة في بلاد فارس

وقد نشأت وانقرضت في مدد مختلفة بين سنة ٢٠٥ﻫ و ٤٣٤ﻫ وهي

الطاهرية في خراسان — الصفارية في فارس

السامانية ما وراء النهر — الساجية في اذربيجان

الزيارية في جرجان

اما الامارة الفارسية الكبرى فقد مر ذكرها وهي البويهية (٣٢٠ﻫ — ٤٤١) ويرجع نسب ملوكها الى ابي شجاع بُويه بن فناخسرومن ولد يزدجرد آخر ملوك الفرس[١]. نشأت في بلاد الديلم واخذت بالتقدم حتى استولت على بلاد فارس ثم استولت على بغداد واصبح لها الامر والنهي في العراق وفارس. وكان الخليفة يعيش في ظلها من إقطاع يعيّنه له الملك البويهي[٢]. وهذه الدولة شيعية لكنها لم تتعرض للخلافة العباسية (وهي سنّية) بل ابقتها على حالها[٣] وابقت للخلفاء حق اصدار المراسيم والخلع . وهذا كبيرهم عضد الدولة لما استولى سنة ٣٧٢ على بغداد وعلى شؤون الدولة ، لم ير بداً من تعظيم الخلافة[٤]، مع انه لا يعتقد باطناً بحق العباسيين فيها وقد زوّج الخليفة ابنته وغرضه ان تلد ابنته ذكراً فيجعله ولي العهد وتكون الخلافة في ولده[٥]

الامارات التركية

ومنها الطولونية في مصر والشام ٢٥٤—٢٩٢

الاخشيدية في مصر والشام ٣٢٣—٣٥٨

---

(١) ابن العبري ٢٧٩ الفخري ٢٠٤ (٢) ابن العبري ٢٩١ (٣) ابن الاثير ٨—١٤٩

(٤) مسكويه (٥) ابن الاثير ٨ — ٢٣٦

الغزنوية في خراسان وافغانستان ثم الهند ٣٥١–٥٨٢ .

قال ابن خلدون وقد بلغت هذه الدولة من العز المبالغ العظيمة[١]

اما الامارة التركية الكبرى

فهي السلجوقية وقد نشأت اولاً في تركستان ثم جمع جدهم سلجوق عشيرته ونفر بهم من بلاد الترك الى بلاد المسلمين ، فلما دخلها اظهر الاسلام وعلى ذلك نشأ اولاده . وما زال امرهم يعظم حتى ملك طغرلبك ، وهو اول سلاطينهم . بلاد العجم وكان قيامه في خلافة القائم العباسى ، ثم تقدم الى بغداد بدعوة من القائم لينصره على ثائر اسمه البساسيري[٢] . فاستولى عليها وخطب له بالسلطنة على منابر بغداد وذلك سنة ٤٤٧ هـ . وتولى خلفاؤه الامر بعده ، وما زالو يسوسون الامور في بغداد حتى ضعف امرهم . ثم زالت دولتهم في خلافة الناصر سنة ٥٩٠ هـ وكان السلاجقة في ابّان مجدهم اصحاب شوكة عظيمة ، وهم عدّة فروع امتد سلطانهم من افغانستان الى البحر المتوسط . ولما ضعف امرهم استبد عمالهم (الاتابك) بالاحكام في اماراتهم المختلفة ، ولم يبق لهم بعد ذهاب دولتهم في بغداد وغارة المغول على المملكة العباسية الاّ آسيا الصغرى ، فقد حفظوها حتى جاء الاتراك العثمانيون فاستولوا عليها واسسوا على انقاض السلاجقة سلطنتهم العظيمة ، ثم لم يعتموا ان اصبح سلاطينهم خلفاء العالم الاسلامي ودخلت اكثر البلدان العربية في حوزتهم . ولهم تاريخ خاص لا يدخل في بحثنا هذا

الامارات العربية

نشأ في الدولة العباسية بضع امارات عربية مستقلة ، على انها – اذا استثنيت العلوية والادريسية منها – كانت جميعها تخطب للخليفة العباسي وتعدُّه الزعيم الاسلامي الاكبر . ومنها :

الادريسية – في مراكش ١٧٢ – ٣٧٥ وكانت معادية للعباسيين

الاغلبية – في تونس ١٨٤ – ٢٨٩ امراؤها من تميم

الحمدانية – في حلب ٣١٧ – ٣٩٤ شيعية وامراؤها من تغلب اشهرهم سيف الدولة ممدوح المتنبي .

---

(١) ابن خلدون ٤–٣٦٠ (٢) ملك هذا الثائر الامر حيناً في بغداد ودعا فيها للفاطميين

المزيدية — في الحلة ٤٠٣ — ٥٤٥ وهم من بني اسد
العقيلية — في الموصل ٣٨٦ — ٤٨٩ دولة مضرية من كعب
المرداسية — في حلب ٤١٤ — ٤٧٢ وهي مضرية وامراؤها من بني كلاب

على ان اهم الدول العربية التي نشأت في اثناء العصر العباسي اثنتان الفاطمية والاندلسية واليك كلمة وجيزة في كل منها

الدولة الفاطمية (٢٩٦ — ٥٦٧)

وهي علوية اسماعيلية. بذلك يقول ابن خلدون[١]، وابن الاثير[٢]، وابن الطقطقى[٣] ويشك غيرهم في اصلها العلوي.

وكان بدء امرها في افريقيا ايام المقتدر العباسي، ثم انتقلت (في ٣٥٨ هـ) الى مصر وبقيت هناك حتى ازالها صلاح الدين الايوبي ٥٦٧ هـ. وهذه الدولة عظيمة الشأن، تختلف عن سواها من الدول التي نشأت ايام العباسيين انها قرنت الملك بالدين فنشأت خلافةً تزاحم الخلافة العباسية. وقد تبسّطت فاستولت على افريقيا ومصر وسوريا والحجاز وبعبارة ابن خلدون قاسمت العباسيين شقّ الأبلمة، ثم اخذت بالانحدار وما زالت كذلك حتى استولى صلاح الدين على مصر. فلما مات العاضد (آخر خلفائها) قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين وحوّلها الى العباسيين.

وللدولة الفاطمية يد على الادب العربي، فهم الذين انشأوا الجامع الازهر، وكانوا ينشطون العلماء والادباء بالعطف عليهم واقتناء المكاتب الكبرى وفتح ابوابها لهم

الدولة الاموية الاندلسية (١٣٨ — ٤٢٨)

تبدأ بعبد الرحمن الداخل (حفيد هشام بن عبد الملك بن مروان) الذي فرّ من وجه العباسيين الى افريقيا، ثم تمكّن من دخول الاندلس والاستيلاء عليها. وما زال الملوك من آله يتوارثون الحكم فيها حتى قام عبد الرحمن الناصر فبلغت به الدولة الاموية في الاندلس اوجها، وهو اول من طمع بالخلافة من امرائها فلقب بامير المؤمنين[٤]. قال مسكويه

---

(١) ابن خلدون ٤ — ٣١ (٢) ابن الاثير ٨ — ٨ (٣) الفخري ١٩٣
(٤) ابن خلدون ٤ — ١٢٢

فعل ذلك لما ضعف امر الامة ووهت اركان الدولة العباسية وتغلبت القرامطة والمبتدعة على الاقاليم.[١] وقد ازدهرت في ايامه الاندلس ايمّا ازدهار، وبقيت كذلك ايام ابنهِ المنتصر ثم اخذت دولة بني امية تضعف واخذ الفساد يستولي على امارتهم، فتجزأت واصابها ما اصاب الدولة العباسية من ضعف العرش واستبداد الامراء باماراتهم المختلفة. ولهذه الدولة تاريخ خاص خارج عن تاريخ الدولة العباسية وقد نشا فيها من الاداب والعلوم والفنون ما يقتضي سفراً خاصاً. وقد ذكرناها في عرض هذا البحث زيادة للايضاح وتتمة للكلام عن الدول العربية التي انفصلت عن الخلافة العباسية

***

ومن الامارات المشهورة التي كان لها شأن يذكر في الخلافة العباسية الدولة الكردية المعروفة بالايوبية (٥٦٤ — ٦٤٨) واشهر ملوكها مؤسسها السلطان صلاح الدين الذي اشتهر في وقائعه مع الصليبيين

تأثير هذا التجزؤ في الادب العربي

وكان من نشوء هذه الدول في العالم الاسلامي ان الادب تحول عن بغداد الى مراكز اخرى. فكان الخليفة الراضي الذي بويع ٣٢٢ هـ آخر خليفة دُوّن له شعر، وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجّابه تجري على قواعد الخلفاء المتقدمين[٢]. ومعنى ذلك ان العرش العباسي لم يعد الموئل الاكبر للادب والادباء، وانه نشأ في الامارات المستقلة حواضر زاحمت بغداد في الشعر والعلم: نذكر من ذلك بلاط سيف الدولة في حلب، وتلك الحلقة الادبية التي كانت تحيط بهِ مثل ابن خالويهِ وابن نباتة وابي فراس والمتنبيء والنامي والفارابي والسري الرفّاء والخالديين، وبلاط آل بويه ومن كان يتصل بهم كابن العميد والصابي والصاحب بن عباد، وامراء سامان وما كان لهم من عطف على العلم والعلماء.[٣] وقس على ذلك سائر الامارات في مصر والعراق والاندلس وفارس والمغرب، فان اللغة العربية ظلت الى ايام العثمانيين لغة الادب والدين والسياسة في اكثر الممالك الاسلامية. وكان الامراء من عرب وغير عرب يتنافسون في العطف على الادباء والعلماء وفي جمع الكتب

---

(١) تجارب الامم ج ٢ — ٦٠ (٢) الفخري ٢٠٦ (٣) المقدسي ٣٣٨

وخدمة العلم. واظهر من فعل ذلك من غير العرب الملوك الايوبيون في اماراتهم المختلفة[١].
وهذا التنافس على الادب يفسِّر لنا تلك الظاهرة التاريخية الغريبة — استمرار الادب العربي مع ضعف العرب وذهاب السيادة من ايديهم . واليك بعض امثلة من رجال العلم في ذلك العصر توضح لك ما نحن بصدده

ابن سينا الطبيب الفيلسوف توفي ٤٢٨ هـ. كان في بخارى في خدمة نوح بن منصور الساماني وفي خوارزم عند مامون بن مامون

البيروني — الفلكي المشهور توفي ٤٣٠ هـ. كان في الهند واقام مدة في خوارزم وقد قدم بعض كتبه للسلطان محمود الغزنوي

الجوهري — صاحب الصحاح توفي ٣٩٨ هـ. كان في نيسابور وقد الّف كتابه لابي منصور البشيكي

ابن فارس — اللغوي المشهور توفي ٣٩٠هـ. الف كتابه الصاحبي للصاحب ابن عباد

ابن دريد — صاحب الجمهرة والمقصورة توفي ٣٢١ هـ. صحب ابن ميكال امير فارس والف له بعض كتبه

المسعودي — المؤرخ المشهور توفي ٣٤٦هـ. نشأ في بغداد وطاف البلدان ثم استقر في مصر

مسكويه — المؤرخ والمفكر توفي ٤٣١ هـ. صحب ابن العميد وخدم بني بويه

ابن البيطار — النباتي المشهور وكان في خدمة الملك الكامل الايوبي

وامثال هؤلاء الاعلام كثيرون لا يتسع المقام لذكرهم . اما المدن التي شاركت بغداد او زاحمتها في الادب والعلم فنذكر منها — مصر وحلب ودمشق وقرطبة واشبيلية والقيروان وخوارزم ونيسابور وبخارى. ومن الامراء الذين اشتهروا بميلهم الى الادب وعطفهم على العلماء ركن الدولة البويهي ومنصور الساماني وشمس المعالي قابوس ومحمود الغزنوي والعزيز والحاكم الفاطميان وصلاح الدين الايوبي وغيرهم

الحركات الهدّامة الداخلية

كانت الدولة العباسية منذ نشأتها مرتعاً خصباً للثورات، وتاريخها وثيق الارتباط بها . وهذه الثورات تظهر في مظهرين كبيرين — حركات الخوارج والحركات العلوية

---

(١) زيدان — تاريخ اداب اللغة ٣ — ١١

حركات الخوارج

ويرجع تاريخها كما هو معروف الى ايام صفّين والتحكيم. من ذلك الحين ظهر الخوارج ونشأوا حزباً معادياً للخلافة فحاربوا الامام علياً بعد ان كانوا قبلاً من انصاره. ولهم مع الامويين وقائع مشهورة، وقد كانوا من اشد الاخطار على دولتهم حتى قهرهم الحجاج بن يوسف، والمهلّب ورجالهما، فضعف امرهم وتشتتوا في انحاء مختلفة. ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك حتى خلافة المنصور العباسي، ففي ايامه خرجوا في عمان بقيادة زعيمهم شيبان بن عبد العزيز ولكن المنصور ارسل اليهم جيشاً قوياً فهزمهم وفلّ جيوشهم

ولما كانت خلافة المعتمد — والعرش العباسي في حال اضطراب من جراء المستبدّين به — عادوا الى حركاتهم فخرجوا في ولاية الموصل بقيادة مساور بن عبدالله، وتمكنوا سنة ٢٥٥ﻫ من دخول الموصل والاستيلاء على كثير من انحاء العراق. وبلغ من امرهم ان زحفوا على بغداد نفسها، لكن جيوش الخليفة ردّتهم فتراجعوا، واقام مساور في الموصل حتى اغتيل سنة ٢٥٨ ﻫ ولم يبق للحركة الخارجية بعد ذلك من قوة سياسية في العراق. على انها بقيت في الجزيرة العربية وفي افريقيا تحت اسم الاباضية (وهي فرع منها) قوة لا يستهان بها. ثم اعتراهم الوهن فتضعضعت احوالهم، ولم يلبثوا ان انسحبوا من معترك الجهاد السياسي والحربي[١]

الحركات العلوية

وهي اما ثورات قام بها آل البيت انفسهم خروجاً على الخلافة القائمة او حركات هدامة مؤسسة على المبدأ العلوي. وقد بدأت الاولى (ثورات الائمة) منذ انتزع الامويون الملك من آل البيت، ومنها قيام الحسين الى الكوفة ومقتله في كربلاء، وما تبع ذلك من دعوات وثورات طيلة الحكم الاموي، كثورة المختار في العراق ثم الثورة الخراسانية، وكانت علوية في اول الامر ثم تحولت الى العباسيين.

ولما قام العباسيون وانفردوا بالملك دون العلويين رجع النزاع الى ما كان عليه بين الشيعة والخلفاء، فتحركت الشيعة حركات عدّها العباسيون عصياناً، كخروج النفس الزكية في المدينة ايام المنصور، وخروج يحيى بن عبدالله في الديلم ايام الرشيد، ويحيى بن عمر بن

---

(١) ومن اراد التوسع في حركات الخوارج فليراجع من المصادر العربية . ابن خلدون ج ٤ . ابن الاثير ج ٧ ص ٦١ و ٦٧ و ٧١ و ١٥٠ — ١٥٧ — خطط المقريزي ٢ — ٣٥٤ وسواها

يحيى في الكوفة ايام المستعين ، وظهور الكوكبي بقزوين وطرده آل طاهر[١] ، لكن الخلفاء تمكنوا من الثائرين وقتلوهم .

وفي بدء خلافة المامون (وذلك قبل ان يقدم من خراسان الى بغداد) كثرت حركات الشيعة حتى راى ان يعهد بالامر بعده لعلي الرضا[٢] ، ولكن استياء العباسيين وموت علي الرضا حالا دون ذلك . ثم كثر خروجهم في الحجاز واليمن والعراق وفارس وتتابعت دعاتهم .وهم ، ولئن لم يستطيعوا تقويض العرش العباسي ، فقد احدثوا فيه اضطراباً شديداً كان من جملة الاسباب التي ادت الى انحلال الدولة . ولا يخفى ان الخلافة الفاطمية التي ذكرناها آنفاً كانت من ثمار الحركات العلوية ومن اشدّ الضربات على الخلافة العباسية

***

اما الحركات الهدامة المؤسسة على المبدا العلوي فقد قامت بها هيئات منظمة احدثت تأثيراً كبيراً في المملكة العباسية ، واهمها حركات الزنج والقرامطة والحشاشين (الباطنية)

الزنج

حوالى منتصف القرن الثالث الهجري في ايام الخليفة المعتمد قام رجل اسمه علي بن محمد يدّعي النسب العلوي ، فاستمال اليه قلوب العبيد من الزنج بالبصرة ونواحيها وافسدهم على مواليهم حتى اجتمع اليه منهم ومن سواهم خلق كثيرون، وما لبث حتى عظم شانه واشتدت شوكته. واتفقت له حروب وغزوات نُصر بها، فتفاقم شره وانبثّ عسكره السودان في البلاد العراقية والبحرين والاهواز . وفي ٢٥٧ ﻫ اغاروا على مدينة البصرة فنهبوها واحرقوها واحدثوا فيها فظائع ذكرها ابن الرومي في قصيدة عصماء ستذكر في كلامنا عن هذا الشاعر . وكانت بينهم وبين جنود الخلافة حروب عظيمة دامت سنين كثيرة وذهب فيها الوف من القتلى ولكنها انتهت سنة ٢٧٠ ﻫ بقهرهم وتحرير البلاد من شرهم . وكان قائد العباسيين الاكبر في حروبهم الموفَّق اخا الخليفة المعتمد . ومن كبار رجاله موسى بن بغا ، وابرهيم بن المدبّر ، وابو العباس ابن الموفق ، وسواهم ممن يرد ذكرهم في مدائح الشعراء[٣]

---

(١) الطبري اخبار سنة ٢٥١ (٢) ابن خلدون ٤ — ٩

(٣) للتوسع في البحث راجع ابن الاثير ج ٧ و ٨ . ابن خلدون ٤ — ١٨ — ٢٢ . الفخري ١٨٥ الطبري في اخبار سنة ٢٥٥ و ٢٦٧ الخ

القرامطة

كان ابتداء ظهورهم سنة ٢٧٨ ﻫ بسواد الكوفة ، وقد قاموا يدعون لآل البيت . وقوي امرهم هناك ثم ظهر منهم سنة ٢٧٦ ﻫ جماعة من البحرين وعاثوا في البلاد ينوون البصرة . فحاربهم عمال العباسيين ولكن القرامطة انتصروا عليهم واستفحل امرهم في العراق ، فانضم اليه جموع من اعراب الشام وهاجموا دمشق . وكان بينهم وبين عامل الطولونيين فيها وقائع شتى ، وما زال امرهم يتعاظم ونفوذهم يتسع في العراق والشام والجزيرة العربية حتى امست طرق الحج بايديهم فصاروا يعتدون على الحجاج . وفي سنة ٣١٧ ﻫ دخلوا مكة فنهبوا اموال الحجاج وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ثم اقتلعوا الحجر الاسود من الكعبة وحملوه الى هجَر فبقي عندهم اثنتين وعشرين سنة . قال ابن الاثير فلما بلغ ذلك الخليفة الفاطمي المهدي كتب الى زعيمهم ابي طاهر ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة ويقول : قد حقَّقت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والالحاد بما فعلت ، وان لم تردَّ على اهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما اخذت منهم ، وترد الحجر الاسود الى مكانه ، وترد كسوة الكعبة فانا بريء منك في الدنيا والآخرة . فلما وصله هذا الكتاب اعاد الحجر الاسود واستعاد ما امكنه من الاموال

وبقي امرهم الشغل الشاغل لولاة الامر في بغداد اكثر القرن الرابع الهجري ، وانك لتعرف مبلغ ما احدثوه في نفوسهم من كتاب كتبه الصابئ عن لسان الخليفة [1] . ثم ضعف امرهم وتفرقوا في البلاد [2]

الحشاشون [3]

وهم من الباطنية . ظهروا اولاً في ساوه ايام ملكشاه السلجوقي فناضلهم اولو الامر لكنهم لم يستطيعوا قهرهم . فلما مات ملكشاه استفحل امرهم في اصبهان . وفي ٤٩٣ ﻫ استولى زعيمهم ومؤسس فرقتهم الحسن بن الصبَّاح على قلعة أَلَمُوت وهي من نواحي قزوين وجعلها مقر الحكم الاسماعيلي ، ومنها تصدر الاوامر الى كل النواحي وكان يدعو للخليفة

---

(١) راجع رسائله ٢٤٦ (٢) راجع اخبارهم في — ابن الاثير ج ٧ و ٨ و ٩ ابن خلدون ٤ — ٨٨، ٣٠٩ — ٤٥٩ تجارب الامم III ص ١٠٩ و ١١٠ — الطبري اخبار سنة ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ (٣) عن ابن الاثير وابن خلدون وابي الفداء

الفاطمي بمصر . وفي ٤٩٨ ﻫ ظهر امرهم في الشام فتملكوا حصن افامية وقطعوا الطرق . واخذت شوكتهم تتعاظم حتى كانت ٥٢٠ ﻫ فاستولوا على بانياس ثم على اماكن اخرى ، وكان بطشهم شديداً في المسلمين والافرنج الصليبيين ، وكان دأبهم اغتيال الامراء والزعماء . ومما يدلك على شدة شكيمتهم ان صلاح الدين الايوبي حاربهم في الشام ثم رأى ان يصالحهم وقد ظلوا اصحاب قوة وبطش وظلَّ نفوذهم عظيماً من تركستان الى البحر المتوسط حتى اواخر الدولة العباسية وقيام دولة التتر ، فهاجمهم هولاكو في العراق وخرَّب قلاعهم واغار عليهم في الشام الملك الظاهر ملك مصر . وهكذا خُضدت شوكتهم وتشتتوا شراذم في الاقطار الاسلامية ، وذلك بعد ان اضطربت لهم ملوك المسلمين والصليبيين نحواً من قرنٍ ونصف .

والباطنية التي ينتمي اليها الحشاشون تعضد المذهب الشيعي فكانت لذلك من اكبر انصار الدولة الفاطمية ، ومن افعل العوامل دينياً وسياسياً في تقويض سلطة الدولة العباسية

العوامل الهدَّامة الخارجية ومنها غارات الروم

كانت بلدان الشرق الادنى المتاخمة لبحر الروم قبل الفتح الاسلامي جزءاً من مملكة الرومان الشرقية (البيزانطية) . فلما حدث الفتح الاسلامي تقلَّص ظلّ الروم امام العرب الفاتحين . فاحتل العرب مصر وسوريا وانتزعوا جزءاً من الاناضول وبقي اكثره تابعاً للروم لان العرب لم يستقروا هناك . ولمتاخمة الاناضول لسوريا والجزيرة العراقية نشأ بين الفريقين منذ المئة الاولى الهجرية حروب متواصلة كان النصر فيها سجالاً . ففي ايام معاوية مثلاً توغلت جيوش العرب حتى القسطنطينية ثم تراجعت [١] ، واضطر معاوية سنة ٣٢ ﻫ ان يصالحهم على مئة الف [٢] . وفي ايام عبد الملك هجم الروم على سوريا فبلغوا حماه وقنسرين والعواصم ثم هاجموا السواحل حتى خضع لهم قسم من الجبل . قال البلاذري وصالح عبد الملك الروم ، بعد موت ابيه وطلبه الخلافة ، على شيء كان يؤديه اليهم [٣] . وفي ايام سليمان بن عبد الملك عاد العرب فهاجموا القسطنطينية [٤] . وبقي الحال على هذا المنوال بين الروم والمسلمين اكثر ايام العباسيين . ولا يتسع المقام هنا لذكر الوقائع او لتعداد المدن والحصون التي كانت تتداولها

---

(١) الطبري ٥ — ٢٨٨٨ ابن خلدون ٢ — ٢٢٨ (٢) اليعقوبي ج٢ ص٢٥٧—٢٥٨
(٣) فتوح البلدان ١٨٨ (٤) ابن الاثير في حوادث سنة ٩٨

ايدي الفريقين. على انه لا بد من القول انه كان لهذه الحروب اثر كبير في الادب العربي. يكفي ان نشير هنا الى ما سنذكره من روائع ابي تمام والبحتري والمتنبي في انتصارات المعتصم والمتوكل وسيف الدولة . ولم تنج الممالك الاسلامية من خطر الروم الذين كانوا يواصلون الغارات من الشمال حتى استقر الاتراك في الاناضول وحالوا دون تقدم الروم نحو الجنوب

(٢) **غارات الصليبيين**

وبينما كان الروم يتهددون الدولة العباسية من الشمال الغربي ، وكان السلاجقة يوطّدون نفوذهم في عاصمتها ، اتفق الافرنج على اكتساح الشام وما اليها بحجة انتزاع بيت المقدس من ايدي المسلمين. وهكذا بدأت الحروب الصليبية واخذ الاوروبيون يواصلون الغارات على الانحاء الساحلية من سوريا وفلسطين ومصر

***

ويمتد عصر الحملات الصليبية من ١٠٩٦ م — ١٢٩١م— وقد كانت الخلافة العباسية في اوائله متفككة العرى ، والفاطميون في مصر يتربّصون الفرص للايقاع بها ، وكانت سوريا— المعترك العام يومئذ— قد خرجت من حكم الدولة السلجوقية الرئيسية واصبحت امارات يتنازعها اتابكهم وخلفاء مصر . فاغتنم الافرنج تلك الفرصة ، وغزوها اولاً عن طريق الروم ، ثم عن طريق البحر ،ولم يعتموا ان احتلوا القدس واسسوا فيها مملكة لاتينية بقيت نحو قرن ونصف (١١٠٠م—١٢٤٣م) . ولم يكتفوا بذلك بل مدوا نفوذهم على القسم الغربي من سوريا الى ما وراء انطاكية ، فاسسوا الامارات المختلفة وابتنوا القلاع الحصينة ، ساعدهم على ذلك تنازع الحكام في البلاد وضعف الخلفاء في بغداد والقاهرة . ولكن الصليبيين كانوا من عناصر وبلدان شتى ،فنشبت بينهم منازعات كثيرة ادت اخيراً الى فشلهم وخروجهم من البلاد[١] .

وممن كان له اليد الطولى في خضد شوكة الافرنج صلاح الدين الايوبي ملك مصر واخوه الملك العادل ، ووقائعهما مع الصليبيين في مصر والشام مشهورة . ولصلاح الدين وآله في الادب العربي اثر كبير يظهر في المدائح التي نالوها من شعراء زمانهم . نذكر منهم ابن الساعاتي[٢] وابن النبيه وابن قلاقس وابن مفرج النابلسي وابن التعاويذي وقد ذكره ابن

(١) قال ابن الجوزي في مرآة الزمان ج ٨ ص ٢٤٨ سنة ٥٨٢ وفيها ظهر الخلاف بين الفرنج وتفرقت كلمتهم وكان لسعادة الاسلام (٢) لم ينشر ديوانه ولدينا منهُ نسخة خطية ستنشر في حينها

خلكان ذكراً خاصاً في سيرة صلاح الدين وذكر بعض مدائحه. ناهيك بالرسائل التي كان يتبارى بها منشئو ذلك الزمان وعلى رأسهم القاضي الفاضل وعماد الدين الاصفهاني[١].

وبرغم ما كان بين الشرق والغرب في خلال تلك الحروب من العداء المستحر والنزاع المستمر، خرج الفريقان من صهيرها بفوائد اجتماعية ادبية عظيمة. وربما كانت فائدة الغربيين اعظم، فانهم رجعوا عن الشرق العربي وقد اقتبسوا من حضارته يومئذ ما كان له اثر كبير في حياتهم الاجتماعية

والخلاصة

ان الدولة العباسية لم يكد يمضي عهد خلفائها الثانية الاول حتى ظهرت فيها عوامل الفساد التي ادت الى انحلالها. وهذه العوامل داخلية وخارجية — فالداخلية (١) ضعف السلطة المركزية لتسلط المستبدين بها من عجم واتراك (٢) استقلال الامارات المختلفة وتنازعها (٣) عوامل الفتن والثورات من خوارج وعلوية

والخارجية — غارات التتر من الشرق، وغارات الروم والصليبيين[٢] من الغرب. وهناك عوامل اخرى يرجع فيها الى المطولات التاريخية

---

(١) راجع اخبار صلاح الدين في مرآة الزمان للجوزي ج ٨ ص ٢٧٠—٢٨٠ في اخبار سنة ٥٨٩ وراجع الكلام على الرسائل في تطور الاساليب النثرية للمؤلف

(٢) من اراد التوسع في الحروب الصليبية فليراجع من بين المصادر الكثيرة
مرآة الزمان للجوزي ج ٨
ما ورد في الجزء الخامس من ابن خلدون
اخبار الصليبيين في دوائر المعارف ولا سيما البريطانية
كتاب The Crusaders in the East للمؤرخ ستيفنسن (Stevenson)
كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ
رسائل الكتاب ايام صلاح الدين في صبح الاعشى

تطور الحياة الاجتماعية

في العصر العباسي

الحضارة في فجر الاسلام

من المعلوم ان بلاد العرب لم تكن في زمن الجاهلية خلواً من حضارة ما. وفي القرآن الذي هو نص تاريخي صادق نجد الدليل على ذلك في ذكر المتاجر البرية والبحرية والشركات والاحتكار والشورى والصنائع والكتابة والملاهي والنقود وبعض المعارف. فاذا اضفت ذلك الى ما نقله المؤرخون من اخبار اليمن وقريش والامارات العربيـة القديمة في العراق وحوران وتدمر وسواها، عرفت انه كان للعرب قبل الاسلام اتصال بالعمران السائد يومئذ. فلما جاء الاسلام وحدثت الفتوح ازداد هذا الاتصال وتنظَّم، وكان له بعد ذلك آثاره المعروفة. بيد ان الروح الدينية كانت في فجر الاسلام قوية جداً، فوقفت بهم قليلاً عن الاخذ باسباب الرخاء الحضري، وكان لها اثر بيّن في تنظيم حكومتهم الاولى. حتى كان بعض امرائهم الاوَل يسلكون مسلك التقشُّف ويشددون في تنفيذ احكام الدين: يلبسون الخَلَق المرقَّع من الاثواب ويتجافون عن اطايب الطعام ويسيرون في الاسواق كعامة الناس. والشواهد على ذلك من اقوال المؤرخين كثيرة متعارفة لا يسعها هذا المقام[1]. نكتفي منها بمثالٍ رواه لنا الطبري عن عمر قال — ان سلمة بن قيس بعث برسولٍ الى عمر ينبئه بفتح بلاد الاكراد ويحمل اليه حلى وجواهر. قال الرسول فاتيت امير المؤمنين وهو يغذّي الناس متكئاً على عصاً كما يصنع الراعي، وهو يدور على القصاع ويقول يا يرفأُ زدْ هؤلاء لحماً، زد هؤلاء خبزاً، زد هؤلاء مرقة. فاذا طعام فيه خشونة. ثم اتَّبعته الى داره فاذا هو جالس على مسح، متّكىء على وسادتين من ادم محشوَّتين ليفاً. فنبذ اليَّ احداهما. فجلست عليها، واذا بهو في صفَّة فيها بيت عليه ستر. فقال يا ام كلثوم (زوجة عمر) غـداءَنا.

---

(١) راجع وصف حالهم في مقدمة ابن خلدون ٢٠٤ والفخري ٥٢

فاخرجت اليه خبزة بزيت في عرضها ملح لم يدقّ — الى آخر الحديث[١]

على ان هذا التحرج كان على اشده في خلافة عمر . ذكروا انهم استأذنوه في بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل، فقال افعلوا ولا يزيدنّ احدكم على ثلاثة ابيات، ولا تطالوا في البنيان والزموا السُّنّة[٢]. وماذا يراد بالسنة هنا غير ما عهدوه من مقتضيات التقشف اتّباعاً لاحكام الدين ؟ وتأييداً لذلك نقل العلماء الاول كمالك وابن حنبل وابن سعد وسواهم كثيراً من الاحاديث النبوية التي تحض على البساطة والتقشف . فلما جاء عهد عثمان اخذوا يتساهلون في ذلك فقد روى المسعودي ان الصحابة ايام عثمان اقتنوا الضياع والمال وابتنوا الدور ذات الشرفات[٣]. ولما حدثت الفتنة على ذلك الخليفة اراد خصومه ان يستغلوا هذا التساهل العمراني فذكروا من جملة ما نقموه عليه بناء الدار[٤]. وقد فسر ذلك المستشرق كاسانوفا بقوله « ان القوم الذين نشأ فيهم عثمان (اي الامويين) كانوا اقل اهتماماً بامور الدين والآخرة منهم بامور الدنيا، فكان همهم الفتح وجمع المال»[٥]. ولعل الاصوب ان نقول ان التحرج الديني ضد الحضارة والرفاهة امر غير طبيعي فلا يلبث ان يزول. وهكذا كان بعد الحكم العمري، برغم ان بعض الصحابة والتابعين ظلوا على سنّة عمر

الدولة الاموية

ولما انتقل مركز الخلافة الى الشام خطا العرب الى الامام في سبيل الحضارة السياسية والاجتماعية. « وكان معاوية مؤسس الدولة الاموية اول من اقام الحرس والشُرط والبوّابين في الاسلام، وارخى الستور، ومُشي بين يديه بالحراب، وجلس على السرير والناس تحته »[٦]. وقد ظهر على معاوية الميل الى محاكاة الاعاجم في ابّهتهم منذ كان عاملاً على الشام. ذكر ابن خلدون انه لما لقي معاوية عمر بن الخطاب عند قدومه الى الشام في ابهة الملك وزيّه من العديد والعدة استنكر ذلك وقال اكسرويّة يا معاوية ؟ فقال يا امير المؤمنين انّا في ثغر تجاه

---

(١) الطبري (ليدن) جم١ — ٢٧١٦ (٢) مقدمة ابن خلدون ٣٥٨
(٣) مقدمة ابن خلدون ٣٥٨ (٤) اليعقوبي ٢ — ٢٠٢
(٥) Moh. et la fin du monde 58 (٦) اليعقوبي ٢—٢٧١ الفخري ٧٨

العدو ، وبنا الى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة[١] .

وبعد ان كانوا في المدينة لعهدهم الاول يحسبون التجافي عن الرفه والرخاء واجباً دينياً صاروا لما استقر ملكهم في الشام يتأنقون في اسباب الحياة الحضرية ، فلبسوا الحلل المزركشة ، واقاموا الابنية الفاخرة ، وانصرفوا الا قلائل منهم الى الملاهي . ولم ينحصر ذلك في دمشق بل نراه في كثير من الحواضر كالكوفة والبصرة والمدينة ومكة . ومن البديهي ان يقبل الخاصة ومن يليهم من العامة على ما يقبل عليه امراؤهم ، حتى ان بعض ابناء الصحابة الاول واحفادهم اصبحوا من اكثر الناس استمتاعاً بالملاهي .

ومن امثلة ذلك عبدالله بن جعفر بن ابي طالب فقد تشاغل بالغناء والجواري حتى عيب عليه سعيه في هدم مروّته[٢] . ومنهم الوليد بن عقبة اخو عثمان بن عفان فقد شهد عليه اهل الكوفة انه صلّى بهم الصبح ثلاث ركعات وهو سكران[٣] ، وعبدالله بن عمر بن الخطاب حدّه عمرو بن العاص بمصر لشرب الخمر . ومنهم الوليد بن عثمان بن عفان[٤] ، وحفيده العرجي الشاعر ، وابن ابي عتيق حفيد ابي بكر ، وغيرهم من ابناء الصحابة الذين اقتضت السياسة الاموية منعهم من الاشتغال بالسياسة فاندفعوا في سبل اللهو والمجون . وصار اللهو الشغل الشاغل لبعض المترفين حتى في مناسك الحج[٥] . وهذا الاقبال من الامراء ومن دونهم على الدنيا كان له بلا شك تأثير كبير في تنشيط الصناعة والتجارة والادب ، فاقبل على دمشق وسائر الحواضر العربية عدد من الصناع والمغنين والجواري والشعراء مما زاد حركة العوامل واحدث فيها حالة اجتماعية لم يعهدها الراشدون .

ومع كل ذلك بقيت للبداوة نزعة في نفوس الامويين . فلم يكن امراؤهم برغم سياستهم التي كانت ترمي الى تعظيم البيت الاموي يترفعون عن معاشرة رعاياهم ومخالطتهم والسماح لهم بالكلام عندهم . فقد نقل عن الوليد بن يزيد والغمر اخيه انهما لما مات معبد (المغنى المشهور) مشيا بين يدي سريره حتى اخرج من دار الوليد[٦] . وكان عبد الملك اول خليفة منع الناس من الكلام عند الخلفاء وتقدم فيه وتوعد عليه[٧] . ولا غرابة فقد كان بعضهم يكلمه بما لا يُكلَّم به الملوك ، كما روى الجاحظ عن رجل من بني مخزوم وكان زبيرياً ، قال دخل على عبد الملك فقال له عبد الملك اليس قد ردّك الله على

---

(١) المقدمة ٢٠٣ (٢) العقد ٢–١٥٢ والمبرّد ١–٣٩٢ (٣) العقد ٤–٣٢٧ . نهاية الارب ٤ – ٨٩ (٤) الاغاني ٤–١٨٦ (٥) المبرّد ١ – ٣٩٣ (٦) الاغاني (دار الكتب) ١–٣٧ (٧) البيان والتبيين ٢–١٢ والفخري ٨٩

عقبيك ؟ فقال أوَمن رُدَّ اليك فقد رد على عقبه ؟ فاستحى وعلم انه قد اساء[١] . ودخل كثيّر على يزيد بن عبد الملك يسأله عن معنى بيت للشماخ فاستحمقهُ واخرجه[٢] . ويثبت ذلك انهم كانوا حتى ايام الوليد يسمون خلفاءهم باسمائهم . قال اليعقوبي كان الوليد يقول لا ينبغي لخليفة ان يناشد ولا يكذَّب ولا يسميه احد باسمه ، وعاقب على ذلك[٣] . وعن ابن خلدون انهم تجافوا عن القاب التعظيم مع الغضاضة والسذاجة لان العروبة في منازعها لم تفارقهم حينئذ ، ولم يتحول عنهم شعار البداوة الى شعار الحضارة[٤] ، وقال كانت اعطيتهم اكثرها الابل اخذاً بمذاهب العرب وبداوتهم ، ومثلهم كان عمالهم .

وقد نقل ابن خلدون حديث الحجاج ووليمته في اختتان بعض ولده ، قال فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس ، فقال شهدت بعض مرازبة كسرى وقد صنع لاهل فارس صنيعاً احضر فيه صحاف الذهب على اخونة الفضة ، اربعاً على كل واحد ، تحمله اربع وصائف ، ويجلس عليهِ اربعة من الناس ، فاذا اطعموا أُتبعوا اربعتهم المائدة بصحافها ووصفائها . فقال الحجاج وقد علم انه لا يستقلُ بهذه الابهة يا غلام انحر الجزر[٥] . ويظهر مما ذكره في موضع آخر ان نظامهم الحربي ظل بدوياً فكانت اسفارهم لحروبهم وغزواتهم بظعونهم وسائر حللهم واحيائهم من الاهل والولد[٦] . ومع ما درَّته الفتوح عليهم من المال وما مهَّدت لهم من سبل الحضارة لم يخرجوا خروجاً تاماً عن منازع البادية في حياتهم . الاَّ انهم توسعوا كثيراً في الملاهي فتنظمت في الامصار المختلفة حركة الغناء واللعب على الالات ونشأت في المدن المختلفة ولا سيما مدن الحجاز مجالس خاصة وحلقات خاصة من مغنين ومغنيات اتخذت الغناء مهنة ترتزق بها . وقد بلغ ذلك منهم حتى صار فيهم دور خاصة للملاهي والمطالعة . جاء في كتاب الاغاني ان عبد الحكم بن عمرو الجُمحي اتخذ بيتاً في المدينة فجعل فيه شطرنجات ونردات وقرقات ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل في الجدار اوتاداً فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ، ثم جرّ دفتراً فقرأه او بعض ما يلعب به ، فلعب به مع بعضهم[٧] . واذا قابلت ذلك بما كانت عليهِ المدينة ايام ابي بكر وعمر مثلا تجد فرقاً كبيراً في اتجاه الافكار نحو الملاهي

---

(١) البيان والتبيين ١ — ١٨٢ (٢) البيان والتبيين (س) ٢ — ١٩٦
(٣) اليعقوبي ٢ — ٣٤٨ (٤) المقدمة ٢٢٨ (٥) البيان والتبيين (س) ٢ — ١٩٢
(٦) المقدمة ٢٦٨ (٧) الاغاني (بولاق) ج ١٤ — ٥٢

اما في دمشق — عاصمة الدولة يومئذ — فقد كان الخلفاء انفسهم الا القليل منهم ينشطون هذه الحركة. وكان يزيد بن معاوية اول من سن الملاهي في الاسلام من الخلفاء وآوى المغنين وشرب الخمر[١]. واشهرهم في ذلك سليمان بن عبد الملك[٢]، ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد. وفي ايامهم كثرت الملاهي. ولم تنحصر في الخاصة بل تعدتها الى العامة، فنشأت طبقة من المتخصصين في صناعة الطرب كان لهم اتباع يدربونهم على الغناء والالات تدريباً فنياً، وظهر في الحجاز جماعة من المغنين بلغوا من الشهرة مبلغاً عظيماً — منهم :

ابن مِسَجح — (مكي) وابن مُحرز (مكي) وطُويس (مدني) وابن سُريج (مكي) ومعبد (مدني) وجميلة (وكانت معلمة القينات في المدينة) وعَزة الميلاء وحُنين والغريض واضرابهم ممن تجد اخبارهم بالتفصيل في كتب الادب[٣]

وقد رافق تقدم الغناء في هذا العصر تقدم الشعر الغزلي، ولا غرو فهما ربيبا عاطفة واحدة. ومن الشعراء الذين عرفوا بالغزل والتشبيب وما الى ذلك من لهو ومجون

الاحوص وهو مدني من الاوس

يزيد بن الطثرية وهو شاعر بدوي

نُصيب مولى عبد العزيز بن مروان وقد اشتهر ايضاً بالغناء

عمر بن ابي ربيعة وهو مشهور واختص شعره بوصف النساء وحاله معهن

العرجي وقد مرّ ذكره وكان شغوفاً باللهو والصيد والتشبيب

ومن طبقتهم كثيرون لا يتسع لهم المقام[٤]

***

ومن مظاهر التطور الاجتماعي ايام الامويين نشوء دور التعليم وازدياد عدد المتعلمين. فقد كان العرب في اول امرهم اميين، الا افراداً قلائل بلغوا في الحجاز اول الدعوة الاسلامية سبعة عشر شخصاً[٥]. ثم اخذ عدد القراء والكتبة يتزايد : قال ابن خلدون « لما جاء الملك للعرب وفتحوا الامصار وملكوا الممالك ونزلوا الكوفة والبصرة واحتاجت

---

(١) الاغاني ١٦—٧٠ (٢) المستطرف ٢ — ١٨٨

(٣) راجع كتاب الاغاني ج ١—١٥٢ ج ٣—٨٤ ج٧—١٤٤ واماكن اخرى فيه. ونهاية الارب للنويري ج ٤ ص ٢٣٢ — ٢٩٠ . والكامل ج ١—٣٩٤

(٤) وتجد اخبارهم في الاغاني والشعر والشعراء ووفيات الاعيان وسواها

(٥) البلاذري ٣٧١

الدولة الى الكتابة، استعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلمه وتداولوه، فترقت الاجادة فيه[١]

وطبيعي ان تتقدم القراءة والكتابة، وان ينشأ في مساجد الحواضر حلقات تعليمية ويكون فيهم معلمون لصبيانهم . وقد ورد ذكر معلم الكتّاب في شعر جرير اذ قال — « هذي دواة معلم الكتَّاب ». وفي اخبار الوليد بن عبد الملك انهُ مرَّ بمعلم صبيان يعلّم جارية الخ.[٢]

وذكر الجاحظ امثال الناس عن المعلمين . وفي دفاعه عنهم جعلهم ثلاث طبقات — مؤدبي اولاد الملوك — ومؤدبي الخاصة — ومعلمي كتاتيب القرى. وذكر بضعة من كبار المؤدبين في العصر الاموي مثل الجهني والشعبي وعبد الصمد الاعلى وكميت بن زيد وقيس بن سعد وعطاء بن ابي رباح وعبد الحميد الكاتب والحجاج بن يوسف، يوم كان يعلم في الطائف[٣] . وبعبارة اخرى فرق بين الاساتذة المؤَدبين وبين معلمي الكتاتيب الذين لم يبلغوا مكانة في العلم والتأديب . وقال ان امثال العامة قد تصدق على بعض هؤلاء لاعلى الطبقة الاولى التي ينتمي اليها كبار العلماء والفقهاء وقادة الافكار

وقد نقل ابن قتيبة وصايا بعضهم لمعلمي العصر الاموي فلتراجع[٤]

ويدلك على انتشار التعليم في هذا العصر نشاط حركة النسخ والتدوين : ذكروا انهُ في معركة صفِين رفعت نحو خمسمئة نسخة من القرآن[٥]. ومع انه لم يصلنا شيء يذكر مما دوّن في هذا العصر فلا شك ان التدوين سابق للعصر العباسي. ومن ادلة ذلك نقلهم الدواوين الاميرية الى اللغة العربية . ويحدثنا اليعقوبي ان زياد ابن ابيه كان اول من دون الدواوين ووضع النسخ للكتب[٦]

وفي هذا العصر بدأت حركة النقل والترجمة واول من فعل ذلك خالد بن يزيد. ففي الفهرست نقل له الكيمياء رجل اسمه اسطفان[٧]. ويقول ابن النديم ان سالماً كاتب هشام نقل بعض رسائل ارسطو وذكر كتباً في مواضيع مختلفة دوّنت في هذا العصر

فما مرّ نستنتج ان احتكاك العرب بسواهم احدث فيهم ميلًا الى الاخذ عنهم، فزاد

---

(١) المقدمة (بيروت) ٤٢٠ (٢) البيان والتبيين ٢—١٦٤
(٣) البيان والتبيين ١—١٠١ (٤) عيون الاخبار (دار الكتب المصرية) مج ٢—١٦٦
(٥) المسعودي ٤—٣٧٨ (٦) اليعقوبي ٢—٢٧٩ (٧) الفهرست (ل ٢٤٢ و ٢٤٤

فيهم عدد المتعلمين وكثر الاقبال على القراءة والكتابة ، واصبح في كثير من المساجد مراكز تعليمية للعلوم اللسانية والدينية

على ان المدارس لم تكن قد تنظمت تماماً وذلك

١ لعدم توفر الادوات الكتابية واتقانها

٢ لقصر مدة الامويين ولانشغالهم بالحروب والفتن

***

وبقي الامر كذلك حتى قام العباسيون وانتقلوا الى بغداد ، ثم انصرفوا الى العلوم والمدارس ، فتنظمت اسباب التعليم والتدوين والتصنيف ، وحدثت تلك الحركة الفكرية المشهورة

فالعصر الاموي عصر انتقال اجتماعي تطورت فيهِ نوعاً عادات العرب ومعارفهم ودخل اللغة كثير من المصطلحات الادارية والاجتماعية والعلمية التي لم يكن للجاهلية عهد بها(١)

حضارة العصر العباسي

في هذا العصر بلغ التطور الاجتماعي اوجه ويظهر ذلك في ما يلي :

١ — نشوء قومية عربية جديدة

٢ — عمران بغداد وسواها من الحواضر

٣ — اتساع الثروة وترف الخاصة

٤ — النهضة الفكرية العامة

ولنشرح كلاً من هذه الظواهر الاجتماعية ببعض التفصيل

نشوء قومية عربية جديدة

واساس هذا النشوء (١) انتشار العرب في الامصار بعد الفتح (٢) امتزاجهم عن سبيل الزواج بعناصر اخرى (٣) تعرب الامم المغلوبة

خرج العرب من الجزيرة العربية فاتحين فانتشروا في الاقطار التي افتتحوها كالعراق

---

(١) راجع امثلة ذلك في تاريخ اللغة العربية لزيدان ص ٢٠–٣٠

وفارس والشام ومصر وافريقيا والاندلس وانشأوا فيها مستعمرات خاصة صارت بعدئذ مدناً عامرة كالبصرة والكوفة وواسط والانبار وبغداد والقاهرة والقيروان وسواها . وكانوا في اول امرهم يرحلون في اثر الفتوح قبائل وعشائر فيقيمون في الامصار ويتحضرون. والظاهر ان هذه الهجرة الى الامصار المغلوبة كانت من سياسة القادة والامراء . فقد ذكر البلاذري مثلًا ان ابا عبيدة رتب ببالس (بناحية حلب) جماعة من المقاتلة واسكنها قوماً من العرب الذين كانوا بالشام فاسلموا بعد قدوم المسلمين ، وقوماً لم يكونوا من البعوث نزعوا من البوادي من قيس [١] . وذكر ان مسلمة بن عبد الملك اسكن مدينة الباب في الخزر اربعة وعشرين الفاً من اهل الشام [٢] ، وان هرثمة اختط الموصل واسكنها العرب [٣] . وقال المقدسي كانت تدعى اولا خولان حتى وصل بها العرب عمارتهم ومصّروها [٤] . وقد سبق هذه الهجرات الاسلامية الاولى الى الامصار المجاورة لبلاد العرب هجرات قديمة يدلنا على ذلك انهُ قبل الاسلام وجدت امارات وقبائـل عربية في العراق وسوريا وفلسطين كاللخميين والغساسنة والتدمريين والانباط وسواهم . وكثير من هؤلاء القبائل تحضَّر واصطبغ بصبغة البلاد الدينية والاجتماعية

واستمر الامر على ذلك شطراً من الدولة العباسية . فقد بنى المنصور ملطية من ثغور الروم (وكان قد رتب فيها معاوية رابطة من المسلمين ثم خربت) ، واسكن فيها اربعين الف مقاتل من اهل الجزيرة [٥] . وفي ايام المهدي غزا الحسن بن قحطبة بلاد الروم بجيش مؤلف من اهل خراسان والموصل والشام وامداد اليمن ومطوعـة العراق والحجاز وبنى طرطوس (وكانت قد خربت) ومصّرها [٦] . ومما يشعر بسياسة التمصير هذه انه لما اراد المامون غزو الروم قال اوجّـه الى العرب فآتي بهم من البوادي ، ثم انزلهم كل مدينة افتتحها حتى اضرب القسطنطينية . على ان الاجل لم يمهله ان يتم هذا الفتح [٧] .

ومن ذلك تحرُّك العصبيات في الامصار المختلفة كربيعة ومضر ايام الوليد في خراسان ، والقيسية واليمانية ايام المامون في مصر ، ولخم وجذام سنة ٢٥٧ هـ [٨] في فلسطين . ناهيك بمن كان قد رحل من العرب الى افريقيا والاندلس .

---

(١) البلاذري ١٥٠ (٢) البلاذري ٢٠٧ (٣) البلاذري ٣٣٣
(٤) احسن التقاسيم ١٣٩ (٥) البلاذري ١٨٧ (٦) البلاذري ١٦٩
(٧) اليعقوبي ٢—٥٧٣ (٨) راجع اليعقوبي ٢ و ٣٩٩ و ٥٦٧ و ٦٢٣

والى انتشار العرب بعد الفتوح واستقرارهم في الامصاريشير ابن خلدون في قوله — « وكان قد وقع في صدر الاسلام الانتماء الى المواطن فيقال جند قنَّسرين وجند دمشق وجند العواصم، وانتقل ذلك الى الاندلس. ولم يكن لاطّراح العرب امر النسب، وانما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها وصارت لهم علامةً زايدة على النسب. ثم وقع الاختلاط في الحواضر مع العجم وغيرهم وفسدت الانساب بالجملة وفقدت ثمرتها من العصبية فاطُّرحت، ثم تلاشت القبائل ودثرت العصبية بدثورها وبقي ذلك في البدو كما كان »[1]

واذا نظرت الى هذا الامتزاج من جهة اخرى تجد ان الجزيرة العربية لم تكن مركز الملك العربي الاَّ نحواً من ربع قرن. ثم تحول الامر الى دمشق فبغداد ونشأت على اثر ضعف الخلافة في بغداد حواضر لامارات مستقلة. ومعنى ذلك من الوجهة الاجتماعية ان العنصر العربي الفاتح استقر قسم كبير منه بعد الفتح خارج الجزيرة حتى قدَّر بعضهم من دخل سوريا منه بنحو ربع مليون[2]. ولا نستطيع ان نجزم بصحة هذا العدد ولكننا لا نشك ان الفتح سهَّل للعرب الانتشار والاستقرار في البلاد التي افتتحوها ولا يعقل ان يحدث ذلك دون امتزاج او احتكاك قوي بالامم الاخرى. ففي الشام كان الروم والسريان واليهود، وفي العراق الاراميون والفرس، وفي مصر الاقباط، وسواهم في سوى ذلك. وقد اتصل العرب بهذه الامم اتصالاً وثيقاً واختمروا بثقافتهم وحياتهم الاجتماعية. وكان اكثر امتزاجهم بالفرس، اولاً لاسراع هؤلاء باعتناق الاسلام، وثانياً لما كان لهم من التأثير السياسي بعد ان اصبحت بغداد عاصمة الخلافة

واذا تحريت ذلك من الوجهة اللغوية يتضح لك وجه الامتزاج — فان اكثر الالفاظ المقتبسة اما يونانية او فارسية. على ان اليونانية راجعةٌ بالاكثر الى حياة اليونان العلمية والفلسفية دلالة على ان الامتزاج كان عن هذا السبيل[3]. اما الالفاظ الفارسية فمعظمها اجتماعي — وقد تحرَّينا اكثر من مئة لفظة فارسية الاصل فوجدنا معظمها من باب المآكل والمشرب والملبس والمفرش والملهى، ومن الادوات المنزلية والصناعية وما الى ذلك، مما يدل على شدة تأثرهم من حياة الفرس الاجتماعية[3]

---

(١) المقدمة ١٣ (٢) la Syrie - Lammens 119—210

(٣) تجد كثيراً من هذه الالفاظ في الكتب الطبية والعلمية لذلك العهد (٣) راجع المقتبسات الاعجمية في شفاء الغليل للخفاجي وفي المعرَّب للجواليقي والالفاظ المعرَّبة لادّي شير وسواها

واذا نظرت الى البلدان العربية اليوم وجدت في الفاظها المعربة الحديثة قياساً منطقياً لما حدث في الماضي. فاكثر الفاظها العلمية مقتبسة عن لغات اوروبا الحديثة. اما الاجتماعية ففي العراق تكثر منها المقتبسات الفارسية والتركية، وفي سوريا الايطالية والافرنسية، وفي مصر التركية والاوروبية . وما وجود هذه الالفاظ الأ دلالة على احتكاك سكانها بالامم التي اقتبسوا عنها. وذلك ما حدث للدولة العربية في بغداد وسواها . وهذا الامتزاج اللغوي الاجتماعي طبيعي بين الشعوب تتبادل فيه الالفاظ كما تتبادل السلع . فكما ان العرب اخذوا اولاً عن الفرس والروم والسريان والاقباط الذين استقروا بينهم كثيراً من الفاظهم ومصطلحاتهم، عاد هؤلاء فاخذوا من العربية ما لا يمكن حصره هنا، ولا سيما الفرس الذين اصبحت لغتهم مزيجاً من الفارسية القديمة والعربية . وكذلك اخذ غيرهم كالاتراك والاسبان . وكل ذلك دليل على تبادل اسباب الحياة الاجتماعية. ويكون الاقتباس عموماً على احد سبيلين

(١) الامم المغلوبة من الامم الغالبة

(٢) اللغات المتأخرة في نوع من انواع الحضارة من اللغات المتقدمة فيه

الامتزاج بالزواج

ولم تقف عملية المزج في الاقطار الاسلامية عند هذا الحد، بل تعدتها الى ما هو اعمق فقد اختلط الجنس العربي بسواه عن سبيل الزواج : اختلط اولاً بالامم التي اعتنقت الاسلام من فرس وترك وبربر وسواهم، ثم بالامم الاخرى عن طريق السبايا والجواري اللواتي لعبن دوراً مهماً في تاريخ الاسلام الاجتماعي . وقد كان الامويون اولاً يتعصبون ضد ابناء الاماء ولا يستخلفونهم : فقد انّب عبد الملك علي بن الحسين لتزوجه جارية، وعيّر هشام زيد بن علي بن الحسين بقوله : انت الذي تنازعك نفسك في الخلافة وانت ابن امة [١]. ولما زوج ابرهيم بن النعمان بن بشير الانصاري يحيي بن حفصة مولى عثمان بن عفان ابنته على عشرين الف درهم قال قائل يعيّره [٢]

لعمري لقد جلّلتَ نفسك خزيةً وخالفت فعل الاكثرين الاكارم

ولو كان جدّاك اللذان تتابعا ببدرٍ لما راما صنيع الألائم

---

(١) المسعودي ٥—٤٦٨ (٢) كامل المبرّد ج ١—٢٨١

على ان ذلك لم يمنع حتى بعض الخلفاء الامويين من التزوج بالاماء . فكانت ام يزيد بن الوليد فيروزا شاهي ابنة شيرويه[1] ، وام يزيد بن عبد الملك شاهفريد بنت فيروز بن كسرى[2] ، وكانت جدة مروان بن محمد كردية . اما بنو العباس فكثر ذلك بينهم ، حتى كان كثير من خلفائهم ابناء اماء[2] . منهم المنصور والرشيد وابرهيم بن المهدي والمأمون والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمقتدر والمكتفي والمستضيء والناصر ، وقس على ذلك سائر الطبقات حيث اختلط الدم العربي بسواه اختلاطاً واسع النطاق

تعرُّب الامم المغلوبة .

من هذه الامم من تعرَّب تعرباً جزئياً وقتياً كفارس والاندلس مثلاً ، ومنها من تعرَّب تعرباً كلياً دائماً كمصر والشام والعراق وشمالي افريقيا . وقد حدث هذا التعرُّب فيها تدريجياً : بدأ منذ الفتوح الاولى وقبلها بهجرة العرب واشتد بنشر الاسلام ، ثم بتحويل دواوين الحكومة ايام الامويين ، وبما كان للعرب او للمسلمين من امتيازات في المملكة الاسلامية . واخذت حركة التعرب تتقدم مع الايام حتى استقرت العربية في هذه الاقطار . والمشاهد ان ذلك جرى في الاقطار السامية الاصل او التي تمتُّ الى الساميين بنسب متين ، اما في سواها فلم يكن الاَّ جزئياً كما ذكرنا ولوقت معين . فلما زالت شوكة العرب زالت الصبغة العربية عنهم وبقي اثرها في لسانهم ومدنيتهم . وهكذا نشأ في الاقطار الاسلامية العربية (ما نسميه اليوم بالشرق العربي) قوميات شتى ، تجمعها جامعة معنوية قوية هي جامعة اللغة والثقافة . وليس من نسميهم اليوم ابناء العرب (خارج الجزيرة العربية) الاَّ مزيجاً من عناصر شتى اصطبغت بالصبغة العربية وارتبطت بتاريخ العرب وميراثهم الادبي . وهذا الامتزاج القومي اللغوي التاريخي اثّر في الادب العربي تأثيراً بيّناً ، فكثرت فيه المقتبسات الاجنبية ، واختمرت فيه الحياة الفكرية اختماراً ادّى الى نشوء الحضارة العربية المعروفة في القرون الوسطى

---

(١) عن الجاحظ (راجع رسائل الجاحظ مطبعة السعادة مصر ص ٥١)

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي (لزيدان) ٤—١٥٣

حضارة بغداد عاصمة العباسيين

كانت بغداد في ايام الفرس قرية يقوم بها سوق لهم ، فاغار عليها المثنّى فانتسفها[١] ، ثم لم تلبث بعد ان اختارها المنصور العباسي مركزاً لدولته وبنى فيها مدينته ، حتى زخرت بالعمران واصبحت من اعظم العواصم في القرون الوسطى . وانما نحن نذكرها هنا ذكراً خاصاً لعلاقتها الكبيرة بالشعراء الذين ندرس حياتهم وشعرهم ، ولانهُ فيها تتجلى الحضارة العربية في ابهى ظواهرها

وقد مرّ بنا في عرض كلامنا عن « العوامل السياسية في الدولة العبّاسية » ما كان من تنازع العناصر المختلفة في بغداد ، وان اهمها ثلاثة (١) العرب — ويمثلهم البيت المالك وبعض الامراء والعمال (٢) الفرس — ويمثلهم الوزراء والكتبة ومعظم رجال العلم ثم امراء الديلم المتغلبون (٣) الاتراك — وكان منهم امراء الجند ثم السلاجقة ورجالهم . ففي بغداد التقت عناصر شتى واجناس كثيرة تتنافس على السيادة والرزق وكان لهذا التنافس اثره في احوالها الاجتماعية . ولما كانت هذه المدينة عاصمة الخلافة والدولة ، ولا سيما في القرنين الاولين من العصر العباسي كان من الطبيعي ان تتدفق فيها اموال الاقاليم عن طرق شتى اهمها — الجباية والمصادرة والتجارة والزراعة . ولتتناول كلاً منا بقليل من الاسهاب .

الجباية والمصادرة

بلغت رقعة المملكة العباسية في ابان قوّتها حدّاً عظيماً من الاتساع فكان يُجبى اليها مما وراء النهر الى المغرب الاقصى . قيل وقد حسب خراج الروم للمعتصم فبلغ اقل من ثلاثة آلاف الف . فكتب الى ملك الروم ان اخسّ ناحية ، عليها اخسُّ عبيدي ، خراجها اكثر من خراج ارضك[٢] . واذا صحت هذه الرواية لم يكن المعتصم مبالغاً ، فقد ترك لنا قدامة بن جعفر قائمة مسهبة في الخراج لعهد المعتصم يبلغ مجموعها اكثر من ٣٨٨ مليون درهم[٣] . واحصى ابن خلدون الخراج ايام المأمون وفصّله اقليماً اقليماً فاذا مجموعهُ يزيد على الاربعمئة مليون درهم[٤] . وكان الخلفاء في صدر الدولة العبّاسية مطلقي التصرف بالاموال

---

(١) مراصد الاطلاع ١—١٦٣ (٢) احسن التقاسيم للمقدسي ٦٣
(٣) تاريخ التمدن الاسلامي ٢—٥٦ (٤) المقدمة ١٧٩—١٨١

والارواح، تُجبى اليهم الاموال الطائلة فينفقونها في رجالهم وحاشيتهم وملاهيهم، ويختزنون منها ما يرونه لحين الحاجة. فان المنصور خلف لابنه المهدي ما يزيد على ٦٠٠ مليون درهم و١٤ مليون دينار [١]، وخلف الرشيد نحو ٩٠٠ مليون درهم [٢]. هذا مع كل ما اشتهر به من السخاء والاسراف، حتى قال الطبري عنه انه لم يُر خليفة اعطى منه [٣]. وكانت غلة امه الخيزران في العام ١٦٠ مليون درهم. اما عمال الخلفاء ووزراؤهم فكانوا يحصّلون الاموال الطائلة ويتبارون في انفاقها. فقد بلغت عمالة الفضل بن سهل ايام المأمون على ما رواه الطبري نحو ثلاثة ملايين درهم، ووهب الفضل بن يحيي البرمكي الف الف درهم لمحمد بن ابرهيم العباسى [٤]. والبرامكة مشهورون بكرمهم ورخائهم، وكانوا اصحاب الدولة والمجد حتى نكبهم الرشيد واستصفى اموالهم، على ان الكرم والغنى لم ينحصرا فيهم. ومن يراجع اخبار الوزراء والعمال يدهش لكثرة ما كان يصلهم من المال، وما كانوا ينفقونه في سبيل مآربهم وملذاتهم. جاء في سراج الملوك للطرطوشي ان العامل ايام عمر بن الخطاب كان راتبه ٦٠٠ درهم في الشهر، فصار العمال ايام الامويين يتقاضون الرواتب الكبيرة. على انهم لم يبلغوا عموماً مبلغ زملائهم في العصر العباسى.

ولم يكن هذا المال عن طريق الجباية المشروعة فقط بل كان للمصادرة شأن كبير في العصر العباسي. والمصادرة مال يقبضه السلطان من الوزير وهذا من العمال والعمال من الرعية. وقد بلغت في الدولة العباسية ان انشأوا لها ديواناً خاصاً. واخبار بني العباس حافلة بذكر المصادرات، وكذلك اخبار وزرائهم وعمّالهم. من امثلة ذلك قائمة بما قبضهُ ابن الفرات وهي انموذج لانواع المصادرة ومقاديرها ويبلغ مجموعها ملايين الدراهم [٥]. وقد نال ابن الفرات من ذلك ما نال سائر الكبراء. فقد قال عن نفسه تأملت ما صار الى السلطان من مالي فوجدته عشرة آلاف الف دينار، وحسبت ما اخذته من الحسين بن عبدالله الجوهري بن الجصّاص فكان مثل ذلك. واليك امثلة اخرى مما يرويه اليعقوبي : سخط المتوكل على الفضل بن مروان وقبض ضياعه وامواله ونفاه، ثم رضي عليه ورده، وسخط على احمد بن خالد المعروف بابي الوزير فاستصفى ماله ثم رضي عليه. ولما سخط على الكتاب قال لاسحق بن ابرهيم انظر لي رجلين احدهما لديوان الخراج، والآخر لديوان الضياع (المصادرة)، ثم يذكر ما فعله هذا الخليفة بايتاخ التركي وهرثمة عامل مصر، ويقول : ووجه الى فارس

---

(١) المسعودي ٦—٢٣٣ (٢) ابن الاثير ٦—٧٦ والطبري جم ٣—٧٦٤ (٣) الطبري جم ٣—٧٦١ (٤) الفخري ١٥١ (٥) راجع عصر المأمون للرفاعي ١—٤٣١

بالحسين بن اسماعيل مكان عمه محمد بن ابرهيم ، وامره ان يعذبه حتى يستخرج الاموال التي صارت اليه ، فعذب حتى مات . وفي مكان آخر يذكر قبضه ضياع ابن ابي دؤاد وامواله ، وانه احضر الى بغداد فلم يقم قليلاً حتى مات[١]. وفي الفخري امثلة كثيرة على هذه المصادرات ، منها مصادرة المعتمد للوزير ابي الصقر بن بلبل ، وام المقتدر لكاتبها ابن الخصيب ، وابن الفرات لابن مقلة على مئة الف . قال وفي ايام المقتدر وايام وزيره ابي القاسم كثرت المصادرات ولم ينج الوزير نفسه منها فصادره الخليفة وابعده . واعجب من ذلك ما فعله القاهر بامهات اولاد المقتدر ، وخاصة بام المقتدر ، فقد عذبها وصادر منها مئة وثلاثين الف دينار[٢] . هذا عدا ما صادره الاتراك والديلم وكثير من الوزراء وكبار العمال مما لا يسعه هذا المقام[٣]

وكانت هذه الاموال الوفيرة ينفق اكثرها في بغداد فليس من الغرابة ان نسمع عن كثرة البذخ والسخاء في دوائر الخلفاء والامراء[٤] . وقد تناول زيدان في تاريخ التمدن الاسلامي[٥] نفقات الدولة العباسية ، وبعد ان بحث فيها باسهاب ونقل ما نشره فون كريمر عن احمد بن محمد الطائي ، وما اشترطه هذا على نفسه ان يقدمه من ضمانة لبيت المال (وفيه ما كان ينفقه بيت المال ايام المعتضد) ، وجد ان مجموع النفقات كانت نحو مليونين ونصف مليون دينار في السنة ، باعتبار سبعة آلاف دينار لكل يوم : فاذا حسبنا ان النفقات كانت متقاربة ايام المامون والمعتصم والمعتضد ، واخرجنا ذلك من معدل ارتفاع الجباية كما اوردها ابن خلدون وقدامة ، استنتجنا ان نحواً من ٣٠٠ مليون درهم كانت تبقى في بيت المال يتصرف بها الخليفة كما يشاء . فهل يستغرب او ينكر بعد هذا دفعهم (حتى في ايام ضعفهم) الوف الدنانير للشعراء والمغنّين والعلماء ، او في سبيل الجواري وسائر الملاهي التي اشتهروا بها ، وراجت سوقها في زمانهم ؟ وايضاحاً لذلك ننقل بعض امثلة من بذخهم

ملابس الموفق والمكتفي

اشتهر هذان الخليفتان بكثرة ما جمعا من الاثواب وبكثرة التأنق في الملبس حتى كان

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ من ٥٩٢ — ٥٩٧ (٢) كتاب الفخري من ١٨٨— ٢٠٣

(٣) راجع امثلة ذلك في تجارب الامم لمسكويه في اخبار سنة ٣٥٠ و ٣٦١

(٤) راجع مثالاً لذلك بذخ المتوكل — المسعودي ٧—٢٧٦ (٥) ج٢ص٦٥—٧٢

للموفق ستة الاف ثوب من جنس واحد[1]، وكان للمكتفي من الاثواب ما يبلغ عشرات الالوف[2]

جواهر المقتدر واسرافه

كانت خزانة الدولة في ايامه مترعة بالجواهر، من جملتها حجر الياقوت الذي اشتراه الرشيد بثلاثمئة الف دينار، والدرة اليتيمة التي كان وزنها ثلاثة مثاقيل الى غير ذلك من الجواهر النفيسة، ففرَّقه جميعه واتلفه في ايسر مدة.[3] ولا عجب فقد كان له احد عشر الف خادم من الروم والسودان وهم بمثابة حاشيته وحرسه.

بذخ ام جعفر وام المستعين

ذكر المؤرخون، انه كان لام المستعين بساط فيه نقوش على اشكال الحيوانات والطيور اجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر، وقد قدّروا قيمته بنحو ١٣٠ الف الفً دينار[5]. وذكر ابن خلكان ان ام جعفر البرمكي كانت في ايام عزها تمشي ووراءها اربعمئة وصيفة، وقد يكون في ما ذكروه مبالغة ولكنه يشير الى غنى وافر وبذخ عظيم

الهادي والرشيد والواثق ومطربوهم

قيل ان الهادي اعطى ابرهيم الموصلي في يوم واحد ١٥٠ الف دينار[5]

وغنى ابن محرز في حضرة الرشيد بابيات مطلعها «واذكر ايام الحمى ثم انثني الخ» فاستخفً الرشيد الطرب وامر له بمئة الف درهم، وفعل مثل ذلك لدحمان الاشقر[6]. وهبات هذا الخليفة لندمائه وشعرائه اكثر من ان تحصى هنا. واقتدى الواثق بجدّه فوهب اسحق وقد غنى في حضرته مئة الف درهم[7]

---

(١) الفخري ١٨٦

(٢) راجع تفصيل ذلك في تاريخ التمدن الاسلامي ٥—١٠٧

(٣) الفخري ١٩١ (٤) المستطرف ١—١٩١

(٥) الاغاني ٥—٦ (٦) المستطرف ٢ص ١٨٢—١٨٤ (٧) المستطرف ٢—١٨٥

الولائم والافراح والمساكن

ذكروا ان المال الذي انفق يوم زفاف بوران الى المامون على القوّاد فقط بلغ نحواً من خمسين الف الف درهم(١)

وذكر صاحب التكملة ان ابا الفضل الشيرازي عمل دعوة انفق فيها الني الف درهم ووهب فيها جواري وغلماناً وضياعاً الخ

وفي يوم زفاف ابنة القاسم بن عبيد الله الى احمد بن المكتفي انفق ما يزيد على عشرين الف دينار(٢)

اما المساكن فنكتفي منها هنا بذكر دار الوزير ابن الفرات التي انفق عليها مئتي الف دينار ، ومثلها دار ابن مقلة(٣)

***

وانما هذه امثلة قليلة سقناها لنوضح ما نحن بصدده من توفر المال لدى الخاصة ولا سيما قبل انحلال الدولة . وفي اخبار العباسيين ورجالهم مما تجده في تضاعيف كتب الادب والتاريخ ما يملأ صفحات عديدة . ولم يكونوا ليستطيعوا القيام بهذه النفقات الطائلة وهذه الابهة العظيمة (مهما كان مبالغاً فيها) لولا تدفق الاموال عليهم من الاقاليم المختلفة ، حتى في ايام ضعفهم وخروج السلطة من ايديهم بقي لهم حظ وافر من المال: فان البويهيين لما استولوا على الامر ببغداد عيَّنوا راتباً للخليفة خمسة آلاف درهم كل يوم(٤). وفي سنة ٣٣٤هـ عين للمطيع ٢٠٠٠ درهم(٥)، وهو مبلغ كبير اذا قيس برواتب الحكام اليوم . ولم يكن ما يقبضه الخليفة المستضعف يومئذ الا شيئاً يسيراً بالنسبة الى ما كان يتقاضاه صاحب الامر وعمّاله . وهذه الاموال الطائلة كان ينفق اكثرها في بغداد ، وكان نصيب الادب منها وافراً ، ولما تجزَّأت المملكة الى امارات مستقلة لم يتغير الحال كثيراً على الادباء والعلماء وارباب الفنون ، اذ اصبحت حواضر هذه الامارات تنافس بغداد في الغنى والبذخ والانفاق على العلم والادب ، وان لم تبلغ ما بلغته العاصمة الكبرى في ابان مجدها

---

(١) الطبري جم ٣ — ١٠٨٣ وتزيين الاسواق ٢—١١٧

(٢) صلة الطبري آخر اخبار سنة ٣٠٦ (٣) صلة الطبري اخبار سنة ٣١٨

(٤) ابن الاثير اخبار سنة ٣٣٤ (٥) تجارب الامم اخبار ٣٣٤

العمران التجاري والزراعي

لم تكن بغداد مركزاً للخلافة والسلطنة فحسب بل كانت مركزاً كبيراً للتجارة ايضاً ، ساعدها على ذلك مركزها الجغرافي على نهر كبير صالح للملاحة وانها في نقطة وسطى بين الشرق والغرب . والمعروف ان المسلمين كانوا في العصر العباسي سلاطين البحار تمخر سفنهم البحور الى سومطره وزنجبار وكلكتّا وجزائر الهند والصين ومدغسكر ، وتجوب البحر المتوسط الى الاندلس وسواها . وقد تركوا اثر تفوّقهم التجاري في المصطلحات التي اقتبستها لغات الغرب عنهم — مثل

حبل السفينة	Cable	حرّاقة	Garracca
امير البحر	Amiral	تعريفة	Tarif
دار الصناعة	Arsenal	موصلين	Musaline
		دمقس	Damask

وما اشبه من الالفاظ التي دخلت اوروبا عن طريق التجارة (١)

ويوازي اساطيلهم التجارية في الاهمية قوافلهم البرّية التي كانت تحمل المتاجر من كل الجهات وقد ذكر المقدسي في احسن التقاسيم انواع التجارات من الاقاليم المختلفة واهمّها —

الياقوت والالماس والعقاقير والارز	من الهند
اللؤلؤ	من البحرين
المنسوجات	من ايران
الحصر والقباطي والقراطيس	من مصر
الزجاج والخزف	من البصرة
المسك والكافور	من الصين
الرقيق الابيض	من تركستان والاندلس وبلاد الصقالبة وسواها
الرقيق الاسود	من السودان

وغير ذلك من المتاجر الواسعة التي لا يتسع المقام لذكرها . ولا شك انه كان لبعضهم يد

---

(١) راجع كتاب فون كريمر 362 The Orient Under The Caliphs . Tr. Bnkhsh

كبرى في التجارة ، فان جوهرياً من الكرخ ساومه يحيي البرمكي على سفط من الجواهر بمبلغ سبعة ملايين درهم[١] . وقد عرف من كبار التجار آل الجصّاص (مر ذكرهم في باب المصادرة) ، والشريف عمر : ذكر ابن الاثير ان دخله السنوي كان الفي الف وخمسمئة الف درهم . وكانت ثروات بعض تجار المراكب في البصرة تقدر بالملايين . وقد دفعت التجارة بعضهم الى اقصى البلاد : ذكر المقرّي ان علي بن بغداد البرمكي قدم الاندلس تاجراً سنة ٣٣٧[٢] . وامثال هذا التاجر كثيرون ممن كانوا يرحلون من الشرق الى الغرب وبالعكس . وكان لبغداد نصيب وافر من ذلك تعكسه لنا قصص الف ليلة وليلة ، فهي وان تكن اساطير لا صحة لها تمثل روح العصر الذي بلغت فيه بغداد والبصرة اوج حضارتها التجارية

اما الزراعة فقد كانت ايام العباسيين على درجة عظيمة من الارتقاء : فانهم على ما يستدل من اخبارهم جعلوا همهم احتفار الانهر وانشاء الجسور والترع ، حتى جعلوا ما بين دجلة والكوفة سواداً مشتبكاً غير مميز تخترقه انهار الفرات[٣] . وقد ذكر المؤرخ مسكويه في عرض كلامه عن عضد الدولة تلافيه بغداد بالعمارة ، بعد ان خربت لكثرة الفتن والمصادرات والاضطرابات . قال « وكان ببغداد انهار كثيرة (ذكر منها نحو عشرة بعضها من دجلة وبعضها من الدجيل) فاندفنت مجاريها وعفت رسومها الخ ، ثم ذكر مصالح السواد وتعمير القناطر على انهاره وحماية مزارعه وما بلغ بهمة عضد الدولة من العمران بعد الخراب[٤] » . وفي كل ذلك اشارة الى عهد زراعي راقٍ عرفته بغداد والعراق عموماً ايام زهو الخلافة . ومثل ذلك في كتاب القاضي ابي يوسف الى هارون الرشيد كما نقله فون كريمر في كتابه الشرق تحت حكم الخلفاء[٥] . فان ابا يوسف يذكر من واجبات الحاكم تعمير الاقنية للري وتنظيف الانهر التي تحمل المياه من الفرات والدجلة الى السواد ، وما الى ذلك من الجسور والسدود والقناطر والملاحة . ويؤيد ما ذكرناه من هذا العمران الزراعي ان ارتفاع الخراج من السواد ايام المعتصم (كما في قائمة قدامة بن جعفر) بلغ من القمح والشعير نحو ثلث ارتفاع الاقاليم كلها اي حوالى ١١٥ مليون درهم ، وبقي على هذه النسبة الى اواسط القرن الثالث الهجري (راجع قائمة ابن خرداذبه) . وليس ذلك دليلاً على ثقل الجبايات

---

(١) راجع المقتطف ديسمبر ١٩٣٠ ص ٥٣١ (٢) نفح الطيب ٢ — ٨٢

(٣) الاصطخري ٨٥ (٤) تجارب الامم اخبار سنة ٣٦٩

(٥) النسخة الانكليزية ٢٣٨ (ترجمة Bukhsh)

فقط ، ولكن على عمارة الارض ايضاً وتمكن الناس من القيام بما يتطلب منهم للدولة . ولم ينحصر هذا العمران الزراعي في السواد ، بل نراه ايام عزّ العباسيين في اقاليم اخرى كخراسان ومصر وسواهما

فبالتجارة والزراعة ، وبما كان يجبى الى بغداد ايام عزّها ، توفرت فيها اسباب العمران حتى فاقت سواها واصبحت عروس الحواضر في القرون الوسطى ، او كما قالت دائرة المعارف الاسلامية (في كلامها عن بغداد) انها بلغت في ايام زهوها المقام الاول بين المدن في العالم المتمدن يومئذ . وقد زارها ايام المستنجد السائح اليهودي بنيامين الطليطلي وقال عنها (ولم تكن يومئذ في ابان مجدها) « انها اكبر مدن العالم لا يقابلها الاّ القسطنطينية »[١]، وزارها الرحالة ابن جبير الاندلسي سنة ٥٨٠ هـ اي في اواخر العصر العباسي وقال عنها « واما حماماتها فلا تحصى عدةً : ذكر لنا احد اشياخ البلد انها بين الشرقية والغربية نحو الالفي حمام وكذلك مساجد لا يأخذها التقدير ، والمدارس فيها نحو الثلاثين وما فيها من مدرسة الاّ ويقصر القصر البديع عنها ، واعظمها واشهرها النظامية » . الى ان يقول « فشأن هذه البلدة اعظم من ان يوصف واين هي مما كانت عليه — هي اليوم داخلة تحت قول حبيب (ابي تمام)

لا انت انت ولا الديار ديار خف الهوى وتولت الاوطار[٢]

ويحق لابن جبير ان يقول ذلك متأسفاً نادباً عمران بغداد . فقد ذكر الخطيب البغدادي بغداد في ايام المأمون وقال كان فيها خمسة وستون الف حمام[٣] . ويظهر لنا في ذلك بعض المبالغة ، ولكنه مهما كان ، فهو يدل على عظمة المدينة واتساع عمرانها حتى لقد قدّرت مساحتها بنحو ستة عشر الف فدّان ، وعدد سكانها بنحو مليون ونصف او اكثر[٤]

ولم ترتق هذا الارتقاء العظيم في مدة لا تتجاوز الستين سنة الاّ لانها كانت مركز دولة تسيطر على اقاليم وشعوب تضارع ما كانت عليه الدولة الرومانية في عنفوان قوتها . ويؤيد ذلك ما نجده من وصف اقاليمها في كتب الاصطخري وابن حوقل والمقدسي وابن جبير وابن خرداذبه وقدامة وسواهم من ارباب الرحلات وكتاب الخراج

---

(١) Coke — Bagdad the City ef Peace ١٢٤ (٢) رحلة ابن جبير (مصر) ٢٠٧ و ٢٠٨ (٣) نقل ذلك زيدان عن ابن خلدون وعن سير الملوك (راجع تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢—١٩٠) (٤) تاريخ التمدن الاسلامي ٢—١٩٠

بعض صور اجتماعية يعكسها الادب العباسي

١ — كثرة الجواري والغلمان — من نتائج المال والترف في العصر العباسي اقتناء الجواري والغلمان. وكان في بغداد — كما كان في البصرة وسواها من الحواضر الكبرى — سوق لبيع الرقيق من عبيد واماء : حكي عن ابي دلامة الشاعر انه مرّ بنخاس يبيع الرقيق فرأى عنده من كل شيء حسن فانصرف مهموماً ودخل الى المهدي فانشده قصيدة منها —

ان كنت تبغي العيش حلواً صافياً فالشعر أَعزبهُ وكن نخّاسا(١)

وذكر الاصفهاني انه كان للرشيد زهاء الفي جارية(٢)، وعن المسعودي كان للمتوكل اربعة الاف جارية(٣). ولم يقصِر الفاطميون في مصر عن العباسيين في بغداد. فقد كان في قصر اخت الحاكم بامر الله ثمانية آلاف جارية(٤). ومثل هؤلاء ملوك الاندلس وسواهم، على ان ذلك لم ينحصر في قصور الملوك والامراء، بل تعداهم الى منازل الخاصة وارباب اليسار من تجار وملاكين وعلماء، ومن يليهم من طبقات الشعب. وكانت اثمان الجواري تختلف من عشرات الدنانير الى الالوف. وقد يبلغ الشغف ببعض الامراء ان يدفع مئات الالوف من الدراهم في سبيل احداهنَّ. وكانوا يتهادون الجواري، فقد اهدى طاهر الى المتوكل هديّة فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف(٥)، بل كانت الامرأة احياناً تهدي زوجها بعض الجواري كما فعلت زبيدة مع الرشيد(٦). وقد بلغ اهتمامهم بتثقيف الجواري والغلمان وتعليمهم مبلغاً عظيماً اذ كان ذلك يزيد اثمانهم ويأتي بالربح الى المتّجرين بهم

ومع اننا نجد في العصر العباسي بضعاً من النساء الراقيات علماً وثقافة، واننا نجد في كتب التاريخ شواهد على انه كان يتاح للفتاة ان تتعلم كالفتى، لا نجد الادب العباسي يعكس لنا من حالة المرأة ما يجعلها في مقام رفيع : خذ الشعر مثلاً تجده من هذا القبيل نوعين — الهزلي والجدي. فالهزلي كشعر ابي نواس واضرابه اكثره مقرون بحياة الجواري اللواتي كن يشترين ويتهادين، وهو يصور لنا عبث الشباب الماجن. اما الجدي كشعر المعري فمتشائم ينظر الى المرأة في المنزل نظرة سوداء، ولعله متأثر مما بلغته من التأخر

(١) الاغاني ٩—١٢٢ (٢) الاغاني ٩—٨٤ (في اخبار علية) (٣) مروج الذهب ٧—٢٧٦
(٤) خطط المقريزي ج ٢—٣٣٣ (٥) المسعودي ٧—٢٨١
(٦) الاغاني ١٦—١٣٢ (في اخبار دنانير)

الاخلاقي بعد ان زاحمتها الجارية فاعتقلت وحيل بينها وبين الرقي العلمي والادبي . ويظهر ذلك في الادب المنثور كما يظهر من الشعر ، ولا يستثنى من هذا الحكم الا قلائل لا يبنى عليهن حكم عام .

ومما يذكر هنا ما بلغه بعضهم من التهتك والانحطاط الاخلاقي الاجتماعي ، حتى صاروا يستخدمون الغلمان كالجواري ، ومن ذلك نشأ غزل المذكر كما نراه في شعر بعض من متهتكي ذلك العصر

٢ – مجالس الشرب والغناء . توفرت في الحواضر ولا سيما بين الخاصة في بغداد مجالس الشرب ، ولم تكن تخلو منها قصور الحكام . وكان بعضهم يتذرع الى ذلك – على مناقضته لاوامر الدين – بان الشرع حال نبيذ الخمر . وعليه بنى ابن خلدون دفاعه عن الرشيد اذ قال « وانما كان الرشيد يشرب نبيذ الخمر على مذهب اهل العراق ، وفتاويهم فيها معروفة . واما الخمر الصرف فلا سبيل الى اتهامه بها ولا تقليد الاخبار الواهية فيها » . الى ان يقول . « وحال ابن اكثم والمامون في ذلك حال الرشيد ، شرابهم انما كان النبيذ ، ولم يكن محظوراً عندهم »[1] . على ان شرب الخمر على انواعها كان شائعاً كما يتبين من درس الشعر العباسي ، وكذلك مجالسة الندماء والمغنين والقينات . ولم يكن ذلك بدعة في الدولة العباسية ، فقد سبقهم الى ذلك الامويون ، واخبار يزيد والوليد وسليمان وغيرهم كافية للدلالة على ما ذكرناه . فبعد ان كان المسلمون ايام الراشدين يتحرجون من الخمر ويعاقبون شاربها ، اصبحوا بعد ذلك يرون في بعض خلفائهم وزعمائهم ما يسهل لديهم معاقرتها : نعم ظلت الشريعة نافذة في حد السكارى ، ولكن ذلك لم يمنع الناس من تعاطي المسكر وارتياد الحانات . ومهما كان من المبالغة في ما ينقلونه عن الهادي والرشيد والامين والواثق والمتوكل ، ومن جرى مجراهم من الملوك او نادمهم من الشعراء والمغنين ، فاجماع اكثر المؤرخين على شربهم الخمر وبلوغ بعضهم من ذلك درجة التهتك ، حتى روى الابشيهي ان الواثق كان يرقد في المكان الذي يشرب فيه ، ويرقد معه ندماؤه[2] . وكان الشراب عادة مقروناً بالغناء ، ففي كل مجلس طرب عند الخاصة يحضر اولو الفن فيغنون او يرقصون ، ويشرب الحاضرون ، ويقضون وقتهم على ذلك . ومن امثلة ذلك ما نقله ابن الاثير عن الامين انه امر يوماً قيمة جواريه ان تهيء له مئة جارية فتصعد اليه عشراً عشراً بايديهن

---

(١) المقدمة (بيروت) ١٨ (٢) المستطرف ٢–١٨٧

العيدان يغنين بصوت واحد[1] . وكتب الادب ملأى باخبار المغنين والمغنيات ، وما كان يبذل لهم من الاموال الطائلة ، وسنلمّ بشيء من ذلك في كلامنا عن الشعراء

٣ — نشوء حركة زهدية مضادّة لترف العصر ، وستتكلم عليها في غير هذا المقام

٤ — التأنق في الفنون الحضرية . ويدخل تحتها تشييد المنازل ونسج الثياب والمفروشات ، وطهي الطعام وبناء المراكب وصنع الآلات الموسيقية ، وما الى ذلك من اسباب الحضارة . وقد بلغت البلدان الاسلامية من ذلك في العصر العباسي مبلغاً عظيماً : يدلك على ذلك وصف القصور والمساجد التي كان يبنيها الملوك والامراء في الحواضر الكبرى ، مما يعكسه لنا الشعر العربي في ذلك العصر كما سترى عند كلامنا عن الشعراء . وكذلك وصف الولائم والرياش وسائر اسباب الحضارة الصناعية : ذكر ابن خلدون انه كان للملوك دور في قصورهم لنسج اثوابهم تسمى دور الطراز ، وكان القائم عليها ينظر في امور الصنّاع فيها وتسهيل آلاتهم واجراء ارزاقهم[2] . ولما احتك الصليبيون بالشرقيين وجدوا في رقيّ الشرق الصناعي والاجتماعي والزراعي ما حداهم الى اقتباس كثير من فنونه وعوائده ، وقد رجعوا الى اوروبا يحملون معهم من الشرق ما كان له تأثير في نهضة اوروبا الاجتماعية في القرون الوسطى — كتربية دود الحرير وصناعة النسيج والسجاد والسكّر والزجاج والخزف والبارود ، وما الى ذلك مما نجده مفصلاً في المباحث الخاصة عن الحروب الصليبية[3]

٥ — انتشار المدارس والعلوم ذكرنا قبلاً ان الامّية كانت سائدة في العرب قبل الاسلام ، وانهم اخذوا بعد ذلك يخطون في سبل الثقافة ، وما عتموا ان انشأوا حلقات العلوم الدينية واللغوية في المساجد والكتاتيب البسيطة في القرى . ولما استقر الامر للعباسيين زادت حركة التعليم والتثقيف وتنظمت دور العلم في الامصار المختلفة ، ولا سيما في بغداد ومصر : قال المقريزي « والمدارس مما حدث في الاسلام ولم تكن تعرف في زمن الصحابة ولا التابعين وانما حدث عملها بعد الاربعمئة من سني الهجرة »[4] ، ثم يذكر بعض المدارس المهمة ويتناول مدارس مصر خاصة فيصفها مدرسة مدرسة . ولا شك ان المقريزي يعني بالمدارس هنا مؤسسات تعليمية خاصة توقف لها الاوقاف والاموال ، وتجري على نظم معيّنة كالنظامية في بغداد ، ودار العلم والازهر في مصر ، والاّ فان التعليم سابق للدولة العباسية ،

---

(١) ابن الاثير ٦ — ١٠٠ (٢) المقدمة ٢٦٧

(٣) راجع دائرة المعارف البريطانية تحت Crusades (٤) المقريزي ج ٢ — ٣٦٣

ولكنه لم ينتظم الاَّ ما بعد القرن الرابع الهجري . واهم مراكز التعليم في العصر العباسي بغداد ودمشق ومصر والكوفة والبصرة وقرطبة والقدس ، ويليها حلب وطرابلس ومدائن كثيرة من امصار مختلفة[١]

***

ومن اسباب الرقي العلمي في هـذا العصر تلك الحركة الكبيرة — اعني حركة النقل العلمي عن اليونان والفرس والهنود التي عرَّفت اهل العربية بالعلوم الكونية القديمة واخرجت منهم بعدئذ مشاهير في الطب والفلسفة والفلك والرياضيات والجغرافيا وسواها

ولما كنا قد خصصنا الفصل التالي للبحث في هذه الحركة الفكرية فاننا نجتزىء هنا بالاشارة اليها وبذكر ظواهرها العامة وهي —

١ — تنافس الامراء في العالم الاسلامي على بناء المدارس والكليات والسخاء عليها

٢ — نمو حركة النسخ والتدوين وازدياد عدد الكتب وانتشارها[٢]

٣ — انشاء المكاتب العامة والخاصة

٤ — حظوة العلماء والادباء لدى الملوك والامراء

٥ — الرحلات العلمية من الاندلس الى الشرق وبالعكس

٦ — المذاهب الفكرية المختلفة ونشاط اربابها في الدفاع عنها

٧ — اختمار العقلية العربية بالعلوم الطبيعية والفلسفية

كل ذلك احدث في العصر العباسي تجدداً ظاهر الاثر في الشعر الذي يمثل تاثر الامة بما يحيط بها من اسباب العمران

---

(١) راجع هنا القائمة التي نظمها خليـل طوطح في كتابه The Contribution of the Arabs to Edncation 23

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون في صناعة الوراقة

مجاري الحركة الفكرية

ليس للحركة الفكرية في امة من الامم منبثق خاص تتدفق منه تدفق الينابيع من جوانب التلال. بل هي كسيول الاودية تمدها المياه القليلة المتحدرة من هنا ومن هناك فلا تلبث ان تصير عجّاجة شديدة الشكيمة. كذلك حياة العرب الفكرية كثيرة الاصول متشعبة الروافد، وهيهات ان نحاول الآن البحث عن كل اصل وكل رافد منها فانها متصلة بظلمات يتيه فيها الاستقراء العلمي والقياس المنطقي. فما تاريخها الذي نبسطه هنا الا وصف اجمالي للمجاري الكبرى التي تمثل لنا طور البلوغ في حياة الناطقين بالعربية

على اننا لا نرى مندوحة عن القاء نظرة الى الماضي العريق في القدم لنطلع على بعض العوامل الرئيسية التي كان لها يد في ترقية هذه الحركة الفكرية العربية، فنربط الماضي بالحاضر ربطاً يسهل لنا فهم مبادئها والنظر في رجالها، ما اخذوا وما اعطوا. وذلك ما حدانا الى ان نجعل كلامنا في مبحثين رئيسيين

١ — المصادر الرئيسية التي استمدت منها العربية مجاريها الفكرية

٢ — وصف بعض المجاري الكبرى مما له اثر يذكر في الادب العربي

في المصادر الرئيسية

وهو يتناول ما استمده العرب من فلسفة اليونان ومن الحركات الفكرية في الهند وايران وهو بحث واسع نلخصه لطلاب الادب فيما يلي استناداً الى مراجع تذكر في حينها

المصدر اليوناني

كان الجو الذي ظهرت فيه النهضة العربية (الاسلامية) مشبعاً بالنظريات اليونانية. فمنذ اغار الاسكندر على آسيا زاحفاً الى الهند، اخذت العلوم اليونانية تنتشر في الشرق[١]، وتخمّر عقول المفكرين بمبادىء الفلسفة الذين انجبتهم بلاد اليونان ولما نهض الرومان

(١) Huart, Histoire des Arabes 2—363

ومدّوا رواقهم على شاطىء البحر المتوسط — على البلدان التي ورثها خلفاء الاسكندر — قضوا على سيادة العنصر اليوناني السياسية ، لكنهم لم يقضوا على مدنيّة اليونان لان الرومان انفسهم كانوا يعدّون اليونان اساتذة لهم في العلم والحضارة . فكان في العالم الروماني مركزان كبيران للحركات الفكرية اثينا في الغرب ، ومجرى الفلسفة فيها ادبي اجتماعي ، والاسكندرية في الشرق ومجرى الفلسفة فيها ديني روحي[١] . وكان طلاب العلم يقصدون هذين المركزين للتبحر في العلوم والفلسفة ، حتى الرومان انفسهم كانوا يؤمونها لهذه الغاية[٢]

وفي اوائل القرن السادس للميلاد اشتد اضطهاد الحكومة الرومانية على مفكري اثينا الذين كانوا يتشيّعون للتعاليم اليونانية القديمة (الوثنية) ، فاضطر هؤلاء الى هجرة الاوطان والضرب في رحاب الارض ، ولسان حالهم ينشد

وفي الارض منأى للكريم عن الاذى وفيها لمن خاف القلى متعزَّلُ

فساقتهم الاقدار على بلاط كسرى انو شروان ، ذلك العاهل الفارسي المحب للعلم والفلسفة ، فانزلهم على الرحب والسعة ، ولم يعتموا ان احدثوا في بلاده حركة فكرية جديدة ظهر آثارها في مدرستي نصيبين وجنديسابور[٣] . ولكنها لم تلبث ان ضعفت لرجوع هؤلاء المفكرين الى بلادهم

وكانما قدِّر لغير فارس ان تكون الصلة الادبية بين الشرق والغرب ، وهذا الفخر الذي فات العنصر الفارسي انقلب الى العنصر السرياني (السوري) الذي عرَّف الشرقيين بفلسفة اليونان وعلومهم . ففي اوائل القرن السابع للميلاد كانت بلاد العرب تتمخَّض بمولود جديد ، بمدنيَّة دينية مركزها الحجاز ، حتى اذا ترعرعت وامتد سلطانها واستولت على سوريا ومصر وسواها من بلدان البحر المتوسط ، استقرت تطلب غير الفتح المادي من اسباب التقدم والحضارة ، فانصرفت الى تحصيل العلم والفلسفة واتخذت ادلتها في ذلك واساتذتها مفكري اليونان الذين كانت تعاليمهم كما ذكرنا قد ملأت العالم المتمدن شرقاً وغرباً ، ولا سيما تعاليم فيثاغورس وافلاطون وارسطو . ذكر ابن القفطي ان خمسة هم اساطين الحكمة ، وهم ابيدقليس وفيثاغورس وسقراط وافلاطون وارسطوطاليس[٤] ، ولا

---

(١) Alexander ’ Short Hist . of philasophy 117

(٢) Mosheim, Ecclesiastical Hist . 1—78

(٣) Arab thought 42 — Les penseurs de l’Islam 111 - 7

(٤) اخبار الحكماء ١٢

شك ان الاخيرين اشدهم علاقة بحياة العرب الفكرية

قلنا انه كان في العالم القديم قبل الاسلام مركزان رئيسيان للعلم والفلسفة اثينا والاسكندرية ، على انهما لم يكونا الوحيدين . في القرن الخامس للميلاد كان للعلم والفلسفة بضعة مراكز اهمها ، عدا اثينا والاسكندرية ، القسطنطينية وبيروت ورومية والرُّها (اورفا وهي في القسم الشمالي الغربي من الجزيرة) ونصيبين في شمالي الجزيرة وجنديسابور في بلاد فارس وحرّان . وكان للفلسفة اليونانية الحظ الاوفر في هذه المراكز العلمية ، اذ على فلاسفة اليونان كان المعوَّل في الطبيعيات والالهيات والرياضيات . قال موسهيم في كلامه عن العلم والفلسفة في القرن الخامس بعد الميلاد[1] . « كان طلاب الشرائع يؤمون بيروت وطلاب الطبيعيات والكيمياء يؤمون الاسكندرية . وقد اشتهر معلمو القسطنطينية والرُّها والاسكندرية في فن التعليم على ان اساتذة البيان والشعر والفلسفة وسواها من الفنون لم ينحصروا في هذين المركزين بل انتشروا في كل الجهات وانشأوا لانفسهم نوادي ومدارس » . فالشرق الادنى قبل الدعوة الاسلامية كان تحت تاثير الروح اليونانية الفلسفية ، نعم ان تلك الروح كانت تتباين مظاهرها بالنسبة الى اماكن ظهورها ، ففي مدارس القسطنطينية المسيحية ، وفي مدرسة حران الصابئية ، ومدرسة جنديسابور الفارسية ، والرها السريانية ، وفي مدرسة الاسكندرية اليونانية الوثنية كان الفكر اليوناني سائداً ولكن سيادته كانت على درجات متفاوتة

في هذا الجو اليوناني نشأت حياة العرب الفكرية مستمدة من الشرق روحها وعواطفها الدينية التي يعكسها لنا الشيخ السجستاني بقوله « ان الشريعة مأخوذة عن الله عزّ وجل بواسطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحي وباب المناجاة وشهادة الآيات وظهور المعجزات . وفي اثنائها ما لا سبيل الى البحث عنه والغوص فيه ، ولا بدّ من التسليم المدعو اليه ، وهناك يسقط لِمَ ويبطل كيف الخ[2] — ومن الغرب نظرياتها الفلسفية ومبادئها العلمية المبنية على المنطق والنواميس الطبيعية . وقد دخلت هذه النظريات الى الآداب العربية عن طريق النقل او الترجمة وكان لها في حياة العرب الفكرية تأثير بعيد المدى . ومن المعلوم ان نقل العلوم او الفلسفة بدأ منذ العصر الاموي[3] . على ان العصر الاموي لم يتسع لتقدم هذه الحركة ، فلما انتقلت الخلافة الى بغداد اخذت حركة النقل تنمو نمواً سريعاً وزادها

---

(١) Ecc. Hist. I—381 (٢) القفطي اخبار الحكماء ٦٠ (٣) الفهرست (ل) ٢٤٢

نشاطاً تنظيم بيت الحكمة في بغداد والاهتمام بطلب الكتب العلمية من بلاد الروم[١]، وبرعاية الخلفاء ولا سيما المأمون اخذ جماعة من نصارى الشام يترجمونها الى العربية ، وقد اشتهر منهم جماعة كانوا من اركان النهضة العلمية في ذلك الحين ، وتبعهم سواهم حتى بلغت الترجمة اوجها في القرن الرابع الهجري . ومن اراد الاطلاع على اسماء النقلة والكتب التي نقلوها فليراجع كتاب الفهرست لابن النديم فانه جمع فاوعى .وقد تناول النقل الطب والرياضيات والفلك واصناف العلوم الفلسفية .

ولم تقف النهضة عند هذا الحدّ بل اخذ العلماء من الناطقين بالعربية يدرسون هـذه المنقولات ويشرحونها ويصنفون الكتب في موضوعاتها ، وتوسعوا في بعض الفروع الى درجة بعيدة فجاءوا بما يذكر لهم في تاريخ الفكر العام .

ومع ان اكثر الناقلين عن اليونانية والسريانية كانوا من السريان واكثر المصنفين يمتّون بانسابهم الى غير العرب ، فان اللسان العربي كان الاداة التي استعملت في النقل والتصنيف ، فاصبح لغة العلم والثقافة في ظلمات القرون الوسطى ، وتسرّب اليه كثير من الالفاظ الجديدة والمعاني الجديدة مما يعكسه لنا الشعر والنثر في العصر العبّاسي

ولعلنا لا نخطىء اذا قلنا ان الذين تأثروا من ابناء العربية بالفكر اليوناني كانوا فرقتين ، فرقة اعتمدت فلاسفة اليونان ولا سيما ارسطو فشرحت اقوالهم وانصرفت الى درس نظرياتهم استكشافاً لاسرار الحكمة وسعياً وراء البحث العلمي . وهؤلاء هم المعروفون بالفلاسفة كالفارابي وابن سينا وابن رشد واضرابهم ، وفرقة اعتمدت نظرياتهم واساليبهم في النضال الروحي او الكلامي وهم المتكلمون الذين سيمر بنا شيء من اقوالهم وآرائهم

فلنتقدم من هنا الى ذكر شيء عن المصادر الشرقية التي استمد منها العرب كثيراً من حركاتهم الفكرية

المصدر الفارسي

قال الاستاذ جاكسون استاذ اللغات الايرانية الهندية في جامعة كولومبيا « ان فتح المسلمين لفارس اشبه بفتح النورمان لانكلترا . وما معركتا القادسية ونهاوند الا مثال لمعركة هاستنغس »[٢] . وكأنه بذلك يعني ان العرب ، وان كانوا اخضعوا فارس وحكموا

(١) الفهرست (ل) ٢٤٣ واخبار الحكماء ١١٩

(٢) Jackson , Early Persian Poetry 14

العنصر الفارسي ، لم يستطيعوا ان يقتلوا الروح الفارسية الفكرية فبقيت متقدة في صدور الشعب تظهر كلما سنحت لها فرصة . ولا شك ان الاداب العربية ربحت شيئاً كثيراً من الفرس يدلّك على ذلك العدد الكبير من رجالها الذين هم من اصل فارسي . قال ابن خلدون في مقدمته[١] — « ان حملة العلم في الملة الاسلامية اكثرهم العجم ... وكان صاحب النحو سيبويه ، والفارسي ، والزجّاج من بعدهما ، وكلهم عجم في انسابهم ، وكذا حملة الحديث . وكان علماء اصول الفقه كلهم عجم كما يعرف ، وكذا حملة علم الكلام ، وكذا اكثر المفسرين . ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه الاّ الاعاجم ، وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم لو تعلّق العلم باكناف السماء لناله قوم من اهل فارس . ولم يزل ذلك في الامصار (اي حمل العجم للعلم) ما دامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر فلما خربت تلك الامصار وذهبت منها الحضارة ذهب العلم من العجم » آه . والذي يحقق النظر في علاقة العجم بالعرب سياسياً ودينياً وفكرياً لا يستطيع الاّ ان يرى ان التيار الفكري من قبل العجم كان قوياً في حياة العرب ، واظهر ما يكون ذلك فيما يلي

١ — في ان الاقطار العجمية هي الحقل الذي نمت فيه بذور الشيعة وبانتشار الشيعة بين العجم اكتسبت اللغة العربية كثيراً من العواطف والافكار الفارسية . قال الدكتور مور استاذ التاريخ الديني في جامعة هارفرد[٢] ان ما نراه من الغلوّ والتعصب عند بعض الطوائف الشيعية ناشىء بلا ريب عن ان كثيراً من اتباع زرادشت انضووا الى الاسلام تحت لواء الشيعة . وفي ذلك اشارة الى ما تسرّب الى اللغة العربية من ديانة العجم القديمة بانضمام المجوس الى الاسلام وتعربهم

٢ — في ان زعماء الحركة الفكرية العربية اكثرهم من العجم ، وقد تقدمت الاشارة الى ما ذكره ابن خلدون من ذلك ، ونزيد هنا ان ملوك بني ساسان ولا سيما كسرى انوشروان الذي سبق الدعوة الاسلامية بقليل من الزمن كانوا قد اهتموا جداً باحياء العلوم والاداب الايرانية ، وان العرب انفسهم كانوا ينظرون الى العجم نظرهم الى قوم متقدمين عليهم في الحضارة والعلم ، وعندهم لكسرى المذكور مقام فريد وكان في البلاد العجمية قبل الاسلام مراكز مهمة للعلم اهمها جنديسابور حيث التقت تحت رعاية العرش الفارسي

---

(١) المقدمة ٤٩٧—٤٩٩

(٢) Moore, Hist. of Religion 438

الفلسفة الهندية بالفلسفة اليونانية ، وقد مر الكلام على هذه المدرسة في كلامنا عن المصدر اليوناني

٣ — في الكتب التي نقلت عن الفارسية ذكر ابن النديم[١] ما يزيد على اربعين كتاباً اكثرها يرجع الى اصل فارسي والباقي كتب تحت رعاية الفرس. ومن اهم ما تسرب من الفرس الى حياة العرب الادبية الرسائل او الكتب التي تبحث في الفلسفة الادبية ككتاب مسكويه « ادب العرب والفرس ». جاء في كتاب العلامة الروسي انو سترانزوف « تأثير ايران في آداب العرب »[٢] ان هذا الكتاب يرجع الى اصل فارسي وكذلك كتاب الادب لابن المقفع وكتب اخرى في هذا الباب من اراد مراجعة اسمائها فليراجعها في هذا الكتاب الفريد[٣]

وقد ذكر الفهرست اسماء الذين نقلوا من الفارسية الى العربية نخص منهم هنا ابن المقفع المشهور وآل نوبخت — موسى —ويوسف ابنا خالد — ابو الحسن علي بن يزيد التميمي — حسن بن سهل الفلكي— البلاذري — جبلة بن سالب كاتب هشام — اسحق بن زيد — عمر بن فرُّخان وسواهم[٤] . ولو ان المقام يقتضي الاسهاب في ذكر اعمالهم وشرح ما نقلوه لذكرنا هنا الكتب التي نقلوها كتاباً كتاباً ولكن ذلك ليس غرضنا هنا

٤ — في العلاقة الجغرافية والتاريخية التي نزاها بين الفرس والجاهلية . من ذلك ان مملكة الحيرة العربية كانت مركز النفوذ الفارسي بين عرب الجزيرة ، وان ذلك اقتضى ان يكون بين الجنسين احتكاك ادبي اجتماعي . ومما يشير الى هذا الاحتكاك ما ذكره القفطي[٥] عن الحارث بن كلدة طبيب العرب ان اصله من ثقيف من اهل الطائف وقد رحل الى فارس واخذ الطب عن اهل تلك الديار من اهل جنديسابور وغيرها ومن يدري انه لم يكن غير الحارث من عرب الجاهلية الذين رحلوا الى فارس في طلب العلم . وهذه الصلة الادبية لم تنقطع بظهور الاسلام فان انتشار العرب بالفتح في الاقطار الفارسية جعل احتكاكهم بالفرس اشد مما كان قبلًا . ومع ان القسم الكبير من كتب الفرس ذهب بعد انحلال دولتهم فقد حافظ المجوس على عدد مهم منها بقي الى الدولة العباسية الى ايام

(١) الفهرست (ل) ٣١٣—٣١٦ (٢) نقلهُ الى الانكليزية الاديب الفارسي نرمان

(٣) Iranian Inflnence on Moslem lit. 53

(٤) الفهرست (ل) ٢٤٤ (٥) اخبار الحكماء ١١٣

عبدالله بن طاهر الذي اطلق يد التلف فيها[٣] والذي يدقق في تاريخ فارس يرى ان الآداب والعلوم والتقاليد الوطنية الفارسية بقيت سالمة بعد الفتح الاسلامي في الولايات الشرقية والجنوبية كخراسان وفارس ويدلنا على ذلك ان خراسان كانت بؤرة الحركات السياسية التي ادّت الى اسقاط الامويين

اما ولاية فارس (وهي في جنوبي ايران) فقد كانت حصن المجوس هناك حفظت كتبهم ومعتقداتهم الدينية والفلسفية وكان بعض مؤرخي العرب يرجعون اليهم[١]، وقد وصف جغرافيو العرب كالاصطخري وابن حوقل والمقدسي وياقوت واليعقوبي تلك البلاد وصفاً يدل على ان المجوس (اتباع زرادشت) كانوا يتنعمون بالحرية الدينية في ولاية فارس ، وانهم كانوا لا يزالون محافظين على الشيء الكثير من الكتب الفارسية القديمة

وهنا لا يسعنا الاّ ان نذكر « الشعوبية » وهي فرقة من اصل عجمي كانت طبعاً تتعصب للعجم وتفضلهم على العرب. ولا شك انها كانت من حملة الروح الفارسية الى اللغة العربية ، وكذلك كان الزنادقة الذين كان يتّهم بمذهبهم بعض من اكابر الادباء والشعراء كبشّار وابن المقفع وسواهما . وكانت الزندقة تطلق بالاكثر على المجوس او الثنوية[٢] اي على اتباع زرادشت او اتباع ماني الحكيم وكلاهما فارسيان[٣]

المصدر الهندي

يصعب تعيين السبيل الذي جرى فيه الفكر الهندي الى نفوس الناطقين بالعربية ولكن مما لا ريب فيه انه كان للفلسفة وللعلوم الهندية تأثير شديد في تكوين الفلسفة العربية . وقد تقدم معنا ان مدرسة جنديسابور كانت قبل الاسلام ، ولا سيا في ايام كسرى انو شروان مركزاً علمياً التقت فيه عاوم الهند بعلوم اليونان ، ومنه حمل الشيء الكثير الى العرب . ونلمح شيئاً من العلاقة الفكرية بين الهند وامم الشرق الادنى قديماً في ما القاه سكرتير المتحف التجاري في فيلادلفيا على الجمعية الفلسفية الاميركية حيث يقول ان الهنود كانوا يرسلون سفراء الى سلوقية وانطاكية واسكندرية وغيرها ، وكان هؤلاء السفراء

(٣) Browne, Lit. Hist. of Persia I — 347

(١) Iranian Influence 21 ، 25-26 (٢) عن لسان العرب والقاموس

(٣) من اراد الاطلاع على مذهب هذين الحكيمين فليراجع ذلك في دائرة المعارف البريطانية ، وفي كتاب *Zoroaster* لجاكسون ، وفي الفهرست لابن النديم

ايضاً دعاة دينيين[١]. على ان احتكاك العربية بالعقلية الهندية لم يبلغ كماله الاّ بعد الاسلام، فان امتداد العرب بالفتح قرّب العناصر الهنـدية من العناصر السامية العربية وجعل بينها علاقة كبيرة في التجارة والعلم والدين.

من ايام بني امية الى ايام محمود بن سبكتكين (اواخر القرن الرابع للهجرة) كان الفتح الاسلامي باباً لتسرُّب المبادىء الفلسفية الهندية الى نفوس العرب، وقوام الفلسفة الهندية التي ظهر اثرها في تاريخ الفكر العربي الزهد والفناء الروحي، وقد انتشرت هذه المبادىء الروحية بانتشار البوذية في ولايات ايران الشرقية واحتكاكها هناك بالاسلام بعد الفتح[٢]. واذا اعتبرنا ما اخذه افلاطون وفيثاغورس من فلسفة الهنود يحق لنا ان نقول ان شيئاً من فلسفة الهنود وتعاليمهم وصلت الى العرب عن طريق اليونان ايضاً

وفي الفهرست لابن النديم[٣] ذكر الكتب الهندية المشهورة والذين نقلوا منها الى العربية، ومنها كتب الطب والخرافات والاسمار والاحاديث والتوهم او السحر والمواعظ والحكم، ومنها كتاب ملل الهند واديانها. وجاء فيه نقلاً عن الكندي « حكى بعض المتكلمين بان يحيى بن خالد البرمكي بعث برجل الى الهنـد ليأتيه بعقاقير موجودة في بلادهم وان يكتب له اديانهم فكتب له هذا الكتاب. قال محمد ابن اسحق الذي عني بامر الهند في دولة العرب يحيى بن خالد وجماعة البرامكة واهتمامـها بامر الهند واحضارها علماء طبها وحكمائها[٤]. اه ويذكر الجاحظ عن لسان ابي الاشعث ان يحيى بن خالد اجتلب اطباء الهند مثل منكه وبازيكر وقلبرقل وسندبار وفلان وفلان[٥]

والخلاصة ان مجرى الفكر العربي له روافد ثلاثة كبرى، اليونان وهو اهمها ثم والفرس، والهند، وان ما اكتسبه العقل السامي العربي من هذه المصادر غير السامية ايقظ فيه حركة قوية ظهرت ثمارها الفلسفية والعلمية في ابان التمدن الاسلامي، وسنشير الى كل من هذه المصادر في سياق كلامنا على المجاري الرئيسية في حياة العرب الفكرية

---

(١) Early Communication Between China and the Medit. 1921

(٢) Moore - Hist. of Religion 447

(٣) الفهرست (ل) ٣٠٥ و ٣١٥—١٧

(٤) الفهرست (ل) ٣٤٥

(٥) البيان والتبيين (ع) ١—٤٠

المجاري الفكرية العامة

للحركة الفكرية عند العرب ثلاثة مجارٍ كبرى — الفلسفة والكلام والتصوّف. وغاية الفلسفة التوصل الى المبادىء الاولى عن طريق العلم، واصحابها في الغالب اتباع اليونان وتجد لهم في الشعر العربي نفثات تنمّ على آرائهم كقصيدة ابن سينا في النفس التي يقول فيها[1]

هبطت اليك من المحلّ الارفعِ ورقاء ذات تعزُّزٍ وتمنُّعِ
محجوبة عن كلّ مقلة عارفٍ وهي التي سفرتْ ولم تتبرقعِ
وصلتْ على كرهٍ اليكَ وربّما كرهتْ فراقكَ وهي ذات توجّع
أنِفت وما ألِفت فلمّا واصلتْ الفتْ مجاورة الخراب البلقع
واظنها نسيتْ عهوداً بالحمى ومنازلاً بفراقها لم تقنعِ

ومنها —

فلأيّ شيءٍ أُهبطتْ من شاهقٍ سامٍ الى قعر الحضيض الاوضعِ
ان كان اهبطها الاله لحكمةٍ طُويتْ عن الفَطنِ اللبيب الاروعِ
اذ عاقها الشرك الكثيف فصدّها قفصٌ عن الأوج الفسيح الارفع
فكأنها برقٌ تألّق بالحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمعِ

وفي الشعر العربي كثير من الاشارات الفلسفيّة والاوضاع العلمية التي كانت شائعة في العصر العباسي

كقول ابي القاسم الاصفهاني يصف حماماً في دار صديق له[2]

ودخلت جنّته وزرت جحيمه وشكرت رضواناً ورأفة مالكِ
والبشر في وجه الغلام نتيجة لمقدّمات ضياء وجه المالكِ

وقول ابي علي المهندس[3]

تقسّم قلبي في محبّة معشرٍ بكلٍ فتى منهم هواي منوطُ
كأنّ فؤادي مركز وهمُ لهُ محيطٌ واهوائي لديه خطوطُ

---

(١) راجعها في دائرة المعارف للبستاني تحت ابن سينا
(٢) القفطي ٢٢٦ (٣) القفطي ٢٦٧

ولم ينحصر ذلك في اقوال العلماء والفلاسفة بل تعدَّاهم الى اهل الادب ، كقول المتنبي مشيراً الى اختلاف المفكرين في مصير النفس

تخالف الناسُ حتى لا اتّفاق لهم الاّ على شجبٍ والخُلفُ في الشجبِ
فقيـل تخلص نفس المرء سالمـةً وقيل تشرك جسم المرء في العطبِ

وقوله ذاكراً فلاسفة الاقدمين

من مبـاـغ الأَعراب اني بعدهـا جالست رسطـاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملـكاً متبـدِّياً متحضِّرا
ولقيت كلَّ الفـاضلين كانما ردّ الاله نفـوسهم والاعصرا

وقول المعرّي في عالم الافلاك

العـالم العـالي برأي معـاشر كالعـالم الهـاوي يحسّ ويعلم
زعمت رجال ان سيـاراته تثق العقول وانهـا تتكلم

وقوله — اركان دنيـانا غرائز اربع جعلت لمن هي فوقنا اركانا

وقوله — في مصير الروح

قد قيل ان الروح تأسف بعدما تنأى عن الجسد الذي غنيت به
ان كان يصحبهـا الحجى فلعلّها تدري وتفطن للزمان وعتبه
اولا فكم هذيان قوم غابر في الكتب ضاع مداده في كتبه

وللمعرّي كثير من النفثات الفلسفية وسترى ذلك في حينه

ولو تحرّينا جميع ما دخل الشعر العربي من هذا الباب لعرفنا ما كان للفلسفة والعلوم الطبيعية من التأثير في الادب . وقد كنا نودّ ان نثبت هنا زبدة الآراء الفلسفية التي اقتبسها العرب عن سواهم ولا سيما عن افلاطون وارسطو والافلاطونية الجديدة . ولكننا نكتفي هنا بالاشارة اليها ونحيل المتعمق الى مصادرها الرئيسية

اما الكلام فمجارٍ شتى نخص منها بالذكر المعتزلة والاشعرية

المعتزلة

ظهر الاسلام فاعتنقه العرب وامتد بالفتوح الاولى الى غير العرب ، ولم يكن كل الذين اعتنقوه وقاموا بفروضه ونوافله في درجة واحدة من خلوص الايمان والاعتقاد ، بل كان

شأنهم في ذلك شأن المسيحيين ايام قسطنطين الكبير : فان انقلاب الدولة الرومانية بغتة من الوثنية الى المسيحية ليس بدليل على ان كل الذين دانوا يومئذ بالدين الجديد استأصلوا من اعماق نفوسهم مبادىء مذاهبهم الاولى ، بل بقي بعضهم محافظين باطناً على معتقدات غير مسيحية لم تلبث ان ظهرت في تاريخ المسيحية واشتد خطرها على المبادىء الحقيقية ، حتى كان ما كان من الاصلاح ، وما نجم عنه من التطوُّرات الجديدة

هكذا الاسلام اعتنقه كثيرون ممن بقي في نفوسهم اثر من غيره ، ولكن ذلك الاثر لم يظهر الا بعد ان صلح له الجو ، ولا سيما بعد ان خرجت الدولة العربيـة تدريجياً من بساطتها الاولى الى حياة الحضارة والعلم . هذه امور ليس بالهيّن اقامة الدليل التاريخي عليها لانها من قبيل العوامل الخفية التي ندركها بالاجتهاد والاستنتاج ، ولكن لا بد من ذكرها قبل التبسط في الحقائق الراهنة . والذي لا جدال فيهِ انهُ في الدولة الاموية بدأت تباشير حركة فكرية لم تعهد في ايام الراشدين ، وما ذلك الاَّ لان العقل كان قد بدأ يستنير بانوار جديدة . وصحب هذه الاستنارة تطورات فكرية ، منها حركة المعتزلة التي نحن بصددها. واول معتزلي حسب النص التاريخي هو واصل بن عطاء وكان من اتباع الحسن البصري ، ثم اخذ مذهبه في الانتشار حتى بلغ ابّانه في ايام المأمون العباسي ، ولكنه عاد الى التقهقر والضعف حتى قضي عليه ، ولم يعد الى الظهور كمذهب خاص

والمعتزلة ، على اضطراب كثير من نظرياتها ، تحاول اخضاع النظريَّات الدينية لحكم العقل ، وهي بلا ريب نتيجة منطقية لاحتكاك الفلسفة بالدين : فقـد جاء الاسلام وتعاليمه واضحة ونصوصه محدودة ، وهي مبنية كسائر النصوص الدينية على التسليم لله والايمان بوحيه المنزل . ولم يخامر قلوب المؤمنين الاولين شك فيهـا ولا شغلهم بحث عن اسرارها ، فلم يهمهم ازاء تقواهم البسيطة الخالصة من شوائب الريب ان يحكّموا النقد العقلي في كل ما آمنت به قلوبهم واطمأنت اليه نفوسهم .وتلك مزيَّة الايمان الحقيقي .

وانك اذا استقصيت اخبار الدعوات الدينية لتجده من الصفات الملازمة للدعاة الاول. فلما لعبت في الجو الاسلامي رياح الفلسفة ، وتسرب الى العقول شيء من نظريات الحكمة اليونانية[1] ولا سيما المشائية (الارسطوية) ، شرع المفكرون يبحثون ويقيسون ويقولون علام

---

(١) راجع الكلام عن النظام في كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي ١١٣ . وعن الجاحظ في الملل والنحل للشهرستاني

ولم ؟ فقادهم ذلك الى مسائل ابعدتهم عن بساطة المعتقد المبني على التنزيل[١] . من هذه المسائل مسألة خلق القرآن ، ومسألة صفات الله ، وحرية الارادة ، وقدميَّة الكون وكيفية المعادوما شاكل

وقد رفض المعتزلة ازلية القرآن وجعلوه مخلوقاً[٢]، وكان من اهم انصارهم في ذلك المأمون وامره مشهور

واما الصفات الالهية وهي العلم والحياة والقدرة والارادة والسمع والبصر والكلام فقد نفوها : قال ابن خلدون في كلامه عن المعتزلة « فقضوا بنفي صفات المعاني لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم (راجع مقدمة ابن خلدون تحت علم الكلام) ذلك لانهم نظروا الى الصفات كموجودات يلزم عنها تحديد وجود الله المطلق وهذا عندهم مناف للاحكام العقلية » . على ان منهم من لم ينكر صفات الله وانها سرمدية بل ذهب مذهب ابن العلَّاف (المتوفى ٢٢٨هـ) ان صفات الله ليست بشيء خارج عن جوهر الله بل هي اشكال يتشكل فيها ذلك الجوهر . وكان يقول ان علم الله هو الله ، وان قدرة الله هي الله[٣] . فالارادة مثلاً ليست صفة خارجية يتصف بها الخالق بل هي صورة اخرى لعلمه وهكذا جميع الصفات مظاهر مختلفة لجوهر واحد . وقد زاد على ذلك احد ائمتهم سيار النظَّام المتوفى ٢٣١هـ ، فقال ان الله لعلمه السرمدي بالخير لا يريد غيره ، اي ان ارادة الله هي علمه . فالمطلق عندهم (الله) لا يوصف بنفي ولا اثبات ، فلا يقال هو واحد او اكثر ، ولا يوصف بالقدم عندهم غير الله . ومع ان بعضهم اثبتوا لله احوالاً اربعة هي العالمية والقادرية والحيثية والموجودية ، فقد فرقوا بين الثبوت والوجود بالذات وقالوا انها موجودات غير موجودة[٤] : فكأنهم يعنون بذلك ان هذه الصفات حالات تظهر فيها الذات لا صفات زائدة عليها . وهذا قريب من مذهب ابي هاشم ابن الجبَّائي المتوفَّى ٣٢١هـ ، اذ جعل لجوهر الله احوالاً شتى يظهر فيها . ومع ان هذه الاحوال لا توجد بنفسها ولا تتصور بدون الجوهر فهي تمتاز عنه وبها يعرف الجوهر[٥] . ومنهم من يذهب الى ان الله يعلم جمل الاشياء ولا يعلم تفاصيلها وانه لا يقدر ان يخلق الذات ، وانما هو قادر ان يخرجها من العدم الى الوجود[٦]

---

(١) نقد العلم والعلماء ٩٠ والبغدادي ٩٤ وفلسفة ابن رشد ٥٧
(٢) مقدمة ابن خلدون ٤٠٦
(٣) نقد العلم والعلماء ٨٨
(٤) شرح تهذيب الكلام ١١١
(٥) الملل والنحل للشهرستاني هامش ابن حزم ١–١٠٢
(٦) نقد العلم والعلماء ٨٨

فالمعتزلة في ذلك تخالف الصفاتية ، اي التي تثبت الصفات لله . والارادة عندهم حرة وقد فسّر الجاحظ (وهو معتزلي) الارادة بانها حال من احوال المعرفة ، وحرية العمل او الارادة ان يعرف العمل من فاعله . فالانسان عند المعتزلة مخيّر لا مسيّر ، وهو مسئول عن اعماله ، وانه على اكتسابه يترتب العقاب والثواب [1]

ويضادهم في ذلك الجبرية . وهم يقولون لا علة ولا معلول في الاشياء التي نراها او نشعر بها ، لان كل شيء مسبب مباشرة عن الله . فاذا نعست فالنعاس وضع فيَّ بعمل خاص من الله ، واذا كتبت فتحريك القلم وارادة الكتابة وما يتعلق بهما قد اتصلت بي رأساً من الله . فلا دافع لما يريده الله ، وما الانسان الاَ واسطة لتنفيذ ارادة الله [2] . وعلى ذلك الاشاعرة الذين يذهبون الى ان الله يخلق كل عمل . وزاد عليهم الباقلاني تطرفاً بقوله بل الله يجدد كل شيء (حتى اللون مثلاً) كل لحظة . فما يفعله الله الآن وما يخلقه قد يجيء في اللحظة التالية ما يناقضه : كل شيء ، كل عمل ، كل حركة في الكائنات متوقف مباشرة على ارادة الله

هذه التعاليم التي ترجع كل شيء الى ارادة الله مباشرة تبرز لنا شريعة القضاء والقدر في اعظم مظاهرها . وليست المعتزلة على ذلك ، لان القول بحرية الارادة وبمسؤولية الانسان يناقضه . وحجتهم انه لو كان العبد غير خالق لافعاله الاختيارية لكان القول بالثواب والعقاب لغواً

قدمية الكون

وهذه المسألة نراها في كل نظام فلسفي ، فالفلسفة المادية مثلاً تجعل الكون قديماً (اي ازلياً لا بداءة له) والروحية تجعله محدثاً . وواضح ان الدين والكلام يذهبان الى حدوث الكون بقوة الخالق المبدع المريد . فما قول المعتزلة في هذا الشأن ؟ قال ابن رشد في كلامه عن المعتزلة [3] . « واما المعتزلة فانه لم يصل الينا من كتبهم في هذه الجزيرة (الاندلس) شيء نقف منه على طريقهم في هذا المعنى ويشبه ان يكون طريقهم من جنس طرق الاشعرية » . فكانه يقول ان المعتزلة والاشعرية سِيّان في نظرهما الى قدم الكون . وهو على

---

(١) فلسفة ابن رشد ١٠٥ والبغدادي ٩٤ (٢) الشهرستاني هامش ابن حزم ١—١١٠
(٣) فلسفته ٤٥

ما ارى غاية ما يصل اليه الباحث عن معتقدهم. فانهم وسائر المتكلمين سواء في هذا الصدد، الاَّ ان نظرهم الى الله غير نظر اهل السنّة، فهم اميل الى جعله مصدراً للعقل الفعَّال الذي تفيض منه عوالم النفس والطبيعة. وهذا يجعل الجنّة والخلود والجحيم في نظرهم غير الاحوال المحسوسة التي يصورها الدين. ولا ريب ان للفلسفة اليونانية تأثيراً ظاهراً في مبادئهم، فالقول في ازلية صفات الله وتفسيرهم تلك الصفات بانها هي نفس جوهر الله او انها اعراض لجوهر واحد، وقول شيخهم النظَّام ان النفس بحجم الجسد وعلى شكله تتخلل دقائقه كما تتخلل الزبدة دقائق اللبن، مأخوذ من قول ارسطو في المادّة وصورتها. وقول معمر السلمي في صفات الله ومطلقيتـه يقود الى الرأي الاتحادي (اي ان الله والكون واحد) الذي هو اثر من آثار الافلاطونية الجديدة مصبوغ بالصبغة الهندية. واما نظرية بعضهم ان الله لمعرفته الكلية بالخير لا يستطيع ان يريد غيره لعباده فيقرب ان يكون نفس ما علم به الرواقيون [١]. وللنظام راي في الخلق يكاد يكون نفس الافلاطونية الجديدة

والخلاصة ان الاعتزال مبدأ فكري يحاول ان يستنير بالعقـل ويخضع كل شيء لاحكامه، لكنه اراد ان يجعل بين العقل والنقل متمسكاً بكليهما فلم يوفق تماماً، ولذلك كثر اضداده ومنتقدوه

الاشعرية

وهم ينتسبون الى ابي الحسن الاشعري المتوفي ٩٥٣ م، وكان من تلاميذ المعتزلة في بغداد، ولكنه لم يبق كذلك بل انقلب عليهم واصبحت فرقته اشد الفرق في مناضلتهم [٢]، واليك بعض اوجه النضال بين الفرقتين

في ماهية الله

كان الجمهور من المؤمنين ينظرون الى ما ذكره الكتاب المنزل عن اعضاء الله الجسدية كاليد والعين والاذن الخ نظراً حرفياً. اما المعتزلة فاتخذت ذلك من قبيل التأويل، فقالوا لا يد حقيقية لله وانما هي اشارة الى قوتهِ وبسطته، وهكذا فسَّروا سائر الاعضاء. فقام

---

(١) راجع النظامية في الفرق بين الفرق ١١٦ والبهشمية ١٨٨
(٢) ابن خلكان ١—٣٢٦

الاشعري وعلم ان الله يمكن رؤيته في الآخرة وان لهُ سمعاً وبصراً ويدين ووجهاً الخ ، ولكن ماهية تلك الاعضاء خارجة عن معقول الانسان او هي وراء العلم [١]

المعاد

ذهبت المعتزلة الى ان الدليل العقلي هو الهادي الذي يهدينا الى معرفة ما وراء الطبيعة [٢] ، وان حالة النفس من عذاب او نعيم انما هي حالة عقلية لا جسدية . فقال الاشعري بل العقل لا يستطيع الهداية ، فما علينا الا التصديق والايمان بالوحي المنزل وان الامور التي ذكرها الكتاب كجلوس الله على العرش والحوض والموقف والفردوس والملاكين المنكر والنكير وما شاكل — كل ذلك حقيقة راهنة لا صور خيالية كما يدعي المعتزلة

صفات الله

في هذا الباب يسلك الاشعري مسلكاً وسطاً بين السنة والمعتزلة فهو يقول بصفات الله وقدميتها على ان تلك الصفات اشكال او تكيُّفات لجوهره ، فلا هي عين ذاته ولا هي غيرها [٣]

رأيه في القرآن

سلك في ذلك مسلكاً اصبح معوّل اهل الكلام ، وهو ان القرآن كلام نفسي قديم غير مخلوق ، وانما المخلوق هو الصور اللفظية لذلك الكلام النفسي

الجبر والاختيار

(القضاء والقدر وحرية الارادة) . ليس عند الاشاعرة من ارادة حرة . فالله (القديم الازلي) عندهم هو المطلق المدبّر لكل حركة — خالق الانسان واعماله وما الانسان الاّ آلة في يد الله ، مسيَّر عقلاً وجسماً بارادته الالهية ، وليس له من عمل الاَّ الكسب . وهو

---

(١) الشهرستاني هامش ابن حزم ١—١٣١و١٣٢

(٢) راجع مناقشات ابن تيمية في ذيل فلسفة ابن رشد ٨

(٣) او كما يقولون هي منه بنسبة الواحد الى العشرة فهو ليس بالعشرة ولا غيرها

كما في القاموس« تعلق قدرة العبد وارادته بالفعل المقدور » اي تطبيق ارادة الله على العمل . وهذا طبعاً يقود الى الاعتقاد بان الله خالق الخير والشر وهو مخالف لمبدأ الاعتزال القائل بان الله لا يستطيع ان يريد غير الخير ، وان الخير والشر يدركهما الانسان بالعقل وعلى ذلك فهو مسئول عن اعماله

ومبدأ الاشعرية ينفي من الطبيعة نظام العلة والمعلول ؛ لانه يجعل الله علة كل شيء ، صغيراً كان ام كبيراً ،جسدياً ام عقلياً . فاذا مسست النار مثلاً لم تحرقك النار لان الحرق من طبيعتها ، بل لان الله يخلقه عند مسك اياها . وعليه لا يستغرب او لا يستحيل ان يجعلك تشعر بالبرودة عند مسك النار ، لان نوع الحس راجع رأساً الى ارادته . فما العجائب اذن بخوارق لنظام الكون ، بل هي من اعمال الله غير المألوفة عندنا

قلنا ان المبدأ الاشعري معول اهل الكلام . والنضال الذي احتدم بين الاشعرية والمعتزلة انتهى بانتصار الاولى . ولم ينقض القرن الرابع للهجرة حتى انقضى معها عصر المعتزلة

التصوف

تباينت الاراء في اصل هذه الكلمة فذهب بعضهم الى انها من صفاء النفس ، وهو قول المتصوفة . وقال غيرهم بل هي من اصل يوناني معناه الحكمة . على ان ابن خلدون يرى كما يرى كثيرون غيره ان اشتقاق اسمهم من الصوف [١]

كان المؤمنون الاولون من الصحابة والتابعين معروفين بالقناعة عاكفين على الصلاة والعبادة معرضين عن زخرف الدنيا وزينتها ، فلما تقدم المسلمون في الحضارة ومالوا الى الترف في العصر الاموي وما بعده ، نشأت بين اهل الدين حركة مرماها الرجوع الى بساطة الايمان الاولى ونبذ الشهوات العالمية . على ان هذه الحركة لم تكن الا توطئة للتصوف الحقيقي الذي عرف بعدئذ . فاننا نراه في ابانه نظاماً روحياً خاصاً يمت بشيء من القرابة الى انظمة روحية سابقة . فما هي هذه الانظمة ؟ قال المستشرق فون كريمر [٢] ان اصل الصوفية عربي يرجع الى نظام الزهد والتنسك الذي كان شائعاً في المسيحية قبل الاسلام .

---

(١) راجع المقدمة الصوفية لابن الوردي ومقدمة ابن خلدون ٤٦٧ ودائرة المعارف البريطانية تحت Sufism . ويظهر ان لبس الصوف قديم في الاسلام فقد ذكره ابن قتيبة في عيون الاخبار وارجعهُ الى زمن الحسن البصري

(٢) Arabic Thought 185

والدليل على ان عرب الجاهلية احتكوا بزهاد المسيحيين وعرفوهم، ما ورد في اشعارهم عنهم

والذي يظهر لنا ان في كلام فون كريمر بعض الحقيقة لا كلها. فقد يكون نساك المسيحية المثال الذي تحداه متصوفو الاسلام ، ولكن النظام اللاهوتي الصوفي لا يقف عند ذلك ، بل يرجع الى مصادر يونانية وهندية وفارسية . فالافلاطونية الجديدة التي مرّ ذكرها آنفاً كانت قد خمّرت الفكرية الشرقية بكثير من المبادىء اللاهوتية ، ومنها التجسُّد ، وعودة النفس الى اصلها (العقل الفعال او الله). اما الاثر الهندي في التصوف فتراه واضحاً في فكرة الاتحاد الروحي فالفلسفة الهندية تُعلِّم ان الروح الاعظم والعالم المادي واحد (وحدة الوجود)، وكل ما في العالم يجري من ذلك الروح واليه يعود — هو الموجود الساطع الذي يرى في قرص الشمس كما يرى في عين الانسان . هو النور الوضّاء الذي يضيء في السماء وفي الارض وفي نفس الانسان . هو الذات العاقلة الخالدة السعيدة

على ان الرجوع الى الروح الاعظم يقتضي فهم اسفاره المقدسة (الفيدا) وممارسة الطقوس والعبادات الخاصة ، ولا سيما مراسيم التقوى والتوبة . وانما يطهِّر العقل من كل فساد بممارسة الفضيلة لنفسها دون النظر الى ثواب. ولا يستحق الاتحاد بالروح الاعظم (برهما) الاَّ الذي يتصف بالصفات التالية —

١ — التمييز بين ما يبقى وما يفنى ٢ — عدم الاكتراث لثواب او مسرة
٣ — الحصول على السكوت التام وضبط النفس ٤ — الرغبة في الخلاص

فهناك شبه بين الاتحاد الصوفي والفناء الهندي « النرفانا » ، ولكن الاختلاف بينهما بيّن ، لان الاول يقضى باستقلال ذاتية النفس في الوجود الاعظم ، وان يكن قد توغل بعضهم في القول بالوحدة[1] ، والثاني يقول بتلاشيها . وسترى في شرح الصوفية بعد انَّ فيها اثراً كبيراً من التعاليم الهندية التي كانت منتشرة في العجم والهند قبل الاسلام ، والتي جعلت للتصوُّف صبغة غير الصبغة الزهدية التي عرف بها اتقياء المسلمين الاولين : هؤلاء لم يؤسسوا لاهوتاً جديداً ولا خرجوا عن نصوص القرآن في ماهية الله ، وحالة النفس بعد الموت

اما الاثر الفارسي فقد ذهب بعضهم الى انه يرجع الى المانوية والمزدكية اللتين كان

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ٤٧٢ و ٤٧٣

للزهد فيهما شأن يذكر[1] . ولعل اهم اثر فارسي في الصوفية وفي سواها من الحركات الفكرية في الاسلام ان الذين قاموا بهذه الحركات اكثرهم من اهل فارس ، فهم ورثة العقلية الفارسية التي كانت قد تأثرت من تعاليم الهند ومن تعاليم الزعماء الروحيين ، كماني الحكيم وسواه . وماني ثنوي ، وخلاصة تعليمه كما شرحه ابن النديم[2] : ان للكون مبدأين النور والظلمة ، ولكل من هذين المبدأين اجزاء ، وباشتباك الاجزاء النورانية بالاخرى حدث الكون . فالخلاص (او السعادة) قائم على تطهير العالم من اجزاء الظلمة المشتبكة باجزاء النور . وسيظهر اثر ذلك في الصوفية

يؤخذ من تعاليم ائمة المتصوفين ان نقطة الدائرة في نظامهم هي الوحدة[3] اي اتحاد النفس بالله . وهذا المبدأ يوافق المبدأ الهندي كما مر معنا ، والمبدا اليوناني (الافلاطونية الجديدة) ، الاّ انه يختلف عن هذا بان الحصول على الوحدة لا يتوقف بالاكثر على العقل بل على التقوى وقمع الشهوات . قال الجُنيد البغدادي : التوحيد معنى تضمحل فيه الرسوم وتندرج العلوم ويكون فيه الله كما لم يزل[4] ، واخذ عنه الحلاج المتوفى ٣٠٩ وذهب مذهب الغلاة من الشيعة ، وقال بالحلول اي حلول الله في الاجسام ، وبالتناسخ وقد قتل بافتاء اكثر علماء عصره[5]

وفكرة الحلول ظاهرة تماماً في كلام ابي يزيد البسطامي وهو اول من قال بالفناء[6] ، او الذي خطا الخطوة الاولى من التصوف الى الحلول[7] . ومن مبادئهم ان الله هو الموجود الحقيقي — لا وجود حقيقي سواه (افلاطونية) ، ولكن في الانسان نفساً عاقلة هي صورة معكوسة عن نفس الله ، وهي قادرة ان تقترب من الحقيقة الالهية . وبما انهُ لا وجود حقيقي لغير الله فمعرفة الله لا تحصل بواسطة مادية (بالكسب او الدليل) ، بل بالهام روحي ، وان هذا الالهام يحصل في حالة التجرد عن الدنيا[8] . ومع انه لا وجود حقيقي لغير الله نجد هذا الوجود ممتزجاً بالغير الحقيقي . وهذا الامتزاج اساس العالم المادي (قابل ذلك بالمانوية) . فالشر نتيجة لازمة لامتزاج هذين الوجودين ، وغاية النفس الاتحاد بالله ،

---

(١) Arabic Thought 190 (٢) الفهرست (ل) ٣٢٧—٣٣٨ (٣) ابن خلدون ٤١٣

(٤) الرسالة القشيرية ١٣٥ (٥) ابن خلكان ١—٢٠٦ وابن النديم ١٩٠

(٦) دائرة المعارف البريطانية تحت Sufism (٧) Nichslson, Lit. Hist. of Arabs 390

(٨) فلسفة ابن رشد ٤٤ , ومقدمة ابن خلدون (التصوّف)

وكل ما يساعد على بلوغ هذه الغاية فهو صالح ، وكل ما يحول دونها فهو شرير (وبهذا تتفق جميع الاديان والمذاهب) . وهذا الشوق الى الاتحاد بالحقيقة الالهية هو الحب الذي يتغنّى به الصوفيون ، ويجعلونه اساس ايانهم (راجع اشعار ابن الفارض اكبر شاعر متصوف عند العرب)

ومن اكابر المتصوفين في العرب محيي الدين بن العربي المتوفى ٦٣٨ هـ . كان اولاً من اتباع ابن حزم المشهور. وفي تعاليمه يظهر مبدأ الحلول والوحدة تام الظهور فمن اقواله في الله « فلذلك قال تعالى انا عند ظن عبدي بي — اي لا اظهر له الاّ في صورة معتقده فان شاء اطلق وان شاء قيّد . فاله المعتقدات تأخذه الحدود وهو الاله الذي وسعه قلب عبده ، فان الاله المطلق لا يسعه شيء ، لانه عين الاشياء وعين نفسه . والشيء لا يقال فيه يسع نفسه ولا يسعها » اه[1]

ومن شرّاح ابن العربي عبد الرزاق المتوفى ٧٣٠ هـ ، وهو يقول بحرية الارادة لان النفس البشرية عنده فيض من روح الله ، فهي تشارك الله في القدرة على الاختيار وان العالم على احسن ما يمكن ان يكون ، وان الاشياء ستفنى اخيراً في وجود الله الكائن الحقيقي الوحيد . ويقسم البشر الى ثلاثة اصناف وهم

العالميون — اي محبو الذات الذين تدور حياتهم حول نفوسهم وهؤلاء لا يكترثون للدين والمبادىء الروحية

العقليون — وهم اهل الفكر الذين يرون الله بنور العقل في مظاهر الوجود

الروحيون — وهم الذين يرون الله بالكشف اي بالهام روحي يوافيهم من الحضرة الربانية

***

والخلاصة ان الصوفية بدأت مظهراً من مظاهر الورع الديني ، ولكنها انتهت في غلاتها بتعاليم بعيدة عن تعاليم السنة . ومحور مذهبهم الكشف الرباني بالتجرّد عن العالم

(١) خاتمة كتاب فصوص الحكم لابن العربي

والحب الالهي . وقد علق عليهم من تعاليم الهند والروم الوحدة والحلول والفناء في وجود الله ، على انهم تمادوا في مسألة الكشف والكرامات الى حد انّ بعضهم صار يستعمل لذلك طرق الشعوذة والسحر والتدليس

من اراد التوسع في درس الحركة الفكرية في هذا العصر فليراجع

برون		Lit. Hist. of Persia
كولدزيهر		Le Dogme et la Loi
اوليري		Arabic Thought
كارا دى فو		Les Penseurs de l'Islam
نكلسون		The Mystics of Islam
ابن حزم	—	الملل والنحل
الشهرستاني	—	" "
البغدادي	—	الفرق بين الفرق
ابن الجوزي	—	نقد العلم والعلماء
ابن خلدون	—	المقدمة

دوائر المعارف المختلفة



القسم الثاني

الشعر في العصر العباسي

مزاياه — اعلامه (دراسات تحليلية وانتقادية) — المختار من دواوينهم

بحث تمهيدي

في

خصائص الشعر العبّاسي

اذا وازنت بين الشعر القديم والشعر المولد فلا شك انك تجد في الاخير اثر التقدم ظاهرا للعيان ، على ان ذلك لم يبلغ به مبلغاً يخرجه عن المناهج التي اختطها الاقدمون . خذ الوصف مثلاً فانك تجده عريقاً في الشعر يرجع الى ما قبل الاسلام . على انه بينما كان قديماً ينحصر في البداوة وما يشاكلها ، صار — بعد ان اتسع الافق العمراني لدى المسلمين، وبعد ان طما بحر الرفه على بغداد وسواها من حواضر العصر العباسي — يتفنن في نعت اسباب الحضارة كالقصور والبرك والجنائن والولائم والجيوش والمراكب . ومثل ذلك تفننه في الخمر وانواع الغزل والمديح ، وما الى ذلك من ضروب النظم . ولا ينكر ان المولدين فاقوا الاقدمين في ذاك ، ولكنهم لم يبتدعوا اساليب جديدة او مواضيع جديدة تجوّز لنا ان نقول ان الشعر طرأ عليه في زمانهم تطور كبير .

والشعر نوعان رئيسيان وجداني وموضوعي . فالوجداني يدور على نفس الشاعر — على تأثره من امرٍ ما ، واظهار ذلك التاثر بالكلام المنظوم . ومن ذلك مدحه لاميره ، او تغزله بفتاته ، او هجاؤه لعدوّه ، او وصفه لما تقع على عينه ، او تحريضه على ما يشعر بصلاحه

اما الموضوعي فيدور على شيء خارج عن نفسه — على صفات يتخيلها او يراها فيما حوله من ظواهر الطبيعة او النظر في حياة الانسان ، وما الى ذلك من المواضيع الاخلاقية والادبية التي تمثل للجمهور ما يشعرون به في الحياة ، او تحملهم على اجنحة الخيال الى ما وراء المحسوسات ، فتستفز فيهم حب الجمال وتدفعهم في سبل الكمال

وانت اذا رجعت الى معظم دواوين الشعر في العصر العباسى ، ثم دققت في المقاييس الادبية التي وضعها علماء البلاغة ونقدة الشعر امثال قدامة والاصفهاني والامدي والعسكري

والثعالبي والجرجاني وابن الاثير واضرابهم ، رايت ان التجدد الشعري في العصر العباسي لم يتعدَّ في الاغلب صناعة الشعر ، وانه منحصر في الوجداني منه . وهو يظهر لنا في ثلاثة مظاهر

(١) رقة العبارة (٢) التفنن في المعاني (٣) التوفُّر على البديع اللفظي

وقد يضاف اليها التوسع في المصطلحات اللفظية

على انه من الانصاف ان نقول ان الشعر المولَّد يمثل لنا ايضاً تجدداً في الناحية الروحية من الشعر ، ناحية الزهد والورع والاصلاح : وتلك حركة خاصة سنتناولها في غير هذا المقام

رقة العبارة

وحكمنا من هذا القبيل اجمالي لا حصر فيه . فلا العهد القديم يتفرَّد بخشونة الاسلوب وضخامة الالفاظ ، ولا المولد بالنعومة والسلامة وعذوبة العبارة . ومن البيّن ان العبارة كثيراً ما تتوقف على الموضوع . فالشاعر القديم (بدوياً كان ام حضرياً) اذا تغزل او رثى او تأمل جاء بالرقيق الناعم ، كقول عروة يصف ما فعل به الوجد

جعلتُ لعرّاف اليمامة حكمه وعرّاف نجدٍ ان هما شفياني
فقالا نعم نشفي من الداء كله وقاما مع العوّاد يبتدرانِ
فما تركا من رقيـة يعلمانـها ولا سلوة الا وقد سقياني
فما شفيا الداء الذي بي كله ولا ذخرا نصحاً ولا الواني

وقول عمر بن ابي ربيعة من قصيدته المشهورة في فتاته نُعم

وبتُّ اناجي النفس اين خباؤها وكيف لما آتي من الامر مصدرُ
فدلَّ عليهـا القلب ريّا عرفتهـا لها وهوى النفس الذي كاد يظهرُ

وقول ابي ذؤيب في رثاء بنيه

والنفس راغبة اذا رغَّبتهـا واذا تُردُّ الى قليل تقنع
واذا المنيَّـة انشبت اظفارها الفيت كل تميمة لا تنفع

الى ما يجري مجراه من الشعر العذب الذي لا يمكن حصره هنا . فاذا تعديت ذلك الى ما يختص بمعيشة الاعراب ووصف منازلهم وادواتهم ، اصبح الشعر خشناً متوعراً ، كالذي

تجده في صفات الطلول والجمال والقسيّ واوابد القفر ، وما الى ذلك مما يعجُّ به الشعر القديم وكذلك الشعر المولد تجده في ادوار تختلف باختلاف مواضيعه واحوال قائليه . فمنه الذي يسيل عذوبة ويبلغ الدرجة العليا من الاناقة ، وسيمر بنا كثير منه .

ومنه ما يمتُّ بنسب متين الى العهد القديم ، تقرأه فتجد فيه عنجهية البداوة وتوعّرها كقول ابن دريد يصف حصانه

ومشرف الاقطار خاطٍ نحضه حابي القصيرى جرشعٌ عرد النّسا
سامي التليل في دسيع مفعم رحب اللبان في امينات العجى
ركّبن في حواشب مكتنّة الى نسور مثل ملفوظ النوى

ومنها في وصف حاله —

ما خلت ان الدهر يَثنيني على ضرّاء لا يرضى بها ضبُّ الكدى
ارمّق العيش على برضٍ فان رمت ارتشافاً رمت صعب المرتقى
في كل يوم منزل مستوبل يشتفُّ ماءَ مهجتي او مجتوى

وقول المعري في سقط الزند

لعل نواها ان تريع شطونها وان يتجلى عن شموس شطونها
اذا ما اتخنا حرة فوق حرة بكى رحمة الوجناء فيها وجينها

وللمعري ولا سيما في شعر شبابه كثير من هذا الضرب

ومثله ابو تمام ، وسنتناول ذلك في دراسته وتحليل شاعريته ، وانا نكتفي هنا بابياته التالية في وصف قتال حدث في الشتاء

ولعمر القنا الشوارع تمري من تلاع الطُّلا نجيعاً صبيبا
لقد انصعتَ والشتاء له وجهٌ يراه الرجال جهما قطوبا
سَبرات اذا الحروب أُبيخت هاج صنبّرها فكانت حروبا
فضربتَ الشتاء في أَخدعيه ضربة عاودته قوداً ركوبا

وهذا ابو نواس وهو في طليعة المولدين ديباجة ورونقاً لا يخلو شعره احياناً من النزعة الأعرابية كقوله —

إنّا اليك من الصليق فداسم طلع النجاد بنا وجيف الأينق
يتبعن مائرة الملاط كانما ترنو بعيني مقلتٍ لم تفرق

وسنرى ذلك في درس شعره

فنحن اذن في نعتنا الشعر المولد بالرقة لا ننفي الخشونة الاعرابية من بعضه ، ولا نحصر النعومة والسلاسة فيه . على اننا برغم ذلك نجد ان التطور الاجتماعي قد انشأ في العصر العباسي جواً حضرياً رائقاً ، فقضى على الفاظ وتعابير ، وانشأ عوضها ما هو اشد ملاءمة لروح العصر . ومن ذلك ميل الادباء عن اسلوب النظم القديم . وهو كما وصفه ابن قتيبة « ان يبتدىء الناظم بذكر الديار والدمن والآثار فيشكو ويبكي ويخاطب الربع ويستوقف الرفيق .... ثم يصل ذلك بالنسيب فيشكو شدة الشوق وألم الوجد والفراق ثم يرحل ويشكو النصب والسهر وسري الليل وانضاء الراحلة الخ » .[1] ومع ان هذا الميل الى التجدد لم يكن شاملاً ، فان له اثراً بيناً في المباحث النقدية التي عني بها علماء الشعر في ذلك العصر . ويوضح لنا ذلك ما ذكره ابن رشيق يصف الحالة الشعرية في زمانه ، اي في القرن الخامس الهجري (وقد سبقه الى ذلك نقدة الشعر منذ القرن الثالث) — قال « وليس بالمحدَث من الحاجة الى اوصاف الابل ونعوتها ، والقفار ومياهها ، وحمر الوحش والبقر والظلمات والوعول ، ما بالاعراب واهل البادية ، لرغبة الناس في الوقت عن تلك الصفات ، وعلمهم ان الشاعر انما يتكلفها تكلفاً ليجري على سنن الشعراء قديماً » ... الى ان يقول « والاولى بنا في هذا الوقت صفات الخمر والقيان وما شاكلهما وما كان مناسباً لهما ، كالكؤوس والقناني والاباريق وتفّاح التحيّات وباقات الزهر ، الى ما لا بدّ منه من صفات الخدود والقدود ... ثم صفات الرياض والبرك والقصور وما شاكل المولدين »[2] .

وله في العمدة مقابلة جيدة بين طريقة القدماء وطريقة المولدين في « باب المبدا والخروج والنهاية » فلتراجع هناك[3]

ومن دلائل التجدد اللفظي في العصر العباسي ظهور « النقد البياني » الذي جعل اساس البلاغة في الالفاظ السهولة والحلاوة والجزالة . وامثلة ذلك ما جاء لابي هلال العسكري في كتابه « الصناعتين » اذ قال — « فاذا كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة ، والسهولة والرصانة ، مع السلاسة والنصاعة ، واشتمل على الرونق والطلاوة ، وسلم من حيف التأليف ، وبعد عن سماجة التركيب ، وورد على الفهم الثاقب ، قبله ولم يردّه ، وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجّه . والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ وتقلق من الجاسي البشع ....

---

(١) الشعر والشعراء (م) ص٧ (٢) العمدة ٢—٢٢٧ (٣) العمدة ١ص١٤٥—١٦١

والفهم يأنس من الكلام بالمعروف ويسكن الى المألوف » الى آخر كلامه[١] . ومثل ذلك قول الجرجاني « واما رجوع الاستحسان الى اللفظ فلا يكاد يعدو نمطاً واحداً وهو ان تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم ويتداولونه في زمانهم ، ولا يكون وحشياً غريباً او عامياً سخيفاً »[٢]

ولا ينكر ان « النقد البياني » لم يصبح فناً ذا قواعد مرعية الا في القرن الرابع الهجري وما بعده ، بيد ان الروح النقدية التي تمثل التطور الصناعي في الشعر قديمة ترجع الى اوائل العصر العباسي

التفنن في المعاني

ويعنون بالمعاني الشعرية ضروب التمثيل والتشبيه والاستعارة

اما التمثيل فيراد به ان يعمد الشاعر الى حكمة عقلية ادركها الناس بالفطرة او عرفوها بالاختبار ، ويسبكها في قالب لفظي جميل ، كقول المتنبي

على قدر اهل العزم تاتي العزائم وتاتي على قدر الكرام المكارم

وتعظُم في عين الصغير صغارها وتصغُر في عين العظيم العظائم

والمثل في الشعر العربي كثير ، وقد تفننوا فيه في العصر العباسى فتركوا لنا من اقوالهم جواهر غالية . ويكثر ذلك في شعر ابي العتاهية وابي تمام وابن الرومي والمتنبي والمعري واضرابهم وسنلمّ بالكثير منها عند درسنا هؤلاء الشعراء ، وهو داخل عند الجرجاني في قسم المعاني المعقولة .. ويقابله عند ذلك الامام القسم التخييلي وهو كما قال مفتن المذاهب كثير المسالك لا يكاد يحصر الا تقريباً ولا يحاط به تقسيماً وتبويباً ، ثم انه يجيء طبقات وياتي على درجات فمنه ما يجيء مصنوعاً قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق حتى اعطي شبها من الحق وغشي رونقاً من الصدق[٣] .. الى ان يقول وجملة الحديث الذي اريده بالتخييل ههنا ما يثبت فيه الشاعر امراً هو غير ثابت اصلاً ويدّعي دعوى لا طريق الى تحصيلها ويقول قولاً يخدع فيه نفسه ويريها ما لا يرى »[٤] ومع انه يخرج الاستعارة من هذا الحد ترى معظم امثلته تدور على ضروب من التشبيه والاستعارة والمجاز

ولابن الاثير في المثل السائر بحث ضاف في توليد المعاني بسط فيه المراد بسطاً وافياً ،

---

(١) كتاب الصناعتين ٤١ (٢) اسرار البلاغة ٣

(٣) راجع اسرار البلاغة ٢١٦ (٤) اسرار البلاغة ٢٢٣

وخلاصته[٢] : ان المعاني على ضربين ، ما ينتزع من شاهد الحال ، وما ينشأ من غير شاهد الحال ، واليك امثلة ذلك : فمن القسم الاول

بكروا واسروا في متون ضوامر قيدت لهم من مربط النجّار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم ابداً على سفر من الاسفار

وهذا المعنى (اي تشبيه المصلوبين بالفوارس الراكبين ولا يبرحون مكانهم) استخلصه ابو تمام من رؤية بعض القائمين على الخليفة المعتصم مصلوبين على اخشاب عالية

مثال ٢ —

وزائرتي كأنّ بها حياء فليس تزور الا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي
كأنّ الصبح يطردها فتجري مدامعها باربعة سجام

شَعَر المتنبي بالحمّى ، وشاهد كيف كانت تزوره ليلاً وتدبُّ في جسمه وكيف كانت تهبط صباحاً ويبتلّ جسمه بالعرق من جراء ذلك ، فوصفها كزائرة ذات حياء لا تزور حبيبها الا ليلاً ، وتخيّل الصبح يطردها فتهطل لذلك مدامعها .

مثال ٣ —

ضربت لسيف الدولة خيمة عظيمة ، فهبّت ريح شديدة فسقطت ، وكان المتنبي حاضراً فقال في ذلك

أيقدح في الخيمة العُذّلُ وتشمل مَن دهرَها يشملُ

الى ان يقول

رأت لونَ نورك في لونها كلون الغزالة لا يُغسلُ
وانّ لها شرفاً باذخاً وانّ الخيام بها تخجلُ
فلا تنكرنّ لها صرعة فمن فرح النفس ما يقتلُ

فانظر كيف جعل سقوطها مسبّباً عن شدة ما نالها من الفخار والزهو ثم ساق الكلام الى قوله

---

(١) المثل السائر ١٨٧ — ١٩٧

ولما امرتَ بتطنيبها أُشيع بأنك لا ترحل
فما اعتمد الله تقويضها ولكن اشار بما تفعل

فجعل تقويض الله لها تكذيباً لما اشيع عند تطنيبها من انك لا تنوي غزواً لعدو. وقد اجاد المتنبي في انتزاع هذا المعنى والباسه ثوب المجاز والخيال

ومن القسم الثاني (اي المعاني المبتكرة من غير شاهد حال). قول علي بن جبلة مادحاً

تكفّل ساكن الدنيا حُميدٌ فقد اضحت له الدنيا عيالا
كأنّ اباه آدم كان أوصى اليه ان يعولهم فعالا

اراد ان ينعت ممدوحه بالكرم العظيم الشامل، فجعل العالم عياله وتخيّل ان آدم ابا البشر اوصاه باعالتهم ففعل

وقول ابي تمام يمدح اميراً اقام على بابه حاجباً يمنع الناس

يا ايها الملك النائي برؤيته وجودهُ لمراعي جوده كَثَبُ
ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي املاً ان السماء ترَجّى حين تحتجبُ

وقوله في الحاسد والمحسود

واذا اراد الله نشر فضيلة طويت، اتاح لها لسانَ حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عَرف العود

ومثل ذلك في الحسن قول ابن الرومي

كل امرىء مدح امرءًا لنواله واطال فيه فقد اساء هجاه
لو لم يقدّر ثَمَّ بعد المستقى عند الورود لما اطال رشاه

ومن لطيف المعاني قول ابن بقيّ الاندلسي

بابي غزالاً غازلته مقلتي بين العُذَيب وبين شطّي بارق
حتى اذا مالت به سنة الكرى زحزحته شيئاً وكان معانقي
ابعدته عن اضلع تشتاقه كي لا ينام على وساد خافق

وامثلة ذلك كثيرة في الشعر المولّد. واذا تأملتها تجد اكثرها او كلها من قبيل التفنن في المجاز والتشبيه، ولعلّ للاخير النصيب الاوفر مما يدخل في باب المعاني. وقد خصه ابن رشيق بالذكر اذ قال. « ان المعاني انما اتسعت لاتساع الناس في الدنيا وانتشار العرب بالاسلام

في اقطار الارض، فمصَّروا الامصار وحضَّروا الحواضر وتأنقوا في الملابس والمطاعم ، وعرفوا بالعيان عاقبة ما دلتهم عليه بداهة العقول من فضل التشبيه وغيره . وانما خصصت التشبيه لانه اصعب انواع الشعر وابعدها متعاطى[١] » وقال في موضوع آخر يقابل المحدثين بالقدماء « واذا تأملت ذلك تبيَّن لك ما في اشعار جرير والفرزدق واصحابهما من التوليدات والابداعات العجيبة ، ثم اتى بشار بن برد واصحابه فزادوا معاني ما مرَّت قط بخاطر جاهلي ولا مخضرم ولا اسلامي . والمعاني ابداً تتردّد وتتولد ، والكلام يفتح بعضه بعضاً »[٢].

ولم يرد ابن رشيق بالمعنى الشعري غير ما ذكرنا من التصرف في وجوه الصناعة المعنوية واهمُّها عنده التشبيه . والذي يطالع دواوين كبار الشعراء في العصر العباسى ، ويقابلها بما نظم في العهد الاموي وما قبله ، يجد صحة ما ذهب اليه ابن رشيق وسواه من تفوّق المولّدين في ذلك . ولا نظن الا ان هذه المعاني التخيلية اخذت تتضاءل بعد عصر الشعر الذهبي ، وقد ضعفت جداً بعد القرنين الثالث عشر والرابع للميلاد وبقيت كذلك الى اواخر القرن التاسع عشر ، ثم اخذت بالانتعاش على يد شعراء القرن العشرين

التوفر على البديع اللفظي

وما يقال عن رقّة العبارة واختراع المعاني ، من حيث ان المولّدين فاقوا بها الاقدمين ، يقال عن البديع اللفظي : فقد جعلوا الاخير فناً معروفاً وجروا فيه الى الغاية . وانواع البديع كثيرة وقد الّفت فيها كتب تدارسها الطلاب في كل جيل واول من صنّف فيها عبدالله بن المعتز الشاعر المشهور (في القرن الثالث الهجري) فجعل منها بضعة عشر نوعاً ، ثم جعفر بن قدامة فجمع منها نحو عشرين ، وجاء العسكري في القرن الرابع فجعلها خمسة وثلاثين . ثم اخذ البيانيّون والبديعيون يتفننون فيها حتى بلغت ما يزيد على المئة والخمسين ، واصبح للبديع في اواخر القرن العباسي سيطرة كبيرة لا على الشعر فقط بل على النثر ايضاً ، كما يتضح من الرسائل الديوانية والادبية في القرنين السادس والسابع

على ان المولدين لم يبتكروا البديع ابتكاراً بل توسّعوا فيه حتى بزُّوا سواهم : قال العسكري في كتاب الصناعتين ردّاً على الذين يعزون فضل ابتكاره للمحدثين (اي ادباء العصر العباسي) « فهذه انواع البديع التي ادّعى من لا رويّة ولا رواية عنده ان المحدثين

---

(١) العمدة ١ — ١٨٣ (٢) العمدة ٢ — ١٨٥

ابتكروها وان القدماء لم يعرفوها ، وذلك لما اراد ان يفخّم امر المحدثين ، لان هذا النوع اذا سلم من التكلف وبرئ من العيوب كان في غاية الحسن ونهاية الجودة »[1] . والعسكري كما مر بنا من اهل القرن الرابع الهجري ، وكان الشائع في زمانه على ما يفهم من دفاعه ، ان ادباء العصر العباسي هم الذين ابتكروا انواع البديع فنفى ذلك وقال بوجودها في الشعر القديم . وذلك معلوم ، ولكنه لا ينفي ان هذا الفن الكلامي لم ينظَّم ولم ينضج الا في العصر العباسي . ولا نعرف عصراً بلغ فيه ولوع المنشئين والشعراء بالبديع اللفظي كذلك العصر : فمنذ ايام مسلم وابي تمام الى ايام ابن الفارض وصفي الدين الحلي تجد ولع الناس بالبديع يزيد مع الاجيال . وبقي كذلك الى ايام ابن معتوق ثم الى مستهل النهضة الاخيرة ، لم يقض عليه غير ما اصاب الادب في اواخر القرن التاسع عشر للميلاد وفي القرن العشرين من التطوُّر اللفظي والخيالي

ولا يتسع المقام لذكر كل انواع البديع اللفظي والتمثيل عليها ، بيد انه لا بد من القول ان الطباق والجناس هما الركنان الاساسيان وعليهما يحوم اكثر الشعراء ، ويليهما رد العجز على الصدر ، والعكس ، والترصيع فسائر الانواع

وقد تناول ابن رشيق امر المقابلة بين القدماء والمحدثين فقال « ان المحدثين اكثر ابتداعاً لان الملك الاسلامي عظم في ايامهم » . واكثر النقاد يقولون ذلك ، ويعنون به ان اتساع الحضارة فتح للشعراء ابواباً جديدة للمعاني ، كاوصاف الخمر والنساء والغلمان والغناء ، وسائر اسباب اللهو والقصف ، وان ذلك انشأ في نفوس البعض شعوراً معاكساً مال بهم الى الزهد والتصوف وانكار الملذات — وفي ذلك ما فيه

على اننا عند التحقيق نجد ان هذا التجدد في المعاني انحصر بالاكثر في مجاري البديع لم يتعدَّاها الى الفنون الخيالية العليا المبنية على معرفة اوسع في الكون والانسان ، وعلى نظرات ادق في الطبيعة والعمران . ولم تكن الاشعار الروحية والادبية عموماً تأملات فلسفية في الحياة ، بل خطرات تأتي في سياق وعظ او انتقاد ، او لغير ذلك من المناسبات

التوسع في المصطلحات اللفظية

وهذا باب واسع يعسر الخوض فيه هنا ، وهو بمباحث تاريخ اللغة وتطورها اولى .

---

(١) الصناعتين ٢٠٤

على ان الناظر في تطور الشعر المولد لا يسعه الاّ ان يقف قليلًا عند هذه الظاهرة الادبية العامة ، وهي تمثل لنا امرين — (١) اختلاط العرب بالاعاجم (٢) الميل الى التحرر من بعض القيود اللغوية . اما الاول فقد مرّ معنا في الكلام عن تطور الحياة الاجتماعية ، فلا لزوم لاعادته . ويكفي هنا ان نقول ان هذا الاختلاط كان له اثره في الالفاظ الشعرية : قال الجرجاني في الوساطة ، ان المحدثين قد اتسعوا فيه حتى جاوزوا الحد لما احتاجوا الى الافهام وكانت تلك الالفاظ اغلب على اهل زمانهم واقرب من أفهام من يقصدون وقد افرط ابو نواس حتى استعمل زنمرده — ويازبنده — وباريكنده الخ .»[1]

ومن ذلك لابن الرومي شير وهي الاسد في الفارسية — زرياب اي ماء الذهب — الدوشاب وهو النبيذ الاسود — الكوش اي الاذن . وللمعري فرزان وفرازين وبياذق من اسماء الشطرنج — والزيج والاسطرلاب من ادوات الفلك — وبعض الفاظ عامية مثل آرا بمعنى نعم وامثالها .

وقد كان القدماء يستعملون الفاظ العجم عند الحاجة ولكنهم لم يبلغوا من ذلك ما بلغه المولدون[2] . وعن الجاحظ كان الشاعر يتملّح بها على عادة بعض الشعراء في ذلك الزمان[3]

***

واما الخروج عن نصوص اللغة فمما يلفت النظر وقد اشتهر بذلك بعضهم كالمتنبي وابن الرومي فمن كلام الاول قوله

ادلتُ له بدل ادلته من

اخاطره في روحي » اراهنه

فريص جمع فرائص

يتفارسن اي كل يطلب افتراس الآخر

فرد رجل اي رجل واحدة

الجدور والجلوب والتروك وما يشاكل هذه الصيغ

العلم المبرّح (وهو اول من وصف العلم بالتبريح)

النِطق اي اللسن

---

(١) الوساطة ٣٤٧ — ٣٤٨ (٢) الوساطة ٣٤٧—٣٤٨

(٣) البيان والتبيين ١—٦١

وعشرات مثلها تجدها في تضاعيف ديوانه (١)

ومن امثلة الثاني

مفاتش — يزندقون — الاشربات — الأذهاب — هجهج — نهارك انهر — الايام الاطاول — العلاجم — اللعباء جمع لاعب ، وكثير غيرها

وليست هذه الظاهرة شاملة ولكنها تكاد تكون عامة في العصر العباسي ، ولها اسباب لا تدخل في بحثنا الان . ويدخل فيها المصطلحات والمسمّيات الجديدة التي نشأت بتقدم الحضارة . ولا شك ان هذا التجدد اللفظي بدأ في اللغة منذ اقدم عهودها وجرى منها مع الزمن ، حتى كانت النهضة العلمية الاجتماعية في العصر العباسي ، فظهر فيها بمظهر كبير ، كما ظهر في نهضتنا العلمية الحديثة . ومع تحرُّج الشعر في المحافظة على الاوضاع اللغوية الصرفة لم يستطع التخلُّص من تأثير الاوضاع العربية ، كما تشهد بذلك النصوص الشعرية في كل زمان



(١) راجع ما انكره العلماء من شعره في كتاب الوساطة للجرجاني ٣٢٩ — ٣٦١

امراء الشعر المولد

ابو نواس — ابو العتاهية — ابو تمام — البحتري — ابن الرومي — المتنبي — المعري — ابن الفارض

يختلف الباحثون في من المقدّم من شعراء العصر العباسي. ولا سبيل الآن الى البحث في اختلافاتهم والنظر في اسبابها فلكل نظره الخاص، ولكل اراء يدعمها بحجج مقبولة. على اننا قد اخترنا منها لدراساتنا التحليلية هؤلاء الثانية، وهم بلا جدال من الطبقة الاولى بين المولّدين.

وقد كان معوّلنا في اختيارهم شهرتهم، وانهم اعمق اثراً من سواهم في تاريخ الشعر العبّاسي. ولا نقصد بذلك انه لا يوجد بين سائر الشعراء من يرتفع الى درجتهم او يفوقهم في بعض المناحي، بل انهم يمثلون العصر العباسي افضل تمثيل، وفي درسهم درس لذلك العصر وللروح الشعرية العامّة فيه

ابو نواس

الحسن بن هاني

ولد بين (١٤١ و ١٤٥) هـ – وتوفي بين (١٩٦ و ٢٠٠)

حوالى (٧٦٠ – ٨١٦) م

مصادر دراسته – بيئته – ميله الشعوبي – مقامه الادبي – شخصيته الشعرية

مصادر دراسته

١ — **ابن قتيبة** توفي سنة ٢٧٦ هـ ٨٩٥ م الشعر والشعراء المطبعة العمومية مصر ١٨٩٨ ليدن ١٩٠٢

٢ — **الطبري** توفي سنة ٣١٠ هـ ٩٢٢م تاريخ الرسل والملوك ليدن ١٨٧٩—١٩٠١

٣ — **الاصفهاني** توفي سنة ٣٥٦ هـ ٩٦٧م الاغاني بولاق ج ١٨ ومتفرقات في ج٦و١٦

٤ — **الجرجاني** توفي ٣٦٦ هـ ٩٧٦ م الوساطة صيدا ١٣٣١

٥ — **المرزباني** توفي سنة ٣٨٤ هـ ٩٩٤ م الموشح مصر ١٣٤٣ من ص ٢٦٢

٦ — **ابن النديم** توفي سنة ٣٨٥ هـ ٩٩٥ م الفهرست ليبسك ص ١٦٠

٧ — **الخطيب البغدادي** توفي سنة ٤٦٣ هـ ١٠٧١ م تأريخ بغداد مج ٧من ص٤٣٦

٨ — **الانباري** توفي سنة ٥٧٧ هـ ١١٨١م طبقات الادباء من ص ٩٦

٩ — **ابن خلكان** توفي سنة ٦٨١ هـ ١٢٨١م وفيات الاعيان (ميري) ج١ص١٨٩—١٩٢

١٠— **ابن منظور** توفي سنة ٧١١ هـ ١٣١١م اخبار ابي نواس

١١— **النويري** توفي سنة ٧٣٣ هـ ١٣٣٣ م نهاية الارب (دار الكتب المصرية ١٩٢٥) ٤ ـ ص ١١٩ — ١٢٣

١٢— **طاش كوبري زاده** توفي سنة ٩٦٨ هـ ١٥٦١ م مفتاح السعاده

١٣— **البغدادي** توفي سنة ١٠٩٣ هـ ١٦٨٢ م خزانة الادب (بولاق) ١—١٦٨

وفي مواضيع شتى من الكامل للمبرد ، والعمدة لابن رشيق ، والفخري لابن الطقطقى ، وزهر الآداب للحصري ، ومختصر مقدمة الشعر لابن منقذ ، ومعاهد التنصيص للعبّاسي (تجد زبدة الاخيرين في ذيل ديوان مسلم لغوجي Goeji)

وقد ترجم له مؤرخو الادب المتأخرون كالبستاني في دائرة المعارف ، وزيدان في تاريخ آداب اللغة وسواهما

وممن تناوله في دراسات نقدية الاساتذه — طه حسين في حديث الاربعا ، وعباس مصطفى عمار في كتابه (ابو نواس حياته وشعره ١٩٢٩—١٩٣٠) وعمر فروخ في كتابه (ابو نواس)

بيئته وعصره

ولد شاعرنا في خوزستان من بلاد العجم، وانتقل به والداه وهو طفل الى البصرة فنشأ فيها. ويظهر ان اباه مات وتركه صغيراً في كفالة امه، فسلمته الى عطّار ليتعلم تلك المهنة. ولا نعرف شيئاً كثيراً عن عهده «العطّاري»، فان التاريخ يتخطى ذلك سريعاً ويبرزه لنا في صحبة الشاعر والبة بن الحباب. ثم لا نلبث ان نراه حوالى الثلاثين من عمره، وقد استقرّ في بغداد ومدح الرشيد واتصل ببلاطه. ويقول ابن رشيق انه كان نديم الامين طول خلافته.[1] اما كتاب الفخري فينقل لنا انه كان من شعراء الفضل بن الربيع المنقطعين اليه.[2] وليس من تناقض بين القولين: فان الفضل كان حاجب الرشيد ومن رجال دولته والوزير المقرب في دولة الامين، فقد يكون اتصل به اولاً ثم نادم الامين ومدحه. وتوفي في الفتنة قبل قدوم المأمون من خراسان

نشأ ابو نواس في العصر الذهبي للخلافة العباسية — عصر القوة والرخاء. وقد راينا في كلامنا عن تطور الحياة الاجتماعية كيف كانت بغداد في ذلك العصر، من حيث غناها وعمرانها وبذخ المترفين فيها. ومن يطالع اخبار الامراء والوزراء ومن اليهم من ارباب الغنى، وكيف كانوا يتمتعون باسباب الحضارة من عبيد وجوار وقصور، ويسترسلون في سبل اللهو من شرب وغناء ورقص، يعرف شيئاً عن الجو الذي وجد فيه شاعرنا والذي اثر في اخلاقه ايمّا تاثير.

طبع ابو نواس على الظَّرف والمجون، واوقعته الاقدار في صحبة ابن الحباب، فاخذ عنه مذهبه في الشعر والحياة. وكان الشعر آنئذ في ايدي عصبة من اهل الاسراف والخلاعة، نذكر منهم — مطيع بن اياس — حماد عجرد — مسلم بن الوليد — داود بن رزين الواسطي — الحسين بن الضحاك — الفضل الرقاشي — عمر الورّاق — الحسين الخياط — علي بن الخليل — اسماعيل القراطيسي وامثالهم. وفي القراطيسي يقول الاصفهاني «كان مألفاً للشعراء فكان ابو نواس وابو العتاهية (طبعاً قبل تزهده) ومسلم وطبقتهم يجتمعون عنده ويقصفون ويدعو لهم القيان وغيرهن من الغلمان»[3]

في عصبة كهذه العصبة وقع شاعرنا. وليس شعره لدى التحقيق الا مرآة لحياته واحوال معاصريه. ولقد بلغ من التمادي في عبثه وتهتكه ان صار مثلاً في ذلك

---

(١) العمدة ج ١ ص ٢٢ (٢) الفخري ١٥٧ (٣) الاغاني ج ٢٠ ص ٨٨

روى الحضري « انه لما خلع المامون اخاه الامين ووجه بطاهر بن الحسين لمحاربته كان يعمل كتباً بعيوب اخيه تقرأ على المنابر بخراسان . فكان مما عابه به ان قال انه استخلص رجلاً شاعراً ماجناً كافراً يقال له الحسن بن هاني ، استخلصه ليشرب معه الخمر ويرتكب المآثم وينهتك المحارم » . ثم يقول .. « ويقوم بين يديه رجل فينشد اشعار ابي نواس في المجون » .[1] واننا لنظلم ابا نواس اذا حصرنا حياته وادبه في هذه الدائرة التي وضعتهُ فيها كتب المأمون . فقد كان غير ذلك (كما سنذكر في كلامنا عن مقدرته اللغوية) ولكن المجون غلب عليه ، وفي سبيله صرف مواهبه

قال ابو عبدالله الجمّاز يصف ابا نواس[2]

« كان اظرف الناس منطقاً ، واغزرهم ادباً ، واقدرهم على الكلام ، واسرعهم جواباً ، واكثرهم حياء » . وبعد ان يصف شكله ولونه يقول —

« وكان فصيح اللسان ، جيد البيان ، عذب الالفاظ ، حلو الشمائل ، كثير النوادر ، واعلم الناس كيف تكلمت العرب ، راويةً للاشعار ، علاّمة بالاخبار ، كأن كلامه شعر موزون » .

كان الرجل واسع المعرفة — متصلاً بحياة عصره السياسية والفكرية ولكن انصرافه الى الخمر واسترساله في الموبقات حالا دون ان يترك لنا اثراً ادبياً كبيراً في غير سخائف الحياة

ميله في ادبه الى الشعوبية

قد تعجب من هذا الزعم بعد ان عرفت انه كان يلازم الفضل بن الربيع والامين بن الرشيد ، وهما معقد العصبية العربية في ذلك الوقت . ولكن لا عجب فابو نواس كما مر معنا من ام فارسية ، وقد ولد في بلاد فارس ، ونشأ لا تعرف لهُ عصبية واضحة في العرب . وهم ينسبونه الى قبيلة حكَم اليمنيـة فيقولون الحكمي ، ولكن ابن منظور صاحب اخباره يقول : « كان ابو نواس دعياً يخلط في دعوته »[3] اي انه لم يكن ثابت الانتساب الى اصل من الاصول ، فهو تارة يدعي النسب اليماني ، كقوله في حديث له مع الخمّار

---

(١) زهر الاداب ج ٢ — ١١١ (٢) زهر الآداب ١ — ٢٠٤

(٣) اخبار ابي نواس ١٦

فلما ان رأى زنّي امامي تكلّم غير مذعور اللسان
وقال امن تميم ؟ قلت كلا ولكني من الحي اليماني

وتارة يهجو اليمنية ، كقوله في هجاء هاشم بن حديج وهو كندي من صميم اليمن

يا هاشم بن حُـديج لو عددت اباً مثل القلمّس لم يعلق بك الدنس

والقلمّس احد رؤساء كنانة وهي من غير اليمن كما هو معروف ٠ وفي هذه القصيدة يعدد كرماء نزار الذين يفتخر بهم ، ويستغرب ذلك ممن له عصبية شديدة في اليمن ٠ ونقل ابن منظور « انه كان يتنزّر ويدّعي للفرزدق ، ثم انقلب على النزارية وادعى انه من حاء وحكم فزجره يزيد بن منصور الحميري خال المهدي وقال له انت خوزي (اي من خوزستان) فمالك ولحاء وحكم ، فقال انا مولى لهم فتركوه ٠ وقال بعضهم لبعض انه ظريف اللسان غزير العلوم فدعوه ، وبهذا الولاء يتعصب لنا ويكايد عنا ويهجو النزارية ، فكان كما قالوا ٠ وكان يكنى اولاً بابي فراس فعدل عن ذلك واكتنى بابي نواس تشبهاً بكنية ذي نواس ، كما كانت اليمن تكنى وقيل غير ذلك ٠[1] ويذكر في محل آخر انه كان في دعاويه يتماجن ويعبث ويخفي اسمه واسم امه لئلا يهجى ، وذلك مشهور عنه ٠ والمذكور من امره انه كان مولى الحكميين يفتخر باليمن ويمدحهم لذلك ، ويمدح العجم ويذكرهم لانه منهم[2]

فمما ذكر آنفاً نستدل ان ابا نواس كان من اصل وضيع وانه كان ينتسب الى الحكميين بالولاء ٠ والامر الراهن انه فارسيُّ الضلع ياخذ إخذ الشعوبية في الاستخفاف بالحياة العربية ٠ ويزيدنا ثقة بذلك انه كان ياخذ العلم عن ابي عبيدة ويمدحه ويذم الاصمعي[3] ٠ والى ذلك يذهب ابن رشيق اذ يقول « وكان شعوبي اللسان وما ادري ما وراء ذلك وان في اللسان وكثرة ولوعه بالشيء لشاهداً عدلاً لا تردّ شهادته » ٠[4] ويروي له ابن عبد ربه ابياتاً ويقول انه قالها على مذهب الشعوبية ٠[5] ونقل الطبري ان الرشيد حبسه لهجائه قريش[6] ٠ وانك لتلمس في شعره استهزاءه بالعرب كقوله

---

(١) اخبار ابي نواس لابن منظور ١—٣٧ وخزانة الادب ١—١٦٨
(٢) " " " " ٤٧ . وقد عده الجاحظ (في كتاب الموالي) من الموالي راجع العقد ٣—٢٦٩
(٣) (مفتاح السعادة ١—٩٣
(٤) العمدة ج ١—١٥٥
(٥) راجع العقد ٢—٨٧
(٦) الطبري (ليدن) جم ٣—٩٥٩

عاج الشقيُّ على رسم يسائلهُ | وبتُّ اسأل عن خمّارة البلد
يبكي على طلل الماضين من اسد | لا درَّ درُّك قل لي من بنو اسد
ومن تميم ومن قيس ولفّهما | ليس الاعاريب عند الله من احد

سخرية اليمة تظهر فيها شعوبيته الشعرية. وهو يكثر من هجائه الاعراب والاعرابيات، ولا سيما اذا قابل حالهم بحضارة الفرس الغابرة كقوله

دع الرسم الذي دثرا | يقاسي الريح والمطرا
وكن رجلاً اضاع العلم | في اللذات والخطرا
الم تر ما بنى كسرى | وسابورٌ لمن غبرا
منازه بين دجلة | والفرات اخصها الشجرا
لارض باعد الرحمن | عنها الطلح والعُشرا (١)
ولم يجعل مصايدها | يرابيعاً ولا وَحَرا (٢)
ولكن حور غزلانٍ | تراعي بالملا بقرا
فذاك العيش لا سِيدٌ | بقفرتها ولا وبرا (٣)
اذا ما كنت بالاشياء | في الاعراب معتبرا
فانك ايَّما رجلٍ | وردتَ فلم تجد صدرا

ويأخذ من هنا بذم اهل البادية رجالاً ونساء. وشعره يعجُّ بما يدل على شغفه بتاريخ الفرس واناقة الحضر، ونفوره من الحياة البدوية التي كان يتغنّى بها الاقدمون. ومن ذلك ايضاً قوله

دع المعلّى يبكي على طَلَلهْ | وخلّ عوفاً يقول في جمله
وقل لكلثوم (٤) المفضّل بالشعر | يطيل الإعراض عن رِحله
واغدُ على اللهو غير متّئدٍ | عنه فهذا اوان مقتبله
اما ترى جدّة الزمان وما | ابدع فيها الربيع من عمله
وافى وجوه الزمان غاديةً | عند اقتراب الشتاء من اجله
فاشرب على جدّة الزمان فقد | وافى بطيب الهوى ومُعتدله
من قهوةٍ تُذكر السرور وتُنسي الهمّ | عند اعتراض مشتكله

(١) من اشجار القفر (٢) الوحر من العظاء (كالجراذين وسام ابرص)
(٣) السيد الذئب والوبر حيوان اصغر من السنور (٤) هو العتابي الشاعر المشهور

وقوله

لقد جُنَّ من يبكي على رسم منزل ويندب اطلالاً عفون بجرول
فان قيل ما يبكيك قال حمامة تنوحُ على فرخٍ باصوات مُعول
تذكّرني حيّاً حلالاً بقفرةٍ وآخيةً شُجّت بفهر وجندل (١)

ومما يشعر بميله الى الفرس وانحرافه عن مذاهب العرب قوله من قصيدة

دع الاطلال تسفيها الجنوب وتبكي عهد جدّتها الخطوب
وخلِّ لراكب الوجناء ارضاً تخبُّ بها النجيبة والنجيب
ولا تاخذ عن الاعراب لهواً ولا عيشاً فعيشهم جديب

ثم يصف خشونة عيشهم ويقابل ذلك بصفاء العيش في الحضارة والتمتع بالخمر ، الى ان يقول

فهذا العيش لا عيش البوادي وهذا العيش لا اللبنُ الحليب
فاين البدو من ايوان كسرى واين من الميادين الزروب

***

كان النضال في عصره مستحرّاً بين المحافظين والمجددين — بين الذين يرون التمسك بمقاييس الشعر القديمة ، وبين الذين يرومون استبدالها بمقاييس اخرى فوقف الى جانب هؤلاء . على انه لم يفعل ذلك في كل شعره ، وسنرى انه تابع المحافظين حيناً وجرى معهم في بعض سبلهم المعهودة

قلنا ان ابا نواس كان ياخذ في شعره اخذ الشعوبية . وعلى ذكر الشعوبية نقول انها حركة قام بها في صدر الدولة العباسية جماعة من المنتمين الى اصل فارسي ، وغايتهم تعظيم الفرس وحضارتهم ومقاومة ما كان قد نشأ في نفوس العرب (ولا سيما ايام الامويين) من روح التفوق والاستئثار بالمجد . وقد قام من الفريقين جماعة يناضلون عن مذهبهم ويرمون خصومهم باليم سهامهم . نذكر من الفريق العربي ابن قتيبة والجاحظ ، ومن الفريق الشعوبي ابا عبيدة وسهل بن هرون . ولقد كان لهذه الحركة السياسية الاجتماعية تاثير ملموس في الادب ، وقد اشرنا الى تاثيرها على ابي نواس

---

(١) آخيّة اي عود دقيق يوضع بين حجارة الحائط لتشدّ اليه الدابة والفهر الحجر وكذلك الجندل

مقامه الادبي واسلوبه الشعري

ذكرنا سابقاً انهُ كان واسع المعرفة متّصلًا بحياة عصره الفكرية . وفي شعره ما يشعر باطلاعه على آراء الفلاسفة والمتكلمين . على ان اهمّ ما يذكر له هنا تبحُّره في العلوم اللغوية والاسلامية ، حتى قال الجاحظ «ما رأيت رجلًا اعلم باللغة من ابي نواس وافصح لهجة مع مجانبة الاستكراه »[١] . وقال بعض الرواة « كان اقل ما في ابي نواس قول الشعر وكان فحلًا راويةً عالمًا »[٢] . وقال عن نفسه « ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأةً من العرب غير الخنساء ، فما ظنك بالرجال ؟ واني لأروي سبعمئة ارجوزة لا تعرف ».[٣] ولقد تزول دهشتنا واستنكارنا ذلك اذا عرفنا ان اساتذته كانوا من مشاهير العلماء والمحدثين منهم ابو زيد الانصاري وابو عبيدة ابن المثنّى وعبد الواحد بن زياد وازهر السمّان ويحيى القطّان . ومنهم خلف الاحمر الذي لزمه مدة غير يسيرة[٤] .ولم يكتف بذلك بل قصد بادية بني اسد واخذ اللغة عن اعرابها[٥] وقد روى عنه جماعة من ادباء ذلك العصر وعلمائهِ

اما النظم فيشهد بعلو كعبه فيه كبار اهل العربية . حدّث الآمدي عن المبرّد قال ما تعاطى الشعر احد من المحدثين احذق من ابي نواس .وحكى ابن الجرّاح عن ابن عكرمة عامر الضبّي عن ابن السكّيت ان ابا عمرو الشيباني قال : لولا ما اخذ فيه ابو نواس من الارفاث لاحتججت بشعره لانهُ كان يحكم القول ولا يخلطهُ[٦] . ولابن الاعرابي وابي عبيدة وابن خالويه شهادة كهذه الشهادة[٧] . واذا علمت ان الرواة وعلماء اللغة لم يكونوا يحتجون بما بعد العصر الاموي علمت منزلة شاعرنا في نفوسهم .

وقد نقل عن العتابي قوله : والله لو ادرك هذا الخبيث الجاهلية لما فضلت عليه احداً .[٨] ولكي تعرف شيئاً عن نفسية اللغويين في ذلك العصر ونظرهم الى المحدثين ننقل لك عن الحصري القصة التالية[٩]

كان ابو عبدالله محمد بن زياد الاعرابي يطعن على ابي نواس ويعيب شعره ويضعّفه

---

(١) اخبار ابي نواس لابن منظور ٦ (٢) اخبار ابي نواس لابن منظور ٥٣
(٣) " " " " ٥٤ (٤) ابن منظور ٢٣ و ٢٧
(٥) ابن منظور ١٢ (٦) " " ص ٢ و ٥٨
(٧) راجع هذه الشهادات ايضاً لحمزة الاصفهاني في مقدمة ديوان ابي نواس (مصر)
(٨) ابن منظور ٥٧ (٩) زهر الآداب ١—٢١٨

ويستلينه . فجمعهُ مع بعض رواة شعر ابي نواس فجلس ، والشيخ لا يعرفهُ . فقال له صاحب ابي نواس اتعرف اعزّك الله احسن من هذا ، وانشده شعراً . فقال لا والله . فلمن هو ؟ قال للذي يقول

رسمُ الكرى بين الجفون محيلُ عفّى عليهِ بكاً عليك طويل
يا ناظراً ما اقلعت نظراته حتى تشحّط بينهنّ قتيل

فطرب الشيخ وقال : ويحك لمن هذا ؟ فوالله ما سمعت اجود منه لقديم ولا لمحدث ! فقال لا اخبرك او تكتبه ، فكتبه . فقال للذي يقول

ركبٌ تساقوا على الاكوار بينهم كاس الكرى فانتشى المسقيُّ والساقي
ساروا فلم يقطعوا عقداً لراحلة حتى اناخوا اليكم قبل اشراق
من كل جائلة الطرفين ناجيةٍ مشتاقة حملت اوصال مشتاق

فقال لمن هذا ، وكتبهُ . فقال للذي تذمه وتعيب شعره ابي علي الحكمي . فقال الشيخ اكتم عليّ ، فوالله لا اعود لذلك ابداً

وهذه القصة اذ صحت تدل على تعصب «الأَعرابيين» (اي الميالين الى شعر الاعراب) على المحدثين كابي نواس واضرابه .

وكان اسحق بن ابرهيم الموصلي يتعصّب على ابي نواس ويقول : هو يخطىء . وكان اسحق في كل احواله ينصر الاوائل ، فكنت انشده جيّد قول ابي نواس ، فلم يحفل به ، لما في نفسه . فانشدته

وخيمة ناطور برأس منيفةٍ تهمُّ يدا من رامها بزليلِ

فكان على امره . فقلت : والله لو كانت لبعض اعراب هُذَيل لجعلتها افضل شيء سمعته قط [١] .

والغريب ان ما اصاب ابا نواس من تعصُّب اسحق اصاب اسحق نفسه من تعصب اهل اللغة[٢] . وهذا التعصب تجده في كل عصر وفي كل جيل

فمن كل ما ذكر يؤخذ ان ابا نواس كان من كبار اهل اللغة ، وما منعهم من الاحتجاج لقوله الا ارفاقه وانه من المحدثين . وقد وصف اسلوبه الفني بالسلاسة وبعده عن التكلف .

---

(١) الموشح ص ٢٦٣ (٢) راجع حديثه مع الاصمعي في ابن عساكر ٢—٤٢٤

قال محمد بن داود الجراح كان ابو نواس اجود الناس بديهةً وارقّهم حاشية ، لسناً بالشعر يقوله في كل حال ، والرديء من شعره ما حفظ عنه في سكره [١] . ومثل ذلك قول ابن رشيق « لم يكن يؤثر التصنع ولا يراه فضيلة لما فيه من الكلفة وانما يجيء بالشعر على سجيته [٢] . وقد انحى ابن عبد ربه على المبرّد باللائمة لسوء ما اختاره من شعر ابي نواس ، وقال قلما ياتي له بيت ضعيف لرقة فطنته ، وسبوطة بنيته ، وعذوبة الفاظه . وكل اشعاره الخمريات بديعة لا نظير لها : ونقل ما ذكره الجاحظ في كتاب الموالي من ان ابا نواس اقدر الناس على الشعر واطبعهم فيه : [٣]

ومع ما في اقوال هؤلاء العلماء مما يهمنا في درس شاعرنا لا نستطيع ان نعتمد عليها كل الاعتماد ، لانهم كثيراً ما يكيلون الكلام جزافاً ، وكثيراً ما يدفعهم الى القول نكتة في شعر او جمال رصف في عبارة . ولسنا نرى اراءهم — على صحة الكثير منها — مستندة الى دراسة نقدية يصح قبولها . فلا بد اذن من الرجوع الى ديوان الشاعر والتحقيق فيه . وقد ظهر لنا منه ان ابا نواس يقف في شعره موقفين متناقضين — موقف المقلد وموقف المجدد . ففي فئة من قصائده يسير على سنن القدماء ، حتى كانه احدهم . وفي فئة اخرى ينزع الى التجدد ، فينكر الاساليب القديمة ، ويذمّها ويحاول القضاء عليها . ولنتقدم الى تأييد ذلك بادلة من ديوانه

الموقف الاول

وفيه (كما ترى في اكثر شعره المدحي والرثائي) يتكلف الاسلوب الاعرابي ، فيقف في مدحه على الطلول ، ويركب النياق ، ويقطع الهواجل ، ويأتي بمتوعر الالفاظ ، مما يدل على سعة معرفته باوابد اللغة وانه متاثر من محفوظاته الواسعة . وربما كان موقفه هذا هو الذي حمل الشيباني وسواه من علماء اللغة على التنويه بمقدرته اللغوية واحلاله المحل الرفيع بين اربابها . قال من قصيدة يمدح الرشيد

يا حبذا سفوان من متربَّع — ولربما جمع الهوى سفوانُ
واذا مررت على الديار مسلّماً — فلغير دار اميمة الهجران

(١) عن حمزة الاصفهاني مقدمة الديوان (مصر ١٨٩٨) (٢) العمدة ١—٢٠٠
(٣) راجع تفصيل ذلك في العقد ٣—٢٦٨ و ٢٦٩

انّا نسبنا والمناسب ظَنّة حتى رُميت بنا وانتِ حصان(١)
لما نزعتُ عن الغواية والصبا وخدتْ بي الشّدنيّة المذعان(٢)
سبطٌ مشافرها دقيق خطمها وكأن سائر خلقها بنيان
واحتازها لون جرى في جلدها يققٌ كقرطاس الوليد هجان

ثم يصل على هذه الناقة الى الممدوح ويعدد فضائله

وله من قصيدة يمدح الامين

اقول والعيس تعرَوري الفلاة بنا صُعر الاعنة من مثنى ووحدان
لذات لوثٍ عفرناةٍ عذافرة كأن تضبيرها تضبير بنيان(٣)
يا ناق لا تسأَلي او تبلغي ملكاً تقبيل راحته والركن سيَّان

وقال يمدح العباس بن عبدالله بن ابي جعفر المنصور من قصيدة مطلعها — « ايها المنتاب من عُفُرِهْ »

ذا ومغبرّ مخارمهُ تحسر الابصار عن قُطُره(٤)
لا ترى عين البصير به ما خلا الاجال من بقره
خاض بي لجته ذو جَرَز يُفعم الفضلين من ضُفره(٥)
يكتسي عثنونه زبداً فنصيلاه الى نحره(٦)
ثم يعتمّ الحَجاج به كاعتام الفوف في عُشُره(٧)
كل حاجاتي تناولها وهو لم تنقص قوى أشره
ثم ادناني الى ملك يامن الجاني لدى حُجُره

ومثل ذلك ارجوزته في الفضل بن الربيع واولها « وبلدة فيها زَوَر »

---

(١) نسبنا اي تغزلنا في الشعر (٢) الشدنية المذعان اي الناقة السلسة الرأس
(٣) ذات لوث اي ذات شدة عفرناة شديدة كالاسد . تضبيرها اي اكتناز اللحم فيها
(٤) يصف اتساع الصحراء ويريد بمغبر المخارم اي قفر كالح الطرق تكل الابصار دونه
(٥و٦) ذو جرز اي جمل مكتنز اللحم شديد . الضفر جمع ضفار وهو حزام الرحل . العثنون الذقن . النصيل ، الحنك
(٧) الحجاج ، ما حول العين والفوف القشر . والعشر شجر ومعنى الابيات : قطعت الى الممدوح صحراء واسعة لا يسكنها غير البقر الوحشي وكنت ممتطياً جملاً لقي من المشاق والحر ما لقي وهو مع ذلك لم يزل في نشاطه حتى بلغت به الى ملك ... الخ

وهي طويلة يصف ركوبه ورحيله الى الممدوح في عدة ابيات . منها

عسفتها على خطرْ وغرر مـن الغَرَر
ببازل حـين فَطَر يهزُّه جِنُّ الاَشَر (١)
لا متشكٍّ من سَدَر ولا قريب من خور (٢)
كأنه بعد الضمر وبعدما جال الضَّفر
وانمجّ في حسر (٣) جأبٌ رباع المثَّغر (٤)

وكلها على هذا المنوال

فانت ترى في كل هـذه القصائد محاكاته للشعراء الاعراب من وصف ناقة او فرس يركبها توصلًا الى اميره. وربما كان يقصد ذلك احياناً تعزيزاً لمركزه الادبي بين ادباء ذلك العصر. قال ابن رشيق بعد ان ذكر ان المولّد كان يتكلّف ذلك ليجري على سنن الاقدمين « وقد صنع ابن المعتز وابو نواس قبله ، ومرت معهما في تلـك الطرايق ما هو مشهور في اشعارهم (٥)

ويظهر ذلك في رثائه لاستاذه خلف الاحمر ، ولراويته ابي البيداء الرباحي . فمن مرثاته للاول —

لا تئل العصمُ في الهضاب ولا شغواء تغذو فرخين في لجفِ (٦)
تحنو بجؤشوشهـا على ضرم كقعدة المنحني من الخرف (٧)
ولا شَبوب باتت تؤرّقه النـثرة منهـا بوابـل قصف (٨)
غدا ، كوقف الهَلوك ، ينهفت القِطقـط عن منبتيـه والكتفِ (٩)

وفي مرثاته لابي البيداء يقول —

هل مخطئٌ حتفه عفر بشاهقةٍ رعى باخيافها شثًّا وطبّاقا (١٠)

---

(١) البازل الجمل الذي طلع نابه . جن الاشر عنفوان البطر
(٢) السدر تحير النظر من شدّة الحرّ . والخور الضعف (٣) اي جرى فاعيا
(٤) حمار وحش فتيّ
(٥) العمدة ٢—٢٢٧
(٦—٩) الشغواء العقاب . الجؤشوش الصدر. الضرم فرخ العقاب . الشبوب الثور . النثرة اسم لثلاثة كواكب . القطقط المطر . وقف الهلوك اي اسوار الغانية شبّه به ملاسته
(١٠) عفر اي وعل . والشثّ والطبّاق نباتان

او لقوة امُّ انهيمين في لجف شبيهتيها شفا خطمٍ وآماقا(١)
او ذو شياه اغنّ الصوت ارّقه وبل سرى ماخض الودقين غيداقا
او ذو نحائض اشباه اذا نسقت مناسجاً وثنت ملطاً وأطباقا
شتون حتى اذا ما صِفن ذكّرها من منهل مورداً فاشتقن واشتاقا
يؤمّ عينا بهــا زرقاء طامية يرى عليها لجين الماء أطراقا(٢)
زار الحمام ابا البيداء مخترماً ولم يغادر له في الناس مطراقا(٣)

الى آخر هذه الابيات وهذا الكلام الاعرابي القحّ(٤) . تأمل ذكره في الرثاء للعفر ترعى الشثّ والطباق ، واللقوة امّ الانهيمين في لجف عال ، والوبل الغيــداق الماخض الودقين والشغواء تحنو بجؤشوشها على ضرم ، والشبوب (الثور) ينهفت القطقط عن كتفه ، فترى ان شاعرنا الظريف خرج هنا عن « حضارته البغدادية » الى خشونة البداوة ، ولم يكتف بمجاراة الاولين في الفاظهم بل اخذ إخذهم في تشابيههم وصورهم الشعرية . ولا نرى تعليلاً منطقياً لذلك الا ان نقول ان ابا نواس ، على ميله الى الاسلوب الحضري الجديــد وعلى كرهه للاعراب وحياتهم ، لم يتحرر حالاً من اسلوبهم إمّا لشدة ما علق في ذهنه من محفوظات الشعر القديم ، او ليثبت للرواة واللغويين مقدرته في اللغة . والذي يطالع ديوانه بتدقيق ويعارض ذلك باراء العلماء فيه يرى متانة النظم وحسن الصناعة في مدائحه ومراثيه ، ولكنه لا يراه هناك ذا شخصية شعرية مستقلة — في هذا الموقف من شعره يظهر لنا الشاعر مقيداً بقيود الزمان خاضعاً لاحكام العادة سائراً في مجرى « التقليد » العام . وانما ابو نواس ابو نواس في موقفه الثاني

الموقف الثاني

وهو مجلى عواطفه الطبيعية ووجدانه الحقيقي . واكثر ما يكون ذلك في مجالس اللهو والسرور . وقد صدق اذ قال عن نفسه . « لا اكاد اقول شعراً جيداً حتى تكون نفسي طيبة واكون في بستان مؤنق وعلى حال ارتضيها من صلة او وصل او وعد بصلة . وقد قلت

---

(١) لقوة عقاب امّ انهيمين ام فرخين . اللجف مرّة الوادي . وما يلي وصف لبعض حيوانات القفر
(٢) مركبا بعضه فوق بعض (٣) مطراق نظير
(٤) وفي العمدة ٢—١٢١ يعزو القصيدتين لابي ايوب

وانا على غير هذه الحال ابياتاً لا ارضاها[١] .

فالشاعر الذي يجيء بالوصف الشائق والظرف الساحر ، فيجري الكلام من قلمه بلا كلفة ولا تصنع ، انما يتجلى لنا عند ما يجاري طبيعته ، كما يتجلى ابو نواس في خمرياته وملاهيه . هنا يترك التحذلق والتنطّس ويرسل عواطفه عبارات رائقة كقوله

اترك الاطلال لا تعبأ بها ... انها من كل بؤس دانيه
واشرب الخمر على تحريمها ... انما دنياك دار فانيه
من عقار من رآها قال لي ... صيدت الشمس لنا في باطيه

وقوله

وخمّار انخت اليه رحلي ... اناخة قاطن والليل داج
فقلت له اسقني صهباء صرفاً ... اذا مُزجت توقّد كالسراج
فقال فانّ عندي بنت عشر ... فقلت له مقالة من يناجي
اذقنيها لاعلم ذاك منها ... فابرز قهوةً ذات ارتجاج
كأن بنان ممسكها اشيمت ... خضاباً حين تلمع في الزجاج

فشاعرنا في هذا الموقف يخرج عن الطريقة القديمة طريقة الوقوف على الطلول وقطع المفاوز وتجشّم الاهوال توصّلاً الى مدح المقصود ، وعلى ذلك قوله

صفة الطلول بلاغةُ القُدم ... فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ولما سجنه الخليفة على اشتهاره بالخمر واخذ عليه ان لا يذكرها في شعره قال —

أعِرْ شعرك الاطلال والمنزل القفرا ... فقد طالما ازرى به نعتك الخمرا
دعاني الى نعت الطلول مسلّط ... تضيق ذراعي ان اردّ له امرا
فسمعاً امير المؤمنين وطاعةً ... وان كنت قد جشّمتني مركباً وعرا

« فهو يجاهر بان وصفه الاطلال والقفر انما هو من خشية الامام والاّ فهو عنده فراغ وجهل »[٢]

ولم يكن ابو نواس على علو كعبه في وصف الخمر ومجالسها نسيج وحده في ذلك . فقد تقدمه في الجاهلية والاسلام من وصف الخمر واحوال شاربيها . نذكر منهم الاعشى

---

(١) ابن منظور ٥٥ (٢) العمدة ١—١٥٥

وعديٍّ بن زيد ، ثم الاخطل والوليد بن يزيد . والذي يراجع اشعار الوليد يرى بينها وبين اشعار ابي نواس من اوجه الشبه ما يحملنا على الحكم بان شاعرنا تاثر بطريقة الوليد . بل قد ذهب ابو الفرج الاصفهاني الى ابعد من ذلك ، فقال « انه سلخ معاني الوليد فجعلها في شعره وكررها في عدة مواضع »[١] . ولتبيان ما نذهب اليه من تاثر ابي نواس بطريقة الوليد ننقل للاخير الابيات التالية ، ونترك للقارىء مقابلتها بالشعر النُواسي ، وهي على حد قول الاصبهاني تنبىءُ عن نفسها[٢] — قال

اصدعْ شجيَّ الهموم بالطَّربِ   وانعمْ على الدهر بابنة العِنبِ
واستقبل العيش في غضارتهِ   لا تقفُ منه آثار مُعتقبِ
من قهوةٍ زانها تقادُمها   فهيَ عجوزٌ تعلو على الحِقَبِ
اشهى الى الشَّرب يومَ جلوتها   من الفتاةِ الكريمة النَّسبِ
فقد تجلَّت ورق جوهرها   حتى تبدَّتْ في منظرٍ عجبِ
فهي بغير المِزاج من شررٍ   وهي لدى المزج سائل الذهبِ

وللوليد اشعار كثيرة في الخمر والغزل تتلمّس فيها روح شاعرنا وطبقته من مولّدي العصر العباسي[٣]

***

ومع انصراف ابي نواس للعبث النسائي والغلماني لا نجد له في ذلك من جمال الشعر ما يضارع شعره الخمري : فغزله ، على عذوبته احيانا وظرفه ، متخنّث ضعيف . ولعله في الغزل الغلماني اصدق عاطفة منه في النسائي ، على انه في كليهما لا يجلو لنا غير الغرائز الحيوانية السفلى التي تنمُّ عن تحرّق شهواني يصل الى درجة الاسفاف احياناً . وشتان ما بينه في ذلك وبين كبار شعراء الغزل من عذريين وغير عذريين . ففي اشعار هؤلاء قد تجد ما يثير فيك عواطف النفس ، ويريك جمال الحب ، ويصور لك المرأة تصويراً يروقك او يستهويك . اما في غزل شاعرنا النواسي فلا ترى غير جوار متهتكات ، وغلمان فاسدين ، واوصاف تدل على ما بلغه بعض القوم يومئذ من الانحطاط الاجتماعي .

(١و٢) الاغاني ٦—١٠٧

(٣) راجع الاغاني ٦ س ٩٨—١٣٦

اما خمرياته فبرغم ما يشوبها احياناً من سوء المجون — تدل على خفة روح عرف بها ابو نواس في عصره . وقد وصفه بعض معاصريه بقوله « بانه كان اظرف الناس منطقاً . . مليح الكلمة حسن الاشارة فصيح اللسان عذب الالفاظ حلو الشمائل »[1]. حتى قيل ولم يكن شاعر في عصره الاَّ وهو يحسده لميل الناس اليه وشهوتهم معاشرته . ويقرن هذه الخفة الروحية بجمال فني يستهوي القارىء ، ويستثير فيه حاسة الطرب والاعجاب.

اتبعه الى حانة وانظر كيف يدخلها مع رفاقه خفيـة . (والحانات عادة في ضاحية منزوية واصحابها من اليهود والنصارى) . ها هو يلاطف صاحبتها ، وقد تكون من اسمج النساء ، فيداعبها ويسترق منها قبلة او يربت على ظهرها ، وفي يده الدنانير يضعها امامها ، ويستخفُّها الى تقديم افضل الخمور المعتقة . ثم انظر كيف يقودك معهُ الى قبو قديم تحت الحانة فيريك نسيج العنكبوت على الدنان ، ثم يريك الخمَّار وقد ضرب بالمبزل بعضها فخرجت الخمر صهباء مشرقة تطرد الظلام

فجـاء بهـا زينيّة ذهبيـة   فلم نستطع دون السجود لها صبرا

ولست اشك ان الشاعر يصف حوادث واقعية في غرَّاته الخمرية ، وان اكن اميل الى الاعتقاد انهُ احياناً يخترع الحديث ابهاجاً لزملائه . وفي كلتا الحالين ترى شعر ابي نواس الحقيقي وترى تدفق شعوره الصريح . واليك تلخيص خمرية اخرى توضح ما نقصد اليه

وليلة مظلمة قصدت ورفاقاً لي الى بيت خمار ، فاخذنا نسير من زقاق الى زقاق حتى وصلنا اليه وقد هجع هو واهل بيته . قرعنا الباب فاستيقظ مذعوراً وتوجّس شراً من ادلاجنا في مثل تلك الساعة ، فلم يشأ ان يجيبنا بل

تنـاوم خوفاً ان تكون سعاية   وعاوده بعـد الرقاد وجيب
ولما دعونا باسمـه طار خوفه   وايقن ان الرحل منه خصيب
وبادر نحو البـاب سعياً ملبّياً   له طرب بالزائرين عجيب

ثم فتحه هاشاً منحنياً امامنا ، وهو يقول مرحباً بالكرام . وجاء بالمصباح فقلنا له اسرع لم يبق من الليل الاَّ بقية قليلة . هات لنا خمرك الطيبة

(١) زهر الاداب للحصري ١—١٤٧

فابدى لنا صهباء تمَّ شبابها | لها مرَح في كاسها ووثوب
فلما اجتلاها للندامى بدا لها | نسيم عبيرٍ ساطع ولهيب

ثم جاءت جارية بيدها مِزهر فاخذت تغني لنا ونحن نشرب. وما زلنا على هذي الحال: كاس تذهب وكاس تجيء، حتى غنت لنا «سرى البرق غربياً فحنَّ غريب» ففاضت مدامع العشاق منا وامسينا ما بين مسرور بنشوة الخمر وباكٍ من شدة الهوى، حتى لاح الصباح

وقد غابت الشعرى العبور واقبلت | نجوم الثريا بالصباح تؤوب

***

ولنسمعه يقص علينا بلسانه الخاص حديث زيارة اخرى الى بعض هذه الحانات، ويصف لنا الخمار وامرأته وميزانها الغشوم وخمرها المعتقة، وكيف حمل الخمر الى رفاق كانوا ينتظرونه في بستان، فاقاموا ردحاً من الزمن يمتعون النفس بين الرياحين بعيدين عن اعين الرقباء والحاسدين. قال —

اذا خطرت منك الهموم فداوها | بكأسك حتى لا تكون هموم

الى قوله

فشمّرت اثوابي وهرولت مسرعاً | وقلبيَ من شوق يكاد يهيم
الى بيت خمّار افاد زحامهُ | له ثروة والوجه منه بهيم
وفي بيته زقٌّ ودنٌّ ودورق | وباطية تروي الفتى وتنيم
ودهقانة ميزانها نصب عينها | وميزانها للمشترين غشوم
فاعطيتها صفراً وقبّلت راسها | على انني فيما اتيت مُليم
وقلت لها هزّي الدنان قديمةً | فقالت نعم اني بذاك زعيم

وبعد ان تحضر له الخمر من قبو قديم عتقت فيه يقول

فرحت بها من زورق قد كتمتها | ومن اين للمسك الزكيِّ كتوم
الى فتية نادمتهم فخدمتهم | وما في نِدامي ما علمت لئيم
فمتّعتُ نفسي والندامى بشربها | فهذا شقاءٌ مرّ بي ونعيم
لعمري لئن لم يغفر الله ذنبها | فانّ عذابي في الحساب أليم

ولو سألت نفسك ما الذي يستخفُّك في حديث كهذا — حديث الخمر والعبث والمجون لصعب عليك الجواب، ولكنه في الحقيقة مستتر في تضاعيف الابيات — هو هذه الخفة

الروحية في الشاعر — هذا الظرف الادبي الذي كان يحببه الى الناس . ولو انه كان غير ذلك ، لو كان سمج الروح واللسان ، لاستثقلته ولاشمأزت نفسك من استماع احاديثه

شخصيته في شعره

ليس لابي نواس في غير شعره الطبيعي (الغزلي والطردي والخمري) شخصية خاصة . وقد مرت بنا صورته في غزله ، وانه هناك يجلو لنا ضعف النفس والنزعات البهيمية السافلة . اما طردياته فاراجيز تصف الكلاب والفهود وطيور الباز ، وما الى ذلك من اسباب الصيد والطرد . وهو فيها شاب مرح يتنعَّم بقوة الشباب وعشرة اهل الرخاء ، ويقرن ذلك بجمال في الوصف ورشاقة في التعبير . واليك مثالين من طردياته — قال

لما تجلّى الليل وابيضّ الافقْ ... وانجاب ستر الليل عن وجه الطرق (١)
باكرني سهل المحيا والخلقْ ... ندبٌ اذا استندبته شهم لبق (٢)
يدعو الى الصيد ألا — قلت انطلقْ ... باكلُبٍ غُضف صحيحات الحدق (٣)
من اصفر اللون ومبيضٍ يَقِقْ ... كانما اذناه من بعض الخِرَق

لو يلصق الخد باذن لالتصق

وقال ينعت كلباً اسمه خلاب لسعته حية فمات

يا بؤسَ كلبي سيّد الكلاب ... قد كان اغناني عن العُقاب
وكان قد اجزى عن القصّاب ... وعن شرائي جلب الجلّاب (٤)
يا عين جودي لي على «خلاّب» ... من للظباء العفر والذئاب ؟
خرجت والدنيا الى تباب ... به وكان عدّتي ونابي
اصفر قد خُرّج بالملابِ ... كانما يدهن بالزرياب (٥)
فبينما نحن به في الغاب ... اذ برزت كالحة الانياب
رقشاء جرداء من الثياب ... لم ترعَ لي حقاً ولم تحابي
خرّ وانصاعت بلا ارتياب ... كانما تنفخ من جراب
لأبتُ ان أُبتِ بلا عقاب ... حتى تذوقي اوجع العذاب

(١) اي بدا النهار على الطرق (٢) باكرني صديق شهم الخ

(٣) الغضف المسترخية الآذان من الكلاب

(٤) جلب الجلاب اي العبيد (٥) الزرياب ماء الذهب . والملاب طيب يشبه الزعفران

وكل طردياته على هذا النمط ، يصف فيها ما كان يتسلّى به اهل الرخاء من صيد الغزلان وسواها . وهي صور رشيقة للبيئة التي كان يعيش بها الشاعر

***

قلنا انه في غزل ابي نواس تتجلى لنا « بهيميته » ، وفي طردياته مرحه وترفه . على ان في شخصيته شيئاً اعمق من ذلك ننفذ اليه من خلال اقداحه ومجالس سكره . ففي شعره الخمري يقرن البهيمية والمرح بتشاؤم قاتم يذهب باناقة الحياة ويجرّدها من كل قيمة وجمال . وانك اذ دققت في تحليل شعره لتتعرّف به الى نفسيته الحقيقية تجده — على حبه للحياة — مستخفاً بها . فهو من طلاّب اللذة السانحة ينصرف الى الملاهي ليخدّر اعصابه فلا يرى الام الحياة ومتاعبها قال :

غدوت الى اللـذات منهتك الستر … وافضت بنات السر مني الى الجهر
وهان عليّ النـاس فيا اريـده … بما جئت فاستغنيت عن طلب العـذر
رايت الليالي مرصدات لمـدتي … فبـادرت لذّاتي مبادرة الدهر

وقد نقل المرزباني القصّة التالية عن الجمّاز قال—

كنت عند ابي نواس . قال (ابو نواس) اسمع ابياتاً حضرت ، قلت هات ، فانشدني

وملحّـةٍ باللوم تحسب انني … بالجهل اوثر صحبة الشطّار[1]
بكرتْ عليَّ تلومني فاجبتها … اني لأَعرف مذهب الابرار
فدعي الملام فقد اطعت غوايتي … وصرفت معرفتي الى الانكار
ورايت اتياني اللذاذة والهوى … وتعجُّلا من طيب هذي الدار
احرى واحزمَ من تنظُّر آجلٍ … علمي به رَجْمٌ من الاخبار
ما جاءنا احـدٌ يخـبّر انـه … في جنّةٍ من ماتَ او في نار

فلما بلغ الى هذا البيت قلت له : يا هذا ان لك اعداء ، وهم ينتظرون مثـل هذه السقطات : فاتق الله في نفسك ، ودع الافراط في المجون ، واكتمها ، قال : لا والله لا اكتمها خوفاً ، وان قضي شيءٌ كان . فنمي الخبر الى الفضل بن الربيع ، ثم الى الرشيد ، فما كان بعد هذا الاَّ اسبوع حتى حُبس[2] .

---

(١) اهل الخبث والدهاء (٢) الموشح ٢٧٨

ومن قوله —

أعاذلَ اقصري عن بعض لومي فراجي توبتي عنـدي يخيب
تعيّرني الذنوب وايُّ حرٍّ من الفتيان ليس له ذنوب
غُريتِ بتوبتي ولججتِ فيها فشقّي الآن جيبك لا اتوب

هذي هي روح ابي نواس يرى الدهر واقفاً له بالمرصاد — يرى الموت نهاية كل شيء. فيقول، لنفسه وما نفع الحياة وماذا نجد فيها غير الشقاء ؟ ويشعر بقوته وشبابه فيثب الى غمار المسرات الزائلة ويخوض فيها وهو يقول

طربت الى الصنج والمزهر وشرب المـدامة بالاكبر
والقيت عني ثياب الهـدى وخضت بحوراً من المنكر
واقبلت اسحب ذيل المجون وامشي الى القصف في مئزر

ولا يقف عند الاستخفاف بقيمة الحياة بل يقرنه باستخفاف بنواهي الادب والشريعة كقوله

ولاحٍ لحـاني كي يجيء ببدعة وتلك لعمري خطة لا اطيقها
لحانيَ كي لا اشرب الخمر انهـا تورّث وزراً فادحاً من يذوقها
فما زادني اللاحون الا لجـاجةً عليها لاني ما حييت رفيقها
أارفضها والله لم يرفض اسمهـا وهذا امير المؤمنين صديقها
فنحن وان لم نسكن الخلد عاجلاً فما خلدنا في الدهر الا رحيقها

وقوله :

بكيت وما ابكي على دمن قفر وما بي من عشق فابكي على الهجر
ولكن حديثاً جاءنا عن نبينا فذاك الذي اجرى دموعي على النحر
بتحريم شرب الخمر والنهي جاءنا فلما نهى عنها بكيت على الخمر
فاشربهـا صرفاً واعلم انني اعزَّر فيهـا بالثمانين في ظهري

ولم يقلِّل هذه الاستخفاف فيه تقدّمه نحو المشيب ، فمثله لا يقف عن اعتبار او نظر في العواقب بل عن ضعف او كلال . اسمعه يذكر ايام الشباب ، وكانك تشعر باسفه ان الدهر لم يبق له غير القوة على معاقرة الخمر —

كان الشباب مطيّة الجهـل ومحسّن الضحكات والهزل

كان الجمالَ اذا ارتديت به ومشيت اخطر صيّت النعل[١]
كان المشفَّع في مآربه عند الفتاة ومدرك التبل[٢]
والباعثي والناس قد رقدوا حتى ابيت خليفة البعل
والامري حتى اذا عزمت نفسي اعان يديَّ بالفعل
فالآن صرت الى مقاربةٍ وحططت عن ظهر الصبا رحلي[٣]
والراح اهواها وان رزأت بلغ المعاش وقللت فضلي

الى ان يقول

فاعذر اخاك فانه رجل مرنت مسامعه على العذل

***

ولكن هل ادرك الشاعر ما يتوخاه من الدنيا ؟ نحن هنا امام مسالة عقلية لا يسعنا الاغضاء عنها . والجواب عليها يتناول احد امرين

١ — ان الحيا اثمن ما في ايدينا ، وان سعادتها قائمة على تفهُّم قيمتها الحقيقية والسعي لادراكها

٢ — او ان الحياة مهزلة لا قيمة لها ، وما على العاقل الاَّ ان يتناساها بالانغماس في الملذات الدنيوية

ولسنا الان في مقام يمكننا من تحليل هاتين النظريتين تحليلاً فلسفياً وافياً ، على انه لا بد من القول ان الاولى منهما نظرة جدّيَّة الى الحياة — نظرة الى جمالها الحقيقي وفرصها الثمينة ، وان الثانية نظرة استخفاف اليها وانصراف الى سخائفها

في الاولى يحاول الانسان ان يسعى نحو مرمى عال قد لا يحصل عليه ، ولكن السعادة كل السعادة في هذا السعي المتواصل ، وبعبارة اخرى في شعور الانسان بالتقدم نحو المثل العليا . وفي الثانية يتملك الانسان خوار العزيمة فيقف فشلاً ويحاول ان يستر فشله بمخدِّرات الحياة الباطلة . ومن افضل الامثلة على ذلك ما نراه في رباعيات عمر الخيام من ميل الشاعر المفكر الى نسيان الوجود وآلامه بالخمر . ولعلَّ الخيام تأثر بشعر ابي نواس ومذهبه ، وجرفه تيار التشاؤم الى هذه الحالة السلبية . وانك لتجالس ابا نواس في مجالس لهوه فتسمع قهقهته ونكاته ، ويطربك ظرفه وجمال حديثه ، وتعجبك خفة روحه بين اقداحه وندمانه ، ولكنك تستشفُّ من وراء ذلك مرارة وتشاؤماً ، ربما كانا سبب عبثه بحقائق الحياة

(١) الصيت شديد الصوت (٢) التبل اي الثار (٣) المقاربة ترك الغلو وقصد السداد

واسترساله في اسباب الملاهي . ولا يظهر ذلك في ابّان قوته وريعان شبابه ظهوره بعد ان اضعفه الدهر وحط عن ظهر الصبا رحله كما قال . ذلك الاستخفاف الذي عرف به وهو في نشاط العمر، تحوّل ايام الضعف الى اسف مؤلم، لا عن تقوى ولكن عن شعور بالفشل . كان يشرب الخمر ويقول غير مبالٍ

الراح شيء عجيب انت شاربه فاشرب وان حمّلتك الراح اوزارا
يا من يلوم على حمراء صافية صر في الجنان ودعني اسكن النارا

ثم خمدت فيه قوة الشباب وفارقته ايام الهناء والرخاء فرأى ماضياً منهتكاً وفرصاً ضائعة ونفساً شائبة بالمعاصي فصاح آسفاً

دب فيَّ الفناء سفلاً وعلوا واراني اموت عُضواً فعضوا
ليس من ساعة مضت لي الاَّ نقصتني بمرّها بي جُزوا
ذهبت جدّتي بطاعة نفسي وتذكرت طاعة الله نضوا
لهف نفسي على ليال وايام تمليتهنَّ لعباً ولهوا
قد اسأنا كل الاساءة فاللهمَّ صفحاً عنا وغفراً وعفوا

قابل هذه الابيات بما ذكرناه سالفاً وقابلها بقوله

ردّا علي الكاس انكما لا تدريان الكاس ما تجدي
خوفتماني الله ربكما وكخيفتيه رجاؤه عندي
لا تعذلا في الراح انكما في غفلة عن كنه ما تسدي
ان كنتما لا تشربان معي خوف العقاب شربتها وحدي

وقوله من قصيدة

أَلم ترني ابحت الراح عرضي وعضَّ مراشف الظبي المليح
واني عالم ان سوف تنأى مسافة بين جثماني وروحي

وانظر كيف تحوّل اثره الى ضعف واستخفافه الى شعور بالفشل . وقد ذهب بعضهم انه كان يقترف ما يقترف اتكالاً على الله، ويستشهدون على ذلك بقوله

لا تحظر العفو ان كنت امرءاً حرجا فان حظركه بالدين ازراء

وقوله

حتى اذا الشيب فاجاني بطلعته اقبح بطلعة شيب غير مبخوت
عند الغواني اذا ابصرن طلعته اذنَّ بالصرم من ودّ وتشتيت

فقد ندمت على ما كان من خطل ومن اضاعة مكتوب المواقيت
ادعوك سبحانك اللهمّ فاعف كما عفوت يا ذا العلى عن صاحب الحوت

او قوله من قصيدة

بادر شبابك قبل الشيب والعار وحثحث الكاس من بكر لابكار

الى قوله

فذاك قبل نزول الشيب عادتنا لكننا نرتجي غفران غفار

الى آخر ما نراه من كلامه الزهدي. وليس ذلك بادلّ على التوبة وحب التزهد والتجدد مما هو على الشعور بالضعف والخور والخوف

جاء في الاغاني عن محمد بن ابراهيم الصوفي قال :

دخلنا على ابي نواس نعوده في علته التي مات فيها ، فقال له علي بن صالح الهاشمي : يا ابا علي انت في اول يوم من ايام الآخرة وآخر يوم من ايام الدنيا ، وبينك وبين الله هنات، فتب الى الله عزّ وجل . فبكى ساعة ثم قال ساندوني ساندوني . ثم قال أتخوّف بالله عزّ وجل ، وقد حدثني حماد بن مسلم عن زيد الرقاشي عن انس بن مالك ، قال : قال رسول الله (صلعم) لكل نبي شفاعة ، واني اختبأت شفاعتي لاهل الكبائر من امتي يوم القيامة . افترائي لا اكون منهم ؟

هذا الشعور بفشل الاباطيل هو الذي كان يدفع شاعرنا في اواخر ايامه الى الندم والتحسر . وقد صدق الجرجاني اذ قال « فلو كانت الديانة عاراً على الشعر ، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر ، لوجب ان يمحى اسم ابي نواس من الدواوين ويحذف ذكره اذا عدّت الطبقات»[1]

على انه لا يجوز ان نحصر الحكم على فنّ الشاعر في منطقة الشرائع الروحية والاجتماعية ، التي اتفق عليها المصلحون والمهذّبون . فالشعر لا يتقيّد بذلك ، وما جماله قائماً فقط على ما فيه من عبر وارشاد ، بل على ما يتجلّى فيه من شعور وحياة . الادب فنّ تتجلّى فيه خوالج النفس ، وعلى هذا التجلّي تتوقف منزلة الشاعر الفنية

نعم ان ابا نواس لم يزهد لتجدّد في طبيعته ، بل مات كما عاش . وقد ترك لنا شعراً يحفظ لا لسموّ عواطفه ، ولكن لخفّة روحه ، وجمال صنعته ، ولتمثيله الخلاّب لحياته وحياة بيئته .

---

(١) الوساطة ٥٨

المختار من شعر ابي نواس

١ – خمرياته ومجالس لهوه

وداوني بالتي

دع عنك لومي فان اللوم اغراء وداوني بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الاحزان ساحتها لو مسّها حجرٌ مسّته سرّاء

. . .

قامت بابريقها والليل معتكرٌ فلاح من وجهها في البيت لألاء[١]
فارسلت من فم الابريق صافية كأنما اخذُها بالعين اغفاء
رقت عن الماء حتى ما يلائمها لطافةً وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجتَ بها نوراً لمازجها حتى تَوَلَّدَ انوارٌ واضواء
دارت على فتية دار الزمان بهم فما يصيبهمُ الا بما شاؤوا
لتلك ابكي ولا ابكي لمنزلة كانت تحلُّ بها هندٌ واسماء[٢]
حاشى لدرَّةَ ان تُبنى الخيام لها وان تروح عليها الابلُ والشاء[٣]
فقل لمن يدّعي في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك اشياء[٤]
لا تحظر العفوان كنت امرءاً حرجا فانَّ حظرَكه في الدين إزراء

لها مرح في كاسها

دع الربع ما للربع فيك نصيبُ وما إن سبتني زينبٌ وكَعوبُ

---

(١) قبل هذا البيت بيت محذوف يصف به فتاة ساقية
(٢) اي انا ابكي عليها لا على الطلول البالية (٣) درّة كناية عن الحبيبة
(٤) تعريض بالنظّام احد روساء المعتزلة المتوفى ٢٣١ والمعتزلة تشدّد النكير على مرتكبي المعاصي

ولكن سبتني البابليّة انها ... لمثليَ في طول الزمان سَلوب
جفا الماء عنها في المزاج لانَّها ... َخيال لها بين العظام دبيب
اذا ذاقها من ذاقها حلّقت به ... فليس له عقلٌ يعد اديب (١)
وليلة دجن قد سريت بفتية ... تنازعها نحو المدام قلوب
الى بيت خمّار ودون محلّه ... قصور منيفات لنا ودروب (٢)
ففزّع من ادلاجنا بعد هجعة ... وليس سوى ذي الكبرياء رقيب (٣)
تناوم خوفاً ان تكون سعاية ... وعاوده بعد الرقاد وجيب
ولما دعونا باسمه طار ذعره ... وايقن ان الرحل منه خصيب
وبادر نحو الباب سعياً ملبّياً ... لهُ طربٌ بالزائرين عجيب
فاطلق عن نابيه وانكبّ ساجداً ... لنا وهو فيما قد يظنُّ مصيب
وقال ادخلوا حيّيتم من عصابةٍ ... فمنزلكم سهلٌ لديَّ رحيب
وجاء بمصباح له فأناره ... وكلُّ الذي يبغي لديه قريب
فقلنا أرحنا هاتِ ان كنت بائعاً ... فان الدجى عن مُلكه سيغيب
فابدى لنا صهباء تمّ شبابها ... لها مرح في كأسها ووثوب
فلما اجتلاها للندامى بدا لها ... نسيم عبيرٍ ساطع ولهيب
فجاء بها تحدو بها ذات مِزهر ... يتوق اليها الناظرون ربيب (٤)
فما زال يسقينا بكأس مجدَّة ... تُولّي واخرى بعد ذاك تؤوب
وغنّى لنا صوتاً بحسنِ ترجُّعٍ ... « سرى البرق غربياً فحنَّ غريب »
فمن كان منا عاشقاً فاض دمعه ... وعاوده بعد السرور نحيب
فمن بين مسرور وباك من الهوى ... وقد لاح من ثوب الظلام غيوب
وقد غابت الشعرى العَبور واقبلت ... نجوم الثريّا بالصباح تثوب

وحسبك ضوؤها مصباحا

ذكر الصّبوحَ بسحرة فارتاحا ... وأملّه ديك الصباح صياحا

(١) اديب نعت عقل اي ليس له عقل اديب يعدُّ في العقول
(٢) كانت الحانات عادة في محلات بعيدة عن اعين الناس (٣) ذو الكبرياء اي الله ذو الكبر . والادلاج السير ليلاً (٤) اي مغنية تحمل عوداً . والربيب المطيّبة او المنعّمة

اوفى على شرف الجدار بِسَدْفة غَرداً يصفّق بالجناح جناحا[1]
بادرْ صباحك بالصَّبوح ولا تكن كمسوِّفين غدوا عليك شحاحا
ان الصبوح جلاءُ كل مخمَّر بدرت يديه بكأسه الاصباحا
وخدينِ لذّاتٍ معلّلِ صاحبٍ يقتات منه فكاهةً ومزاحا
نبّهته والليل ملتبس به وازحت عنه نقابه فانزاحا
قال ابغني المصباح قلت له اتّئد حسبي وحسبك ضوءُها مصباحا
فسكبت منها في الزجاجة شَرْبة كانت له حتى الصباح صباحا
من قهوة[2] جاءتك قبل مزاجها عُطلًا فالبسها المزاج وشاحا
صهباءَ تفترس النفوس فما ترى منها بهنَّ سوى السُّبات جراحا
شكَّ البِزال[3] فؤادها فكأنما اهدت اليك بريحها تفّاحا
عَمِرت يكاتمك الزمان حديثها حتى اذا بلغ السآمة باحا
فاشاعَ من اسرارها مستودعاً لولا الملامة لم يكن ليباحا
فأتتك في صُوَر تداخلها البلا فازالهنَّ واثبت الاشباحا
فكأنها والكأس ساطعة بها صبحٌ تقارب امرهُ فانصاحا

روحان في جسد

ما زلتُ استلُّ روح الدَنِّ في لُطفٍ واستقي دمه من جوف مجروحِ
حتى انثنيت ولي روحان في جسدٍ والدنُّ منطرح جسماً بلا روح

لا جفَّ دمع الذي يبكي على حجر

عاج الشقيُّ على رسم يسائله وعجت اسأل عن خَمَّارة البلدِ[4]
يبكي على طلل الماضين من اسدٍ لا درَّ درُّك قل لي من بنو اسد
ومَن تميمٌ ومن قيسٌ ولفُّهما؟ ليس الاعاريب عند الله من احد

---

(١) بسدفة اي قبيل الفجر (٢) القهوة من اسماء الخمر
(٣) حديدة يفتح بها الدنّ (٤) يريد بالشقي هنا الشاعر الذي يبكي على الطلول

لا جفَّ دمع الذي يبكي على حجرٍ ولا صفا قلب من يصبو الى وتدِ
كم بين ناعت خمرٍ في دساكرها وبين باكٍ على نُؤيٍ ومُنتَضَدِ (١)
دع ذا عدمتك واشربها معتّقةً صفراء تفرق بين الروح والجسد
من كفِّ مضطمر الزنّار معتدل كأنه غصن بانٍ غير ذي أوَدِ
أما رأيت وجوه الارض قد نضُرت وألبستها الزرابي نثرةُ الاسد (٢)
حاكَ الربيع بها وشياً وجلّلها بيانع الزهر من مثنى ومن وَحَدِ
واستوفت الخمرُ احوالاً مجرَّمةً وافترَّ عيشك من لذاتك الجُدُدِ
فاشرب وجُد بالذي تحوي يداك لها لا تدَّخر اليوم شيئاً خوف فقر غدِ
يا عاذلي قد اتتني منك بادرةٌ فان تغمّدها عفوي فلا تَعُدِ
لو كان لومك نُصحاً كنت اقبله لكنَّ لومك موضوعٌ على الحسدِ

تفترُّ عن درٍّ

خفيتْ عليك محاسن الخمر ام غيَّرتك نوائب الدهر
فصرفت وجهك عن معتّقةٍ تفترُّ عن دُرٍّ وعن شَذْرِ (٣)
يسعى بها ذو غُنّةٍ غنجٌ متكحّل اللّحَظات بالسحر
ونسيت قولك حين تشربها فتزول مثل كواكب النَّسر (٤)
« لا تحسبنَّ عُقارَ خابيةٍ والهمَّ يجتمعانِ في صدرِ »

افحمنا بها

ودارِ ندامى عطّلوها وادلجوا بها اثرٌ منهم جديد ودارسُ
مساحب من جرّ الزقاق على الثرى واضغاثُ ريحان جنيٍّ ويابس
ولم ار منهم غير ما شهدتْ به بشرقيِّ ساباط الديار البسابس (٥)

(١) ما اعظم الفرق بين من يصف الخمر ومواطنها وبين من يبكي على الاثار . والنؤي الحفرة حول الخيمة والمنتضد المقام او ما نضد من متاع الخيمة
(٢) نثرة الاسد اسم لثلاثة كواكب يريد بذلك ان مطرها البس الارض بسطاً من الازهار
(٣) الشذر قطع الذهب (٤) كوكب النسر اسم نجم . اي فتغيب في الفم غياب ضوء النجم وراء الافق (٥) ساباط مكان بالمدائن وهذه الابيات قيلت في مجلس لهو هناك (زهر الاداب للحصري ٣—١٧٥)

حبست بها صحبي فجددت عهدهم   وانّي على امثال تلك لحابس
اقمنا بها يوماً ويومين بعـده   ويوماً له يومُ الترحل خامس
تدار علينا الرّاح في عسجديّةٍ   حبتها بانواع التصاوير فارس(١)
قرارتها كسرى وفي جنباتها   مهىً تدّريها بالقسيّ الفوارس
فللخمر ما زُرّت عليه جيوبها   وللماء ما دارت عليه القلانس

اجدت ابا عمرو فجود لنا الخمرا

وفتيانِ صدقٍ قد صرفت مطيّهم   الى بيت خمّار نزلنا به ظهرا
فلما حكى الزنّار انْ ليس مسلما   ظننا به خيراً فظنّ بناشرّا
فقلنا على دين المسيح بن مريم؟   فاعرض مزوراًّ وقال لنا هُجرا
ولكن يهوديٌّ يحبّك ظاهراً   ويضمر في المكنون منه لك الغدرا
فقلت له ما الاسم قال سموأَلٌ   ولكنني أُكنى بعمرو ولا عمرا(٢)
وما شرّفتني كنية عربية   ولا اكسبتني لا ثناء ولا فخرا
ولكنها خفّت وقلّ حروفها   وليس كاخرى انما جعلت وقرا(٣)
فقلنا له عُجباً بظرف لسانه   اجدْت ابا عمرو فجوّد لنا الخمرا
فادبر كالمزورّ يقسم طرفه   لارجلنا شطراً واوجهنا شطرا
وقال لعمري لو نزلتم بغيرنا   للمنا كمُ لكن سنوسعكم عذرا
فجاء بها زيتيّةً ذهبيّةً   فلم نستطع دون السجود لها صبرا
خرجنا على ان المقام ثلاثة   فطابت لنا حتى اقمنا بها شهرا
عصابةُ سوءٍ لا ترى الدهر مثلهم   وان كنتُ منهم لا بريئاً ولا صفرا
اذا ما دنا وقت الصلاة رأيتهم   يحثّونها حتى تفوتهمُ سكرا

رضيت من الدنيا بكاس وشادن

غدوت على اللذّات منهتك السترِ   وافضت بنات السرّ مني الى الجهر

---

(١) عسجديّة اي كاس ذهبيّة   (٢) اي أدعى ابا عمرو وليس لي ولد بهذا الاسم
(٣) وليست كالكنية الاخرى الثقيلة

وهان عليَّ الناس فيما اريده بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر
رايت الليالي مُرصدات لمدَّتي فبادرت لذّاتي مبادرة الدهر
رضيت من الدنيا بكأس وشادن تحيَّر في تفصيله فَطِن الفكر
مُدام ربت في حجر نوح يديرها عليَّ ثقيل الردف مطمر الخصر
صحيحٌ مريض الجفن مُدنٍ مباعد يميت ويحيي بالوصال وبالهجر
كأنَّ ضياء الشمس نيطٌ بوجهه وبدر الدجى بين الترائب والنحر
اذا ما بدت ازرار جيب قميصه تطلّع منه صورة القمر البدر
فاحسن من ركض الى حومة الوغى واحسن عندي من خروج الى النحر(١)
فلا خير في قوم تدور عليهم كؤوس المنايا بالمثقّفة السُّمر
تحيّاتهم في كل يوم وليلة ظُبى المشرفيّات المُزيرة للقبر

واهتدى ساري الظلام بها

يا شقيق النفس من حَكَمٍ نمت عن ليلي ولم أنم(٢)
فاسقني البكر التي اختمرت بخمار الشيب في الرَّحِم(٣)
ثُمَّت انصات الشباب لها بعد ما جازت مدى الهرم
فهي لليوم التي بُزلت وهي تِرب الدهر في القِدم
عُتِّقَت حتى لو اتصلت بلسان ناطق وفم
لاحتبت في القوم مائلة ثم قصَّت قصة الامم(٤)
فرعتها بالمزاج يد خُلقت للسيف والقلم
في ندامى سادةٍ زُهرٍ اخذوا اللذّات من أمم(٥)

(١) ذاك عندي افضل من جهاد الحرب وافضل من ان اخرج الى نحر الذبائح
(٢) حكم اسم القبيلة التي كان ينتمي اليها
(٣) لهذا البيت عدة تناسير منها: ان خمار الشيب نسج العنكبوت الذي حول الدن. وقد كنَّى عن الدن بالرحم. ومنها ان الشيب اشارة الى ما يعلو الكرم من الوبر الابيض والكرمة رحم الخمر على المجاز (٤) اي جلست القرفصاء واخذت تقص عليهم اخبار الاقدمين
(٥) من امم اي من اقرب الطرق

فتمشّت في مفاصلهم كتمشّي البرء في السّقم
فعلت في البيت اذ مزجت مثل فعل الصبح في الظُّلَم
واهتدى ساري الظلام بها كاهتداء السَّفرْ بالعلَم (١)

فهذا شقاء مرّ لي ونعيم

اذا خطرت منك الهموم فداوها بكأسك حتى لا تكون همومُ
أَدرها وخـذها قهوةً بابليّةً لها بين بُصرى والعراق كروم
ولا عرفت ناراً ولا قِدْر طابخ سوى حرّ شمس اذ تهيج سَموم
لها من ذكيّ المسك ريح زكيّة ومن طيب ريح الزعفران نسيم
فشمّرت اثوابي وهرولت مسرعاً وقلبيَ من شوق يكـاد يهيم
الى بيت خمّار افاد زحامهُ (١) له ثروة والوجه منه بهيم
وفي بيته زقٌّ ودنٌّ ودورق وباطيـة تروي الفتى وتُنيم
فازقاقه سود وحمرٌ دنانه ففي البيت حبشان لديه وروم
ودهقانـةٌ ميزانها نصب عينها وميزانها للمشترين غشوم (٢)
فاعطيتها صفراً وقبّلت راسهـا على انني فيما اتيت مُليم
وقلت لها هزّي الدنان قديمةً فقالت نعم اني بذاك زعيم
الست تراها قد تعفّت رسومها كما قد تعفّت للديار رسوم (٣)
يَحوم عليها العنكبوت بنسجها وليس على تلك الدنان تَحوم
ذخيرة دهقان حواها لنفسه اذا ملك اخنى عليه غشوم
فقلت بكم رطلٌ فقالت باصفرٍ فجزت زقاقاً وزرهنّ عظيم
فرحت بها من زورق قد كتمتها ومن اين للمسك الزكيّ كتوم
الى فتية نادمتهم فخدمتهم وما في نِدامي ما علمت لئيم
فمتّعتُ نفسي والنّدامى بشربها فهذا شقاء مرّ بي ونعيم
لعمري لئن لم يغفر الله ذنبها فانّ عذابي في الحساب أَليم

---

(١) كما يهتدي المسافرون باعلام الطريق (٢) افاده اي اربحه مالاً

(٣) دهقانة اي سيدة قروية وهي البائعة هنا (٤) هذا البيت وما بعده يصف قدم هذه الخمر وانها كانت محفوظة لدهقان في دنان نسج عليها العنكبوت نسيجه فاصبحت لا يميّز احدها من الآخر

فسلّها بالراح والريحان

لا تخشعنّ لطارق الحدثان وادفع همومك بالشراب القاني
اوما ترى ايدي السحائب رقّشت حلل الثرى ببدائع الرّيحان
من سوسنٍ غضّ القطاف واخزمٍ وبنفسج وشقائق النعمان
وجنيّ ورد يستبيك بحسنه مثل الشموس طلعن من اغصان
حمراً وبيضاً يجتنين واصفراً وملوّناً ببدائع الالوان
كعقود ياقوت نُظمن ولؤلؤ اوساطهنّ فرائد العقيان
ومن الزبرجد حولهنّ ممثّلا سمطاً يلوح بجانب البستان
فاذا الهموم تعاورتك فسلّها بالراح والرّيحان والندمان

ديني لنفسي ودين الناس للناس

اني عشقت وما بالعشق من باس ما مرّ مثل الهوى شيء على راسي
مالي وللناس لم يلحونني سفهاً ديني لنفسي ودين الناس للناس
ما للعداة اذا ما زرت مالكتي كأنّ اوجههم تطلى بانقاس (١)
الله يعلم ما تركي زيارتكم الا مخافة اعدائي وحرّاسي
ولو قدرتُ على الاتيان جئتكم سعياً على الوجه او مشياً على الراس
وقد قرأت كتاباً من صحائفكم لا يرحم الله الا راحمَ الناس

نشقى ويلتذ خيالانا

اذا التقى في النوم طيفانا عاد لنا الوصل كما كانا
يا قرّة العين فما بالنا نشقى ويلتذُّ خيالانا
لو شئتِ اذ احسنت لي نائماً اتممت احسانك يقظانا
يا عاشقين التقيا في الكرى فاصبحا غضبى وغضبانا
لذلك الاحلام غرّارة وانما تصدق احيانا

(١) انقاس جمع نقس وهو الحبر الاسود

ومن اقواله في جنان

غضبتْ لمحوٍ في الكتاب كثير قالت أراد خيانتي وغروري
كتبَ الكتاب على خلاف ضميره فالمحوُ فيه لكثرة التغيير
لا والذي ان شاء صيَّرنا معا فاداك من حزن هناك سروري
ما كان ذاك لما أتى من قولها مني ولا للسهو والتقصير
كتبتْ يميني والدموع سواكب صفةَ اللسان بما يكنْ ضميري
فالمحو من قِبَل الدموع وانما تجري دموع العاشق المهجور

وقال —

اين الجواب واين ردُّ رسائلي قالت ستنظر ردَّها من قابل
فمددت كفي ثم قلت تصدَّقوا قالت نعم بحجارةٍ وجنادل
ان كنت مسكيناً فجاوز بابنا وارجع فمالك عندنا من نائل
يا ناهر المسكين عند سؤاله الله عاتبَ في انتهار السائل

مدائحه واوصافه

وهو لا يخرج في معظمها عن مذاهب الشعراء المتقدمين

قال يمدح الامين

يا دار ما فعلت بك الايام ؟ ضامتك والايام ليس تضامُ
عَرم الزمان على الذين عهدتهم بك قاطنين ، وللزمان عرام
ايام لا اغشى لاهلك منزلا الا مراقبةً عليَّ ظلام
ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم واسمتُ سرح اللهو حيث اساموا[1]
وبلغت ما بلغ امرء بشبابه فاذا عصارة كل ذاك إثام

(١) نهز بالدلو اي ضرب بها بالماء لتمتلىء . ومعنى البيت انه شارك الغواة في لهوهم وماشاهم في ضلالهم

واذا المطيُّ بنا بلغن محمداً — فظهورهن على الرجال حرام
قرَّبننا من خير من وطئ الثرى — فلها علينا حرمة وذمام
رُفع الحجاب لنا فلاح لناظر — قمر تقطَّع دونه الاوهام
ملك اذا علقت يداك بحبله — لا يعتريك البؤس والاعدام
ملك اغرُّ اذا شربت بوجهه — لم يَعْدُك التبجيل والاعظام
فالبهو[١] مشتمل ببدر خلافة — لبس الشبابَ بنوده الاسلام
ان الذي يُرضي الاله بهديه — ملك تردَّى الملك وهو غلام
ملك اذا اعتسر الامور مضى به — راي يفلُّ السيف وهو حسام
فسلمتَ للامر الذي ترجى له — وتقاعست عن يومك الايام

وقال يمدح الفضل بن الربيع

وعظتك واعظة القتيرِ — ونهتك ابَّهة الكبيرِ[٢]
ورددت ما كنت استعر — ت من الشباب الى المُعيرِ
فالآن صرت الى النهى — وبلوت عاقبة السرور[٣]
هذا وبحر تنائفٍ — وعر الاجازة والعبور[٤]
للجنّ فيه حاضر — جمّ المجالس والسمير[٥]
قاربت من مبسوطه — بالعنتريس العيسجور[٦]
لأزورَ صَفْو الله في الـ — دنيا من الكرم الخطير[٧]
يافضلُ جاوزت المدى — فجللت عن شبه النظير
أنت المعظَّم والمكبَّر في العيون وفي الصدور

---

(١) البهو البيت المقدم امام البيوت ويراد به هنا قصر الخلافة

(٢) القتير الشيب او أوله والابهة العظمة والبهجة والكبر والنخوة قال بعضهم وغلط ابو نواس في وصف الكبير بالابهة وقيل ابهة الكبير وقاره وهيبته اه

(٣) النهى العقل وقد يكون جمع نهية بمعنى العقل . وبلوت اختبرت

(٤) التنائف جمع تنوفة وهي المفازة (٥) الحاضر من معانيه الحي العظيم . والسمير المسامر ولا يكون الا بالليل (٦) العنتريس الناقة الغليظة الوثيقة والعيسجور الناقة السريعة

(٧) من الكرم متعلق بصفو . والخطير الرفيع

فاذا العقول تفاطنتك عرضن في كرم وخير(١)
واذا العيون تأمّلتك صدرن عن طرف حسير
ما زلت في عقل الكبير وأنت في سنّ الصغير
حتى تعصَّرتِ الشبيبةُ واكتسبت من القتير(٢)
عفّ المداخل والمخارج والغريزة والضمير
والله خصّ بك الخليفة فاصطفاك على بصير
فاذا ألاث بك الامور كفيته قُحمَ الامور(٣)
من قاس غيركم بكم قاس الثماد على البحور(٤)
اين القليل بنو القليل من الكثير بني الكثير
قوم كفوا ابناء مكّة نازل الخطب الكبير
فتداركوا جزَرَ الخلافة وهي شاسعة النصير(٥)
لولا مقامهم بها هوت الرواسي من ثبير

ومن لطائفه قوله يصف بعض سفن الامين

سخَّر الله للامين مطايا لم تسخَّر لصاحب المحراب(٦)
فاذا ما ركابه سرنَ برّاً سار في الماء راكباً ليس غاب(٧)
اسداً باسطاً ذراعيه يعدو اهرتَ الشدق كالح الانياب(٨)
لا يعانيه باللجام ولا السوط ولا غمز رجله في الركاب

(١) تفاطنتك تصورتك بفطنة. والخير بالكسر الكرم والشرف
(٢) تعصّرت اي عصرت مرّة بعد مرّة . والقتير الشيب
(٣) الاث بك الامور استودعك اياها. والقحم جمع قحمة وهي المهالك والمصاعب
(٤) الثماد الماء القليل (٥) الجزر قطع الشاة المذبوحة
(٦) صاحب المحراب هو سليمان عليه السلام
(٧) كان للامين ثلاث من السفن المعروفة بالحراقات لركوبه خاصة وهي الليث والعقاب والدلفين كما هو ظاهر في هذه الابيات وفي الابيات النونية بعدها
(٨) أهرت الشدق أي واسعه

عجب الناس اذ راوه على صو رة ليث يمرّ مرّ السحاب
سبّحوا اذ راوك سرت عليه كيف لو أبصروك فوق العُقاب
ذات زَور ومِنسر وجناحين تشقّ العُباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء اذا ما استعجلوها بجيئةٍ وذهاب
بارك الله للأمين وأبقا ه وابقى له رداء الشباب
ملك تقصُر المدائح عنه هاشميّ موفّقٌ للصواب

وقوله متظارفاً يخاطب الفضل

أنت يا ابن الربيع ألزمتني النُسك وعوّدتنيه والخير عاده
فارعوى باطلي وأقصر حبلي وتبدّلتُ عفّة وزهاده
لو تراني ذُكرتُ للحسن البصري في حسن سمته أو قتاده[1]
المسابيح في ذراعيّ والمصحف في لبّتي مكان القلاده
فادعُ بي لاعدمتَ تقويم مثلي وتفطنّ لموعد السجّاده
تر إثراً من الصلاة بوجهي تُوقن النفس انها من عباده
لو رآها بعض المرائين يوماً لاشتراها يعدُّها للشهادة
ولقد طال ما شقيت ولكن ادركتني على يديك السعاده

وله مدائح مشهورة في العبّاس بن عبيدالله ، وابن ابي جعفر المنصور ، وفي الخطيب بن عبد الحميد المرادي امير خراج مصر . فلتراجع في ديوانه .

من شعره الجدي

وهو يمثل شعوره وقد عجز وسئم حياة الخلاعة والمجون

اذا امتحن الدنيا لبيب

ايا رُبَّ وجهٍ في التراب عتيق ويا رُبَّ حسن في التراب رقيق
ويا رب حزم في التراب ونجدة ويا رب رأي في التراب وثيق

(١) الحسن البصري وقتادة إمامان معروفان من اهل القرن الاول

اری کل حيٍّ هالكاً وابن هالك   وذا حسب في الهالكين عريق
فقل لقريب الدار انك ظاعن   الى منزل نائي المحل سحيق
اذا امتحن الدنيا لبيب تكشَّفت   له عن عن عدوٍّ في ثياب صديق

وعليك القصد

خلِّ جنبيك لرامِ   وامض عنه بسلامِ
مت بداء الصمت خير   لك من داء الكلام
ربما استفتحت بالمز   ح مغاليق الحِمام
ربَّ لفظٍ ساق آجا   لَ نيامٍ وقيام
انما السالم من الجم   فاه بلجام
فالبس الناس على الصحة منهم والسقام
وعليك القصدَ ان القصد ابقى للجَمام[1]
شبت يا هذا وما تترك اخلاق الغلام
والمنايا آكلات   شاربات للانام

كأني لا اعود

الم ترني ابحت اللهو نفسي   وديني واعتكفت على المعاصي
كأني لا اعود الى معاد   ولا اخشى هنالك من قصاص

فاني قد شبعت[2]

ايا من بين باطية وزقٍّ   وعودٍ في يدَي غان مغنّي
اذا لم تنهَ نفسك عن هواها   وتُحسن صونها فاليك عنّي
فاني قد شبعت من المعاصي   ومن إدمانها وشبعن مني
ومَن اسوا واقبح من لبيبٍ   يُرى متطرّباً في مثل سني

---

(١) اي ان الاعتدال ابقى للقوّة
(٢) وتروى هذه الابيات ايضاً لابي العتاهية

وقال يرثي نفسه وقد شارف الموت

دب فيَّ الفناءِ سفلًا وعلوا وأراني اموت عُضواً فعضوا
ليس من ساعة مضت لي الأَ نقصتني بمرّها بي جُزوا
ذهبت جدّتي بطاعة نفسي وتذكرت طاعة الله نِضوا[1]
لهف نفسي على ليال وايام تمليتهنَّ لعباً ولهوا
قد اسأنا كل الاساءة فاللهـم صفحاً عنا وغفراً وعفوا



(١) النِضو الثوب البالي اي بعد ان اصبحت عاجزًا

ابو العتاهية

اسماعيل بن القاسم

١٣٠ — ٢١١ او ٢١٢ هـ

(٧٤٨ — ٨٢٨ م)

مصادر دراسته — كلمة في نسبه واتهامه بالزندقة — حياته الادبية — رسالته الشعرية
مقابلته بابي نواس — شاعريته — حسناته وسيئاته الفنية



مصادر دراسة

الشعر والشعراء لابن قتيبة (ليدن) ٤٩٧ — ٥٠١

مروج الذهب للمسعودي ج ٢ في اخبار المهدي والرشيد

الاغاني (بولاق) ج ٣ ص ١٢٦ — ١٨٣

ج ٦ « ١٨٦

ج ٨ « ٢٤

ج ١٦ « ١٤٩ — ١٥٠

الموشح للمرزباني ص ٢٥٤ — ٢٦٣

زهر الآداب للحصري ج ٢ ص ٣٥ — ٣٩

العمدة (هندية) ٢ — ١٠٦

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (مصر) ج ٦ ص ٢٥٠—٢٦٠

وفيات الاعيان ج ١ « ١٠٠ — ١٠٣

مقدمة ديوان ابي العتاهية رواية النمري (طبع الاباء اليسوعيين بيروت)

واخبار متفرقة في الكامل والفهرست والعمدة وغيرها

كلمة في نسبه وزندقته

في كل عصر وفي كل قطر ، اذا كثرت اسباب الغنى والترف ، نشأ في المجتمع البشري مجريان متطرفان ، الاول مجرى العبث والخلاعة ، والثاني مجرى الحرص والتقشف . في الاول ترى المسترسلين في الموبقات والشهوات الجارين مع الاهواء الى اقصى الغايات، وفي الثاني ترى الذين عافت نفوسهم ملذّات الدنيا ، فنكّبوا عنها الى زوايا الزهد ينعون الى الناس زخارفها ، ويدعونهم الى نبذها والنظر الى ما وراءها . وكما يمثّل ابو نواس في عصره الفئة الاولى ويعكس لنا حياتهم وعواطفهم ، يمثل زميله ومعاصره ابو العتاهية الفئة الثانية ويعكس لنا في ديوانه عواطف المتطرفين من الروحيين والاخلاقيين

نشأ شاعرنا في الكوفة ، حتى اذا نضجت صناعة الشعر فيه ، امَّ بغداد فاتّصل ببلاط العباسيين ومدح المهدي والهادي والرشيد ، ومات في خلافة المأمون وقد بلغ الثمانين . وقبل البحث في شعره نذكر نقطتين لم يوضحها مؤرخوه تمام الايضاح وهما نسبه وزندقته . فقد ذكر بعض المؤرخين وتبعهم المستشرقان نكلسون وهوار[1] ان ابا العتاهية عربي الاصل . واذا راجعت ما اورده الاصفهاني وابن خلكان ومن نقل عنهما رايتهم يتفقون على نسبته الى عنزة بالولاء . ففي الاغاني عن محمد بن موسى قوله «ولاء ابي العتاهية من قبل ابيه لعنزة ، ومن قبل امه لبني زُهرة »[2] . ولعلّ في اسم بلدته التي ولد فيها ما حداهم الى ذلك القول ، فقد ولد في عين التمر وهي على ما ذكروا بلدة في الحجاز . والحقيقة ان في العراق بلدة تعرف بهذا الاسم[3] ، والاصح ان تكون هي مسقط رأس الشاعر . فانه نشأ في الكوفة والكوفة وعين التمر كلتاهما من سقي الفرات . ومما قد يؤيد صحة هذا القول ان بعضهم كان يتّهمه بالزندقة[4] ، ولم يكن يُتّهم بها عادة الا الذين يمتّون بنسب الى الفرس . ولم يكن ابو العتاهية شديد التمسك بنسبه فكان طول حياة يزيد بن منصور الحميري يدّعي انه مولى لليمن وينتفي من عنزة . فلما مات يزيد رجع الى ولائه الاول[5] ، وما ذلك فعل من ينتسب نسباً صريحاً الى العرب .

---

(١) Nicholson ، Lit. Hist. 296 - Huart ، Hist. of Ar. Lit . 74

(٢) الاغاني ٣—١٢٧ (٣) ابن خلكان ١٠٠ ومعجم البلدان ياقوت

(٤) ابن قتيبة (ليدن) ٤٩٧ (٥) الاغاني ٣—١٤١

اما زندقته واتهامه بمذهب الفلاسفة فليس في شعره ما يثبتها ، ولم يذكره ابن النديم في جملة الشعراء الزنادقة الذين عاصروا ابا العتاهية . وكل ما رأينا من هذا القبيل ان قوماً من اهل عصره كانوا ينسبونه الى القول بمذهب الفلاسفة ويحتجون بان شعره انما هو في ذكر الموت دون الاخرة [١] ، وهو ليس بصحيح . وقد توهم كولد زيهر من البيت التالي

اذا اردت شريف الناس كلهم فانظر الى ملك في زي مسكين

ان الشاعر ينوه بفضل بوذا . والحق ما ذكره نكلسون من ان ذلك لا يراد به غير وصف التقي الزاهد ، دون الاشارة الى شخص خاص [٢]

ومما نسب فيه الى الزندقة الابيات التالية [٣]

اذا ما استجزت الشك في بعض ما ترى فما لا تراه الدهر امضى واجوز

. . .

يا رب لو انسيتنيها بما في جنة الفردوس لم انسها

. . .

ان المليك رآك احسن خلقه ورأى جمالك
فحذا بقدرة نفسه حور الجنان على مثالك

وليس في هذه الابيات عند التحقيق غير مبالغات خيالية قد تجري على لسان المؤمن لتقرير او ايضاح معنى شعري . ونقلوا عن الصولي قوله بالجوهرين المتضادين كالثنوية ، وقوله بالجبر وما شاكل [٤] . وقد جاراهم العلامة زيدان فقال في تاريخه وكان ابو العتاهية سوداوي المزاج كثير التردد في امر الدين فتقلب على اطوار شتى شأن الذين يحلون انفسهم من قيود الدين وينظرون فيه نظر الناقد [٥] . على ان الناظر في شعره لا يجد فيه غير رجل متزي بزي الفقراء متغن بأناشيد الزهد . وليس فيه من اثر لنظر نقدي في الكون او لنزعة فلسفية في الدين

---

(١) الاغاني ٣—١٢٦ (٢) Lit. Hist. of the Arabs 297
(٣) ابن قتيبة (ليدن) ٥٠١ (٤) الاغاني ٣—١٢٨
(٥) تاريخ اداب اللغة ٢—٦٨

حياته الادبية

تظهر لنا حياة ابي العتاهية في مظهرين — حياة الغزل والمنادمة، وحياة الوعظ والتقشف. فقد اجمع المؤرخون ان شاعرنا كان في اول امره يجري مجرى المتخنثين من شعراء عصره[1] ولكنه لم يكد يبلغ الخمسين حتى تحول عن سبيلهم . وكان ذلك على ما رواه صاحب الاغاني في خلافة الرشيد . قال « كان ابو العتاهية لا يفارق الرشيد في سفر ولا حضر الا في طريق الحج ، وكان يُجري عليه في كل سنة خمسين الف درهم سوى الجوائز والمعادن . فلما قدم الرشيد الرقّة (وذلك سنة ١٨١ هـ) لبس الشاعر الصوف وتزهد ، وترك حضور المنادمة والقول في الغزل . »[2] فكان شاعرنا اذن في صباه وفي شبابه يجري مجرى اهل الظرف من شعراء زمانه ، حتى زعموا انه كُني بابي العتاهية لانه كان يحب التهتر والمجون والتعتُّه[3] . فما الذي دفعه الى ترك ما كان عليه الشعراء والتزام طريقة الزهد والتنسك ؟ سؤال جدير بالنظر . ولا بد لنا قبل الاجابة عليه من ان ننظر فيما يلي —

١ — حالته النفسية واستعداده الفطري لذلك

٢ — تأثُّر نفسه بتهتُّك معاصريه وتماديهم في اسباب الترف

٣ — فشله في حبه لفتاة من جواري المهدي

٤ — ميله الى الطريقة الزهدية في الشعر

اما استعداده الفطري فليس لنا من دليل صريح عليه . ولكننا نستنتج مما عرف عن ابي العتاهية من حب المال والحرص على الدنيا ، انه كان ذا نظر في العواقب وعلى شيء — حتى في ابان شبابه — من ضبط النفس مما لا نراه عادة في متخنثي عصره . فلم يكن شديد الميل الى الانفاق في سبيل الشهوات ، وبكلمة اخرى لم تكن مشاركته لزملائه في مجونهم ايام شبابه لتقتل فيه ميله الى الحرص والرزانة . جاراهم ولكن الى حين ، واندفع في تيار الحياة ولكنه لم يرخ لنفسه العنان . ولم يلبث ان رأيناه يتراجع عنه مشمئزاً ، مهيباً بالآخرين ان يسلكوا سبيل الرشاد ، وان يعتبروا بصروف الزمان . ولا نشك انه كان لعصره تأثير عليه ، وان ذلك التأثير تحول الى عاطفة شعرية مغايرة لعواطف زملائه يومئذ .

---

(١) راجع مجلسه مع ابي نواس وصريع الغواني في العقد ٣—١٦٤

(٢) الاغاني ٣—١٥٧ (٣) الاغاني ٣ — ١٢٧

فترك الغزل والمنادمة ، واختط لنفسه اسلوباً آخر احبّ ان ينفرد فيه . وانّا لنلمح ذلك مما نقله لنا ابن منظور عن ابي مخلد الطائي قال « جاءَني ابو العتاهية فقال لي ان ابا نواس لا يخالفك ، وقد احببت ان تسأله الآَ يقول في الزهد شيئاً ، فاني قد تركت له المديح والهجاء والخمر والرقيق وما فيه الشعراء ، وللزهد شوقي . فبعثت الى ابي نواس فجاء اليَّ واخذنا في شأننا . فقلت لابي نواس ان ابا اسحق[1] (ابا العتاهية) من قد عرفت جلالته وتقدمه ، وقد احب انك لا تقول في الزهد شيئاً . فوجم ابو نواس عند ذلك وقال يا ابا مخلد قطعت عليَّ ما كنت احب ان ابلغه من هذا ... ولا اخالف ابا اسحق فيما رغب اليه »[2] . فابو العتاهية اذن اصطنع الزهد واتخذه طريقة فنية مندفعاً اليه بشوق نفسه الى هذا النوع من الشعر . واذا صح ما زعمناه لشاعرنا من الاستعداد الفطري ، وانه مجاراةً لهذا الاستعداد راى ان ينفرد بالزهد دون سائر ابواب الشعر ، بقي ان ننظر في المحرّك المباشر الذي حرّك في نفسه شهوتها الزهدية وحبّب اليه ترك حياته الاولى . هذا المحرّك هو على ما يقول المؤرخون فشله في حبه لعتبة جارية الخيزران ام الرشيد . وفي ذلك يقول المعري[3]

الله ينقل من شا ءَ رتبةً بعد رتبه
ابدى العتاهيُّ نسكاً وتاب عن حبِّ عُتبه

وعن المسعودي ان ابا العتاهية لبس الصوف ليأسه من عتبة[4] . وكان ذلك ايام الرشيد ، وقد آثر السجن على ان يرجع بعدها الى قول الغزل[5] . أما انه احب هذه الجارية حباً شديداً فذلك ما اجمع عليه المؤرخون واليك بعضاً من غزله فيها —

يا عتب سيّدتي اما لك دينُ حتى متى قلبي لديك رهينُ
وانا الذلول لكل ما حمّلتني وانا الشقي البائس المسكين
وانا الغداة لكل باكٍ مسعدٌ ولكل حبٍ صاحب وخدين
لا بأس إنَّ لذاك عندي راحةً للصبِّ ان يلقى الحزين حزين
يا عتب اين افرّ منك اميرتي وعليَّ حصن من هواك حصين

(١) كنيته الحقيقية ابو اسحق وانما ابو العتاهية لقب له (٢) اخبار ابي نواس ٧٠
(٣) اللزوميات ١ — ١١٨ (٤) المسعودي ج ٧ — ٣٣٦
(٥) الاغاني ٣ — ١٤٠

وقال من قصيدة

كأنها من حسنها درّة اخرجها اليمُّ الى الساحل
كأنما فيها وفي طرفها سواحرٌ اقبلن من بابل
لم يبق مني حبُّها ما خلا حُشاشةً في بدن ناحل

ويذكر الحصري ان ابا العتاهية ضرب مئة سوط ونفي الى الكوفة من اجل غزله بعتبة ، وان المهدي قال حين نفاه « أبي يتمرّس وحرمي يتعرَّض وبنسائي يعبث [1] ! » وجاء لابن قتيبة انه حبسه ، ثم تشفّع له يزيد بن منصور خال المهدي فاطلقه [2]. والظاهر انه خاف المهدي فانقطع عن ذكر الجارية . فلما مات عاد امله فطلبها من الرشيد كما روى المسعودي ولكنه باء بالفشل . وبين اول حبه لعتبة ويأسه من الحصول عليها نحو من عشرين سنة بقيت فيها شرارة الحب مشتعلة برغم كل الموانع ، وبرغم انه كان متزوجاً . وهو حب شديد وغريب في عصر كعصره ، يذكّرنا بحب شاعر ايطاليا لفتاته بياتريس وما كان له من التأثير في نفسه كل حياته

من فشل دانتي نشات الرواية الالهية . فهل من فشل ابي العتاهية نشأ شعره الزهدي ؟ قد يكون ذلك

على ان في مسلكه الزهدي ما راب بعض اهل زمانه . وتحدَّر هذا الريب بصحة زهده الى الاجيال التالية . هذا ابو العلاء المعري يقول في البيتين الانيّ الذكر « ابدى العتاهي نسكاً » . وفي العبارة ما فيها من الشك في ذلك النسك . وهناك حكايات لمعاصريه تنمّ على روح الاستخفاف بتزهده ، وتتّهمه بالادعاء والتظاهر . من ذلك ما رواه الاصفهاني عن ثمامة بن اشرس قال انشدني ابو العتاهية :

اذا المرء لم يُعتق من المال نفسه تملّكه المال الذي هو مالكه
الا انما مالي الذي انا منفق وليس لي المال الذي انا تاركه
اذا كنت ذا مال فبادره بالذي يحِقّ والا استهلكته مهالكه

فقلت له من اين قضيت بهذا ؟ فقال من قول رسول الله (ص) انما لك من مالك ما اكلت فافنيت ، او لبست فابليت ، او تصدقت فامضيت . فقلت له اتؤمن بان هذا قول

---

(١) زهر الاداب ٢ — ٣٦

(٢) الشعر والشعراء (ليدن) ٤٩٨

رسول الله (ص) وانه الحق ؟ قال نعم . قلت فلِمَ تحبس عندك سبعا وعشرين بدرة في دارك ، ولا تاكل منها ولا تشرب ولا تزكي ، ولا تقدمها ذخراً ليوم فقرك ؟ فقال يا ابا معن والله ما قلت لهو الحق ، ولكني اخاف الفقر والحاجة الى الناس . فقلت وبمَ تزيد حال من افتقر على حالك ، وانت دائم الحرص ، دائم الجمع ، شحيح على نفسك لا تشتري اللحم الا من عيد الى عيد ؟ فترك جوابي كلامي كله ، ثم قال لي والله لقد اشتريت في يوم عاشوراء لحماً وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم . فلما قال هذا القول اضحكني حتى اذهلني عن جوابه ومعاتبته ، فامسكت عنه وعلمت انه ليس ممن شرح الله صدره للاسلام »[١]

وروى الحصري عنه الحديث التالي قال دخل ابو العتاهية على ابنه محمد وقد تصوّف فقال الم اكن قد نهيتك عن هذا (اي عن التصوُّف) . فقال ابنه وما عليك ان اتعوّد الخير ؟ فاخذ ابو العتاهية يؤنبه ويقرّعه ثم قال له اقبل على سوقك فانها أعود عليك . وكان ابنه بزّازاً .[٢] وامثال هذه الحكايات كثيرة تجدها في الاغاني وسواه . ولعل ذلك ما حمل سلم بن عمرو الملقب بالخاسر ان يغضب حين انشد ابو العتاهية قصيدته التي يقول فيها مخاطباً سلماً بهذين البيتين :

تعالى الله يا سلم بن عمرو اذلّ الحرص اعناق الرجال
هب الدنيا تساق اليك عفواً اليس مصير ذاك الى الزوال

فقال سلم : « ويلي على الجرّار الزنديق جمع الاموال وكنزها وعبأ البدور في بيته ثم تزهد مراءاة ونفاقا فاخذ يهتف بي اذا تصدّيت للطلب . »[٢] وقال الجمّاز ابن اخت سلم ويرويها ياقوت لسلم نفسه

ما اقبح التزهيد من واعظ يزهّد الناس ولا يزهد
لو كان في تزهيده صادقاً اضحى وامسى بيته المسجد
يخاف ان تنفد ارزاقه والرزق عند الله لا ينفد

وانك اذا تحريت الحكايات الكثيرة التي ينقلونها عن ابي العتاهية تجد اساسها شك معاصريه بصدق تزهده . وهذا الشك مبني عندهم على ما يلي ١ـ سيرته الاولى ٢ـ حرصه

---

(١) الاغاني ٣ — ١٣٢ (٢) زهر الاداب ٣ — ٢٢٥

(٣) معجم الادباء لياقوت ٤ — ٢٦٨

على المال ٣ — تبرُّم الناس من الوعظ والانذار . وجل ما يقال هنا ان الرجل صدف عن سيرته الاولى ، وانه لزم جانب التديُّن واتخذ الشعر الزهدي فناً فاجاد فيه[1] . ولم يكن زهده انقطاعاً عن الدنيا وترفعاً عن حطامها ، ولكن تقبيحاً لمسلك مترفيها وانذاراً بسوء مصيرها ، واشباعاً لشهوة فنية لم يستطع الا اشباعها . وكان برغم ما يحكونه محترماً من معاصريه حتى من ابي نواس[2]

رسالة ابي العتاهية في شعره

لا يحمل شاعرنا في شعره رسالة جديدة ، ولا يضع مبادىء فلسفية خاصة . وانما هو يعكس لنا روح الشرق الدينية — احتقار الحياة الدنيا وتعظيم الآخرة . اقرأ كل ديوانه فلا ترى فيه الا دعوة الى ترك الجهاد في سبيل التقدم ، والتحرر من قيود المطامع

حتى متى يستفزّني الطمع — اليس لي بالكفاف متَّسع
ما افضل الصبر والقناعة — للناس جميعاً لو انهم قنعوا
واخدع الليل والنهار لاقوام — اراهم في الغيّ قد رتعوا
لله درّ الدنى فقد لعبت — قبلي بقوم فما ترى صنعوا
اثروا فلم يدخلوا قبورهم — شيئاً من الثروة التي جمعوا
وكان ما قدَّموا لانفسهم — اعظم نفعاً من الذي ودعوا

وقال

طلبت الغنى في كل وجه فلم اجد — سبيل الغنى الاَّ سبيل التعفُّف
خليليَّ ما اكفى اليسير من الـذي — نحـاول ان كنا بما عفّ نكتفي
وما اكرم العبد الحريص على النَّدى — واشرف نفس الصـابر المتعفف

فانت في ذلك وفي سائر شعره امام منبر واعظ يرشدك الى سبل القناعة ، سبل الخير كما ينص عليها الدين . ولكن في وعظه شاعرية جليلة ولحناً شجياً يخفف عليك مشقَّة الاصغاء

---

(١) قال الخطيب البغدادي كان يقول في الغزل والمديح والهجاء قديماً ثمّ تنسك وعدل عن ذلك الى الشعر في الزهد وطريقة الوعظ ٦ — ٢٥١

(٢) راجع في المصدر نفسه حديث ابي نواس واجلاله لابي العتاهية حتى قال ما رأيته قط الاّ توهمت انه سماوي وانا ارضي

الى الوعظ ، ولا سيما من واعظ يُعرف فيه الحرص وحب المال ٠ هو واعظ الموت والظلام ولكن في نبراته ما يجذبك اليه ٠

واي شيء ادلُّ على شاعريته من انه يحملك الى المقابر فيقف بك هناك امام الجثث البالية والعظام النخرة ، ثم يصف لك ظلام القبور واهوال الحمام ، ويندّد بمطامع الانسان واباطيل الحياة في شعر يثير شجونك ويزيل بهجة الدنيا من امامك ٠ وانت مع كل ذلك تسمع في ابياته ايقاعاً يحلو لاذنيك ، فتصغي اليه مسروراً ،وتشعر منه بنشوة خفية تملأُ قلبك وتحرّك عواطفك

لدوا للموت وابنوا للخراب ‏ فكلكم يصير الى تباب
لمن نبني ونحن الى تراب ‏ نصير كما خلقنا من تراب

صوت شجي تقف لديه معتبراً خاشعاً ، ولكنك لا تلبث ان تعيده لنفسك فتنسى بجماله قتام الموت وعبوسة القبر ٠ ثم تسمعه يقول

الا يا موت لم ار منك بدا ‏ اتيت وما تحيف وما تحابي
كانك قد هجمت على مشيبي ‏ كما هجم المشيب على الشباب
وانك يا زمان لذو صروف ‏ وانك يا زمان لذو انقلاب
اراك وان طليت بكل وجه ‏ كحلم النوم او ظلِّ السحاب

فتنظر الى الموت نظرك الى صديق مؤاس ياتي ليخلصك من الزمان ، وينقلك الى ظلال الجنان ٠ ولماذا ترى الموت كذلك وهو الرهيب المخوف ؟ لان الشاعر يضرب على وتر شجي يهيج فيك حاسة الاستحسان ، فيطربك ويلقي على ما حولك من فساد ورعب مسحة من جمال الفن الشعري الذي يحوّل الظلام الى نور ، والرعب الى امن وطمأنينة

ولتتثبّت ذلك في نفسك اسمع الابيات التالية التي يصف بها طمع الانسان ووجوب القناعة وزوال الدنيا — وما تلك بمواضيع تلذ الانسان عادة ، ثم شرّح شعورك لدى سماعها

الم ترَ ريب الدهر في كل ساعة ‏ له عارض فيه المنيَّة تلمع
ايا بانيَ الدنيا لغيرك تبتني ‏ ويا جامع الدنيا لغيرك تجمع
ارى المرءَ وثّاباً على كل فرصة ‏ وللمرء يوماً لا محالة مصرع
تبارك من لا يملك الملك غيره ‏ متى تنقضي حاجات من ليس يشبع
وايُّ امرىء في غاية ليس نفسه ‏ . الى غاية اخرى سواها تطلّع

وقوله

خليليَّ كم من ميّت قد حضرته ولكنني لم انتفع بحضوري
ومن لم يزده السنُّ ما عاش عبرةً فذاك الذي لا يستنير بنور
اصبت من الايام لـينَ اعنّةٍ فاجريتها ركضاً ، ولين ظهور
متى دام للدنيا سرور لاهلها فأُصبح منها واثقا بسرور ؟

وقوله

رجعت الى نفسي بفكري لعلّها تفارق ما قد غرّها واذلّها
فقلت لها يا نفس ما كنت آخذاً من الارض لو اصبحت املك كلّها ؟
فهل هي الاّ شبعة بعد جوعةٍ والاّ منىً قد حان لي ان املّها
ارى لـك نفساً تبتغي ان تُعزّها ولستَ تعزُّ النفس حتى تذلّها

الى غير ذلك من العظات الروحية البالغة ، مما يستهوي النفس برغم ما يتراءى فيه من اهوال الموت وكلاحة الورع والزهد . وكل ديوانه على هذا النمط العالي ولا يعيبه الاّ انه على وتيرة واحدة — موضوع واحد يردده في قصائد مختلفة الوزن والرويّ

ولا بد لنا في هذا المقام من ان نقف هنيهةً نقابل الروح « النُواسية » بالروح « العتاهية » فانما الشاعر روحه ، وما شعره الحقيقي الا مجلىً لعواطفه الداخلية

ابو العتاهية وابو نواس

كلاهما متشائم — هذا في زهوه وسروره ، وذاك في تزهده وتقتيره . ابو نواس لم يدرك قيمة الحياة ولم يفهم مراميها العالية فانفق نفسه وقواه في سخائفها ، وابو العتاهية اخطأ الغاية من وجود الفرد ومن علاقته بالمجتمع ، فنعى عليه ذلك ودعاه الى نبذ الدنيا والاهتمام بالآخرة . وكلاهما مخطىء — ذاك لافراطه في اباطيلها ، وهذا لافراطه في التزهيد بها . ولو انّا جارينا شاعرنا في اقواله وقمنا بما يطلبه منا في عظاته لتحتّم علينا ان نقف كل جهاد وكل سعي ، ونعيش عيشة الخمول والقناعة . واين هذا من الرقيّ الاجتماعي الذي يتطلب من كل فرد ان يسعى ويجدّ ليدرك اقصى ما يستطيع ادراكه .

ساقنع ما بقيت بقوت يومٍ ولا ابغي مكاثرة بمال

تعالى الله يا سلم بن عمرو   اذلَّ الحرص اعناق الرجال
فما ترجو لشيء ليس يبقى   وشيكاً ما تغيّرهُ الليالي

هي الروح الشرقية القديمة التي تحتقر الدنيا وتنظر اليها كممرٍ زائل لحياة عليا . نظر تعكسه لنا كتب الدين ، واقوال الانبياء والاتقياء وقادة الحياة الدينية في كل جيل . واننا اذا فسرنا القناعة (او الزهد) بانها الجام الشهوات الفاسدة والاطماع الثائرة والتعالي عن الطبيعة الحيوانية التي تدعونا الى التعدي وحب الاثرة ، كانت القناعة حكمة اجتماعية عالية ، بل صدق الداعون اليها انها باب السعادة الدنيوية . واما اذا كانت كما يصفونها الوقوف عن الجهاد ، والبعد عن اسباب التقدم ، وطلب الراحة في زوايا المناسك ، والظهور بمظهر الفقر والتصوف ، فهي الخمول الذي يزيد اكدار الانسان ويبعده عن سعادته المنشودة . وهنا وجه الضعف في رسالة ابي العتاهية : انه قام ينشد لنا اناشيد الدين دون ان يتفنن في تطبيقها على الحياة العملية ، وكان في شعره يقلد الزهّاد ورجال الدين تقليداً . والاّ ففي وسع من كان في مقدرته الشعرية ان يستخلص من حياة عصره صوراً اجتماعية عالية يصوّرها فيرينا بها جمال الفضائل الدينية والآداب القومية ، او قباحة اضدادها ، على نحو ما يفعل الاجتماعيون من شعراء وناثرين

حكم

ولابي العتاهية في هذا الضرب من المنظوم مكانة عالية — فهو قدير بضرب الامثال ، وعقد جوامع الحكمة في ابيات شعرية جميلة : واليك امثلة من ذلك

اخوك الذي من نفسه لك منصف   اذا المرء لم ينصفك ليس اخاك

...

وليس امروء لم يرع منك بجهده   جميع الذي ترعاه منه بمنصف

...

هب الدنيا تساق اليك عفواً   أليس مصير ذاك الى الزوال

...

وذقت مرارة الاشياء طراً فما طعم امرّ من السؤال

...

اجلّك قوم حين صرت الى الغنى وكلّ غنيٍّ في العيون جليل
وليس الغنى الاّ غنى زيّن الفتى عشيّة يَقري او غداة ينيل
اذا مالت الدنيا الى المرء رَغّبت اليه ومال الناس حيث يميل

...

توقّ يدا تكون عليك فضلًا فصانعها اليك عليك عالِ

...

طلبت المستقرّ بكل ارضٍ فلم ارَ لي بارضٍ مستقرا
اطعت مطامعي فاستعبدتني ولو اني قنعت لكنت حرّا

...

لقد حلبت الزمان اشطره فكان فيهنّ الصاب والسلع
مالي بما قد اتى به فرح ولا على ما ولى به جزع

...

صاحب البغي ليس يسلم منه وعلى نفسه بغى كل باغ

...

لله دنيا اناس دائبين لها قد ارتعوا في رياض الغيّ والفتن
كسائمات رتاعٍ تبتغي سِمناً وحتفها لو درت في ذلك السمن

...

واي امرءٍ في غاية ليس نفسه الى غاية اخرى سواها تطلّع

...

وا بلائي من دعاوي املٍ كلما قلت تدانى بعُدا
كم امنّي بغدٍ بعد غد ينفد العمر ولم القَ غدا

...

الم تر أن الفقر يرجى له الغنى وأن الغنى يخشى عليه من الفقر

فتَشت ذي الدنيـا فليس بها   احد اراه لآخرٍ حامـدْ
حتّى كان الناس كلَّهمُ   قد افرغوا في قالبٍ واحـدْ

. . .

ما اختلف الليـل والنهار ولا   دارت نجوم السماء في الفلكِ
الا لنقل السلطان عن ملك   قد انقضى ملكه الى ملك

. . .

انت ما استغنيت عـن صاحبـك الدهرَ اخوه
فاذا احتجت اليـه ساعةً مجّـك فوه

وله ارجوزة حكمية جمع فيها كثيراً من الامثال البليغة

وقد ذكر صاحب الاغاني انها تبلغ نحو اربعة آلاف مثل ، على انه لم يثبت منها غير بضعة وعشرين مثلًا . اما في ديوان ابي العتاهية فقد نقل منها ما يقارب الخمسين ولم نعثر عليها كلها او على معظمها في كتاب ما ، ولعلها ضاعت في جملة ما ضاع من كتب الاولين واكثر حكمها عاديّ على ان فيها كثيراً مما يبلغ الدرجة الاولى من الجمال

كقوله —

ان كان لا يغنيك ما يكفيكا   فكل ما في الارض لا يغنيكا

وقوله

لن يصلح الناس وانت فاسدُ   هيهات ما ابعد ما تكابد

وهو معنى في غاية الجمال يريد بذلك ان المجتمع لا يصلح ما لم يصلح كل فرد ذاته .

وقوله

من جعل النمّام عينـا هلكا   مُبلغـك الشر كباغيه لكا

وهو معنى متداول مالوف ولكنه جميل

ومن اجمل معانيه قوله

يوسّع الضيق الرضا بالضيق   وانما الرشد من التوفيـق

ولو اردنا التوسع في الشطر الاول من هذا البيت لضاق بنا المقام وهو من اثبت الحقائق العقلية والاجتماعية

وهناك كثير من مثل هذه الابيات وهي تدل على مقدرة الشاعر على سبك الحقائق في قوالب شعرية جميلة. على ان حكمه عموماً محدودة المغنى، فهو يحصرها في منحى واحد من مناحي الحياة، ويظهر فيها مظهر المُرشد المُنذر، والحكيم الواعظ. ولو قابلتها بحكم المتنبي مثلاً لوجدت هذه اوثق علاقةً بماجريات الحياة، وبالتالي اكثر شيوعاً بين جميع الطبقات. وما الفرق بين ابي العتاهية والمتنبي في هذا الباب الاَّ ان الاول بنى حكمه على ما تتطلبه حياة الزهد، فجاءَت على حسن نظمها مقيدة بغايتها. واما الثاني فخاض غمار الحياة، وعرف حلوها ومرّها. وقد ترك لنا اختباراته في ابيات يستهوي القلوب جمالها، لصدق ما ترسمه من احوال العمران، ولشدة مماثلتها لما يشعر به كل انسان.

شاعريته وشعره

قال صاحب الاغاني «ويقال اطبع الناس بشار والسيّد وابو العتاهية. وكان ابو العتاهية غزير البحر لطيف المعاني سهل الالفاظ كثير الافتنان قليل التكلف الاَّ انه كثير الساقط المرذول مع ذلك. واكثر شعره في الزهد والامثال». على انه برغم ذلك كان من الطبقة الاولى في النظم

قال احمد بن زهير سمعت مصعب بن عبد الله يقول ابو العتاهية اشعر الناس فقلت باي شيء استحق ذلك عندك فقال بقوله

تعلّقتُ بآمـال طوال ايِّ آمال

واقبلت على الدنيا ملحًّا ايَّ اقبـال

ايا هذا تجهَّز لفرا ق الاهـل والمال

فـلا بدَّ من المو ت على حال من الحال

ثم قال مصعب هذا كلام سهل حق لا حشو فيه ولا نقصان. يعرفه العاقل ويقرُّ به الجاهل. وقال ابن الاعرابي وقد اثاره رجل رمى ابا العتاهية بالضعف «فوالله ما رأيت شاعرا قط اطبع ولا اقدر على بيت منه، وما احسب مذهبه الاَّ ضرباً من السحر»[1]

---

(١) الاغاني (بولاق) ٣ — ١٣٠

وسمع الجاحظ مرّةً من ينشد ارجوزة ابي العتاهية التي سماها ذوات الامثال حتى اتى على قوله

يا للشباب المرح التصابي   روائح الجنّة في الشباب

فقال للمنشد قف . ثم قال انظر الى قوله « روائح الجنة في الشباب » ، فان له معنى كمعنى الطرب لا يقدر على معرفته الا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الالسنة الا بعد التطويل وادامة التفكير . وخير المعاني ما كان القلب الى قبوله اسرع من اللسان الى وصفه[1]

وكان الاصمعي يقول شعر ابي العتاهية كساحة الملوك ، يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى

وفي الاغاني سئل ابن مناذر عن اشعر اهل الاسلام فقال : من اذا شئت هزل واذا شئت جدّ فمثل جرير ، ومن المحدثين هذا الخبيث (اي ابو العتاهية) الذي يتناول شعره من كمه[2]

وقال المبرّد كان اسماعيل بن القاسم (ابو العتاهية) لا يكاد يخلي شعره مما تقدم من الاخبار والآثار ، فينظم ذلك الكلام المشهور ، ويتناوله اقرب متناول ، ويسرقه اخفى سرقة[3] .

والمتأمل شعر ابي العتاهية يثبت لديه جلّ ما ذكرناه من وصف واصفيه . واهم خصائصه الفنية ثلاث :

١ — سهولة الالفاظ وهي مذهبه في جميع قصائده

نقل الاصفهاني قوله لابن ابي الابيض وقد جاء يستزيده من شعره . « فالصواب ان تكون الفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعري ، ولا سيما الاشعار التي في الزهد . وهو مذهب اشغف الناس به الزهّاد واصحاب الحديث والفقهاء واصحاب الرياء (كذا) والعامة ، واعجب الاشياء اليهم ما فهموه »[4] . وانشد مرة ابياتاً امام سلم الخاسر فقال سلم لقد جوّدتها و لم تكن سوقيّة . فقال ابو العتاهية والله ما يرغبني فيها الا الذي زهدت

---

(١) الاغاني ٣ — ١٦٣

(٢) 〃 ٣ — ١٥٤

(٣) الكامل ١ — ٢٣٨

(٤) الاغاني ٣ — ١٦١

فيه[١] . وقد عرف له نقدة الشعر ذلك . قال ابن رشيق : ومنهم من ذهب الى سهولة اللفظ واغتفر فيها الركاكة واللين المفرط كابي العتاهية والعباس بن الاحنف ومن تابعهما[٢] . وهم يرون الغاية قول ابي العتاهية

يا اخوتي ان الهوى قاتلي — فسيّروا الاكفان من عاجل
ولا تلوموا في اتّباع الهوى — فانني في شغل شاغل
عيني على عتبة منهلّة — بدمعها المنسكب السائل
يا من راى قبلي قتيلًا بكى — من شدة الوجه على القاتل
بسطت كفي نحوكم سائلًا — ماذا تُردُّون على السائل

وقد ذُكر ان ابا العتاهية وابا نواس والحسين بن الضحاك اجتمعوا يوماً فقال ابو نواس لينشد كل واحد منكم قصيدة لنفسه في مراده من غير مدح ولا هجاء فانشد ابو العتاهية هذه القصيدة فسلّما له وامتنعا من الانشاد بعده وقالا اما مع سهولة هذه الالفاظ وملاحة هذا القصد وحسن هذه الاشارات فلا ننشد شيئاً

٢ — رشاقة التعبير . وهي من مزايا الشعراء المطبوعين ويراد بها البعد عن التكلف والتعقيد . تقرأ قصائد ابي العتاهية فتجدها رشيقة المبنى تسيل عذوبة وطلاوة . وقد صدق الخطيب البغدادي اذ قال « وكان سهل القول قريب المأخذ بعيداً من التكلُّف متقدماً في الطبع »[٣] . تأمل هذه الابيات التي قالها امام المهدي يعزيه في بنت له ماتت فخزن عليها حزناً شديداً . قال شاعرنا فوافيته وقد سلا وضحك واكل وهو يقول ؟ لا بد من الصبر على ما لا بد منه . ولئن سلونا عمن فقدنا ليسلونّ عنا من يفقدنا . وما يأتي الليل والنهار على شيء الا ابلياه » . فلما سمعت هذا منه قلت يا امير المؤمنين اتأذن لي ان انشدك . قال هات فانشدته —

ما للجديدين لا يبلى اختلافهما — وكل غضّ جديدٍ فيهما بالِ
يا من سلا عن حبيب بعد موتته — كم بعد موتك ايضاً عنك من سال
كأنّ كل نعيم انت ذائقه — من لذة العيش يحكى لمعة الآل

(١) الاغاني ٣—١٧٣
(٢) العمدة ١—٨١
(٣) تاريخ بغداد ٦ — ٢٥١

لا تلعبنَّ بك الدنيا وانت ترى   ما شئت من عِبَرٍ فيها وامثال
ما حيلة الموت الاَّ كل صالحة   او لا فما حيلة فيها لمحتال

وروي ان ابا العتاهية مرّ بابي نواس في السكة ومعه بعض الرفاق ، فسلَّم ثم اومأ برأسه الى ابي نواس وانشأ يقول

لا ترقدنَّ — لعينك السَّهرُ —   وانظر الى ما تصنع الغِيَرُ
واذا سألت فلم تجد احداً   فسل الزمان فعنده الخبرُ
انت الذي لا شيء تملكه   واحق منك بمالك القدَرُ

فنظر ابو نواس الى من حوله وقال : « افسحر هذا ام انتم لا تبصرون »[١] .

ومثل هذه الشهادة شهدها بشار يوم انشد شاعرنا قصيدته في المهدي

الا ما لسيِّدتي ما لها   ادلاًّ فاحمِلَ ادلالها

فقال انظروا الى امير المؤمنين هل طار عن اعواده . والقصة مشهورة وقد ذكرتها اكثر المصادر

وفي رشاقة شعره يقول ابن الاثير[٢] « وهذا ابو العتاهية كان في عزّ الدولة العبَّاسيَّة ، وشعراء العرب اذ ذاك موجودون كثيراً . واذا تأملت شعره وجدته كالماء الجاري رقَّة الفاظٍ ولطافة سبك ، وليس بركيك ولا واهٍ . » وحكم ابن الاثير فيه حكم خبير الاَّ انه تغاضى عن بعض ركاكته كما سترى بعد .

٣ — سرعة الخاطر وما يقترن بذلك احياناً من الركاكة . قيل له كيف تقول الشعر . قال ما اردته قط الا مثل لي فاقول ما اريد واترك ما لا اريد . وكان يقول لو شئت ان اجعل كلامي كله شعراً لفعلت .[٣] ووصفه ابن قتيبة بقوله « وكان احد المطبوعين وممن يكاد يكون كلامه كله شعراً » .

فهو سريع الخاطر . واذا صح ما ذكرناه من وصف الاصمعي له لم يكن من الذين يعتنون بغربلة ابياتهم وطرح ما يجب طرحه وقد تناول المرزباني هذه الناحية من شعر

---

(١) تاريخ بغداد (مصر) ٦ — ٢٥٩
(٢) المثل السائر ١٠٥
(٣) الاغاني ٣ — ١٣١

ابي العتاهية وذكر اقوال الناس فيها واورد له بعض ما يعيبونه من شعره كقوله في عُتبة —

الا يا عتبةَ الساعهْ أموتُ الساعةَ الساعهْ

وقوله في رثاء سعيد بن وهب

مات والله سعيدُ بن وهبِ رحم الله سعيد بن وهب

يا ابا عثمان ابكيت عيني يا ابا عثمان اوجعت قلبي

وغير ذلك من القول السخيف الذي تناقله الرواة من شعره (١)

فكان كثيراً ما تأتي الفاظه مكررة لا فائدة منها كقوله —

مَن أحسّ لي اهل القبور ومن رأى من احسّهم لي بين اطباق الثرى

من أحسّ لي من كنت آلفه ويألفني فقد انكرت بُعد الملتقى

من أحسّه لي اذ يعالج غُصّةً متشاغلاً بعلاجها عمّن دعا

من أحسه لي فوق ظهر سريره يمشي به نفر الى بيت البلى

يا ايها الحي الذي هو ميّت افنيت عمرك في التعلل والمنى

فلو وثب فوق البيت الثالث والبيت الرابع، حتى وفوق الثاني ايضاً لكان الاتصال بين الاول والاخير اشد ولم يخسر المعنى شيئاً يذكر. ناهيك بركاكة الفعل احس واستعمال الوصل بدل القطع فيه. وكذلك قوله —

اين الحماة الصابرون حميّة يوم الهياج لحرّ مختلف القنا

وذوو المنابر والعساكر والدسا كر والحضائر والمدائن والقرى

وذوو المواكب والكتائب والنجائب والمراتب والمناصب في العلى

افناهم ملك الملوك فاصبحوا ما منهم احد يحسّ ولا يرى

وهو الخفيّ الظاهر الملك الذي هو لم يزل ملكاً على العرش استوى

وهو المقدّر والمدبّر خلقه وهو الذي في الملك ليس له سوى

وهو الذي يقضي بما هو اهله فينا ولا يُقضى عليه اذا قضى

---

(١) راجع ذلك في الموشح ٢٥٦ — ٢٦١

فانظر التكرار غير المفيد في البيت الثاني والثالث ، ثم تأمل تكريره لصفات الله في الابيات الثلاثة الاخيرة. وكله من قبل سرعة الخاطر وتراحم الالفاظ على المعنى الواحد.

واقرأ هذه الابيات من قصيدته التي مطلعها « لمن طلل اسائله معطَّلة منازله» واحكم لنفسك فيما نحن بصدده من ميله الى الاطالة والتكرير وعدم الغربلة

ألايتها المقابر فيك من كنَّا ننازلهُ
ومن كنا نتاجره ومن كنا نعامله
ومن كنا نعاشره ومن كنا نداخله
ومن كنا نفاخره ومن كنا نطاوله
ومن كنا نشاربه ومن كنا نؤاكله
ومن كنا نرافقه ومن كنا ننازله
ومن كنا نكارمه ومن كنا نجامله
ومن كنا له إلفاً قليلًا ما تزاوله
ومن كنا له بالامس اخواناً نواصله

وقوله يتعجب ممن لا يهتم بآخرته

سبحان ربِّك ما اراك تتوبُ والراس منك بشيبة مخضوب
سبحان ربك ذي الجلال اما ترى نُوَب الزمان عليك كيف تنوب
سبحان ربك كيف يغلبك الهوى سبحانه ان الهوى لغلوب
سبحان ربك ما تزال وفيك عن اصلاح نفسك فترةٌ ونكوب
سبحان ربك كيف يلتذُّ امروءٌ بالعيش وهو بنفسه مطلوب

ومن ذلك قصيدة يذكر فيها الانسان وموته ونسيان الناس له قال فيها

فاذا ما استودعوه الارض رهناً تركوهُ
خلَّفوه تحت رمس اوقروه اثقلوهُ
ابعدوهُ اسحقوهُ اوحدوه افردوهُ
ودّعوه فارقوهُ اسلموه خلَّفوهُ
وانثنوا عنهُ وخلَّوهُ كان لم يعرفوهُ

وله مثل هذا كثير في ديوانه وهو راجع كما اسلفنا الى سرعة خاطره وتزاحم الالفاظ حول المعنى الواحد من معانيه وعدم اهتمامه بطرح الغث منها

٤ — عدم التفنن في الخيال . ولا اريد بالخيال هنا اللطائف الشعرية فقط من تشبيه واستعارة وكناية وما شاكل ، بل اعني الخطة او الصورة التي يتخيلها الشاعر فيحمل الناس عليها الى غرضه . فانت اذا طالعت ديوان ابي العتاهية لا تجد فيه الا موضوعاً واحداً يحوم حوله ويعرضه علينا عرضاً يكاد يكون واحداً — وصف القبور واهوالها — فناء الاعراض الدنيوية — فساد الانسان وعقاب الآخرة . ولقد تقرأ بضع قصائد منه فتستغني بها عن سائر الديوان . واذا كان لك جلد الباحث وتحملت عناء قراءته الفيت نفسك امام موسيقي شرقي يكرر عليك لحناً واحداً يكتفيه على « تقاسيم » شتى فيؤثر فيك ، ولكنك لا تلبث بعد مدة ان تشعر بملل من ذلك التكرار ، وبرغبة في استماع شيء جديد على تلك الاوتار . ليس لابي التعاهية قلم الفنَّان الاجتماعي الذي يرى الحياة بطولها وبعرضها فيستخلص منها مواضيع شائقة يتفنن في عرضها على الجمهور . نعم ان العصور تختلف من حيث السياسة واسباب العمران ولكن الدوافع النفسية هي هي ، وما يحدث الآن كان يحدث في كل اوان

لم يكن شاعرنا كثير الافتنان في انشاده ، بل كان له وتر واحد ينقر عليه نغمات متماثلة مؤثرة ولكنها خالية من سعة التخيل والنفوذ الى مناطق الحياة الحقيقية

فاذا قرنت ذلك بمزاياه الاخرى من سهولة المعنى وسلاسة المبنى تفهم لماذا يختلف النظر في حقيقته ، ولماذا يجمع في شعره بين السمو والاسفاف والبلاغة والركاكة

———

المختار من شعر ابي العتاهية

يقف على المقابر فينشد لنا نغمات الموت والآخرة. وبرغم انه يكررها ويرجّعها على وتر واحد نجد فيها ايقاعاً يلذّ نفوسنا ويؤثّر فيها

في غرور الدنيا

نصبتِ لنا دونَ التفكّرِ يا دُنيا ... امانيَّ يفنى العمر من قبلِ أن تفنى
متى تنقضي حاجاتُ من ليس واصلًا ... الى حاجةٍ حتى تكونَ له أُخرى
لكلِ امرىءٍ فيما قضى اللهُ خطّةٌ ... من الامرِ فيها يستوي العبدُ والمولى
وإنَّ امرءًا يسعى لغيرِ نهايةٍ ... لمنغمسٌ في لجّةِ الفاقةِ الكبرى

في ذكرى الشباب

بكيتُ على الشبابِ بدمعِ عيني ... فلم يغنِ البكاءُ ولا النحيبُ
فيا أسفًا اسفتُ على شبابٍ ... نعاهُ الشيبُ والرأسُ الخضيبُ
عريتُ منَ الشبابِ وكان غضًّا ... كما يعرى منَ الورقِ القضيبُ

في زوال الدنيا

لِدوا للموت وابنوا للخرابِ ... فكلُّكم يصيرُ الى تبابِ
لمنْ نبني ونحنُ الى ترابٍ ... نصيرُ كما خُلقنا منْ ترابِ
ألا يا موتُ لم أرَ منك بدًّا ... اتيت وما تَحيفُ وما تحابي
كأنّكَ قد هجمتَ على مشيبي ... كما هجم المشيبُ على شبابي
ايا دُنيايَ ما ليَ لا اراني ... اسومكِ منزلًا إلّا نبا بي
وإنكَ يا زمانُ لذو صروفٍ ... وإنك يا زمان لذو انقلابِ
فمالي لستُ احلبُ منك شطرًا ... فاحمد منك عاقبةَ الحلابِ
وما لي لا أُلحُّ عليك إلّا ... بعثتَ الهمَّ لي من كلِّ باب

اراكَ وإن طليتَ بكلّ وجهٍ كحُلم النوم او ظلّ السحاب
او الامس الذي ولّى ذهاباً وليسَ يعودُ او لمعِ السراب
وهذا الخَلق منكَ على وفاةٍ وارجلهم جميعاً في الركاب
وموعد كل ذي عمل وسعي بما اسدى غداً دارُ الثواب
تقلّدتُ العظامَ من الخطايا كاني قد امنت من العقاب
ومهما دمتُ في الدنيا حريصاً فاني لا أُوفّقُ للصواب
سأُسال عن امورٍ كنت فيها فما عذري هناك وما جوابي
بأيّةِ حجةٍ أحتجُّ يومَ الحسابِ اذا دُعيتُ الى الحساب
هما امران يوضحُ عنهما لي كتابي حين أنظر في كتابي
فإمّا أن أُخلَّدَ في نعيم وإما أن أُخلَّدَ في عذابِ

في الحرية الحقيقية

طلبت المستقرّ بكل ارض فلم ارَ لي بارض مستقرّا
اطعت مطامعي فاستعبدتني ولو اني قنعت لكنت حرّا

في اهل القبور

اخويّ مرّا بالقبو ر وسلّما قبل المسيرِ
ثم ادعوا من عادها من ماجدٍ قرمٍ فخور
ومسوّدٍ رحب الفناء اغرّ كالقمر المنير
يا من تضمّنه المقابر من كبير او صغير
هل فيكمُ او منكمُ من مستجار او مجير
او ناطق او سامع يوماً بعرف او نكير
اهلَ القبورِ احبّتي بعد الجذالة والسرور
بعد الغضارة والنضارة والتنعّم والحبور
بعد المشاهد والمجا لس والعساكر والقصور
بعد الحسان المسمعا ت وبعد ربّات الخدور
اصبحتم تحت الثرى بين الصفائح والصخور

اهلَ القبور اليكمُ لا بدَّ عاقبة الامور

في غرور المطامع

حتى متى يستفزُّني الطمعُ اليس لي بالكفاف متَّسعُ
ما افضل الصبر والقناعة للناس جميعاً لو انهم قنعوا
واخدعَ الليل والنهار لاقوام اراهم في الغيّ قد رتعوا
امّا المنايا فغير غافلة لكل حيّ من كأسها جُرَع
ايُّ لبيب تصفو الحياة لهُ والموت وردٌ له ومنتجع
يا نفس مالي اراكِ آمنةً حيث يكون الروعات والفزع
ما عُدَّ للناس في تصرُّف حالاتهم من حوادثٍ تقع
لقد حلبت الزمان اشطُرهُ فكان فيهنَّ الصاب والسلَع
ما لي بما قد اتى به فرحٌ ولا على ما ولى به جزع
لله دَرُّ الدنى لقد لعبت قبلي بقوم فما ترى صنعوا
بادوا ووفَّتهم الاهلَّة ما كان لهمْ والايام والجمع
اثروا فلمْ يُدخلوا قبورهم شيئاً من الثروة التي جمعوا
وكان ما قدَّموا لانفسهم اعظم نفعاً من الذي ودعوا
غداً ينادى من القبور الى هول حساب عليه يُجتمع
غداً توفَّى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
تباركَ الله كيف قد لعبت بالناس هذي الاهواء والبدع
شتَّتَ حبُّ الدنى جماعتهم فيها فقد اصبحوا وهم شيعُ

في شرف العفاف والرضى

متى تتقضَّى حاجة المتكلِّف ولا سيَّما من مترَف النفس مسرفِ
طلبتُ الغنى في كل وجه فلم اجد سبيلَ الغنى إلا سبيل التعفُّف
اذا كنتَ لا ترضى بشيءٍ تنالُهُ وكنتَ على ما فاتَ جمَّ التلهُّف
فلستَ من الهمّ العريض بخارج ولستَ من الغيظ الطويل بمشتف
أَراني بنفسي معجَباً متعزِّزاً كأني على الآفات لست بمشرف

وإني لَعينُ البائس الواهن القوى — وعين الضعيف البائسِ المتطرّف
وليسَ امرُؤ لم يرعَ منك بجهده — جميع الذي ترعاهُ منه بمنصف
خليليَّ ما اكفى اليسيرَ من الذي — نحاول ان كنّا بما عفَّ نكتفي
وما اكرمَ العبدَ الحريص على النَّدى — واشرفَ نفس الصابر المتعفف

في ضرورة التقى

بليتَ وما تبلى ثياب صباكا — كفاك من اللهو المضرّ كفاكا
ألم ترَ ان الشيب قد قام ناعياً — مقام الشباب الغضّ ثم نعاكا
تسمَّعْ ودع من اغلق الغيُّ سمعه — كأني بداعٍ قد اتى فدعاكا
ألا ليت شعري كيف انت اذا القوى — وهت واذا الكرب الشديد علاكا
تموت كما مات الذين نسيتهم — وتُنسى وتهوى العرس بعد سواكا
تمنيتَ حتى نلتَ ثم تركتها — تنقّل بين الوارثين مناكا
اذا لم تكن في متجر البر والتقى — خسرت نجاة واكتسبت هلاكا
اذا انت لم تعزم على الصبر للاذى — رميت الذي منه الاذى ورماكا
اذا كنت تبغي البرَّ فاكفف عن الاذى — وما البرُّ الا ان تكفَّ اذاكا
اخوك الذي من نفسه لك منصف — اذا المرء لم ينصفك ليس اخاكا

في فناء الحياة ومرارة الحرص

نعى نفسي اليَّ من الليالي (١) — تصرُّفهنَّ حالاً بعد حال
فمالي لست مشغولاً بنفسي — ومالي لا اخاف الموت مالي
لقد ايقنت اني غير باق — ولكني اراني لا ابالي
اما لي عبرة في ذكر قوم — تفانوا ربما خطروا ببالي
كأن ممرّضي قد قام يمشي — بنعشي بين اربعة عجال
وخلّني نسوة يبكين شجواً — كأن قلوبهنَّ على مقال
ساقنع ما بقيتُ بقوت يوم — ولا ابغي مكاثرةً بمال

(١) وفي رواية — الى مرّ الليالي

تعالى الله يا سلْم بن عمرو   اذلَّ الحرصُ اعناق الرجال(١)
هب الدنيا تساق اليك عفواً   أليس مصير ذاك الى الزوال
فما ترجو لشيءٍ ليس يبقى   وشيكاً ما تغيِّره الليالي
وحقِّك كلُّ ذا يفنى سريعاً   ولا شيءٌ يدوم مع الليالي
خبرت الناس قِرناً بعد قرن   فلم ارَ غير ختَّال وقال
وذقت مرارة الاشياء طرًّا   فما طعمٌ امرَّ من السؤال

في المنية وبطشها

لمن طللٌ اسائلهُ   معطَّلة منازلهُ
غداة رأيته تنعى   اعاليَه اسافلهُ
وكنت اراه مأهولاً   ولكن باد آهلهُ
وكلٌّ لاعتساف الدهر معْرضة مقاتلهُ
فيصرع من يصارعهُ   وينضُل من يناضلهُ
ينازل من يهمُّ به   واحياناً يخاتلهُ
واحياناً يؤخره   وتاراتٍ يعاجله
وكم قد عزَّ من ملك   تحفُّ به قنابله
يخاف الناس صولتهُ   ويرجى منه نائله
ويثني عطفهُ مرحاً   وتعجبه شمائله
فلما ان اتاه الحقُّ   ولَّى عنه باطله
فغمَّض عينه لله   ت واسترخت مفاصله
رأيت الحق لا يخفى   ولا تخفى شواكله
الا فانظر لنفسك ايَّ   زاد انت حامله
لمنزل وحدة بين   المقابر انت نازله
قصير السمك قد رُصَّت   عليك به جنادله
بعيد تزاورِ الجيران   ضيِّقة مداخله

(١) يخاطب الشاعر المعروف بسلم الخاسر وقد مرَّ ذكره

أَلا إِن المنيَّة منهـــلٌ والخلق ناهـله
اواخر من ترى تفنى كما فنيت اوائله
لعمرك ما استوى في الامر عالمه وجاهـله
ليعلمْ كل ذي عمل بان الله سائله
فاسرعَ فائزاً بالخير قائـله وفاعله

في قصر العمر وحقيقة الغنى

الا هل الى طول الحياة سبيلُ وأَنّى وهذا الموتُ ليسَ يُقيلُ
واني وان اصبحتُ بالموت موقناً فلي املٌ دونَ اليقينِ طويـلُ
وللدهرِ الوانٌ تروحُ وتغتـدي وإِنَّ نفوساً بينهنَّ تسيلُ
ومنزلُ حقٍ لا معرَّجَ دونه لكلِ امرىءٍ يوماً اليـه رحيلُ
ارى عللَ الدُّنيا عليَّ كثيرةً وصاحبها حتى المماتِ عليـلُ
اذا انقطعتْ عني من العيش مدَّتي فانَّ غَنـاءَ الباكياتِ قليلُ
سيُعرضُ عن ذكري وتُنسى مودتي ويحدثُ بعدي للخليـلِ خليلُ
وللحـقِ احياناً لَعمري مرارةٌ وثِقلٌ على بعضِ الرجالِ ثقيلُ
ولمْ ارَ انساناً يرى عيبَ نفسه وانْ كانَ لا يخفى عليه جميـلُ
ومن ذا الذي ينجو من الناس سالماً وللناسِ قـال بالظنونِ وقيلُ
اجلَّكَ قومٌ حين صرت الى الغنى وكلُّ غنيَّ في العيون جليـلُ
وليسَ الغنى الا غنىً زيَّن الفتى عشيَّةَ يَقري او غـداةَ يُنيلُ
ولم يفتقرْ يوماً وانْ كان معدِماً جوادٌ ولمْ يستغنِ قـطُّ بخيلُ
اذا مالتِ الدُّنيا الى المرءِ رغبت اليـهِ ومالَ الناسُ حيثُ يميلُ

في ذل السؤال

أتـدري ايَّ ذُلٍّ في السؤال وفي بـذلِ الوجوه الى الرِّجالِ
يعزٌ — على التـنزُّه — مَن رعاهُ ويستغني العفيفُ بغيرِ مالِ
اذا كان النَّوالُ ببـذل وجهي فـلا قُرِّبتُ من ذاك النَّوال

معاذَ اللهِ من خلقٍ دنيٍّ يكونُ الفضلُ فيه عليَّ لا لي
توقَّ يداً تكونُ عليك فضلاً فصانعها اليكَ عليكَ عالِ
يدٌ تعلو يداً بجميل فعلٍ كما علت اليمينُ على الشمال
اتنكرُ أنْ تكونَ اخا نعيمٍ وانتَ تصيفُ في فَيْءِ الظلال
وانتَ ترومُ قوتك في عفافٍ وريّاً إن ظمئتَ من الزُلال
متى تُمسي وتُصبح مستريحاً وانتَ الدّهرَ لا ترضى بحال
تكابدُ جمع شيءٍ بعدَ شيءٍ وتبغي ان تكون رخيَّ بال
وقد يجري قليلُ المالِ مجرى كثيرِ المالِ في سدِّ الخلال
اذا كان القليلُ يسدُّ فقري ولم اجدِ الكثيرَ فلا أُبالي
هيَ الدنيا رأيتُ الحبَّ فيها عواقبهُ التفرُّقُ عن تِقال

عبر الزمان

نادت بوشكِ رحيلك الايامُ أفلستَ تسمع او بك استصمامُ
ومضى أمامك من رأيتَ وانتَ للباقين حتى يلحقوكَ إمام
ما لي اراكَ كأن عينكَ لا ترى عِبراً تمرُّ كأنهنَّ سهام
تأتي الخطوبُ وانتَ منتبهٌ لها فاذا مضت فكأنها احلام
قد ودَّعتك من الصِباء نزاوةٌ فاحذر فما لك بعدهنَّ مُقام
عَرَض[1] المشيب من الشّباب خليفةً وكلاهما لكَ حيلةٌ ونِظام
وكلاهما حججٌ عليك قويّةٌ وكلاهما نِعمٌ عليك جسام
أهلاً وسهلاً بالمشيبِ مؤدِّباً وعلى الشبابِ تحيّةٌ وسلام
ولقد غُشيتَ[2] من الشبابِ بغبطةٍ ولقد وقاكَ عثاره الإحكام
للهِ ازمنةٌ عهدتُ رجالها في النائبات وانهم لكرامُ
ايامَ اعطيةُ الاكفِّ جزيلةٌ اذ لا يضيع لذي الذّمام ذِمام[3]
فلعِبرةٍ أُخرتَ للزَّمن الذي هلكَ الارامل فيه والايتام
زمنٌ مكاسب اهله مدخولةٌ دخلاً فروعُ اصوله الآثام

---

(١) وفي نسخة: عوض (٢) وفي رواية: غنيت
(٣) وفي نسخة: افلا يضيع لدى الزمان ذمام

زمنٌ تحامى المكرماتِ سراته حتى كأنَّ المكرمات حرام
زمنٌ هوَتْ اعلامه وتقطَّعت قطعاً فليس لاهله أعلام
ولقد رأيت الطاعمين (١) لما اشتهوا وهمُ لاطباق التراب طعام
ما زُخرُفُ الدنيا وزبرج اهلها إلاَّ غُرورٌ كله وحطام
ولَرُبَّ اقوامٍ مضوا لسبيلهم ولنمضيَنَّ كما مضى الاقوام
ولَرُبَّ ذي فُرُشٍ مُمهَّدةٍ له امسى عليه من التراب ركام
وعجبتُ اذ علل الحتوف كثيرةٌ والناس عن علل الحتوف نيام
والغيُّ مزدَحمٌ عليه وعورةٌ والرشد سهلٌ ما عليه زحام
والموت يعمل والعيون قريرةٌ تلهو وتلعب بالمنى وتنام
والله يقضي في الامور بعلمه والمرء يُحمدُ مرَّةً ويُلام
والخَلق يَقدُمُ بعضُهُ بعضاً يقود الخلف منه الى البلى القدَّام
كلٌّ يدور على البقاء مؤمِّلاً وعلى الفناء تديره الايَّام

في الذكر الطيب

سكَنٌ يبقى له سكَنُ ما بهذا يؤْذنُ الزمنُ
نحنُ في دارٍ يخبِّرنا عن بلاها ناطقٌ لسِن
دار سوءٍ لم يدُمْ فرحٌ لامرىءٍ فيها ولا حزَن
ما نرى من اهلها احداً لم تَغُلْ فيها به الفتن
عجباً من معشرٍ سلفوا ايَّ غبنٍ بيِّنٍ غُبنوا
وفَّروا الدنيا لغيرهمِ وابتنوا فيها وما سكنوا
تركوها بعد ما اشتبكت بينهم في حبِّها الإِحَنُ
كلُّ حيٍّ عند ميتتهِ حظُّهُ من ماله الكفن
إنَّ مال المرءِ ليسَ له منه الاَّ ذِكرُهُ الحسن
في سبيل الله انفسنا كلّنا بالموتِ مرتَهَنُ

---

(١) الآكلين

خداع الاماني

الدَّهرُ ذو دُولٍ والموتُ ذو عِللٍ ... والمرءُ ذو املٍ والنـاس اشباهُ
ولم تزل عِبرٌ فيهنَّ معتبرٌ ... يجري بهـا قدَرٌ والله اجراه
والمُبتلى فهوَ المهجورُ جانبه ... والناسُ حيثُ يكون المال والجاه
يبكي ويضحك ذو نفسٍ مصرَّفة ... والله اضحكه والله ابكاه
يا بائعَ الدين بالدُّنيا وباطلهـا ... ترضى بدينك شيئاً ليس يسواه
حتى متى انت في لهوٍ وفي لَعِبٍ ... والموت نحوك يهوي فـاغراً فاه
ما كلُّ ما يتمنى المرءُ يدركه ... رُبَّ أمرىءٍ حتفـه فيما تمنَّاه
إنَّ المنى لغرورٌ ضِلَّـةً وهوى ... لعل حتف امرىءٍ في الشيء يهواه
والناس في رقدةٍ عما يُراد بهم ... وللحوادث تحريكٌ وإنباه
أَنصفْ هُديت اذا ما كنت منتصفاً ... لا ترضَ للناس شيئاً لستَ ترضاه
يا رُبَّ يوم اتت بشراه مقبلةً ... ثمَّ استحالت بصوت النَّعي بشراه
لا تحقرنَّ من المعـروف اصغره ... أحسنْ فعاقبـة الاحسان حسناه
وكـلُّ امرٍ له لا بُدَّ عاقبةٌ ... وخيرُ أمرك ما احمـدتَ عُقباه
نلهو ولـلموت مُمسانا ومصبحنا ... من لم يصبِّحه وجه الموت مسَّاه
ما اقربَ الموت في الدنياَ وابعده ... وما أمرَّ جـنى الدُّنيا واحلاهُ
كم نافس المرء في شيءٍ وكابر فيه ... م ... الناس ثم مضى عنه وخلّاه
بينا الشقيق على إلفٍ يُسَرُّ به ... اذ صار اغمضه يوماً وسجّاه
يبكي عليهِ قليـلًا ثم يُخرجه ... فيمكن الارض منه ثمَّ ينساه
وكلّ ذي اجـلٍ يوماً سيبلغه ... وكلّ ذي عملٍ يوماً سيلقاه



ابو تمام

حبيب بن اوس الطائي

ولد بين ١٨٨ و ١٩٢ هـ وتوفي ٢٣٠ او ٢٣١

حوالى ٨٠٤ م — ٨٤٥ م

توطئة تاريخية — ممدوحوه — شخصيته في شعره — خصائصه الفنية

(التأنق البديعي — التفنن المعنوي — الشغف بالاغراب)



مصادر دراسته

(مروج الذهب) للمسعودي (اوروبا) ج ٧ ص ١٦٠ — ١٦٧

الاغاني ج ١٥ ص ١٠٠ — ١٠٨

وفي سيرة ديك الجن

الوساطة للجرجاني ص ٢٢ — ٢٦ و ٥٩ — ٦٦ و ٣٦١

الموازنة للآمدي

الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني (مصر ١٣٤٣) ص ٣٠٣ — ٣٢٩

تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر ج ٤ ص ١٨ — ٢٦

نزهة الالباء للانباري ص ٢١٣

وفيات الاعيان ج ١ — تحت « حبيب » ص ١٦٩ — ١٧٣

حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ — ٢٤٠

خزانة الادب للبغدادي (بولاق) ج ١ ص ١٧٠ — ١٧٢

ديوان ابي تمام للخياط

ديوان ابي تمام للدكتور ملحم الاسود

ومواضع شتى في كتب الادب الحديثة كدائرة المعارف للبستاني ومجلة الكلية ومجلة المجمع العلمي ودائرة المعارف الاسلامية وسواها

توطئة تاريخية

يؤخذ من المصادر التاريخية ان ابا تمام ولد حوالى ١٩١ ﻫ في قرية يقال لها جاسم . وهي على ما ذكر ياقوت قرية تبعد عن دمشق ثمانية فراسخ على يمين الطريق الاعظم الى طبريا . ولا يعرف عن حداثته فيها شيء يذكر ، الا انه قد يلاحظ مما نقله ابن خلكان وابن عساكر انه كان في صغره يعمل عند حائك او قزّاز في دمشق (١) .

وكل ما يمكن استخلاصه من شتى الروايات انّ والده رجل مسيحي اسمه تدوس العطّار ، فحرّف بعد اسلام الشاعر الى اوس . ويرجعون نسبه الى قبيلة طيّ ولذلك لقب بالطائي . وفي ديوانه مواقف يفاخر فيها بهذا النسب نذكر منها هنا قصيدته التي مطلعها — « تصدّت وحبل البين مستحصد شزرُ » ومنها

وهل خاب من جذماه في اصل طيّىء … عديُّ العديّين القلمّسُ او عمروُ
لنا جوهر لو خالط الارض اصبحت … وبطنانها منه وظهرانها تِبرُ
مقاماتنا وَقفٌ على العلم والحجى … فامردنا كهلٌ واشيبنا حَبرُ

ويأخذ فيها بذكر كرام الطائيين وابطالهم وما كان لهم من غرر الوقائع ويختمها بقوله :

مساعٍ يضلُّ الشعر في كنه وصفها … فما يهتدي الا لاصغرها الشعر

والمجمع عليه انه انتقل وهو فتى الى مصر . وكان يلازم مسجدها يخدم فيه اهل العلم والادب ، فلشأ هناك . ثم جاب الاقطار فزار بغداد وخراسان ونيسابور وبلاد الجبل والحجاز وارمينيا والموصل وسواها . وشعره مفعم بما يدل على كثرة تجواله في الاقطار ، وتحمله للمشاق والاخطار

واذا دققنا في ديوانه وسيرته ترَجح لدينا انه هبط مصر يافعاً . ففي قصيدته التي قالها في مصر مادحاً آل الرسول ومطلعها « اظبيةُ حيث استنّت الكثب العفرُ » ما يشير الى انه قالها وهو في السابعة عشرة . واليك هذه الابيات منها

وان نكيراً ان يضيق بمن له … عشيرة مثلي او وسيلته مصر
وما لامرىء من قائل يوم عثرة … لعاً وخديناهُ الحداثة والفقر
وان الذي احذاني الشيب لَلتي … رايت ولم تكمل له السبع والعشر

---

(١) وفيات الاعيان ١ — ١٥٣ وتهذيب التاريخ الكبير ٤—١٨

فاذا تأملت البيت الاول شعرت ان قائله حديث العهد بمصر ، وانه انما أمّها وسيلة للارتزاق . ويثبت لنا ذلك ما جاء في حسن المحاضرة للسيوطي من انه هبط مصر « وهو في شبيبته »[١]، وكذلك ما اشار اليه عرضاً ابن خلكان وابن عساكر انه كان في دمشق يعمل عند حايك . ويقول المرزباني ان اول نبوغه كان بدمشق[٢]

وفي شعره ما يدل على ان حياته في مصر لم تكن على ما يرام فاكثر شعره فيها نفثات متبرّم يستثقل الاقامة في وادي النيل . وهذه قصيدته اللامية شاهدة بذلك : نظمها وقد مر عليه خمسة احوال في مصر فقال فيها —

بنفسي ارض الشام لا ايمن الحمى ولا ايسر الدهنا ولا اوسط الرملِ
عدتنيَ عنكم مكرهاً غربة النوى لها وطرٌ في ان تُمِرَّ ولا تحلي

الى ان يقول

أخمسةُ احوالٍ مضت لمغيبه وشهران بل يومان تُكلٌ من الثكل
ويمنعه من ان يبيت زَماعه على عجلٍ ان القضاء على رِسلِ
لقد طلعتْ في وجه مصرٍ بوجهه بلا طالع سعدٍ ولا طائر سهلِ
وساوس آمال ومذهب همة مخيّمة بين المطيّة والرَّحل
نأيتُ فلا مالاً حويت ولم أقمْ فامتَع اذ فجّعت بالمال والاهل
وكان ورائي من صريخة طيء ومعن ووهب عن امامي ما يسلي
فلم يك ما جرَّعتُ نفسي من الاسى ولم يك ما جرَّعت قومي من الثكل

والذي يحصّل من هذه الابيات انه كان قبل خمسة احوال ترك قومه وجاء مصر منتجعاً الرزق ، فلم يلق ما كان يتوخّاه ، ولم يحمله على البقاء فيها حتى الان الا القضاء المعاكس . ويفهم من ذلك ضمناً انه ترك اهله وفيه مطامع . ولا تكون المطامع عادةً قبل ان يشرف المرء على البلوغ . فشاعرنا على ما يظهر حسّن اليه الاسلام وهو في الشام ففعل ذلك مندفعاً بما فيه من الطموح وطلب العلى[١] ، وظن انه ينال غايته في مصر فامّها . ولضيق

---

(١) حسن المحاضرة ١—٢٤٠ (٢) الموشح ٣٢٤

(٣) وقد فعل ذلك بعض من كبار النصارى في عصره وبعده كآل الفيض وآل ثوابة . وآل وهب وكانوا من رؤساء الناس وكانت دولتهم ناضرة واياهم مشرقة الفخري ١٨٢ و ١٣٧ والفهرست ١٣٥

ذات يده وميله الى الادب لزم المسجد يخدم اهل العلم ويأخذ عنهم

وما زال كذلك حتى نبغ واشتهر فهجر مصر قاصداً كبار الرجال في العالم الاسلامي. وبلغ المعتصم خبره فحمله اليه الى سامّرا (سرّ من راى) فلزمه ومدحه ، وكان في زمانه امير الشعراء وحامل رايتهم .

ثم عينه الحسن بن وهب على بريد الموصل ، فقضى في هذا المنصب السنتين الاخيرتين من حياته ، وتوفي هناك. وقد رأينا تمهيداً لدراسته ان نثبت هنا قائمة باهم ممدوحيه مرتبة بحسب عدد القصائد التي قيلت فيهم

اهم ممدوحي ابي تمام

ابو سعيد محمد بن يوسف الثغري وآله	٢٩ قصيدة	(من طيّ) وكان من كبار القادة
آل وهب وزراء الدولة	١٣ «	ينسبهم البعض في بني الحرث بن كعب ولكن الصحيح انهم من الموالي [1]
الخلفاء العباسيون: المعتصم ٨، المامون ٢، الواثق ٢	١٢	
القاضي احمد بن ابي دؤاد (الايادي الجهمي)	١٢	كان قاضي الدولة ومن اكبر المتنفذين فيها
خالد بن يزيد بن مزْيد (الشيباني)	١٢	من الامراء والقادة
مالك بن طوق (التغلبي)	١٠	امير عرب الشام
محمد بن الهيثم بن شيانه	٨	من اهل مرو (من الموالي) [2]
آل حُميد الطوسي (طائي)	٦	ومنهم محمد بن حميد وقد اشتهر في حرب بابك
ابو المغيث الرافقي وآله	٥	امير الشام

(١) راجع قصيدة ابي تمام « هل اثر من ديارهم دعس » ومختارات البارودي ٣٧٢ قول ابن الرومي عن ابن وهب « وذو نسب من آل ساسان شابك »

(٢) ديوان ابي تمام للاسود ١—٢٨٢

عبد الله بن طاهر بن الحسين	٤	فارسي الاصل (خزاعي الولاء) احد كبار رجال الدولة وامير خراسان
ابو دلف القاسم بن عيسى (العجلي)	٤	قائد عربي كبير وصاحب الكرخ
محمد بن الزيات الكاتب المشهور	٤	وزير المعتصم
اسحق بن ابرهيم المصعبي (الخزاعي)	٤	نائب بغداد
عبد الحميد بن غالب الصغدي	٤	
محمد بن حسان (الضبي)	٤	
آل سهل	٤	الوزراء والكتاب وهم من الفرس
الافشين	٢	القائد التركي الكبير
علي بن مرّ	٢	من كبراء طي

شخصيته في شعره

لابي تمام مزيتان بارزتان ، صبره على المشاق لبلوغ المنى وشدة عنفوانه واعجابه بنفسه. يضاف الى ذلك ميله الى الاسراف في الميل والقوى. فاذا قرأت ديوانه رايته مفعماً بما يدل على انه نشأ مغامراً في سبيل الجاه والمال . وقد زادته كثرة اسفاره عزماً ومضاء ، فليس اذن من الغريب ان تسمعه يقول

ذريني على اخلاقي الصمّ للتي   هي الوفر او سرب ترنّ نوادبه

اي دعيني — على ما فيَّ من خلق شديد — اخوض غمرات الحياة فاما الغنى او الموت . وقوله من قصيدة اخرى

ولكنني لم احو وفراً مجمَّعا   ففزت به الا بشمل مبدّد

نزعة في نفس الشاعر تعبّر لنا عمّا يختلج في نفوس البسلاء المغامرين الذين يأبون حياة الخمول ، فيقتحمون الاهوال ويخوضون الغمار طلباً للعلى والمجد. ومنها

اليس باكناف الجرير وفارس   وقُمّ واصطخر قرارٌ لروّد

بلى ان ارض الله فيها ندوحة   ومضطرب للفاتك المتجرّد

تلك روح قلقة كثيرة المطامع ، وهي التي حملت شاعرنا على ترك قومه في الشام ، ثم على ترك مصر والضرب في اجواز الارض . وقد صدق في وصف حاله اذ قال

ذات الثنايا الغرّ لا تتعرّضي ... عند الفراق بمقلتين وجيد
ما ابيضّ وجه المرء في طلب العلى ... حتى يسوّدَ وجهه في البيد

وانك لتكاد تلمس صلابة نفسه في ابياته التالية —

لا أفقِر الطربَ القلاصَ ولا أرى ... مع زير نسوان اشدُّ قيودي
شوقٌ ضرَحت قذاته عن مشربي ... وهوىً اطرت لحاءَهُ عن عودي
عامي وعام العيس بين وديقةٍ ... مسجورة وتنوفة صيخود
حتى اغادر كل يوم بالفلا ... للطير عيداً من بنات العيد

وملخّص هذه الابيات : انني لست من الذين يركبون العيس توصلًا الى طربٍ او لملهى غرامي ، ولكنني رجل اسفار متمرس بقطع الفلوات المحرقة ، وكم تركت لطيورها نصيباً وافراً من نياقي . يشير بذلك الى صلابته واحتماله وشوقه الى العظائم . والكثير في شعره ينضح بهذه الروح المغامرة ، حتى شعره في مصر — وهو في اول عهده وقد قيده الدهر بقيود الفقر — نراه برغم ذلك ينمّ على نفس مرّة طماعة . ومن قوله في ذلك

وطال قطوني ارض مصر لحاجة ... يقال لها أقبح بهاتي وأسمج
اقلّب في اقطارها الطرف كي ارى ... ولست براء ذاك عصمة ملتجي
فقنّعني بأسي واعلم انني ... مقود بحبل للمقادير مدمج

اما عنفوانه فظاهر مما رووه عنه يوم قصد عبدالله بن طاهر امير خراسان . قالوا لما فرغ من انشاده بائيته التي مطلعها « اهنّ عوادي يوسف وصواحبه » نثر عليه الف درهم ، فاستقلها الشاعر ولم يمس منها شيئاً ، بل تركها للغلمان يلتقطونها . فوجد عليه الامير وقال يترفع عن برّي ، ويتهاون بما اكرمته . فلم يبلغ ما اراده من بعد ذلك . واي عنفوان اشد من ان يقصد شاعر اميراً جليلًا كابن طاهر فيمدحه ، ثم هو يرى هبة الامير اقلّ من قدره ، فيترفع عن ان يمسها بيده . وهذه الظاهرة الخلقية في شاعرنا تتجلى لنا ايضاً في خلق ابي الطيب المتنبي كما سنرى عند درسنا هذا الشاعر . وهي قد تهيب بالشاعر الى وزن نفسه بميزان ممدوحيه ، او الى التفاخر والتعاظم على زملائه ومناوئيه . خذ قصيدة ابي تمام التي قالها يمدح قاضي الدولة العباسية احمد بن ابي دؤاد ويعتذر اليه عن اساءة ، واولها

اورايت ايَّ سوالف وخدود عنَّت لنا بين اللوى فزرود

وفيها يذكر فضل الممدوح وفضل قومه (اياد) ويقرن ذلك بمدح طيٍّ (قبيلة الشاعر)، ويجعل اياداً وطيّاً متساويين في المحامد فيقول

كعب وحاتمٌ اللذان تقاسما خطط العلى من طارفٍ وتليد
هذا الذي خلف السحاب ومات ذا في الحمد ميتة خضرم صنديدِ

ثم يتقدم الى الاعتذار بابيات تدل على شدة نفسه ومنها

فاسمع مقالة زائرٍ لم تشتبه آراؤه عند اشتباه البيدِ
اسرى طريداً للحياء من التي زعموا وليس لرهبةٍ بطريد
كنتَ الربيعَ امامه، ووراءه قمرُ القبائل خالد بن يزيد
ما خالد لي دون ايوب ولا عبد العزيز ولست دون يزيد

والمتأمل في هذه الابيات يعجب من هذه العواطف التي تملي عليه ان يقول لممدوح عظيم يعتذر اليه: لم آتك رهبة منك بل خجلاً مما اتهمت به، وان مثلي في الاعتذار اليك مثل يزيد بن المهلب لما استجار من الوليد بايوب بن سليمان بن عبد الملك، وبعبد العزيز بن الوليد فشفعا له. وما خالد الذي يشفع لي باقل منهما، ولا انا باقل من يزيد بن المهلب

ومثل ذلك قوله من قصيدة يمدح بها محمد بن يوسف —

وكنت اذا ما زرتُ يوماً مسوّداً سرحت رجائي في مسارح سؤدد
فان يجزل النعمى تشبْ قصائدي وان يأبَ لم اقنع باصوات مَعبد
اليس باكناف الجرير وفارس وقُمٍ واصطخر قرار لروَّد

فكانه يقول اني شاعر كبير النفس اقصد الامير العظيم فان كافأني بما يستحق مقالي كافأته بما يستحقه من القصائد، والا فاني اتحول عنه الى الضرب في آفاق الارض

اما تعاظمه بشعره فهو كثير في شعره كقوله يصف قصائده

وسيّارة في الارض ليس بنازحٍ على وخدها حَزنٌ سحيق ولا سهبُ
تذرُّ ذرور الشمس في كل بلدة وتمشي جموحاً ما يردُّ لها غربُ
اذا أنشدت في القوم ظلّت كانها مُسرَّة كبرٍ او تداخلها عُجب
مفصَّلة باللؤلوء المنتقى لها من الشعر الا انه اللؤلوء الرَّطب

***

وقوله —

خـذها مغرّبة في الارض آنسةً	بكل فهم غريب حـين تغترب
لا يستقى من حفير الكتب رونقها	ولم تزل تستقى من بحرها الكتب
حسيبة من صميم المـدح منصبهـا	اذ اكثر الشعر ملقى ما له حسب

وقس على ذلك ما لا يسعه هذا المقام

على ان ابا تمام كان — على صلابة نفسه — موصوفاً بكرم النفس وحسن الاخلاق.(١) وكان محباً للشراب والغناء ، لا يكاد يحصل على المال حتى ينفقه في سبيل المسرات . فهو في ذلك كاكثر شعراء عصره . وبرغم ما تجده في شعره من الشدة الدينية (ولا سيما عند ذكره للروم) لا تجد في سيرته او في شعره تمسكاً شديداً بفروض الدين . قال المسعودي كان ابو تمام ماجنا خليعاً ، وربما اداه ذلك الى ترك موجبات فرضه تماجنا لا اعتقادا .(٢) وبكلمة اخرى كان مستهتراً قليل المبالاة بما يتطلبه حسن الاعتقاد

خصائصه الفنية

قال ابن شيق القيرواني لا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه كابي نواس في الخمر ، وابي تمام في التصنيع ، والبحتري في الطيف الخ.(٣) وقال الجرجاني في الوساطة كانت الشعراء تجري على نهج من الاستعارة قريب من الاقتصاد حتى استرسل فيه ابو تمام ومال الى الرخصة ، فاخرجه الى التعدي وتبعه اكثر المحدثين(٤) . وقال ابو الفرج الاصفهاني « وله مذهب في المطابق هو كالسابق اليه جميع الشعراء وان كانوا قـد فتحوه قبله وقالوا القليل منه ، فان له فضـل الاكثار والسلوك في جميع طرقه(٥) » . ووصفه الامدي بقوله « وشعره لا يشبه اشعار الاوائل ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات والمعاني المولدة » ، ثم يقول « فان كنت تميل الى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة ولا تلوي على غير ذلك فابو تمام اشعر(٦) »

هذا هو رأي جمهور العلماء النقـادين في شعر ابي تمام . والذي يطـالع ديوانه ويدقق في تفهم معانيه يرى فيه ثلاث مزايا بارزة وهي —

---

(١) نزهة الالباء للانباري ٢١٤ وابن عساكر ٤—١٨ الى ٢٦ (٢) مروج الذهب ٧—١٥١
(٣) العمدة ١—١٩٤ (٤) الوساطة ٣٢٠
(٥) الاغاني ١٥—١٠٢ (٦) الموازنة ٣

١ — تانقه البديعي (واكثر ما يظهر ذلك في الاستعارة والطباق والجناس)
٢ — تفننه المعنوي وهو ما يسميه البعض بالاختراع
٣ — شغفه بالاغراب — او الغوص على ما يستصعب من الالفاظ والمعاني
ولنبسط لك هذه المزايا واحدة واحدة

التأنق البديعي

لم يخل الشعر العربي في عصر من العصور من الاخذ باسباب البديع او الصناعة اللفظية والمعنوية . كان ذلك منذ ايام الجاهلية ، فقد عرف امرؤ القيس بسبقه الى الكثير من لطائف الوصف والتشبيه ، وعرف زهير بتثقيف قصائده وتكرير النظر فيها وتنقيحها « وربما رصد اوقات نشاطه فتباطأ عمله » . ولذلك سميت الحوليات مبالغة في تأنقه وتصنعه ، ومثلة الحطيئة

واذا راجعت شعر النابغة والاعشى وجرير والاخطل والفرزدق وابي نواس وبشار ومروان ومسلم وسواهم من امراء الشعر الذي تقدموا ابا تمام ، تجد في جميعهم اثر الميل الى الصناعة يتفاوت فيهم بالنسبة الى الشاعر واحواله . قال ابن رشيق عن صناع الشعر القدماء « واستطرفوا ما جاء من الصنعة نحو البيت او البيتين في القصيدة بين القصائد ، يستدل بذلك على جودة شعر الرجل وصدق حسه وصفاء خاطره . فاما اذا كثر ذلك فهو عيب يشهد بخلاف الطبع وايثار الكلفة . وليس يتجه البتة ان يتأتى من الشاعر قصيدة كلها او اكثرها متصنع من غير قصد ، كالذي ياتي من اشعار حبيب والبحتري وغيرهما ، وقد كانا يطلبان الصنعة ويولعان بها »[١]

وقد كادوا يجمعون على ان مسلم بن الوليد هو اول من توسع في البديع ، وتبعه فيه جماعة منهم ابو تمام : روى ذلك الاصفهاني في سيرة مسلم بن الوليد وقال ان ابا تمام جعل شعره كله مذهبا واحدا فيه . ونقل عن محمد بن يزيد قوله كان مسلم اول من عقد هذه المعاني الطريفة واستخرجها . وعن القاسم بن مهرويه اول من افسد الشعر مسلم بن الوليد ، جاء بهذا الفن الذي سماه الناس البديع ، ثم جاء الطائي بعده فتفنن فيه[٢]

---

(١) العمدة ١—٨٤ (٢) راجع الموازنة ص ٩ وريحانة الالباء ٢٣٧

والحقيقة ما ذكرنا من ان انواع البديع منشورة متفرّقة في اشعار المتقدمين ولكن مسلما اكثر منها ، وكان يحتذي حذو العتابي ، وكان هذا يحتذي حذو بشار[1]، ثم قام ابو تمام فزاد على مسلم . وكان العصر الذي نشا فيه شاعرنا (اعني صدر الدولة العباسية) عصر انتقال في الادب من الطريقة البدوية القديمة التي عرف بها صدر الاسلام الى الطريقة الحضرية المولدة طريقة التبسط والتانق . والظاهر ان ابا تمام كان من الشعراء الذين تاثروا بهذه الطريقة فجرى فيها شوطاً بعيداً وصار على ما يرى بعضهم امام هذه الصناعة . وفي شعره من الشواهد على ذلك ما لا يحتمل المقام الاسهاب به فنكتفي هنا بالقليل منها — قال من قصيدة

تلومين ان لم اطو منشور همة طوت عن لساني مدح كل مزبّد[2]

لبزّتك اثواب البصائر عزّةً كستك ثياب الزجر من كل مرشد

كانك لا تدرين طعم معيشة تمجّ دماً من طعم ذل التعبُّد

فصوني قناع الصبر اني لراحل الى بحر جود غامر الفضل مزبد

امات حياة الوعد منه نوافل من الجود اضحت للعفاة بمرصد

وقال مادحاً احمد ابن ابي دؤاد

ما زلت ارقب تحت افياء المنى يوماً بوجهٍ مثل وجهك ابيضا

لولاك عزَّ لقاؤه[3] فيما بقي اضعاف ما قد عزَّني فيما مضى

اوردتني العِدَّ الخسيف وقد أرى اتبرَّض الثمد البكيَّ تبرُّضا[4]

اما القريض فقد جذبت بضبعه جذب الرشاء مصرّحا ومعرّضا

احببته اذ كان فيك محبَّباً وازددت حبًّا حين صار مبغَّضا

قد كانت الحال اشتكت فاسوتها اسواً ابى امراره ان ينقضا

ما عذرها ألاَّ تفيق ولم تزل لمريضها بالمكرمات ممرّضا

وله متغزلاً

لا انت انت ولا الديار ديار خفَّ الهوى وتولَّت الاوطار

---

(١) البيان والتبيين ١—٢٤ (٢) المزبد اللئيم (٣) الضمير يرجع الى الخليفة

(٤) العد الخسيف اي النبع الوافر الماء . اتبرض الثمد البكي اي اطلب الماء القليل هنا وهناك

كانت مجاورة الطلول واهلها زمناً عـذاب الورد فهي بحار
ايام تدمي عينه تلك الدُمى فيها وتقمر لبّـه الاقمار
اذ لا صَدوف ولا كنود اسماها كالمعنيين ولا نوار نوار[1]
بيض فهنّ اذا رمقن سوافراً صُورٌ ، وهنّ اذا رمقن صوار

وقـال من قصيدة في ابي دلف العجلي

تكاد مغانيه تهشُّ عراصها فتركب من شوق الى كل راكبِ
اذا ما غدا اغدى كريمة ماله هديّا ولو زفّت لالأم خاطب
يرى اقبح الاشياء اوبة آمل كسته يد المأمول حلّة خائب
واحسن من نور تفتحه الصبا بياض العطايا في سواد المطالب
اذا الجمت يوماً لجيم وحولها بنو الحصن نجل المحصنات النجائب
فان المنايا والصوارم والقنا اقاربهم في الروع دون الاقارب
جحافل لا يتركن ذا جبريّة سليماً ولا يحربن من لم يحارب
يمدون من ايد عواص عواصم تصول باسياف قواض قواضب

وامثال ذلك كثيرة في شعره بل هي مذهبه العام. وقد قاده شغفه بذلك الى الاسراف والخروج عن جادة المعقول ، حتى رماه الكثيرون باسهم النقد الحادة . قال الجرجاني ان ابا تمام اسلم نفسه للتكلف ، يرى انه ان مرّ على اسم موضع يحتاج الى ذكره او يتصل بقصة يذكرها في شعره من دون ان يشتقّ منه تجنيساً او يعمل فيه بديعاً ، فقد باء باثم واخلّ بفرض حتم.[2] وقال الامدي في الموازنـة بعد ان ذكر آراء المنحرفين عن ابي تمام « كانهم يريدون اسرافه في طلب الطباق والتجنيس والاستعارات واسرافه في التماس هذه الابواب وتوشيح شعره بها ، حتى صار كثير مما اتى من المعاني لا يعرف ولا يعلم غرضه فيها الا مع الكد والفكر وطول التامل ، ومنه ما لا يعرف معناه الا بالظن . ولو كان اخذ عفو هذه الاشياء ولم يوغل فيها ولم يجاذب الالفاظ والمعاني مجاذبة ويقتسرها مكارهة ، وتناول ما يسمح به خاطره وهو بجهامه غير متعب ولا مكدود ، واورد من الاستعارات ما قرب في حسن ولم يفحش ، واقتصر من القول على ما كان محذوّا حذو الشعراء المحسنين

(١) صدوف وكنود ونوار اسماء (٢) اسرار البلاغة ١٠

ليسلم من هذه الاشياء التي تهجن الشعر وتذهب ماءه ورونقه – ولعل ذلك ان يكون ثلث شعره او اكثر – لظننته كان يتقدم عند اهل العلم بالشعر اكثر الشعراء المتاخرين[١]».

وقال الباقلاني بعد ان ذكر بضعة امثال على تصنع ابي تمام « فهذا وما اشبه انما يحدث من غلوّه في الصنعة حتى يعميه عن وجه الصواب ، وربما اسرف في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها حتى استثقل نظمه واستُوخم رصفه ، وكان التكلف بارداً والتصرف جامداً »[٢].

والذي يطالع ديوانه تحرّيا لهذه التهم يتضح له ان اكثر ما ذكروه حق وان ابا تمام كثيراً ما ياتي بالاستعارة او الكناية دون ان يراعي التناسب بين الحقيقة والمجاز كقوله –

وركب يساقون الركاب زجاجة   من السير لم تقصد لها كف قاطب

يقصد بذلك ان المسافرين يشاركون ركائبهم في السير الشديد الذي لا لين فيه ولا تؤدة . فاستعار للسير الشديد الخمر التي لم تمزج بماء وجعل تشارك الركب والركائب فيه عبارة عن تساقيهم تلك الخمر الصرف . وانت لا تحتاج الى تامل كثير لترى شدة التعسف في هذه الاستعارة

ومثل ذلك قوله –

ضاحي المحيا للهجير وللقنا   تحت العجاج تخاله محراثا

فالشطر الاول جميل ، جعل الممدوح من ذوي الاقدام والتعرض للمشاق ، ولكنه الخش في الشطر الثاني اذ جعله محراثا يشق غبار الحرب وافسد جمال البيت

وقوله –

آثرني اذ جعلته سنداً   كل امرىء لاجىء الى سنده

ايثار شزر القوى رأى جسد   المعروف اولى بالطبّ من جسده

والشاهد في البيت الثاني وهو يريد ان يقول آثرني ايثار القوي وقد غار للمعروف وقام يناصره . فتامل استعارته الجسد للمعروف ، وايثار القوي له بالتطبيب !

وقوله –

لعمري لقد حرّرت يوم لقيته   لو ان القضاء وحده لم يبرّد

---

(١) الموازنة ٥٥–٥٦   (٢) اعجاز القران ٥٣

وانك لتشعر بقشعريرة البرد في هذا البيت. وهو يقصد ان يقول انَّ حميّتك قد ثارت يوم لقيت العدو وكدت تفتك به لولا ان القضاء حال دون ذلك : فكدَّ نفسه حتى جاء بالطباق ، ولكنه جاء غثاً بارداً

وانظر الى تعسّفه اذ يقول

نوى كانقضاض النجم كانت نتيجةً من الهزل يوماً ان هزل النوى جدُّ

اي ان النوى فاجأته مفاجأة فلم يصدق اولا ، ولكن ألم وقوعها اراه الحقيقة وعلمه ان هزل الحبيب جد

وقوله —

فكانَّ افئدة النوى مصدوعة حتى تصدَّع بالفراق فوأدي

فاذا فضضت من الليالي فرجة خالفنها فسددنها ببعاد

ومعناها ان فؤاد النوى بقي مصدوعا حتى صدع بفراق الاحبة فكلما فتحت لنفسي منفرجا خالفتني الايام ، فسدّت ذلك المنفرج بالبعاد . فانظر كيف تكلف تصديع افئدة النوى ، وكيف استعمل البعاد كحجر يسدبه ثغرة الفرَج

وقوله —

اهيسُ أليسُ لجَّاءٌ الى همم تغرّق الاسد في آذيّها الليسا

انظر الى هذه الهمم التي ترى الاسود غرقى في غمارها. وكل ما يريد ان يقولهُ ان الممدوح شجاع همته تفوق همة الاسود الشديدة

وقوله —

هدأت على تاميل احمد همتي واطاف تقليدي به وقياسي

معناه رايت الناس يسعون الى الممدوح فقلدتهم ووجدته بالقياس افضلهم ، فهدأت همتي المضطربة عنده . قابل هذا المعنى بما استعاره له من هدوء الهمة وطواف التقليد والقياس فترى شدة اسرافه في الصناعة

ومثل ذلك قوله —

لو لم تفتْ مُسِنَّ المجد مذ زمن بالجود والبأس كان المجد قد خرفا

ومعناه ان المجد قد هرم ، ولولا ان ارجعت اليه فتوّته بجودك وباسك لكان قد ادركه الخرف.

ومن الاسراف الممقوت قوله

فاويت بالمعروف اعناق الورى وحطمت بالانجاز ظهر الموعد

وقوله —

قرّت بقُرّان عين الدين وانشترت بالأشترين عيون الشرك فاصطُلما

والاشتران قائدان للروم

قال العسكري وهذا مع غثاثة لفظه وسوء التجنيس فيه يشتمل على عيب آخر وهو ان انشتار العين لا يوجب الاصطلام

واليك هذه الابيات يصف سفينة حملته الى الممدوح، وانظر كيف يتعسف في تشبيهها بالجبال وكيف يخرج به التكلف عن حدود الجمال

حملت رجاي اليك بنت حديقة غلباء لم تلقح لفحل مقرف

فنجت وقد حوت الهنيدة وابتنت في شطرها وتبوّعت في النيّف

في البيت الاول يريد بابنة الحديقة الغلباء السفينة لانها تصنع من خشب الحديقة، وشبه السماء بالفحل، ولم يلقحها اي لم يصبها بمطر . فتأمل هذه السماجة الصناعية . وفي البيت الثاني — اسرعت هذه السفينة وهي بنت مئة ولكنها في نشاط الخمسين، وسارت غايتها في بحر كالصحراء

الى ان يقول —

فاعتامها ذو خبرة بفحولها ندس بجبلة خلقها متلطف

اي فاختارها من فحول الشجر خبير حاذق ببنائها

ثم اجتنت بِشلوي فصرت جنينها متمكناً بقرار بطن مُسدف

اي ثم حملتني فكنت في بطنها كما يكون الجنين في بطن امه

واني ارجع القاري الى هذه القصيدة ليراجعها ويحكم بنفسه على هذه المجازات . وامثال ذلك كثير في شعر ابي تمام، فانك لا تكاد تقرأ له قصيدة حتى تمرّ ببيت او بضعة ابيات من هذا الشعر المكدود الذي ينفر منه الذوق السليم . لما فيه من تكلف الصناعة والاهتمام بالقشور دون اللباب

نفسه المعنوي

على ان لابي تمام مع كل اسرافه في الشعر الصناعي مكانة عالية في الشعر العربي . وما

ذلك الاّ لدقة تصوره وحسن اختراعه · ففي شعره كثير من الصور البليغـة التي تشهد له بجودة الخيال وبعد مرامي النظر · والذي يراجع ديوانه بروّية ويصبر على تحليل معانيه ، يجد من بدائعه الشعرية ما يشغفه · ويراد بالبدائع الشعرية ما لطف من وصف او مجاز او حكمة او لبس لباساً قشيباً من البلاغة · واليك امثلة ذلك من شعره

واذا اراد الله نشر فضيـلة   طُويتْ اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت   ماكان يُعرف طيبُ عَرف العود

وجودة البيتين في جمال الصورة التي نرى فيها الحسود ناشراً فضل المحسود ، وفي التمثيل على ذلك من العالم الطبيعي تمثيلاً يوضحها ويقررها في الذهن · وقد قرن كل ذلك برقة العبارة وجودة الالفاظ · ومثل ذلك قوله متقربا من امير اقام الحجاب على بابه وهو في غاية البلاغـة

ليسَ الحجاب بمقصٍ عنـك لي املاً   ان السماء ترجّى حين تحتجب

وقوله يصف عدم اجتماع المال والكرم في شخصه

لا تنكري عطل الكريم من الغنى   فالسيل حربٌ للمكان العالي

ومن اجمل صوره الشعرية قوله يرثي ولدين صغيرين لاحد الامراء والبلاغة ناطقة فيه

لهفي على تلك الشواهـد منهما   لو امهلت حتى تكون شمائلا
لغدا سكوتهما حجىً وصِباهما   حلماً وتلك الاريحية نائلا
ان الهـلال اذا رأيت نموّه   ايقنت انْ سيصير بدرا كاملا

وهذا البيت الاخير الذي اتى به تمثيلاً لما كان يرجى من ذينك الولدين هو من ابدع الامثال وابلغها · ومثله بلاغة وجمالا قوله المشهور يصف بلوغ الارب عن سبيل المشقات ·

ولـكنني لم احوِ وفراً مجمّعا   ففزت به الا بشمل مبدّد
ولم تعطني الايام نوما مسكّنا   الذّ به الا بنوم مشرّد
وطول مقام المرء في الحي مخلق   لديباجتيه فاغترب تتجدد
فاني رايت الشمس زيدت محبة   الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

وقد اجاد في هذه الابيات كل الاجادة ، وابرز هذه المعاني البديعة بقالب ياخذ بمجامع القلوب · ومن حسن اختراعه قوله يصف مشيه الباكر

ستٌّ وعشرون تدعوني فاتبعها الى المشيب فلم تظلم ولم تَحبِ
فأصغري انَّ شيبا لاح لي حدثا واكبري انني في المهد لم اشب

يعذر المشيب ويقول ليس الغريب انني شبت في السادسة والعشرين ، ولكن الغريب انني لم اشب وانا طفل : يشير بذلك الى ما في نفسه من عزم وهمة ، والى ما اصابه منذ طفولته من مقارعة الاهوال والخطوب

وقال يصف كرم الممدوح وازدحام الشعراء على بابه

ولو كان يفنى الشعر افناه ما قرت حياضك منه في العصور الذواهب
ولكنه صوب العقول اذا انجلت سحائب منه اعقبت بسحائب

والصور الشعرية في البيت الثاني خلّابة ، لاحكام التشبيه فيها وجمال التركيب

ومن هذه الصور الخلّابة قوله من مرثاته المشهورة

وقد كان فوت الموت سهلًا فردّه اليه الحفاظ المرُّ والخلق الوعرُ
ونفسٌ تخاف العار حتى كانما هو الكفر يوم الروع او دونه الكفر
فاثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت أخمَصك الحشر

وقوله يصف اميراً انعم الله عليه بنعمٍ عظيمة ، ولكنه كفرها ونقض عهد الولاء والوفاء

كم نعمةٍ لله كانت عنده فكانها في غربة واسارِ
كُسيت سبائب لومه فتضاءلت كتضاؤل الحسناء في الاطمار

وقد شهد البلغاء لابي تمام بالتقدم في ذلك . قال ابن الاثير في كلامه عن المعاني التي تستخرج من غير شاهد الحال « ان لابكارها سراً لا يهجم على مكامنه الا جنان الشهم ، ولا يفوز بمحاسنه الا من دق فهمه حتى جل عن دقة الفهم » . ثم يقول « قد قيل ان ابا تمام اكثر الشعراء المتاخرين ابتداعاً للمعاني ، وقد عددت معانيه المبتدعة (اي التي لم يسبق اليها) فوجدت ما يزيد عن عشرين معنى . واهل هذه الصناعة يكبرون ذلك ، وما هذا من مثل ابي تمام بكبير »(١)

وقد اصاب الاستاذ ضومط اذ قال — « الحق يقال ان ابا تمام هو كما قال فيه واصفوه

(١) المثل السائر ١٩٣

شاعر واسع الخيال دقيق التصور بعيد مرامي النظر ، واقدّر انه لو عاش فوق الاربعين ، ولم يمنعه الانهماك في الشهوات من ترتيب محفوظاته ومدركاته ، بل عاد عليها بالتهذيب والتشذيب ، فاطَّرح منها ما حقه ان يطرح وابقى منها ما هو جدير بالبقاء ، ثم جمع الاشباه والنظائر — لو عاش حتى فعل كل ذلك — لكان شعره بعدها لا يتعلق به متعلق ، ولبزّ على الارجح الشعراء قاطبة حتى ابا الطيب المتنبي في كثير من حكمه وامثاله وبُعد مطارح نظره »(١)

وكما اننا ننعي على ابي تمام ميله الى تكلف البديع نمدحه لما نجد في شعره من نفَس عال في النظم يؤثّر في النفس فيحملها الى الطبقات العليا . اقرأ ايّاً شئت من عيون قصائده ، وانظر الى تلك الهزّة التي تعتريك لقراءتها . فاذا حللتها وجدتها مزيجاً من جمال النظم ومتانة التركيب وسمو الفكر . ونجتزىء هنا بمثلين او ثلاثة من ذلك —

راجع قصيدته المشهورة في فتح عمورية وتأمل مقدمتها — تلك الوقفة الشعرية العالية التي يرينا فيها الشاعر « المذنب الغربي » ويسمعنا احاديث الجمهور عنه ، ثم يستخلص من كل ذلك تمهيداً ساحراً للتوصل الى الممدوح ، ووصف الواقعة العظيمة التي فتح فيها حصون الاعداء . كل ذلك باساوب شديد الأَسر بديع الخيال ، يملأ الاسماع ويحرك اوتار القلوب . واذا استثنيت بعض ما ذكرناه من تصنّعه فان معظم القصيدة من هذا النمط العالي ، كقوله يصف فشل قائد الروم ومحاولته اغراء المنتصرين بالمال وترفُّع الخليفة عن ذلك —

لما راى الحرب راي العين توفلسٌ ... والحرب مشتقة المعنى من الحرَب
غدا يصرّف بالاموال جريتها ... فعزّه البحر ذو التيّار والحدب
هيهات زُعزعت الارض الوقور به ... عن غزو محتسب لا غزو مكتسب
لم ينفق الذهب المُربي بكثرته ... على الحصا وبه فقر الى الذهب
ان الاسود اسود الغاب همتها ... يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

ومن هذا النمط العالي قوله

ستصبح العيس في ذا الليل عند فتى ... كثير ذكر الرضى في ساعة الغضب
صدفتُ عنه فلم تصدف مودته ... عني وعاوده ظني ولم يخب
كالغيث ان جئته وافاك ريّقه ... وان ترحّلت عنه لجّ في الطلب

(١) مجلة الكلية مج ٥ ص ٨٧

كأنما هو في اخلاقه ابدا   وان ثوى وحده في جحفل لجب

وقوله —

ويوم امام الموت دحض وقفته   ولو خرّ فيه الدين لانهال كاثبه
جلوت به وجه الخليفة والقنا   قد اتسعت بين الضلوع مذاهبه
فلو نطقت حرب لقالت محقّة   الا هكذا فليسكب المجد كاسبه

فانت ترى في كل ذلك نزعته الفنيّة الشديدة ، ولو قلّبت ديوانه لوجدتها في اكثر شعره . وهذه النزعة وما فيها من عنف وشدة اسر هي التي حدت بمريديه الى التغالي بمدحه وعدّه امام هذه الصناعة ، حتى قال ابو الفرج الاصفهاني « وفي عصرنا هذا (القرن الرابع الهجري) من تعصّب له فيفرط حتى يفضله على كلّ سالف وخالف » .[1] بل هي التي دفعت ابا دلف العجلي ان يصيح وقد انشده ابو تمام قصيدته التي مطلعها

على مثلها من اربع وملاعب   اذيلت مصونات الدموع السواكب

يا معشر ربيعة ! ما مُدحتم قط بمثل هذا الشعر ، فما عندكم لقائله ؟ فبادروه بمطارفهم يرمون بها اليه . فقال ابو دلف قد قبلها منكم واعاركم لبسها ، وسانوب عنكم في ثوابه . ثم امر له بخمسين الف درهم وقال والله ما هي بازاء استحقاقك وقدرك فاعذرنا[2] . ولم يكن ذلك مجرد اهتزاز للمديح ، ولكن الرجل تأثر بنفس الشاعر وجلال اسلوبه

ونلحظ ذلك في مجلس عبدالله بن طاهر امير خراسان ، فانه لما قصده وانشده قصيدته « اهنّ عوادي يوسف وصواحبه » لم يتمالك الشعراء الحاضرون من ان يصيحوا ما يستحق هذا الشعر غير الامير حفظه الله . وبلغ التأثر باحدهم ان قال : لي عند الامير اعزّه الله جائزة وعدني بها ، وقد جعلتها لهذا الرجل جزاء على قوله للامير[3] . ومثل ذلك ما جاء في الاغاني عن محمد بن سعد كاتب الحسن بن رجاء ان ابا تمام مدح الحسن بلاميته التي يقول فيها

انا من عرفت فان عرتك جهالة   فانا المقيم قيامة العذّال

فلما وصل الى قوله

لا تنكري عطل الكريم من الغنى   فالسيل حرب للمكان العالي
وتنظّري حيث الركاب ينصُّها   محيي القريض الى مميت المال

(١) و (٢) و(٣) الاغاني ١٥ — ١٠٠ و ١٠٣

صاح الممدوح متأثراً . والله لا اتممتها الاّ وانا قائم . فلما انتهى من انشادها عانقه . قال محمد بن سعد « واخذ منه على يدي عشرة آلاف درهم واخذ غير ذلك مما لم اعلم به على بخل كان في الحسن بن رجاء[١] »

ولا شك ان في شعر شاعرنا روعة خاصة ، فهو يجمع بين الفخامة اللفظية وجزالة المعنى جمعا يهزُّ النفس ، ويفعل بها ما فعل بمعاصره ومناوئه دعبل يوم سمع بعضهم ينشد بيتي ابي تمام

شهدتُ لقد اقوت مغانيكمُ بعدي ومحّت كما محّت وشائع من برد
وانجدتم من بعد اتهام داركم فيا دمعُ أنجدني على ساكني نجد

فتاثر دعبل على كرهه لابي تمام وصاح احسن والله وجعل يردّد « فيا دمع انجدني على ساكني نجد »[٢]

ولولا كثرة تصنعه وما سنذكره له من التعقيد والاغراب لاحلّته هذه الروعة الفنيـة اعلى محل في الشعر العربي

شغفه بالاغراب

« يذهب الى حزونة اللفظ وما يملأ الاسماع منه مع التصنيع المحكم طوعاً وكرهاً . ياتي للاشياء من بعد ويطلبها بكلفة وياخذها بقوّة »[٣] ذلك رأي ابن رشيق القيرواني فيه ، وقد اصاب كل الاصابة ولا سيما في قوله « ياتي للاشياء من بعد » ، ويراد بذلـك هيامه بالغريب من المعاني التي يحتاج في تفهمها الى تأمل ومشقّة .

وممّن سبقه الى هذا النقد ابو الحسن الجرجاني اذ قال بعـد ان ذكر اغرابه اللفظي وتطلبه البديع[٤] « ولم يرض بهاتين الخلّتين حتى اجتلب المعاني الغامضة ، وقصد الاغراض الخفيّة ، فاحتمل فيها كل غث ثقيل ، وارصد لها الافكار بكل سبيل ، فصار هذا الجنس من شعره اذا قرع السمع لم يصل الى القلب الاّ بعد اتعاب الفكر وكدّ الخاطر والحمل على القريحة » . فهو كما قالا ، يغطي مقاصده بشيء من الابهام . ومن هنا هذه الصعوبة التي

---

(١) الاغاني ١٥—١٠٦
(٢) " " —١٠٧
(٣) العمدة ١—٨٥
(٤) الوساطة ٢٢

يعانيها من يطالع ديوانه اذ يقف حائراً امام طلاسمه وغموض معانيــه ، ولكن اذا راضت له بالدرس والتفكّر راى فيها ما يلذّه من صور جميلة ومعان رشيقة . وقد وصف الشاعر قصائده بقوله —

فكأنما هي في السّماع جنادل — وكانما هي في القلوب كواكب
وغرائب تاتيك الاّ انهـا — لصنيعك الحسن الجميل اقارب

تُقبل على شعره فتصدمك وعورته ، فتحاول التغلب عليها ، وتكدّ نفسك في تذليل عقباتها ، ولكنك لا تلبث ان تشعر بتعب قد يحملك على النكوص . على انك اذا صبرت وتابعت الشاعر في اساليبه وغرائبه، واخذت تجلو لنفسك معانيه ، حمدت عاقبة هذا العمل، وشعرت بما يستهويك من بديع تخيلاته وجزالة الفاظه . ولنضربْ لك بعض الامثلة على ذلك . قال من مطلع قصيدة يمدح عبدالله بن طاهر

اهنّ عوادي يوسف وصواحبه — فعزماً فقِدماً ادرك السؤل طالبه
اعاذلتي ما اخشن الليل مركبا — واخشن منه في الملمات راكبه
دعيني على اخلاقي الصمّ للتي — هي الوفر اوسربٌ ترنُّ نوادبه
فان الحسام الهندوانيَّ انما — خشونته ما لم تفلَّــل مضاربه

ذكروا انه لما بدأ في انشاد هذه القصيدة في مجلس الامير قيل له لِم تقول ما لا يفهم ؟ فاجاب السائل لم لا تفهم ما يقال ؟ نكتــة جميلة تبيّن ما نقصــد اليه . ومعنى هذه الابيات عموماً : هل تريد الغواني ان تشغلني وتثني عزيمتي عن السفر ، وان تخدعني كما حاولتْ ان تخدع يوسف بن يعقوب ! فلأتذرّعْ بالعزم ، لا بد لكل طالب مواظب من ادراك طلبه . ويا ايتها العاذلة ان الليــل مركب خشن ، ولكن الذي يركبه اشد منه واخشن . فاتركيني على اخلاقي الشديدة اسعى في طلب العلى ، فاما ان انالهـا او اموت وتندبني النوادب . فان الحسام الهندواني القاطع انما خشونته (عدم مضائه) ما لم يستعمل (اي انما مضاء الرجل بالعمل والاقدام .)

وقوله يصف اماني الروم واعتمادهم على مناعة حصونهم —

وقال ذو امرهم لا مرتع صدد — للسارحين وليس الورد من كثب
ان الحِمامـين من بيض ومن سُمر — دلوا الحياتين من ماء ومن عشب

اي قال قادتهم لانفسهم لا مرتع قريب للاعـداء (اذا راموا الحصار) ولاماء فلا

يمكنهم البقاء طويلاً . على ان امانيهم هذه قد فشلت لان السيوف والرماح (الحامين) هي سبيلنا الى الماء وللعشب

وقوله يصف — كيد الممدوح للاعداء وحسن رأيه —

قد رأوه وهو القريب بعيدا ورأوه وهو البعيد قريبا
سكن الكيد فيهم انَّ من اعظم إربٍ ان لا تكون اريبا
مكرهم عنده فصيح وان هم خاطبوا مكره رأوه جليبا
لقد انصعتَ والشتاء له وجه يراه الرجال جهما قطوبا
طاعناً منحر الشمال متيحاً لبلاد العدوّ موتاً جنوبا
فضربت الشتاء في اخدعيه ضربةً غادرته قَوداً ركوبا

اي ان الاعداء رأوا الممدوح على قربه منهم بعيداً بمناعته ، وراوه على بعده قريباً منهم لعزمه وهجومه الشديد . وقد خفيت سياسته عليهم — وان من اعظم فنون السياسة ان لا يظهر الدهاء للاعداء — فلم يدركوا خططه مع ان خططهم كانت لديه واضحة . ولقد عدت اليهم والشتاء في ابانه فطعنت منحر الشمال (يكنى بذلك عن العدو لانه من جهة الشمال) حاملاً اليهم الموت من الجنوب ، وضربت الشتاء فاذللته ، حتى اصبح لديك كالجمل الركوب

ومن هذا القبيل —

يقولون ان الليث ليثُ خفيَّة نواجذُه مطرورةٌ ومخالبه
وما الليث كلُّ الليث الاَّ ابن عَثَّرٍ يعيش فواقَ ناقةٍ وهو راهبهُ

ويحل هذا الطلسم بقولنا : ليس الاسد سبع الغاب ولكن الاسد الحقيقي هو الذي يحتمل بأس الممدوح ولو قليلاً (فواق ناقة)

وقوله للعاذل الخليّ وهو بين الطلول

وما صار في ذا اليوم عذلك كله عدوّي حتى صار جهلك صاحبي
وما بك اركابي من الرشد مركبا الا انما حاولتَ رشد الركائب

لم يصر عذلك عدواً لي ، حتى صار جهلك صاحبي : اي كرهتك لعذلك اياي ولكنني ما لبثت ان رضيت عنك لجهلك لوعة الحب ، اذ انت بجهلك تستطيع مساعدتي فتمنعني مثلاً

من شدة الوجد وكثرة البكاء. ولكن مالك تحملني على اتباع سبل الرشاد وترك الوقوف بين الطلول — ليس ذلك رشادي بل رشاد ركائبي التي ترغب في متابعة السير

...

ومن اسباب اغرابه وغموضه شغفه الزائد بالطباق والجناس كقوله

فالشمس طالعة من ذا وقد افلت والشمس واجبة في ذا ولم تجب

...

فهو مدنٍ للجود وهو بغيض وهو مقص للمال وهو حبيب
فانت لديه حاضر غير حاضر بذكر وعنه غائب غير غائب

...

غربت خلائقه واغرب شاعر فيه فاحسن مُغرب في مغرب

ومن طلاسمه في ذلك قوله —

وركب يساقون الركاب زجاجة من السير لم تقصد لها كفُّ قاطب
فقد اكلوا منها الغوارب بالسرى وصارت لها اشباحهم كالغوارب
يصرّف مسراها جُذيل مشارق اذا آبه همٌّ عُذيقُ مغارب
يرى بالكعاب الرَّود طلعةَ ثائر وبالعرمس الوجناء غرّةَ آيب

ومعناها — ورب ركب شاركوا نياقهم بالسير الشديد حتى اذابوا اسنمتها وكواهلها، ويقود هؤلاء الركب رجل خبير بالاسفار شرقاً وغرباً، شغوف بالسفر على النياق حتى انه ليرى في وجه الناقة جمالاً، ويكره المكوث في المنازل فلا يرى في وجوه الحسان ما يغريه على ذلك

ومن دواعي غموضه اغراقه في استعمال الغريب من الالفاظ. جاء في كتاب الصناعتين — «كان ابو تمام يتتبع وحشي الكلام ويتعمد ادخاله في شعره». [1] ولعل ذلك راجع بالاكثر الى كثرة محفوظه ودرسه لاشعار الاقدمين. قال الامدي «كان ابو تمام مشغوفاً بالشعر مشغولاً مدة عمره بتخميره ودراسته، وله كتب اختيارات فيه مشهورة — منها الاختيار

---

(١) الصناعتين ٢٦١

القبائلي الاكبر ، وقد مر على يدي هذا الاختيار . ومنها اختيار آخر ترجمته القبائلي ، ومنها الاختيار الذي تلقَّط فيه محاسن شعر الجاهلية والاسلام واخـذ من كل قصيدة شيئاً حتى انتهى الى ابرهيم بن هرمة ، وهو اختيار مشهور معروف باختيار شعراء الفحول . ومنها اختيار تلقط فيه اشياء من الشعراء المقلين والشعراء المغمورين ويلقب بالحماسة ، وهو اشهر اختياراته . ومنها اختيارات المقطعات يذكر فيه اشعار المشهورين وغيرهم والمتقدمين والمتأخرين وهذه الاختيارات تدل على عنايته بالشعر ، وانه اشتغل به وجعله وكده ، واقتصر من كل الآداب والعلوم عليه : فانه ما من شيء كبير من شعر جاهلي ولا اسلامي ولا محدث الا قرأه واطلع عليه »[١] . وقيل انه كان يحفظ اربع عشرة الف ارجوزة غير القصائد والمقاطيع ، وقال هو عن نفسه لم انظم الشعر حتى حفظت سبعة عشر ديواناً للنساء خاصة ، دون الرجال[٢]

ولا ريب ان للحفظ تاثيراً على اسلوب الشاعر او الناثر ، ولا سيا في ابَّان قوة الحافظة . ويظهر ذلك في ميل شاعرنا الى استعمال غير المألوف من الاوصاف والعبارات . انظر الى هذا البيت وقد ذكر قبلًا

اهيس اليسُ لجّـاء الى همم   تغرّق الاسد في آذيّها الليسا

اي شجاع تغرّق بحور همته الاسود الجريئة

وقوله

الواردين حياض الموت مُتأقةً   ثُباً ثُباً وكراديسا كراديسا

ويريد بمتأقة مترعة . وثبا ثبا اي جماعات جماعات

وقوله وهو مطلع قصيدة

اما انه لولا الهوى ومعاهده   مواعيسه قد اقفرت واجالده

لاعطيت هذا الصبر مني طاعة   ليعلم دهري ايَّ قرن يكايده

اي لولا ان نأي الاحباب عن الديار قد افقدني صبري لعلَّمت الدهر بثباتي على مصائبهِ اي رجل انا

وقوله

غلَّ المروراةَ الصحاصح عزمـه   بالعيس ان قصدت وان لم تقصد

---

(١) الموازنة ٢٣ (بتصرف) (٢) ابن خلكان ١—١٧٠

اي طوى السهول والقفار عزمه
وقوله

سهاد يرجحنّ الطرف منه ويولع كلّ طيفٍ بالصدود

اي سهاد تثقل فيه الجفون
وقوله

تقلقل بي أُدم المهارى وشؤمها على كل نشز متلئبٍّ وفدفد

اي تضطرب بي النياق الرمادية والسوداء على كل فلاة سوداء الحجارة
وفي قوله

صَهْصَلق في الصهيل تحسبه أُشرج حلقومه على جرس

يصف حصانه بشدة الصوت حتى كانما حلقومه شد الى جرس
ومن هذا القبيل —

عططت على رغم العدى عزم بابك بعزمك عطّ الاتحميّ المرعبل

الكلام استعارة معناه : شققت عزم « بابك » بعزمك كما تشق الثوب المخطط
وقوله

كأن بابك بالبذّين بعدهم نؤيٌ اقام خلاف الحيّ او وتد

بكل منعرج من فارس بطل جناجنٌ فُلق فيها قنا قصد

والمعنى كأنّ بابك ، وقد فني جيشه ، اثر نؤي او وتد باق في الحي — فانت لا ترى الا اشلاء جيشه مبعثرة ، وفي كل ناحية ومنعطف اثار الرماح المتكسرة
وقال —

مقابل في الجديل صلب القرا لو حكّ من عُجبه الى كتده

اي كريم النسب قوي الظهر لو امتحن من عجزه الى كتفه لوجد كذلك
واراد مرّة ان يطلب فرواً من ممدوحه فوصفه بهذه الابيات الغريبة

ولا بدّ من فرو اذا اجتابه امروءٌ غدا وهو سامٍ في الصنابر اغلب

اثيث اذا استعتبت مصقعةً به تملأتَ علماً انها سوف تعتب

يراه الشفيف المرتعنُ فينثني حسيراً فتغشاه الصبا فتنكّب

اي اذا لبسه الانسان تغلب فيه على البرد. وهو كثيف الشعر اذا استرضيت البرد به

رضي واذا راه المطر البارد المنهمر انثنى عنه كليلا ومالت عنه ريح الصبا

واختم هذه الامثلة على ميله لاستعمال المتوعر من الالفاظ ببيتين من همزيته المعروفة— قال في مطلعها

قدكَ اتّئب اربيت في الغلواء كم تعذلون وانتم سجرائي

اي استحي يا لائمي يكفيك غلواً في تعنيفي · وكيف تلومونني وانتم مثلي مصابون بالغرام

ومنها يصف البيد والنياق

بيد لنسل الصيد في امليدها ما ارتيدَ من هَيد ومن عُدواء

اي قفار قطعتها على ناقة ذلول ، فيها كل ما يتطلبه الراكب من عزم ومضاء ومن فرج للهموم

وامثال هذه الالفاظ في شعر ابي تمام كثيرة فاشية · وقد انكر المنتقدون الاقدمون ذلك عليه ، وقالوا اذا جاز للاعرابي القحّ فهو مستهجن من المحدث الذي ليس هو لغته ، ولا من كلامه الذي تجري عادته به·[1] ولقد ذكرنا ان اكثر ذلك راجع الى شغفه بالقديم وكثرة محفوظه منه· على ان هناك سبباً آخر وهو شدة اعجابه بشعره ، حتى لم يكن ليرضى ان يمسه بادنى تهذيب· قال ابو هلال العسكري كان ابو تمام يرضى باول خاطر فنعي عليه عيب كثير · وعن الاغاني— روي عن بعض الشعراء ان ابا تمام انشده قصيدة له احسن في جميعها الا في بيت واحد ، فقال له يا ابا تمام لو القيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب· فقال له انا والله اعلم منه مثل ما تعلم ولكن مَثَل شعر الرجل عنده مثل اولاده ، فيهم الجميل والقبيح والرشيد والساقط وكلهم حلو في نفسه[2]· فكان شاعرنا كما وصفه الامدي شرها الى ايراد كل ما جاش به خاطره ، ولجلجة فكره ، يخلط الجيد بالرديء ، والعين النادر بالرذل الساقط ، والصواب بالخطا[3] · على ان لشعره طابعاً من الجزالة او الفخامة عُرف فيه · وعليه قال ابن الاثير يصف الفاظه—

« كانّها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد »[4]

---

(١) الموازنة ١٢١ (٢) الاغاني ١٥—١٠٠ (٣) الموازنة ٥٦
(٤) المثل السائر ١٠٦

المختار من شعر ابي تمام

وادٍ بعيد الغور كثير الجنادل يرده الناهل فلا يبلغه الا بعد ان تكلَّ قدماه وينقطع نفسه ، على انه اذا وصل وجد فيه ما ينسيه اهوال الطريق ومتاعب الرحيل . ذلك هو ابو تمام في شعره — هدَّارٌ كثير التأنق ولوعٌ بسلوك اغرب السبل الى المعاني

فتح عموريه[1]

قيلت في المعتصم سنة ٢٢٣هـ وكان الشاعر قد صحبه في هذه المعركة فشهد بنفسه وقائعها[2]

السيف اصدق انباء من الكتبِ ... في حده الحدُّ بين الجدِ واللعِبِ

بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهنَّ جلاء الشكّ والريَبِ

والعلم في شُهُبِ الارماح لامعةً ... بين الخميسين[3] لا في السبعة الشُّهُب

اين الروايةُ بل اين النجومُ وما ... صاغوه من زُخرف فيها ومن كذب

تخرُّصاً واحاديثاً ملفَّقةً ... ليست بنبعٍ اذا عدَّت ولا غرَبِ[4]

عجائباً زعموا الايام مجفلةً ... عنهنَّ في صفر الاصفار او رجب

وخوَّفوا الناس من دهياء مظلمةٍ ... اذا بدا الكوكب الغربيُّ ذو الذنب[5]

وصيَّروا الابرُجَ العليا مرتَّبةً ... ما كان منقلباً او غير منقلب

يقضون بالامر عنها وهي غافلةٌ ... ما دار في فلكٍ منها وفي قطَبِ

لو بيَّنت قطُّ امراً قبل موقعهِ ... لم يخفَ ما حلَّ بالاوثان والصُّلب[6]

. . .

---

(١) عمورية بلدة حصينة في الاناضول كانت بيد الروم (٢) الفخري ١٧١

(٣) الخميسين اي الجيشين (٤) النبع شجر صلب تعمل منه القسيّ . والغرب شجر هشّ . والمعنى ان اقوالهم ليست من الحقيقة بشيء

(٥) اشارة الى مذنب ظهر في تلك الايام ولعلّه مذنب « هالي » راجع المقتطف مج ٦٥ ج ٦

(٦) كنى بالاوثان والصلب عن الروم . ويريد بهذا البيت انه لو كان التنجيم يفيد لعرف الروم ما سيحل بهم فاتقوه

فتحُ الفتوحِ تعالى ان يحيطَ به نظمٌ من الشعرِ او نثرٌ من الخُطَب
فتحٌ تفتَّحُ ابواب السماء له وتبرُزُ الارض في اثوابها القُشُب
يا يومَ وقعةِ عمُوريّة انصرفت منك المنى حُفَّلًا معسولة الحلب (١)
أبقيتَ جدَّ بني الاسلام في صُعُدٍ والمشركين ودار الشِرْك في صَبَب
أُمٌّ لهم لو رجوا ان تفتدى جعلوا فداءها كلَّ امٍ برَّةٍ وأَب
وبرزةُ الوجه قد اعيت رياضتها كسرى وصدَّت صدوداً عن ابي كرِب (٢)
من عهد إسكندرٍ او قبل ذلك قد شابت نواصي الليالي وهي لم تشب
حتى اذا مخض الله السنين لها مخضَ البخيلة كانت زُبدةَ الحقب (٣)

. . .

أتتهمُ الكربةُ السوداء سادرةً منها وكان اسمها فرَّاجةَ الكُرَب (٤)
كم بين حيطانها من فارس بطلٍ قاني الذوائب من آني دمٍ سَرِب
بسنَّةِ السيف والخَطيِّ من دمهِ لا سنَّة الدين والاسلام مختضب (٥)
لقد تركتَ اميرَ المؤمنين بها للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى يشُلُّه وسطها صبحٌ من اللهب
حتى كأنَّ جلابيب الدُجى رغبت عن لونها او كأنَّ الشمس لم تغب
ضوءٌ من النار والظلماء عاكفةٌ وظلمة من دخانٍ في ضحى شحِب
فالشمسُ طالعةٌ من ذا وقد أَفَلت والشمس واجبةٌ في ذا ولم تجب (٦)
تصرَّح الدهر تصريحَ الغمام لها عن يوم هيجاءَ منها طاهرٍ جُنُب (٧)
لم تطلع الشمس فيه يوم ذاك على بانٍ بأهلٍ (٨) ولم تغرُب على عزَب

---

(١) شبه بلوغ الاماني بحلب الضرع الملآن بالحليب اللذيذ
(٢) شبّه المدينة بامرأة بارزة المحاسن رامها الملوك الفاتحون فامتنعت عليهم
(٣) اي كما ان الامرأة الحريصة تمخض الحليب لتستخرج زبدته هكذا مُخضت الايام فكانت عمورية افضل ما خرج منها
(٤) اتتهم المصيبة من المدينة وكانوا لمناعتها يتوقعون الفرج منها
(٥) اي كم من فارس قتل فيها فسال دمه قانياً حتى خضب شعره ولكن تخضيب السيف لا التخضيب الذي تقتضيه السنة الاسلامية
(٦) في هذا البيت والابيات الاربعة السابقة يذكر حريق المدينة ويتفنن في وصف الدخان واللهيب
(٧) جنب نجس . اي طاهر لنا نجس لاعدائنا او طاهر بالجهاد نجس باستباحة الاعراض
(٨) بان باهل اي متزوّج

ما ربعُ ميَّةَ معموراً يُطيف به غيلان ابهى رُبى من ربعها الخرب[١]
ولا الخدود وقد أُدمِين من خجلٍ اشهى الى ناظري من خدّها التربِ
سماجةٌ غَنيتِ منا العيون بها عن كل حسنٍ بدا او منظر عَجَب
وحسنُ منقلَب تبدو عواقبه جاءت بشاشتُهُ من سوء منقلب

. . .

لو يعلم الكفر كم من اعصر كمَنت له المنيَّة بين السُمر والقضُب
تدبير معتصمٍ بالله منتقمٍ لله مرتقبٍ في الله مرتغب[٢]
ومُطعَمُ النصر لم تكهم أسنَّته يوماً ولا حجُبت عن روح محتجب[٣]
لم يغزُ قوماً ولم ينهد[٤] الى بلدٍ الا تقدَّمه جيش من الرُّعب
لو لم يقُد جحفلاً يوم الوغى لغزا من نفسه وحدها في جحفل لجب
رمى بك الله بُرجَيها فهدَّمها ولو رمى بك غير الله لم تُصب
من بعد ما أشّبوها واثقين بها والله فتّاح باب المعقِل الأشِب
وقال ذو امرهم لا مرتَع صددٌ للسارحين وليس الوِرد من كثَب[٥]
امانياً سلبتهم نُجحَ هاجسها ظبى السيوف واطراف القنا السُلُب
إنَّ الحِمامين من بيضٍ ومن سُمرٍ دلوا الحياتين من ماء ومن عشب

. . .

لما رأى الحرب رأيَ العين توفُلسٌ والحربُ مشتقَّة المعنى من الحرَب
غدا يصرّف بالاموال جريتها فعزّه البحر ذو التيّار والحدب
هيهات زُعزعت الارض الوقور به عن غزوٍ محتسبٍ لا غزوِ مكتسب[٦]

---

(١) غيلان هو الشاعر ذو الرمة وميّة فتاته . وفي هذا البيت وما بعده يقول ان النصر اجمل لدينا من كل الجمال وان خرب المدينة الدالة على ظفرنا ابهى من كل منظر حسن

(٢) وفي رواية مرتهب (٣) الضمير راجع الى الخليفة المعتصم . وتكهم الاسنَّة اي تكل عن القطع (٤) نهد بمعنى نهض او ارتفع

(٥) في هذا البيت والبيتين التاليين يذكر ان الروم لما حصنوا المدينة وتهيأوا للحصار قال اولو الامر منهم لن يستطيع المسلمون حصرنا اذ ليس لهم خارجها مراتع ولا مياه . ولكن تلك الاماني كذبتها سيوفنا ورماحنا فكانا (اي السيوف والرماح) الوسيلتين للوصول الى الماء والعشب

(٦) يريد بهذا البيت وما سبقه ان قائد الروم « تيوفيلوس » لما راى شدة الحرب عليه اراد ان يحوّل مجراها عنه بارشاء الخليفة بالمال ولكن هيهات ذلك والخليفة انما يحارب حباً بالجهاد لا حباً بالمال

لم يُنفقِ الذهبَ المربي بكثرته ... على الحصى وبه فقرٌ الى الذهب
انَّ الاسودَ اسودَ الغاب همتُها ... يوم الكريهة في المسلوب لا السَّلب
ولَّى وقد أَلجمَ الخطيُّ منطقهُ ... بسكتةٍ خلفها الاحشاء في صخب
موكَّلًا بيفاع الارض يشرفُهُ ... من خفَّة الخوف لا من خفة الطرب
تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت ... اعمارُهم قبل نضج التين والعنب (١)
يا رُبَّ حوباء (٢) لما اجتثَّ دابرهم ... طابت ولو ضمِّخت بالمسك لم تطب
ومغضَبٍ رجعت بيض السيوفِ به ... حيَّ الرضى من رداهم ميِّت الغضب
والحرب قائمةٌ في مأزقٍ لجِجٍ ... تجثو الكماةُ به صُعراً على الرُّكب
كم نيل تحت سناها من سنى قمر ... وتحت عارضها من عارضٍ شنب (٣)
كم كان في قطع اسباب الرقاب بها ... الى المخدَّرة العذراء من سبب
كم احرزتْ قضبُ الهنديِّ مصلتةً ... تهتزُّ من قضبٍ تهتزُّ في كُثُبِ (٤)
بيضٌ اذا انتضيتْ من حجبها رجعت ... أَحقَّ بالبيض ابداناً من الحجبِ (٥)

. . .

خليفةَ الله جازى اللهُ سعيك عن ... جرثومة الدين والاسلام والحسب
بصُرْتَ بالراحة الكبرى فلم ترَها ... تنال الا على جسرٍ من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحمٍ ... موصولةٍ او ذمامٍ غير منقضب
فبين ايامك اللاتي نُصرْتَ بها ... وبين ايام بدرٍ اقرب النسب (٦)
أَبقت بني الاصفر المراض كاسمهم ... صفرَ الوجوه وجلَّت أوجه العرب (٧)

---

(١) يقصد جيش الروم وفيه اشارة الى ان منجمي الروم كانوا قد قالوا ان المدينة لا تؤخذ قبل الصيف ولكن المسلمين كذبوهم واخذوها قبل ذلك

(٢) الحوباء النفس . اي كم من نفس لم تكن تطيب بالمسك طابت الآن بفناء الاعداء

(٣و٤) يكنى بسنى قمر وبالعارض الشنب عن الحسان اللواتي سبوهنّ . وبالقضب التي تهتز في الكثب عن قامات اولئك الحسان

(٥) اي سيوف اذا سلّت من اغمادها كانت احق بان تحتفظ بالحسان من خدورهنّ

(٦) اي اذا كان من قرابة بين الايام فيومك هذا اشدها قرابة بيوم بدر الذي انتصر فيه النبي على المشركين

(٧) بنو الاصفر اي الروم

وقال في ابي سعيد محمد بن يوسف الثغري

يذكر بعض وقائعه في الشمال

من سجايا الطلول ألا تجيبا فصوابٌ من مقلتي أن تصوبا
فاسألنها واجعل بكاك جواباً تجدِ الشوقَ سائلاً ومجيبا
قد عهدنا الرسوم وهي عكاظٌ للصبا تزدهيك حسناً وطيبا[١]
اكثرُ الارض زائراً ومزوراً وصعوداً من الهوى وصبوبا
وكَعاباً كأنما ألبستها غفلاتُ الشباب برْداً قشيبا
بيَّن البين فقدَها قلّما تعـ ـرف فقداً للشمس حتى تغيبا
لعبَ الشيب بالمفارق بل جـدَّ فابكى تُماضراً ولعوبا[٢]
خضبتْ خدَّها الى لؤلؤ العقـ ـدِ دماً أن رأت شواتي خضيبا[٣]
كل داء يرجى الدواء لـه إلا الفظيعين ميتةً ومشيبا
يا نسيبَ الثَّغام ذنبك أبقى حسناتي عند الغواني ذنوبا[٤]
ولئن عبنَ ما رأين لقد أنكرن مستنكراً وعبن معيبا
او تصدَّعن عن قلى لكفى بالشيب بيني وبينهنَّ حسيبا
لو رأى الله ان للشيب خيراً جاورتهُ الابرار في الخلد شيبا
كلَّ يومٍ تبدي صروف الليالي خُلُقاً من أبي سعيدٍ عجيبا
طاب فيه المديح والتذّ حتى فاق وصف الدّيار والتشبيبا
غرّبته العلى على كثرة الاهـلِ فاضحى في الاقربينَ جنيبا
فليطل عمرهُ فلو مات بمرْ وٍ مقيماً بها لمات غريباً[٥]
سبقَ الدهرَ بالتِّلاد ولم ينـ ـتظرِ النائباتِ حتى تنوبا[٦]

---

(١) يريد بهذا البيت وما بعده ان هذه الرسوم قد كانت قبلاً سوق الصبا يرتادها العشاق من كل جانب (٢) تماضر ولعوب فتاتان

(٣) اي بكت دماً اذ رأت شعري مخضبا لظهور الشيب فيه

(٤) الثغام نبات يبيض اذا يبس . ويريد بنسيب الثغام الشيب

(٥) مرو حاضرة خراسان وهي بلدة الممدوح (٦) اي سبق نوائب الدهر بمكارمه

واذا ما الخطوب أعفته كانت راحتاهُ حوادثاً وخطوبا
وعِرُ الدين بالجلادِ ولكنّ وعور العدوّ صارت سهوبا
فدروب الاشراك تدعى فضاءً وفضاء الاسلام يدعى دروبا
قد رأوه وهو القريب بعيداً ورأوه وهو البعيد قريبا
سكن الكيد فيهم إنّ من أعظم إربٍ أن لا تسمّى اريبا(١)
مكرُهم عنده فصيح وان همْ خاطبوا مكرَه رأوه جليبا(٢)
ولعمر القنا الشوارع تَمري من تلاع الطُلى نجيعا صبيباً
في مَكرٍّ للروع كنتَ اكيلاً للمنايا في ظله وشريبا
لقد انصعتَ والشتاء له وجـهٌ يراه الرجال جهماً قطوبا
طاعناً منحرَ الشمال متيحاً لبلاد العدوّ موتاً جَنوبا(٣)
في ليالٍ تكاد تُبقي بخدّ الشمس من ريحها البليل شحوبا
فضربتَ الشتاءَ في اخدعيه ضربةً غادرته قَوْداً ركوبا(٤)
لو اصخنا من بعدها لسمعنا لقلوب الايام منك وجيبا
غزوةٌ متبعٌ ولو كان رأيٌ لم تفرَّدْ به لكانت سَلوبا(٥)
يومُ فتحٍ سقى سواد الضواحي كثَبَ الموتِ رائباً وحليبا
فاذا ما الايام اصبحن خُرساً كُظُماً في الفخار قامَ خطيبا
كان داءَ الاشراك سيفك واشتدت شَكاةُ الهُدى فكنتَ طبيبا
أنضرتْ أيكتي عطاياك حتى صار ساقاً عودي وكان قضيبا
ممطراً لي بالجاه والمال ما ألقاكَ إلا مستوهَباً او وَهوبا
باسطاً بالندى سحائبَ كفٍّ بنداها أمسى حبيبٌ حبيبا(٦)

---

(١) اي ان كيده لم يظهر لهم . واعظم الدهاء ان لا يعرف صاحبه به

(٢) الجليب الغريب . ويريد بالبيت ان مكرهم ظاهر اما مكره فغير مفهوم لشدة دهائه . فشبه مكرهم بفصيح المنطق ومكره بمن لا يفهم كلامه

(٣) اشارة انه غزا العدو (في الشمال) بجيش من الجنوب

(٤) هنا جعل الشتاء كالجمل وقال ضربته فانقاد لك

(٥) الغزوة المتبع التي تبعها سواها والسلوب عكس ذلك

(٦) حبيب الاولى اسم الشاعر. اي صرت محبوباً محترماً

وقال يمدح القاسم ابا دلف العجلي

واصفاً جوده وحسن رايه في الحرب

على مثلها من اربُعٍ وملاعبِ ... أُذيلت مصونات الدموع السواكب (١)
اقولُ لقُرحانٍ من البين لم يُضِفْ ... رسيس الهوى بين الحشا والترائب (٢)
أعنّي افرّقْ شملَ دمعي فانني ... ارى الشملَ منهم ليس بالمتقارب
وما صارَ يومَ الدار عذلك كلُّهُ ... عدوّيَ حتى صار جهلك صاحبي (٣)
وما بك إركابي من الرُّشد مركباً ... الا انما حاولتَ رُشدَ الركائب
فكلني الى شوقي وسرْ يسرِ الهوى ... الى حرقاتي بالدموع السوارب

. . .

أَميدان لهوي من اتاح لك البلى ... فاصبحت مَيدان الصبا والجنائب
اصابتك ابكارُ الخطوب فشتّتت ... هوايَ بابكار الظباء الكواعب
اذا العيس لاقت بي ابا دلفٍ فقد ... تقطّعَ ما بيني وبين النوائب
هنالك تلقى المجدَ حيثُ تقطّعتْ ... تمائمهُ والجودَ مرخى الذوائب (٤)
تكادُ عطاياه يُجَنُّ جنونها ... اذا لم يعوّذها بنغمة طالب
اذا حرّكته هِزّةُ المجدِ غيّرت ... عطاياه اسماء الاماني الكواذب
تكادُ مغانيه تهشُّ عراصها ... فتركب من شوقٍ الى كل راكب
اذا ما غدا اغدى كريمةَ ماله ... هدياً ولو زُفّتْ لألأم خاطب
يرى اقبحَ الاشياء اوبة آملٍ ... كستهُ يدُ المأمول حلّة خائب
واحسن من نَورٍ تفتّحه الصَّبا ... بياض العطايا في سواد المطالب

. . .

---

(١) اي على مثل هذه الربوع تهان الدموع فتسكب من المآقي

(٢) اقول لمن خلا قلبه من الم البعد وحرقة الهوى في الصدر (٣) وفي نسخة وما صار في ذا اليوم . وقد مرّ تفسير هذا البيت والذي بعده في الكلام عن الشاعر راجع ص ١٦٢

(٤) يريد بتقطيع التمائم وارخاء الذوائب ان الجود والمجد قد نشأ وبلغا اشدهما عنده

اذا أُلجمتْ يوماً لُجيمٌ وحولها بنو الحصن نجل المحصنات النجائب (١)
فانَّ المنايا والصوارم والقنـا اقاربهم في الروع دون الاقارب
جحافل لا يتركنَ ذا جَبَرِيَّةٍ سليماً ولا يحرِبْنَ من لم يحارب
يمدُّون من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ تصولُ باسيافٍ قواضٍ قواضب
اذا الخيلُ جابت قسطل الحرب صدَّعوا صدورَ العوالي في صدور الكتائب
اذا افتخرتْ يوماً تميمٌ بقوسها وزادتْ على ما وطَّدتْ من مناقب
فانتم بذي قار امالتْ سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب (٢)
محاسنُ من مجدٍ متى تقرنوا بهـا محاسنَ اقوامٍ تكن كالمعائب
معالٍ تمادت في العلوّ كانمّا تحاولُ ثأراً عند بعض الكواكب

. . .

وقـد علمَ الافشينُ وهو الذي به يصانُ رداء الملك عن كل جاذب (٣)
بانك لما استخذلَ النصر واكتسى أهابيَّ تسفي في وجوه التجارب (٤)
تجلَّلتـهُ بالرأي حتى اريتهُ به ملءَ عينيـه مكان العواقب
بأرشقَ اذ سالت عليهم غمامةٌ جرت بالعوالي والعتاق الشوازب (٥)
سللت لهم سيفين رأياً ومُنصلاً وكلٌّ كنجمٍ في الدُّجنَةِ ثاقب
وكنتَ متى تهزَزْ لخطبٍ تُغشِّهِ ضرائبَ امضى من رقاق المضارب
فذكركَ في قلب الخليفة بعـدها خليفتكَ المقني باعلى المراتب
فان تنس يَذكرْ، او يقل فيك حاسدٌ يُغلْ قوله او، تنأ دارٌ يصاقب (٦)
فانت لديه حاضرٌ غيرُ حاضر بذكر وعنه غائب غير غائب

---

(١) في هذا البيت وما بعده يقول اذا ركبت قوم الممدوح (لجيم وبنو الحصن) لعمل عظيم فان المنايا والسيوف هي اقاربهم التي تحارب حربهم

(٢) اشارة الى قوس حاجب بن زرارة التي استرهنها ملك الفرس والى وفاء حاجب وما ناله من الفخر بذلك . يقول اذا افتخرت تميم بحاجب فان سيوفكم في يوم ذي قار قد غلبت الفرس الذين استرهنوا قوس حاجب

(٣) الافشين قائد تركي كبير كان المعتصم قد عقد له لواء الحرب ضد بابك

(٤) لما انخذل النصر واكتسى بما افسد عليه التجارب اي اظلمت في وجهه الامور

(٥) ارشق اسم مكان. وقوله سالت عليهم غمامة الخ معناه غمرتهم الحرب بالرماح والخيول الكريمة

(٦) فبعملك هذا انت مذكور دائماً عند الخليفة وبه تقرب منه مهما ابتعدت ويهلك قول حسادك

اليكَ ارحنا عازبَ الشعر بعد ما ... تمهّلَ في روضِ المعاني العجائب
غرائبُ لاقت في فنائك أُنسها ... من المجدِ فهي الآن غير غرائب
ولو كان يفنى الشعرُ افناه ما قرتْ ... حياضك منه في العصور الذواهب
ولكنه صوبُ العقول اذا انجلتْ ... سحائب منه أُعقبت بسحائب
أَقول لاصحابي هو القاسم الذي ... به شرحَ الجودُ التباسَ المذاهب
واني لارجو عاجلًا ان تردُّني ... مواهبُهُ بحراً ترجّى مواهبي

وقال يمدح عبد الله بن طاهر

وكان قد قصده الى خراسان

أهنَّ عوادي يوسفٍ وصواحبهْ ... فعزماً فقِدماً ادرك السؤل طالبُهُ[1]
اذا المرء لم تستخلص الحزم نفسهُ ... فذرْوتُهُ للحادثات وغاربه
أعاذلتي ما اخشنَ الليلَ مركباً ... واخشنُ منه في الملمات راكبه[2]
ذريني واهوالَ الزمان أُفانِها ... فاهوالهُ العظمى تليها رغائبه
الم تعلمي انَّ الزِّماع على السُّرى ... اخو النُّجح عند الحادثاتِ وصاحبه
دعيني على اخلاقيَ الصّم للتي ... هي الوفرُ او سربٌ ترنُّ نوادبه[3]
فانَّ الحسام الهندوانيَّ إنما ... خشونتُهُ ما لم تُفلَّلْ مضاربه[4]

وقلقلَ ناس من خُراسان جأشها ... فقلت اطمئنّي انضرُ الروضِ عازبه
وركبٍ كاطراف الاسنّةِ عرّسوا ... على مثلها والليل تسطو غياهبه[5]
لامر عليهم ان تتمَّ صدورهُ ... وليس عليهم ان تتمَّ عواقبه
الى ملكٍ لم يُلقِ كلكلَ بأسه ... على ملكٍ الاّ وللذّلِ جانبه
الى سالب الجبّارِ بيضةَ مُلكهِ ... وآملُهُ غادٍ عليه فسالبه
سما للعلى من جانبيها كليهما ... سموَّ عباب الماء جاشت غواربه

(١و٢و٣و٤) راجع تفسير هذه الابيات ص ١٦١

(٥) وركب كاطراف الرماح مضاء اقاموا ليلهم على نياق مثلها مضاء وعزماً

فنوّل حتى لم يجد من ينيلُهُ وحاربَ حتى لم يجد من يحاربه
وذو يقظات مستمرٍّ مريرها اذا الخطب لاقاه اضمحلّت نوائبه (١)
فوالله لو لم يُلبسِ الدهرَ فعلَهُ لافسدتِ الماء القراحَ معائبه
فيا ايها الساري اسرِ غير محاذرٍ جنان ظلام او ردى انت هائبه
فقد بثّ عبد الله خوف انتقامه على الليل حتى ما تدبّ عقاربه
ويوم امام الموت دحضٍ وقفتَه ولو خرّ فيه الدين لانهال كاثبه
جلوتَ به وجه الخليفة والقنا قد اتّسعت بين الضلوع مذاهبه
سقيت صداه والصفيحُ من الطُّلى رواءٌ نواحيه عذابٌ مشاربه (٢)
فلو نطقت حرب لقالت محقّةً ألا هكذا فليكسب المجدَ كاسبه
ويا ايها الساعي ليدرك شأوَهَ ترحزحْ قصياً اسوءُ الظنّ كاذبه
لحسبك من نيل المراتب ان تُرى علياً بانْ ليست تُنالُ مناقبه
اذا ما امروٌ القى بربعك رحله فقد طالبته بالنجاح مطالبه

وقال يمدح محمد بن عبد الملك الزيات

ديمةٌ سمحةُ القياد سكوبُ مستغيثٌ بها الثرى المكروبُ
لو سعت بقعةٌ لإعظام نعمى لسعى نحوها المكان الجديب
لذّ شؤبوبها وطاب فلو تسطيع قامت فعانقتها القلوب
فهي ماءٌ يجري وماءٌ يليه وعزالى تنشا واخرى تذوب (٣)
كشف الروضُ رأسه واستسرّ المحل منها كما استسرّ المريب (٤)
فاذا الرّيُّ بعد محلٍ وجرجا نُ لديها يبرين او ملحوب (٥)

. . .

---

(١) مستمر مريرها اي مستمرّة شدتها

(٢) اي سقيت القنا فاطفأت عطشه والسيف من الرقاب قد عذبت مشاربه وسالت نواحيه . (ويروى والصفيحَ من الطلى رواء نواحيه)

(٣) اي كان من جراء هذه الغمامة الماطرة ان سالت المياه مجرى بعد مجرى . والعزالى مصاب مياه المطر

(٤) استسر اختفى . اي اختفى المحل كما يحتجب صاحب التهمة عن اعين النظار

(٥) اصبحت جرجان وهي في الخصب كانها كيبرين او ملحوب — وهما محلاّن في بلاد العرب معروفان بوفرة مياهها وشجرها

ايها الغيثُ حيَّ اهلاً بمغدا … كَ وعند السُّرى وحين تؤوب (١)
لابي جعفر خلائقُ تحكيهنَّ … قد يشبه النجيبَ النجيب
انتَ فينا في ذا الاوان غريبٌ … وهو فينا في كل وقتٍ غريب
ضاحكٌ في نوائبِ الدهر طلقٌ … وملوكٌ يبكونَ حين تنوب
فاذا الخطبُ طال نالَ الندى والبذل منه … ما لا تنالُ الخطوب
خُلُقٌ مشرِقٌ ورأي حسامٌ … ووِدادٌ عذبٌ وريحٌ جَنوب
كلَّ يومٍ له وكلَّ اوان … خُلُقٌ ضاحكٌ ومالٌ كئيب
ان تقاربْهُ او تباعدهُ ما لم … تأتِ فحشاءَ فهو منك قريب
ما التقى وفرُهُ ونائلُهُ مذْ … كان الا ووفرُهُ المغلوب
فهو مدنٍ للجود وهو بغيضٌ … وهو مُقصٍ للمال وهو حبيب (٢)
يأخذُ المعتفينَ قسراً ولو كفَّ … دعاهم اليه وادٍ خصيب
غيرَ أنَّ الرَّامي المسدّدَ يحتاطُ … مع العلم انهُ سيصيب (٣)

وقال في ابي سعيد محمد بن يوسف

ذاكراً بعض وقائعه في حروب بابك

غدت تستجيرُ الدمع خوفَ نوى غدِ … وعادَ قتاداً عندها كلُّ مرقدِ
وانقذها من غمرةِ الموت أنه … صُدودُ فراق لا صدود تعمُّد
فاجرى لها الاشفاقُ دمعاً موَرَّداً … من الدَّم يجري فوق خدٍّ مورَّد
هيَ البدرُ يغنيها تودُّدُ وجهها … الى كلِّ من لاقت وان لم تودَّد
ولكنني لم أحوِ وفراً مجمَّعاً … ففزتُ به إلا بشملٍ مبدَّدِ
ولم تعطني الايامُ نوماً مسكَّناً … ألذُّ به إلا بنومٍ مشرَّدِ

---

(١) ويروى حيَّهلاً وهي بمعنى اهلاً وسهلاً

(٢) يصف شدة كرمه ويقول فهو مدنٍ للجود والجود بغيض من اصحاب المال. وهو مقص للمال والمال محبوب من الجميع

(٣) يجرّ المعتفين الى نواله مع علمه بانهم سيقصدونه يفعل ذلك احتياطاً كما يحتاط الرامي مع علمه انه سيصيب

وطولُ مقام المرءِ في الحيّ مخلقٌ لديباجتيهِ فاغترب تتجدَّدِ
فاني رأيتُ الشمسَ زيدت محبّةً الى الناس أنْ ليست عليهم بسرمدِ

...

حلفتُ بربِ البيض تدمى متونها وربّ القنا المنآد والمتقصِّد(١)
لقد كفَّ سيفُ الصامتيِ محمَّد تباريح ثأرِ الصامتي محمَّد(٢)
رمى الله منه بابكاً وولاتهُ بقاصمةِ الاصلاب في كل مشهد
باسمحَ من صوب الغمام سماحةً واشجعَ من صرف الزمان وانجد
وفي ارشقَ الهيجاء والخيلُ ترتمي بابطالها في جاحم متوقد
عططت على رغم العدى عزم بابك بعزمك عطّ الاتحميِّ المعضَّد(٣)
فان لم يكن ولَّى بشلوٍ مقدَّدٍ هناك فقد ولَّى بعزم مقدّد
وقد كانت الارماحُ أبصرنَ قلبه فارمدها سترُ القضاء الممدَّد
وموْقانُ كانت دارَ هجرتهِ فقد تورَّدْتها بالخيل ايَّ تورُّد(٤)
حططتَ بها يومَ العروبة عزَّه وكان مقيماً بين نسر وفرقد(٥)
رآك سديد الرأي والرمح في الوغى تأزَّرُ بالاقدام فيه وترتدي
وليس يجلي الكرب رمح مسدَّد اذا هو لم يؤنس برأي مسدَّد
فمرَّ مطيعاً للعوالي معوَّدا من الخوفِ والاحجام ما لم يعوَّد
وكان هو الجلدَ القوى فسلبتهُ بحسن الجلادِ المحض حسن التجلُّد
افادتك فيها المرهفاتُ مكارماً تعمَّرُ عمرَ الدهر ان لم تخلَّد

...

وليلةَ أبليت البياتَ بلاءَهُ من الصبر في وقت من الصبر مجمد(٦)
فيا جولةً لا تجحديه وقارهُ ويا سيف لا تكفر ويا ظلمة اشهدي
ويا ليلُ لو أني مكانك بعدها لما بتُّ في الدُّنيا بيومٍ مسهَّد

(١) حلفت برب السيوف الدامية والقنا الملتوي او المتكسر
(٢) اي لقد ثار محمد (الممدوح) لمحمد بن حميد الطوسي الذي قتل قبلاً والصامتي لقب
(٣) شققت عزم بابك كما يشق الثوب المخطط
(٤) موقان اسم مكان كانت حصنه الحصين حتى دخلتها بالخيل
(٥) يوم العروبة اي يوم الجمعة. يقول انزلت عزّه ذلك اليوم وكان بين هذين النجمين سمواً
(٦) مجمد (ويروى خطأً مجحد) اي قليل الخير .

وقائعُ اصلُ النصرِ فيها وفرْعُهُ — اذا عُدِّدَ الاحسانُ او لم يعدَّد
فمهما تكن من وقعةٍ بعدُ لا تكن — سوى حسنٍ مما فعلتَ مردَّد
محاسن اصناف المغنّينَ جمّةٌ — وما قصباتُ السبقِ الا لمعبَد(١)
جلوت الدجى عن اذربيجان بعدما — تردَّتْ بلونٍ كالغمامة اربد(٢)
وكانت وليس الصبحُ فيها بابيضٍ — فامست وليس الليلُ فيها باسود
رأى بابكٌ منك التي طلعت له — بنحسٍ وللدين الحنيف باسعد
هزرتَ له سيفاً من الكيدِ انما — تُجذُّ به الاعناقَ ما لم تجرَّدِ(٣)
يسرُّ الذي يسطو به وهو مغمدٌ — ويفضح من يسطو به غير مغمد
تلافى جداك المجتدينَ فاصبحوا — ولم يبقَ مذخورٌ ولم يبق مجتد
اذا مارحىً دارت ادرْت سماحةً — رحى كل انجاز على كل موعدِ(٤)
اتيتك لم أفزعْ الى غير مفزعٍ — ولم أنشد الحاجات في غير منشد
ومن يرجُ معروف البعيد فانما — يدي عوَّلت في النائبات على يدي

وقال في المعتصم وبطشه بالافشين

الحقُّ ابلجُ والسيوفُ عوارِ — فحذار من اسد العرين حذارِ
ملكٌ غدا جارَ الخلافةِ منكمُ — واللهُ قد اوصى بحفظِ الجار
يا رُبَّ فتنةِ أُمَةٍ قد بزَّها — جبّارُها في طاعةِ الجبّار
جالت بجيدرَ جولةُ المقدارِ — فاحلّهُ الطغيان دار بوار(٥)
كم نعمةٍ لله كانت عندهُ — فكأنها في غُربةٍ وإسار
كسيتْ سبائبَ لؤمه فتضاءلت — كتضاؤل الحسناء في الاطمار(٦)
موتورةٌ طلبَ الالهُ بثأرها — وكفى بربِّ الثأرِ مدركَ ثار

---

(١) معبد اسم مغنٍّ مشهور
(٢) ازربيجان مقاطعة في بلاد فارس
(٣) اي هززت سيفا من المكر. والمكر انما ينفع اذا لم يفتضح — يشير الى درايته وحسن سياسته
(٤) سماحة مفعول لاجله . اي اذا رحى الشدائد دارت ادرت من سماحتك رحى الوفاء والكرم
(٥) حيدر بن كاوس هو الافشين   (٦) سبائب اللؤم اي اثوابه . والاطمار اكسية بالية

صادى اميرَ المؤمنين بزبرجٍ | في طيّه حمةُ الشجاعِ الضاري (١)
مكراً بنى ركنيهِ إلا أنهُ | وطدَ الاساسَ على شفيرٍ هارِ
حتى اذا ما اللهُ شقَّ ضميره | عن مستكنّ الكفر والاصرار
ونحا لهذا الدين شفرتهُ انثنى | والحقُّ منه قانىءُ الاظفار (٢)
ما كان لولا فحشُ غدرة حيدرٍ | ليكونَ في الاسلام عامُ فِجار (٣)
ما زال سرُّ الكفرِ بين ضلوعهِ | حتى اصطلى سرَّ الزناد الواري
ناراً يساورُ جسمه من حرّها | لهبٌ كما عصفرتَ شقَّ إزار (٤)
طارت لها شُعَلٌ يهدّم لفحها | اركانه هدماً بغير غبار
لله من نار رأيتُ ضياءها | ضاق الفضاء به على النظّار
مشبوبةٌ رُفعت لاعظم مشركٍ | ما كان يرفعُ ضوءها للساري
صلّى لها حيًّا وكان وَقودها | ميتاً ويدخلها مع الفجّار (٥)
وكذاك اهل النار في الدنيا همُ | يوم القيامة جلُّ اهلِ النارِ
يا مشهداً صدرتْ بفرحته الى | امصارها القصوى بنو الامصار
رمقوا أعالي جذعه فكأنما | وجدوا الهلالَ عشيّةَ الإفطار
واستنشقوا منه قتاراً نشرهُ | من عنبرٍ ذَفِرٍ ومسك داري (٦)
قد كان بوّأه الخليفةُ جانباً | من قلبه حرَماً على الاقدار
فسقاه ماء الخفض غيرَ مصرّدٍ | وانامه في الأَمن غيرَ غرار
فاذا أبنُ كافرةٍ يُسرُّ بسرّهم | وجداً كوجد فرزدقٍ بنوار (٧)
واذا تذكّره بكاهُ كما بكى | كعبٌ زمانَ رثى أبا المغوار (٨)
دلّت زخارفُهُ الخليفةَ أنه | ما كلُّ عودٍ ناضر بنُضار

(١) تظاهر بطاعة تحتها سم الحية القتال
(٢) اي بعد ان اعد شفرة الغدر للدين عاد الدين ففتك به
(٣) فجار من حروب الجاهلية سميت كذلك لانها كانت في الاشهر الحرم
(٤) هذا البيت وما قبله اشارة الى احراق الافشين وهو مصلوب
(٥) يشير الى ان الافشين كان مجوسياً يعبد النار
(٦) نسبة الى دارين بلدة في الشام معروفة بعطرها
(٧) الضمير في بسرهم يرجع الى المجوس ونوار امرأة الفرزدق طلقها ثم ندم ووجد لذلك
(٨) كعب الغنوي شاعر قديم . يرثي اخاه ابا المغوار

يا قابضاً يدَ آل كاوُس عادلاً أتبِـع يميناً منهمُ بيسار
أَلحِـقْ جبيناً دامياً رمَّلتهُ بقفاً وصدراً خائناً بصُدار[١]
واعلمْ بانك إنما تلقيهم في بعض ما حفروا من الآبار
كادوا النبوَّة والهدى فتقطَّعت اعناقهم في ذلك المضمار
جهلوا فلم يستكثروا من طاعة معروفة بعمارةِ الاعمار
فاشدُدْ بهارون الخلافةَ إنه سكَن لوحشتها ودار قرار[٢]
بفتى بني العباس والقمر الذي حفَّته الانجمُ يعرب ونزار
كرم الخؤولة والعمومة مجَّه سلفا قريش فيه والانصار
هو نوء يمن فيهم وسعادة وسراج ليل فيهم ونهار
فاقمع شياطين النفاق بمهتدٍ ترضى البريَّةُ هديهُ والباري
ليسيرَ في الافاق سيرةَ رأفةٍ ويسوسها بسكينة ووقار
فالصين منظوم باندلُسٍ الى حيطان روميةٍ فملك ذمار[٣]
ولقد علمتَ بان ذلك مِعصم ما كنتَ تتركه بغير سوار
فالارض دار اقفرت ما لم يكن من هاشم ربٌّ لتلك الدار
سور القران الغر فيكم أُنزلت ولكم تصاغ محاسن الاشعار

ومن مدائحه في المعتصم

أَجلْ ايها الربعُ الذي خفَّ آهلُهْ لقد ادركتْ فيك النوى ما تحاوله
وقفتُ واحشائي منازلُ للأسى بهِ وهو قفرٌ قد تعفَّت منازله
اسائلكم ما باله حكمَ البلى عليه والأّ فاتركوني اسائله
دعا شوقه يا ناصرَ الشوقِ دعوةً فلبَّاهُ طلٌّ الدمع يجري ووابله
بيومٍ يريكَ الموت في صورة النَّوى اواخرُه من حسرةٍ واوائله

(١) في هذا البيت وما قبله يقول ايها الخليفة قد قبضت على ايدي آل كاوس بقتله فاقتل من بقي منهم (٢) هارون هو الواثق بن المعتصم
(٣) يقصد بذمار اليمن . ويريد بما مرَّ من الابيات ان الواثق خير ولي للعهد فهو قد جمع شرف الخؤولة والعمومة وقرن في نفسه الهداية وحسن الراي

الى ان يقول

الى قطبِ الدنيا الـذي لو بفضلهِ مدحت بني الدنيا كفتهم فضائله
مَن البأس والمعروف والدين والتقى عيالٌ عليـهِ رزقهنَّ شمائله
جلا ظلماتِ الظلم عن وجهِ أُمَّةٍ اضاء لهـا من كوكب الحق آفله
ولاذت بحقويه الخلافةُ فالتقت على خـدرها ارماحه ومناصله
بمعتصمٍ باللهِ قـد عُصمتْ به عُرى الدينِ والتفَّت عليهِ وسائله
رعى اللهُ فيهِ للرعيَّةِ رأفـة ورحمتهُ فيهم تفيضُ ونائله
وقام فقامَ العدلُ في كلِّ بلدةٍ خطيباً واضحى الملكُ قد شقَّ بازله (١)
بيمن ابي اسحق طالت يدُ الهدى وقامت قناةُ الملكِ واشتدَّ كاهله (٢)
هو البحرُ من ايِّ النواحي اتيتهُ فلجَّتهُ المعروفُ والجودُ ساحله
تعوَّدَ بسط الكفِّ حتى لوَ أنَّهُ ثناهـا لقبضٍ لم تطعه انامله
ولو لم يكن في كفِّهِ غيرُ روحه لجاد بها فليتَّق اللهَ سائله
إمام الهدى وابن الهدى ايُّ فرحة تعجّلها منك القريضُ وقائله
رجاؤك للباغي الغنى عاجلُ الغنى وأولُ يومٍ من لقائـك آجله

مرثاته في محمد بن حميد الطوسي

وكان المرثي من كبار القادة وقد قتل في حرب بابك ٢١٤ هـ

كذا فليجلِّ الخطب وليفدحِ الامرُ فليس لعين لم يفض ماؤها عـذرُ
توفِّيت الآمـال بعد محمَّـد واصبح في شغل عن السفر السَّفر
وما كان الأَ مال من قلَّ ماله وذخراً لمن امسى وليس له ذخر
وما كان يدري مجتدي جودِ كفِّهِ اذا ما استهلَّت انَهُ خُلق العسر
ألا في سبيـل الله من عطِلَت له فِجاج سبيل الله وانثغر الثغر

---

(١) شق بازله اي طلع ناب جمله والكلام مجاز يراد به قد اكتمل
(٢) ابو اسحق كنية المعتصم . اشتد كاهله اي امتنع جانبه

فتى كلما فاضت عيون قبيلة دما ضحكت عنه الاحاديث والذكر
فتى دهره شطران فيما ينوبه ففي باسه شطر وفي جوده شطر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر ان فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلّت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلًا فردّه اليه الحِفاظ المرُّ والخلق الوعر
ونفس تعاف العار حتى كانما هو الكفر يومَ الروع او دونه الكفر
فاثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت أخمَصك الحشر
غدا غدوةً والحمد نسج ردائه فلم ينصرف الا واكفانه الاجر
تردَّى ثياب الموت حمراً فما دجى لها الليل الا وهي من سندس خضر (١)
كانَّ بني نبهان يوم وفاته نجوم سماء خرَّ من بينها البدر
يعزَّون عن ثاو تعزَّى به العلى ويبكي عليه البأس والجود والشعر
وانَّى لهم صبر عليه وقد مضى الى الموت حتى استُشهدا هو والصبر
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ولكنَّ كبراً أن يقال به كبر
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها وبزَّته نار الحرب وهو لها جمر
وقد كانت البيض المآثير في الوغى بواتر فهي الان من بعده بُتر (٢)
أمن بعد طيِّ الحادثات محمداً يكون لاثواب الندى ابداً نشر
اذا شجرات العُرف جُذَّت اصولها ففي اي فرع يوجد الورق النضر
لَئن أُبغض الدهر الخؤون لفقده لعهدي به ممن يُحبُّ له الدهر (٣)
لئن غدرت في الروع ايامه به فما زالت الايام شيمتها الغدر
كذلك ما ننفكُّ نفقد هالكاً يشاركنا في فقده البدو والحضر
سقى الغيث غيثاً وارت الارض شُخصه وان لم يكن فيه سحاب ولا قطر

---

(١) اي قتل في ساحة الجهاد فلبس بعد الموت الثياب الخضر التي هي لباس اهل الجنة

(٢) في هذا البيت وما قبله يقول قتل في الحرب وقد كان هو الذي يثيرها فاصبحت السيوف القاطعة بعده مبتورة لا خير فيها

(٣) اذا ابغض الدهر اليوم لفقده فقد كان يحمد سابقاً لكرمه ومآثره

وكيف احتمالي للغيوث صنيعةً ... باسقائها قبراً وفي لحده البحر(١)
مضى طاهر الاثواب لم تبق روضة ... غداة ثوى الا اشتهت انها قبر
ثوى في الثرى من كان يحيا به الثرى ... ويغمر صرفَ الدهر نائله الغمر
عليك سلام الله وقفاً فانني ... رأيت الكريم الحرَّ ليس له عمر

وقال يرثي ادريس بن بدر السامي من ولد سامة بن لؤَي

دموع اجابت داعيَ الحزنِ همَّعُ ... تُوَصِّل منا عن قلوب تقطَّعُ
عفاءٌ على الدنيا طويلٌ فانها ... تفرّقُ من حيث ابتدت تتجمَّع
تبدَّلت الأَشياء حتى لخلتها ... ستثني غروب الشمس من حيث تطلع
لها صيحة في كل روح ومهجة ... وليست بشيء ما خلا القلب تسمع
أادريسُ ضاع المجد بعدك كلُّه ... ورأيُ الذي يرجوه بعدك اضيع
واصبحت الأَحزان لا لمبرَّةٍ ... تسلِّم شزراً والمعاني تودع
وضلَّ بكَ المرتادُ من حيث يهتدي ... وضرَّت بك الأَيام من حيث تنفع
واضحت قريحات القلوب من الجوى ... تُقاظُ ولكنَّ المدامعَ تربع(٢)
عيونٌ حفظنَ الليلَ فيكَ محرَّماً ... واعطينكَ الدمعَ الذي كان يمنع
وقد كان يدعى لابسُ الصبر حازماً ... فاصبح يدعى حازماً حين يجزع
وقالت عزاءٌ ليس للموت مِدفعٌ ... فقلت ولا للحزن إذ بات مدفع
لادريس يومٌ ما تزال لذكره ... دموعي وان سكَّنتها تتفرَّعُ
ولما نضى ثوبَ الحياة واوقعت ... به نائباتُ الدهرِ ما يُتوقَّع
غدا ليس يدري كيف يصنع معدِمٌ ... ذرى دمعهُ من وجده كيف يصنع
وماتت نفوس الغالبيّين كلهم ... والاَّ فصبر الغالبيين اجمع(٣)

---

(١) يطلب من الغيث (المطر) ان يسقي غيث الجود (المرثي) ثم يقول وكيف اطلب من المطر ان يسقي قبراً فيه بحر الجود والعلى

(٢) تقاظ يشتد حرّها وتربع الدموع تسيل كما تشاء

(٣) يريد بالغالبيين عشيرته اي ماتوا بموته او مات صبرهم اجمع

غدوا في زوايا نعشه وكأنما قريشٌ قريشٌ يوم مات مجمّع
ولم انسَ سعيَ الجودِ خلفَ سريره باكسفِ بالٍ يستقيمُ ويظلعُ
وتكبيرهُ خمساً عليه معالناً وان كان تكبير المصلّين اربع
وما كنت ادري يعلم الله قبلها بأنّ الندى في اهلهِ يتشيّع(١)
الم تكُ ترعانا من الدهر ان سطا وتحفظُ من اموالنا ما يضيّع
وتلبسُ اخلاقاً كراماً كأنها على العِرض من فرطِ الحصانةِ ادرُع
وتبسطُ كفاً في الحقوق كانما اناملها في البأس والجود اذرع
وتربط جاشاً والكماة قلوبها ترعزّع خوفاً من قناً تترعزع
ألا إنّ في ظفر المنيّةِ مهجةً تظلّ لها عينُ العلى وهي تدمع
هي النفسُ ان تبكِ المكارمُ فقدَها فمن بين احشاء المكارم تنزعُ



(١) في هذا البيت وما قبله يقول ان الجود سار خلف نعشه كاسف البال وكبّر عليه من شدة وجده خمساً لا اربعاً كما يفعل المصلون . وما كنت ادري قبل ذلك ان الجود يتحزب لفريق من اهله دون فريق

البحتري

ابو عبادة الوليد بن عبيد الله

٢٠٥هـ — ٢٨٤هـ

٨٢٢م — ٨٩٨م

مصادر دراسته — توطئة تاريخية — نظرة في ديوانه
مزيته الفنية — شعره الغزلي

مصادر دراسته

الاغاني ج ١٨ ص ١٦٧—١٧٥

الموازنة بين ابي تمام والبحتري (للآمدي)

الموشح للمرزباني ص ٣٣٠ – ٣٤٣

الفهرست ص ١٦٥

معجم الادباء لياقوت ج ٧ص ٢٢٦—٢٣٢

وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٥٩ – ٢٦٥ (تحت اسم الوليد)

مفتاح السعادة ص ج١—١٩٣

ومتفرقات في مروج الذهب وتاريخ ابن عساكر والعمدة وغيرها .

وتجد سيرته في كل الكتب الحديثة التي تتناول الآداب العربية وتاريخها نذكر منها

دائرة المعارف الاسلامية

مجلة الضياء المجلد السادس (ج١—ج ١٥) سلسلة مقالات (لامين حداد)

شعراء الشام لمردم

اعلام النبلاء للطباخ ج ٤ ص ٦ – ١٤

نوطئة تاريخية

يؤخذ من دراسة المصادر التاريخية ان البحتري ولد في منبج بجوار حلب ، (وعلى راي احدهم في قرية قريبة منها تدعى زردفنه) وهناك نشأ وقال الشعر . وتقع حياته الشعرية في ثلاثة اطوار –

(الاول) طور نشأته الادبية ومعظمه كان في منبج ، على انه زار بعض المدن السورية كحلب وحمص والمعرة . وفي حمص على ما يقال لقي ابا تمام واخذ عنه

(الثاني) طور العراق – وهو طور شهرته وفيه اتصل بالخلفاء وكبار رجال الخلافة فمدحهم ونال جوائزهم . وهذا الطور عهدان

عهد المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ثمّ عهد من تبعه من الخلفاء . وبين العهدين فترة اقام فيها في منبج

(الثالث) طور الرجوع الى الوطن والاقامة فيه

فالبحتري نشأ في جوار حلب ، حتى اذا ادرك وحذق صناعة الشعر قصد العراق واتصل ببلاط المتوكل ولازمه . ولما حدثت الفتنة التي قتل فيها المتوكل ووزيره الفتح وذلك ٢٤٧هـ كره البقاء فعاد الى وطنه . ولكنه على ما يظهر لم يقم هناك طويلاً ، نستنتج ذلك من قائمة ممدوحيه ومن قصائده فيهم . فعاد الى العراق والى سالف عهده من مدح الخلفاء والامراء هناك – ولا سيما المعتز – وبقي الى آخر حكم المعتمد[1] ، ثم رجع الى سوريا واستقر في منبج حيث ادركته الوفاة وهو يناهز الثانين

اتصل شاعرنا بسبعة من الخلفاء العباسيين وبعدد وافر من رؤساء القوم فبلغ منزلة عالية ، ولم يكن مسرفاً فجمع مالاً وفيراً . قال ابن رشيق « وكان البحتري ملياً فاض كسبه من الشعر وكان يركب في موكب من عبيده »[2] . وفي شعره ما يشير الى انه كان ذا عقار واسع ، كقوله لاحد الرؤساء في امر ضيعة له – والظاهر ان بعضهم اعتدى عليها واغتصب غلتها فقال مستجيراً به –

---

(١) ومن مرثاته في غلامه قيصر يظهر انه كان لا يزال بعيداً عن وطنه وهو ابن ٦٦

(٢) العمدة ٢–١٥٠ – وفي ١–٦ يذكر انه كان له قهارمة وكتاب

وقد غدت ضيعتي منوّطة   بحيث نيطت للناظر الزُّهره
اروم بالشعر ان تعـود فما   اقطع فيما ارومه شَعَره

وفي بعض قصائده للمعتز يستأذنه في الذهاب الى الشام لينظر في املاكه قال

هل اطلعنَّ على الشآم مبجَّلا   في عزّ دولتك الجديد الموفق
فارمَّ خلة ضيعة تصف اسمها   والمّ ثم بصيبـة لي دردق
شهران ان يسَّرت اذني فيهما   كفلا بالفـة شملي المتفرق

ويذكر ابن خلكان انه كان يحتاج للترداد الى الوالي بسبب مصالح املاكه (١)

***

وفي ايام البحتري كانت الخلافة العباسية في حال انتقال من طور القوة الى طور الضعف، وكان المتوكل حلقة الاتصال بين هذين الطورين . وقد شهد الشاعر ايام عزه وبأسه كما شهد الفتنة عليه وما كان من مقتله واستبداد امراء الجند التركي بالذين جاءوا بعده

ومن الظواهر التاريخية التي تتجلى في شعره وشعر معاصريه (كما سنرى في كلامنا عن ابن الرومي) اعتلاء العناصر الاعجمية في الدولة على العنصر العربي ، حتى كان الشاعر ينوه بفضل الموالي كما قال البحتري من قصيدة للمعتز

يا من له اول العليا وآخرها   ومن بجود يديه يُضرب المثل
اما الموالي لجند الله حمَّلهم   ان ينصروك فقد قاموا بما احتملوا
بقاؤهم عصمة الدنيا وعزّهم   ستر على بيضة الاسلام منسدل

ومن قوله في ذلك يصف ما قام به قادة المعتز من قهر الاعداء والقائمين عليه

سراة رجال من مواليك اكّدوا   عرى الدين احياناً وبثُّوا قوى الكفر
اذا فتحوا ارضاً اعدُّوا لمثلهـا   كتائب تفري في اعاديك ما تفري
ففي الشرق إفلاحٌ لموسى ومُفلحٍ   وفي الغرب نصر يرتجى لابي نصر (٢)

واذا قابلت ممدوحيه (من غير الخلفاء) بممدوحي ابي تمام مثلًا ترى ان الاخير كانت مدائحه في العرب تفوق مدائحه في سواهم ، اما البحتري فعلى خلاف ذلك . وانك لتتثبت

---

(١) وفيات الاعيان ٢—٢٦٤
(٢) موسى ومفلح وابو نصر من قادة الاتراك

ذلك من مراجعة القائمة التالية ودرس رجالها واحداً واحداً . وقد اغفلنا فيها ذكر من لم تبلغ مدائحه القصيدتين ، وجمعنا افراد الاسرة الواحدة تحت اسم واحد كآل سهل وال المدبر وسواهم . ومع ذكرنا للخلفاء لم ندخلهم في هذه الموازنة العنصرية

الخلفاء

المتوكل	٣٥	قصيدة
المعتز	٣٠	″
المعتمد	٥	قصائد
المهتدي	٤	″
المستعين	٤	″
	٧٨	

من كبار العرب

ابو سعيد محمد بن يوسف الثغري وآله	٢٣	(طي)	من كبار القادة
آل حميد الطوسي	١٨	نبهان (طي)	″ ″ ″
احمد بن محمد الطائي	٧	طي	
ابو صالح بن عمار	٥		
محمد بن القمي	٥	طلحة	
الخضر بن احمد	٥		
ابو نوح عيسى بن ابراهيم	٤		
ابو الحسن الهاشمي	٤	هاشم	
علي بن مر	٤	طي	
مالك بن طوق	٢	تغلب امير عرب الشام	
محمد بن بدر	٢	من بني سعد على ان اخواله من الموالي	

ومن كبار الممدوحين الذي لم نثبتهم في احدى القائمتين اسماعيل بن بلبل ٢٠ قصيدة. ونسبه في شيبان ولكن صاحب الفخري (١٨٧) يقول ان في نسبه ريباً

واسحق بن ابرهيم المصعبي ٢ نائب بغداد وابن عم طاهر بن الحسين

من كبار الموالي

الفتح بن خاقان واله	٢٦	وزير المتوكل	(من الاتراك)
الحسن بن مَخلد واله	٢٦	وزير المعتمد	(من الفرس)[1]
ابرهيم بن المدبّر	١٥	من رجال الدولة ادباً وادارةً	" (من الفرس)[2]
آل سهل	١٢	وزراء	"
علي وعبدالله بن يحيي بن خاقان	٩	من وزراء المتوكل	(من الاتراك)
آبو صالح بن يزداد	٨	وزير المستعين	(من الفرس)
آل طاهر	٧	من اعيان الامراء	"
ابو العباس بن بسطام	٦	من الاعيان	" [3]
الشاه من ميكال	٥	من امراء الفرس	
علي بن الفياض	٤	من الوجهاء والرؤساء	"
احمد بن ثوابه	٤	وزير وكاتب [4]	
وصيف وآله	٤	من امراء الترك	
اسحق بن كنداج	٣	من الاتراك وهو الذي ردّ المعتمد الى سامرا وسمي ذا السيفين [5]	
اسمعيل بن نوبخت	٣	من اعيان القادة	
آل دينار	٣	" روساء الفرس [6]	
	١٣٥		

***

وكان البحتري كاكثر شعراء عصر مولعاً بالخمر وفي الابيات التالية التي كتبها الى المبرّد (اللغوي المشهور صاحب الكامل) ما يدلك على شيء من احواله ونسق معيشته . قال

(١) راجع ديوان البحتري (عطيه) ٥٧٩—٥٨٢ و ٣٢٠ و ٣٢٥ و ٤٧٢ و ٥٤٩ و ٣١٨

(٢) الديوان ٥٨٠ و ٥٩٥ و ٥٩٩ وفي معجم الادباء انه كان يدعي انه من ضبه

(٣) ديوان القسطنطينية ١—١٢٨ وعطيه ٦٠٦

(٤) في معجم الادباء ان اصلهم نصارى (٥) راجع الطبري في اخبار ٢٦٩

(٦) ديوان البحتري (عطيه) ٤٠٠ و ٤٠٤

يوم سبت وعندنا ما كفى الحرَّ طعاماً والوِرد منا قريب
ولنا مجلس على النهر فيَّاح فسيح ترتاح فيه القلوب
ودوام المُدام يدنيك ممن كنت تهوى وان جفاك الحبيب
فأتنا يا محمد بن يزيد في استتارٍ كي لا يراك الرقيب
نطرد الهم باصطباحٍ ثلاثٍ مترعات تنفى بهن الكروب
انَّ في الراح راحة من جوى الحب وقلبي الى الاديب طروب
لا يرعك المشيب مني فاني ما ثناني عن التصابي المشيب

وفي ديوانه مواطن كثيرة يذكر فيها ولعه بالخمر واللهو نقتصر منها على ما يلي ، وفيه يقترب من روح ابي نواس

كل ماضٍ انساه غير ليال ماضيات لنا ببارا وبنَّا[١]
مغرم بالمدام اترع كاساً ساطعاً ضوؤها وانسف دنَّا
حيث لا ارهب الزمان ولا التي الى العاذل المكثّر اذنا
يزعم البرَّ في التشدّد والاسمح اولى بان يبرّ ويُدنى

. . .

اما مذهبه السياسي فمن الطبيعي ان يكون عبّاسياً . وقد توهم الاستاذ مرغوليوث في الابيات التالية

يا ضيعة الدنيا وضيعة اهلها والمسلمين وضيعة الاسلام
هذا ابن يوسف في يدي اعدائه يجزى على الايام بالايام
نامت بنو العباس عنه ولم تكن عنه امية لو رعت بنيام

ان الشاعر يتمنى رجوع بني امية[٢] . والحقيقة ان هذه الابيات قيلت وقد سُلِم محمد بن يوسف الثغري لكاتب نصراني وأُمر بتعذيبه ، فشق على الشاعر ان يرى مسلماً كبيراً تحت يد كاتب نصراني ، وقال هذه الابيات بدافع الغيرة محاولاً ان يستفزّ شعور القوم لتخليص الرجل ، وليس في هذه الابيات ادنى صبغة سياسية .

---

(١) بارا وبنّا مكانان

(٢) راجع مقاله في دائرة المعارف الاسلامية

شعره في ديوانه

اجمع نقدة الشعر القدماء على وصف البحتري بسلاسة العبارة وحسن الديباجة واليك آراء بعض من كبار الاقدمين فيه —

قال الثعالبي « يضرب به المثل لان الاجماع واقع على انه في الشعر اطبع المحدثين والمولّدين وان كلامه يجمع الجزالة والحلاوة والفصاحة والسلاسة . ويقال ان شعره كتابة معقودة بالقوافي »[١]. وقال ابن رشيق « واما البحتري فكان املح صنعة (من ابي تمام) واحسن مذهباً في الكلام، يسلك فيه دماثةً وسهولة مع احكام الصنعة وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا مشقّة »[٢]. ووصفه ابن الاثير بقوله « فان مكانه من الشعراء لا يجهل . وشعره هو السهل الممتنع الذي تراه كالشمس قريباً ضوؤها بعيداً مكانها، وكالقناة ليناً مسها خشنا سنانها . وهو على الحقيقة قينة الشعراء في الاطراب، وعنقاؤهم في الاغراب»[٣] ويصف الفاظه في موضع آخر فيقول

« وترى الفاظ البحتري كانها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات ، وقد تحلّين باصناف الحلي »[٤].

ومن اقوال الامدي في الصفحتين الاوليين من الموازنة «البحتري اعرابي الشعر مطبوع، وعلى مذهب الاوائل ، ما فارق عمود الشعر المعروف . وكان يتجنب التعقيد ومستكره الالفاظ ووحشي الكلام » . . الى ان يقول « فان كنت ممن يفضّل سهل الكلام وقريبه، ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ فالبحتري اشعر » . وعلى هذا يفسرون ما يرونه عن ابي العلاء « المتنبي وابو تمام حكيمان والشاعر البحتري» . ويذكره الباقلاني في « اعجازه » ويذكر تفضيله له بديباجة شعره على ابن الرومي وسواه ، وتقدّمه بحسن عبارته وسلاسة كلامه وعذوبة الفاظه وقلة تعقُّد قوله[٥]

ولا نكير ان الذي يرجع الى ديوانه فيدرسه يجد هذه الصفات العامة فيه . على انه لا يمتاز في ذلك عن بعض كبار الشعراء في العصر العباسي ، كابي نواس وابي العتاهية ومسلم وعباس بن الاحنف واضرابهم ، ممن اطاعتهم الالفاظ وسلست لهم المعاني . والذي نرجحه

---

(١) ثمار القلوب ١٧٩
(٢) العمدة ١—٨٥
(٣) المثل السائر ٤٢٠
(٤) المثل السائر ١٠٦
(٥) اعجاز القرآن ١١٣

ان البحتري لم يوصف بما ذكرناه له الا لمقابلته بالشاعرين الكبيرين ابي تمام والمتنبي . وذلك لما في شعره عموماً بالنسبة اليهما من السهولة والدماثة . فبينا هما يفوقانه بالغوص على المعاني وسداد الحكمة تراه يفوقهما في صوغ الالفاظ وطلاوة السبك . واذا لم تجد في شعره ذلك الاغراب الذي في شعر ابي تمام او تلك الفخامة التي عرف بها المتنبي، تجد فيه رشاقة وصفٍ ودماثة اسلوب لا تجدهما عادة في شعريهما

. . .

اما ديوانه فلا يختلف من حيث مواضيعه عن اكثر الدواوين الشعرية في زمانه . فهو، كسواه من الشعراء ، قد صرف ادبه في التزلف الى رجال الدولة العباسية، ولذلك كان جل شعره المديح . وليست طريقته غير الطريقة التي درج عليها الجمهور من مطلع غزلي يتخلص منه الشاعر الى الممدوح ، فيصف اعماله ويمدح اخلاقه ومكارمه ويفتنّ في ذلك ما شاء فنه وادبه . وسنرى ذلك في مختاراته

. . .

وليس البحتري من المشهورين في الرثاء وان يكن له فيه ما يستطاب كمرثاته في طاهر بن عبدالله بن الحسين التي مطلعها

عذيريَ من صرف الليالي الغوادر ووقع رزايا كالسيوف البواتر

ومرثاته في المتوكل يوم قتله الاتراك ، وقد وصفها ابو العباس ثعلب بقوله « ما قيلت هاشمية احسن منها ، وقد صرّح بها تصريح من اذهلته المصائب عن تخوّف العواقب »[1] . فقال فيها يصف شعوره بعد مقتل الخليفة ويشير الى ان ابنه المنتصر كان من المتآمرين عليه

صريع تقاضاه السيوف حشاشةً يجود بها والموت حمر اظافره
حرام عليَّ الراح بعدك او ارى دما بدم يجري على الارض مائره
وهل يرتجى ان يطلب الدم طالب مدى الدهر والموتور بالدَّم واتره
فلا مليَ الباقي تراث الذي مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره
ولا وأل المشكوك فيه ولا نجا من السيف ناضي السيف غدراً وشاهره

. . .

(١) زهر الاداب للحصري ١—١٩٥

ومن مراثيه التي قد تذكر له مرثاته في سليمان بن وهب ومطلعها

أخيَّ نهنه دمعك المسفوكا ان الحوادث ينصرمن وشيكا

ما اذكرتك بمترحٍ صرفُ الجوى الا ثنته بفرح ينسيكا

على انها ليست من الطبقة الاولى في هذا الباب وليس للبحتري فيه ما لصاحبيه ابي تمام والمتنبي . ولقد تراه احياناً يسفُّ الى درجة الغثاثة كقوله لابي نهشل محمد بن حميد الطوسي يحاول ان يعزيه عن فقد ابنته ، فيذكر له انها غير جديرة بالبكاء لانها فتاة ، وطالما كانت الفتيات سبباً في الشقاء ، ويضرب له على ذلك الامثال السمجة ومنها

قد ولدن الاعداء قدماً وورّثن التلاد الاقاصي البعداء

لم يئد كثرهنَّ قيس تميم غيلةً بل حميَّةً واباء

واستزلَّ الشيطان آدم في الجنَّة لما اغرى به حواء

ولعمري ما العجز عندي الا ان تبيت الرجال تبكي النساء

واكثر القصيدة في هذه المعاني التي تدل على انحطاط المرأة يومئذ في نظر الرجل . ومثلها في الغثاثة ابيات يعزّي فيها موسى بن عبد الملك عن ابنة له . قال

ابا حسنٍ انَّ حسن العزاء عند المصيبات والنائبات

يضاعف فيه الاله الثواب للصابرين والصابرات

ومن نعم الله لاشكَّ فيه حياة البنين وموت البنات

. . . . .

اما العتاب فله فيه يد طولى . ويرى ابن رشيق انه احسن الناس طريقاً في عتاب الاشراف ويلقبه بشيخ الصناعة الشعرية وسيد الجماعة[1] . وقد اصاب ابن رشيق ففي عتابه نعومة حريرية قلما تجدها في سواه . ومن امثلة ذلك قصيدة يعتذر فيها الى يعقوب بن احمد بن صالح . وهي تبدأ كالعادة بالغزل ، ثم ينتقل من ذلك الى نفسه وذكر اخلاقه ومن هنا يتقدم الى المعتذر اليه فيقول بنغمة مغرية

ندمت على امر مضى لم يُشرْ به نصيح ولم يجمع قواه نظام

وقد خبَّروا ان الندامة توبة يصلَّى لها ان تقتنى ويصام

---

(١) العمدة ٢-١٢٩

وان جحودي سوء ظن بنعم — وعـدّي معاذيري عليه خصام
يجرّح اقوال الوشاة فريصتي — واكثر اقوال الوشاة سهام
ولما نبت بي الارض عدت اليكم — امتُّ بحبل الودّ وهو رمام
وما كل ما بلّغتم صدق قائل — وفي البعض ازراءٌ عليَّ وذام
ولا عذرَ الا ان بدءَ اساءةٍ — له من زيادات الوشاة تمام

وهذه النعومة لا تفارقه حتى عند معاتبته من اساءَ اليه ، كالابيات التالية من قصيدة يخاطب فيها ابا عبدالله بن حمدون ويعاتبه على محاولته ان يثير كراهة الخليفة له —

هل ابن حمدون مردود الى كرم — عهدته مرةً عند ابن حمدون
اخ شكرت له نعمى اخي ثقةٍ — زكتْ لديَّ ومنًّا غير ممنونِ
طاف الوشاة به بعدي وغيّره — معاشر كلهم بالسوء يعنيني
اصبحت ارفعه حمداً ويخفضني — ذماً وامدحه طوراً ويهجوني
تدعو الامام الى شتمي ومنقصتي — بئس الحِباء على مدحيك تحبوني
اين الوداد الذي قد كنت تمنحني — او الصفاء الذي قد كنت تصفوني
ان كان ذنب فاهل الصفح انت وان — لم آت ذنبا ففيمَ اللوم يعروني

. . .

ومن بديع العتاب قوله للحسن بن وهب من قصيدة وقد جفاه الحسن واعرض عنه .

هل تصغينْ لاخ يقول بحاله — مستعتبا اذ لم يقل بلسانه
ما كان غرواً ان يضيع ذمامه — لو لم تكن في عصره وزمانه
هذا وانت الحجّة العلياء في اكرامه من وافد وهوانه
ومتى رآك الناس تحرمه اقتدوا — بك غير مرتابين في حرمانه
فتكون اوّل مانع من نفسه — ما أمّل العافي ومن جيرانه
والارض تبذل في الربيع نباتها — وكذاك بذل الحرّ في سلطانه
واعلم بان الغيث ليس بنافع — للناس ما لم يأت في ابّانه

وفي ديوانه كثير من هذه الطرائف العتابية .

. . .

وله في الفجر بضاعة جيدة . على ان اهم فخره هو في مكارم قومه يعدّد مناقبهم

ويذكر شرف اليمن وعزَّها مقابلًا ذلك بخشونة عرب الشمال وسوء حالهم · وافضل ما له في ذلك دالية مطلعها

انا الغيُّ ان يكون رشيدا فانقصا من كلامه او فزيدا

وهي طويلة تجد اكثرها في باب المختار من شعره · ومن قوله فيها

معشر امسكت حلومهم الارض وكادت من عزها ان تميدا
نزلوا كاهلَ الحجاز فاضحى لهمُ ساكنوه طرًا عبيدا
ملكوا الارض قبل ان تُملك الارض وقادوا في حافتيها الجنودا
فهمُ قوم تبّع خير قوم لهمُ الله بالفخار شهيدا

ومن بين ابياتها يلمح الى ما كان في الصدور من كوامن العصبيَّة التي جعلت اليمنية والمضرية حزبين متعادين ، والتي كان لها في تاريخ العرب تاثير شديد ·

ومن امثلة فخره قوله في معاتبة قوم من اهل بلده

ومعيّري بالدهر يعلم في غدٍ انّ الحصاد وراءَ كل نباتِ
ابنىَّ لني قد نضوت بطالتي فتحسَّرت وصحوت من سكراتي
نظرت اليَّ الاربعون فاصرخت شيبي وهزّت للحنوّ قناتي
ومن الاقارب من يسرَّ بميتتي سفهاً وعزُّ حياتهم بحياتي
ان ابق او اهلك فقد نلت التي ملأَتْ صدور اقاربي وعداتي

ثم يذكر فضله وسؤدد آبائه واجداده ومآثرهم في منبج وتقدمهم هناك على سائر الناس ·

· · ·

واقل بضاعة البحتري في ديوانه الهجاء · وهنا يختلف صاحب الاغاني عن المرزباني · فالاول يقص علينا سبباً لذلك القصة التالية[1] نقلًا عن الاخفش عن ابي الغوث (ابن البحتري) : ان الشاعر لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال له اجمع كل شيء قلته في الهجاء ففعل · فامره باحراقه ثم قال له يا بنيّ هذا شيء قلته في وقت فشفيت به غيظي ، وكافأت به قبيحاً فُعل بي · وقد انقضى اربي في ذلك ، وان بقي روي · وللناس اعقاب يورثونهم العداوة والمودَّة واخشى ان يعود عليك من هذا شيء في نفسك او معاشك لا فائدة لك فيه · قال فعلمت

(١) راجع القصة في الاغاني ١٨–١٦٧

انه نصحني واشفق علي فاحرقته . ويعقب على ذلك الاصفهاني بان « اكثر هجائه ساقط ركيك لا يشاكل طبعه ولا يليق بمذهبه ، ولا يعرف له هجاء جيد الا قصيدتين احداهما في ابن ابي قماش والثانية في يعقوب بن الفرج » .

ولا نعلم مبلغ هذه القصة من الصحة ، ولكنّ الذي نعلمه ان الشاعر ترك لنا شيئاً من هجائه وما تركه يجوز لنا القول انه لم يكن فيه ميل ابن الرومي ودعبل واضرابهما الى الهجاء ، بل كان على ما يظهر يتجنبه ما امكن . وانك لتلمح ذلك مما رواه ابن رشيق قال « هجا ابن الرومي البحتري — وابن الرومي من علمت — فاهدى اليه (البحتري) تخت متاع وكيس دراهم ، وكتب اليه بيتين ليريه ان الهدية ليست تقيّة ولكن رأفة عليه وانهُ لم يحمله على ما فعل الاّ الفقر والحسد المفرط[١] .

واما المرزباني فينسب الى البحتري سوء العهد وخبث الطريقة في الهجاء . قال[٢] « وكثير من اهل الادب ينكر خبث لسان علي بن العباس الرومي ويضربون عن اضافة البحتري اليه والحاقه به ، مع احسان ابن الرومي في اساءته ، وقصور البحتري عن مداه فيه ، وانه لم يبلغ في دقه معانيه وجودة الفاظه وبدائع اختراعاته ، اعني الهجاء خاصة » ثم يذكر قلة وفائه لانه هجا نحواً من اربعين رئيساً ممَّن مدحهم ، منهم خليفتان

ومهما قلنا في مذهبه الهجائي فهو ولا شك ضئيل في ديوانه . ولا يمنع ذلك ان يكون الشاعر قد استعمل الهجاء لبعض مآربه من مقارعة شاعر او الانتقام من كبير ، ولكن هذا الضرب من الشعر لم يشتهر به ، والذي وصل الينا منه لا يدل على علو كعب الشاعر فيه .

. . .

مزيته الفنية

على ان الناظر في شعر البحتري المدقق في فهم شاعريته يرى له مزية جديرة بالذكر ، هي رشاقة الوصف الذي طبع بها شعره فعرف بها وجعلت له بين الشعراء مقاماً عالياً . وقبل النظر في فن شاعرنا الوصفي نقول ان الوصف نوعان ، حسي وخيالي . ولنوضح الفرق بينهما ببعض الامثلة —

تقف الى نهر في وادٍ كبير وترى تدفق المياه بين تلك الشواهق العظيمة فتأخذك روعة

---

(١) العمدة ١ — ٧٠ (٢) الموشح ٣٣٦

ذلك المنظر ، وتستفزُ فيك الميل ان كنت شاعراً الى وصف ما تراه من جمال وجلال ·
فاذا انت تصف أسناد الوادي وما عليها من الاشجار والكروم ، وتصف تلك الصخور
القائمة وانقضاض المياه من بينها ، وقد ترسم ما يتراءى لك في ذلك الوادي من الوان تلقيها
عليه ظلال المساء او اشعّة الفجر ، وربما تعديت ذلك الى ما تراه من حيوان هناك — بقراً
رابضاً تحت الشجر ، او غنماً يرعى في المروج ، او ماعزاً منتشراً فوق المنحدرات · ولعلك
ترى الفلاح يحرث الحقل ، او تنظر الى السماء من اعماق الوادي فترى « قطعان الغيم يسوقها
راعي الريح » ، او قوافل الضباب تنيخ فوق قمم الهضاب · يؤثر كل ذلك فيك ، فترسمه
باشكال خلّابة تستفزّ في القارىء عواطف الطرب ، وتحبّب اليه رؤية ذلك الجمال — كما
فعل المنازي في وصف واد ظليل اذ قال

نزلنا دوحة فحنا علينا حنوَّ المرضعات على الفطيم
وارشفنا على ظمأٍ زلالاً الذَّ من المدامة للنديم
تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

هذا هو الوصف الحسي الذي يتناول المحسوسات فيصوّرها بصور رائعة ، وهو عين ما
يفعله الرسام الماهر الذي يقتنص بريشته جمال الطبيعة ويجسّمها بالالوان على الورق ، فتبدو
فتانة تميل اليها النفوس الحساسة ، ويتفانى في اقتنائها اهل الذوق والخبرة

· · ·

وكذلك انت تفعل اذا وقفت مثلاً امام البحر العظيم ورأيت امواجه المتلاطمة وهي
تتكسر مزبدة فوق الصخور ، او رايته في يوم رائق وهو رهو مستنيم وقد انتشرت فوقه
قوارب الصيادين والقت ظلالها فوق سطح الماء ، وخرج الناس مساء يتنزهون على رمال
الشاطىء . وفي وسط البحر باخرة عظيمة تشق الماء بحيزومها ويعقد البخار سرادقاً فوق
مداخنها ، فتمرّ امامك محاذية للتلال المنحدرة نحو البحر ، وترى من ورائها القرى الجبلية
تتغامز عيونها عند غروب الشمس ·

ولو وقفت اليوم تنظر الى معركة التحمت فيها الابطال بالابطال ، وقد برقت الاسنة
والسيوف ، وسالت الدماء من بين الصفوف ، او الى حرب بين الخنادق وقد قصفت المدافع
فتساقطت قذائفها على الصعيد تنسف التراب والصخور ، وتطايرت شظاياها تفتك بالمئات
والالوف ، ثم ظهرت سحائب الغاز القتال تتقدم نحو مكامن العدو ، وتبع ذلك هجوم

عام. والطيارات تحوم فترشق العدوّ بالمتفجرات الجهنمية، ثم لا تلبث ان ترى سرباً معادياً فتنهزم امامه او تصمد له في لوح الجو، وهناك الهول الكبير. مناظر هائلة يأخذها الشاعر فيرسمها كما يراها فتحرك النفوس وتلعب بالعواطف. وقس على ما ذكرنا من الاوصاف وصف المدن والآثار والقصور والجنائن والصيد والحيوان والانسان وغير ذلك مما يقع تحت حسّك ويؤثر في نفسك، فتبرزه في حلة قشية تحرّك في سواك اوتار الطرب. وقد اجاد العرب في هذا الفن من الوصف الحسي فانصرف الاقدمون منهم الى ما له علاقة بحياتهم البدوية كالجمل والصحراء والسيف وآثار الحبيب الراحل وشكله وما الى ذلك، وبالغوا في بعضها مبالغة عظيمة كما فعل طرفة في وصف ناقته. وامثال طرفة كثيرون بين الشعراء الاقدمين. وجاء العصر العباسي فتحول الوصف الى الرياض والقصور ومجالس اللهو والسرور وللمولّدين في ذلك بدائع لا يتسع المقام لذكرها هنا.

. . .

اما الوصف الخيالي فنظر فني الى ما وراء المحسوسات. فاذا كان الشاعر واسع الخيال لا يقف عند ما يراه، بل يتعداه الى مناطق يفتحها امامه الخيال الواسع، فيجعل المرئيات اساساً لغير المرئيات، ويُولّد من المحسوسات صوراً مجرَّدة يرسمها للبشر تأملات وذكريات: يقف في قلب الوادي مثلًا فيسمع فيه نبضات الحياة، وتمرّ امامه على صفحات الماء حوادث الايام، فيذكر الامم الغابرة والوقائع الماضية. وقد يحمله ذلك الى النظر في الحياة والانسان، وكم تتسع الحياة والانسان لخواطر يشعر بها لرؤيتنا بعض المشاهد الطبيعية. فالوصف الخيالي هو وصف تاترك من النظر الحسّي وما يثيره فيك من وحي داخلي. قف امام البحر تتجسم لك عظمة الكون وجلال الطبيعة، وقد يحملك المنظر الى ذكر الاسفار والهجرة في طلب العلى. ولعلك تذكر الامم التي كانت على شواطىء هذا البحر، وكيف عظمت ثم سقطت، وعلاقة ذلك بالبلاد التي انت فيها.

وفي الحرب مجال واسع للخيال، هناك علاقة الانسان بالانسان وما يتفرَّع عنها من عوامل اساسية في بناء العمران. ومثله اذا وقفت امام الآثار كبعلبك وتدمر، او امام الانهار التاريخية كالدجلة والفرات والنيل، او امام تماثيل العظماء ومآثر العلماء. فانت في كل ذلك تستخدم الحس توصلًا الى صور الخيال البعيدة، وهذا هو الوصف الخيالي العالي الذي تلكأ الشعر العربي قديماً عن الاهتمام به، فلم يترك لنا السلف من آثارهم فيه الا النزر اليسير

وشاعرنا البحتري وصّاف ماهر . وهو كسواه من شعراء العرب اميل الى الوصف الحسّي : يتناول المحسوسات فيدقق في رسمها ، كقوله في دمشق يوم انتقل اليها المتوكل—

اما دمشق فقد ابدت محاسنها وقد وفى لك مطريها بما وعدا
اذا اردت ملأت العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسي السحاب على اجبالها فرقاً ويصبح النبت في صحرائها بددا
فلست تبصر الا واكفاً خضِلاً او يانعاً خضراً او طائراً غرِدا
كانما القيظ ولّى بعد جيئته او الربيع دنا من بعد ما بعدا

على ان له احياناً ما يقرب ان يكون نظراً خيالياً . اهمُّه وقفته امام ايوان كسرى ففيها يقف الشاعر لدى قصور الفرس الدارسة يصفها وصفاً حسّياً رائعاً ، ثم يحاول الانتقال الى المعنويات — الى تاريخهم وعظمتهم ، ولكنه لا يكاد يفعل ذلك الا الماماً . وهذه القصيدة من عيون الشعر العربي تقع في ٥٦ بيتاً ، عشرة منها في ذكر حاله وشكوى دهره ، وستة في السبب التاريخي لهذه الوقفة ، ثم خمسة او ستة في ذكر عظمة الفرس ، وستة في احوال خاصة . وما بقي فوصف للايوان وقد تفنن فيه الشاعر ما شاء . واليك شيئاً منها : قال في صورة معركة رسمت على احد جدران القصر

لو تراه علمت ان الليالي جعلت فيه مأتماً بعد عرس
وهو ينبيك عن عجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلَبس
فاذا ما رايت صورة انطاكيَّة ارتعت بين روم وفرس
والمنايا مواثلٌ وانو شروان يُزجي الصفوف تحت الدرَفس
في اخضرار من اللباس على اصفر يختال في صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه في خفوت منهم واغماض جرس
من مُشيح يهوي بعامل رمح ومُليح من السنان بترس

ثم يلتفت الى القصر ويرى ما اصابه من الزمان فيقول

يتظنّى من الكآبة ان يبدو لعينَي مصبِّح او ممسِّي
عكست حظَّه الليالي وبات المشتري فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدي تجلُّداً وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرسي

فانظر الى هذا النمط النفيس الذي يشهد للبحتري بالبراعة الفائقة في تصوير المرئيات وعرضها بالالوان الخلّابة ، ولا سيا وصفه لمعركة انطاكية وصورة كسرى يدفع صفوفه تحت العلم الكبير ، والرجال يتطاحنون امامه من مهاجم يهوي بسيفه على العدو ومدافع يتقي الضربات بترسه . وتأمل هذا التصور الدقيق اذ يقول

تصف العين انهم جِدّ احياء   لهم بينهم اشارة خرس
يغتلي فيهم ارتيابي حتى   تتقرّاهم يداي بلمس

***

ومن قصائده البديعة التي يقرن فيها الحس بالخيال قرناً جميلًا قصيدته الفخرية في وصف ذئب لقيه في القفر . وليست هذه القصيدة عند التحقيق الا وصف نفسه في سَورة من سورات العزيمة : فقد ذكر فيها اعداءه وحرصهم على هلاكه ، فوقف امامهم وقفة الباسل يصوّر نفسه لهم تصويراً تكاد تلمس الشعور المتدفق فيه . ومن قوله

فقل لبني الضحّاك مهلا فانني   انا الافعوان الصلّ والضيغم الوردُ
متى هجتموه لا تهيجوا سوى الردى   وان كان خرقا ما يحلّ له عقد
مَهيبا كنصل السيف لو ضُربت به   ذرى أجإٍ ظلت واعلامها وُهد[1]
يودّ رجال انني كنت بعض من   طوته الليالي لا اروح ولا اغدو
ولولا احتمالي ثقل كل ملمّةٍ   تسوء الاعادي لم يودّوا الذي ودّوا

ثم ياخذ في وصف صرامته وسيفه ، ويتقدم من ذلك الى وصف الذئب وكيف هاجمه ، ثم يعود الى نفسه وجور الدهر عليه وان عزمه يدفعه الى ركوب المشاق في طلب الغنى . ويختم ذلك بقوله —

ساحمل نفسي عند كل ملمّةٍ   على مثل حد السيف اخلصه الهند
فان عشت محموداً فمثلي بغى الغنى   ليكسب مالاً او يُنثّ له حمد
وان متّ لم اظفر فليس على امرئٍ   غدا طالبا الاّ تقصّيه والجهد

* * *

ومما يذكر للبحتري في دقة الرسم واناقة العبارة قصيدته التي يصف بها موكب المتوكل

(١) اجأ اسم جبل

وقد خرج في عيد الفطر الى المسجد ، وهي من افضل الامثلة على اسلوب البحتري الرشيق قال منها —

اظهرت عز الملك فيه بجحفل لجب يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت عُدَداً يسير بها العديد الاكثر
فالخيل تصهل والفوارس تدّعي والبيض تلمع والاسنة تَزهر
والارض خاشعة تميد بثقلها والجوُّ معتكر الجوانب اغبر
والشمس ماتعة توَقّد بالضحى طوراً ويطفئها العجاج الاكدر
حتى انتهيت الى المصلّى لابسا نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع لله لا يُزهى ولا يتكبّر
فلو ان مشتاقاً تكلّف غير ما في وسعه لسعى اليك المنبر

. . .

ومثل ذلك وصف القصر المعروف بالكامل : بناه الخليفة المعتز بالله ابن المتوكل فقال البحتري من قصيدة يمدح بها المعتز ويذكر بناءه للقصر —

ذُعر الحمام وقد ترنّم فوقه من منظر خطر المزلّة هائل
رُفعت لمخترق الرياح سموكه وزهت عجائب حسنه المتخايل
وكأن حيطان الزجاج بجوّه لججٌ يمجن على جنوب سواحل
وكأن تفويف الرخام اذا التقى تأليفه بالمنظر المتقابل
حُبك الغمام رصفن بين منمّر ومسيّر ومقارب ومشاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه نوراً يضيء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن في ذي رونق متلهّب العالي انيق السافل
وكانما نشرت على بستانه سِيراء وشي اليمنة المتواصل
اغنته دجلة اذ تلاحق فيضها عن صوب منسجم الرباب الهاطل
وتنفّست فيه الصبا فتعطّفت اشجاره من حُيّل وحوامل
مشيَ العذارى الغيد رحن عشية من بين حالية اليدين وعاطل

. . .

وكذلك وصفه الفرس من قصيدة في محمد بن علي القمّي الكاتب ، والوصف يقع في

نحو عشرين بيتاً نذكر منها هنا

واغرَّ في زمن البهيم محجَّـل	قد رحت منه على اغرَّ محجّل
كالهيكل المبنيّ الا انه	في الحسن جاء كصورة في هيكل
يهوي كما تهوى العقاب وقد رأت	صيداً وينتصب انتصاب الاجدل
جذلان ينفض عـذرةً في غرَّة	يقق تسيل حجولها في جندل
كالرائح النشوان اكثر مشيه	عرضاً على السَّنن البعيد الاطول
هزِجُ الصهيل كأن في نغماته	نبرات معبد في الثقيل الاول [1]
ملك العيون فان بدا اعطينه	نظر المحبِّ الى الحبيب الاول

الى غير ذلك من الوشي الجميل الذي عرف به البحتري . وسنرى في باب المختـار له كثيراً من ذلك

غزل البحتري

اذا قلنا غزل البحتري فقولنا هذا يصدق على كل شاعر من مدّاحي العصر العباسي وهو على الغالب نوع من الفن الكلامي يصدرون به قصائدهم تمهيداً لما يقصدون . ومع ما قد تجده فيه من رشاقة لا ينظم عادةً بثًّا لوجد متقد او تصويراً لخوالج شخصية صادقة ، على ان الشعراء يتفاوتون في ذلك . وفي غزل شاعرنا البحتري حلاوة ولطف يحببانه الى النفوس .

كان الاقدمون يجعلون لقصائدهم مقدَّمات من الوقوف على ديار الحبيب والبكاء على آثارها ، ثم الرحيل عنها الى حيث يقصدون ، فحوَّل المولدون ذلك الى مقدمات غزلية يصفون بها الحبيب ويذكرون اشواقهم ، ثم يتخلصون الى المدح او سواه . وقد لا يكون بين المقدمة الغزلية وسائر القصيدة من رابطة فكرية او حسن تخلص . وعلى هذا كثير من شعر البحتري ، وفيه يقول ابن الاثير « انه لم يوفَّق في التخلص من الغزل الى المديح بل اقتضبه اقتضاباً ، ولقد حفظت شعره فلم اجد له من ذلك شيئاً مرضياً الا اليسير » [1] .

وقد سبقه الى هذا النقد ابو بكر الباقلاني فقال [2] — « الا ترى ان كثيراً من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى الى غيره ، والخروج من باب الى سواه ، حتى ان

---

(١) المثل السائر ٤٣٠ (٢) اعجاز القرآن ص ٢١

اهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحتري ، مع جودة نظمه وحسن وصفه ، في الخروج من النسيب الى المديح ، واطبقوا على انه لا يحسنه ولا ياتي فيه بشيء ، وانما اتفق له في مواضع معدودة خروج يرتضى ، وتنقُّل يستحسن »

ومن امثلة تقصيره قوله يخاطب الحبيب من قصيدة مطلعها « كنت الى وصل سعدى جِدَّ محتاج »

اسقى ديارك والسقيا تقلُّ لها ... إغزار كل مُلثٍ الودق ثجاج
يلقي على الارض من حلي ومن حلل ... ما يمتع العين من حسن وابهاج
فصاغ ما صاغ من تبر ومن ورق ... وحاك ما حاك من وشي وديباج
الى علـيّ بني الفياض بلّغني ... سراي من حيث لا يسري وادلاجي
الى فتى يُتبع النعمى نظائرها ... كالبحر يتبع امواجاً باموج

فانت ترى كيف ينتقل بغتة الى المديح مما يدل على ان الغزل لم يكن الا لحاجة فنية متكلفة . ومثل ذلك غزله في قصيدة قالها في المتوكل واولها

عذيري فيـك من لاحٍ اذا ما ... شكوت الحب حرّقني ملاما

يتقدم فيها الى الحبيب فيخاطبه بابيات رقيقة ويذكر هيامه واشواقه الى ان يقول

وقد علمتْ باني لم اضيّع ... لهـا عهداً ولم اخفر ذماما
لئن اضحت محلتنا عراقاً ... مشرقة وحلّتهـا شآما
فلم احدث لها الآ ودادا ... ولم ازدد بها الآ غراما

ثم يثب وثباً الى المديح فيقول

خلافـة جعفر عدل وامن ... وفضـل لم يزل يسع الاناما

وقس على ذلك كثيراً من قصائده .

ويكثر في غزل البحتري ذكر الطيف او الخيـال حتى عرف به بين الشعراء . قال الحصري « كان البحتري اكثر الناس ابداعاً في الخيال حتى صار لاشتهاره مثلاً فيقـال له خيال البحتري »[١] . واكثر تشبيهه في فتاة حلبية اسمها علوة ، عرفها يوم كان في حلب قبل خروجه الى العراق[٢] .

---

(١) زهر الآداب ٣ — ١٢٠ (٢) ابن خلكان تحت سيرة البحتري ٢ — ٢٣٣

وكان على عادة الشعراء يتماجن في شعره ويشبّب بالغلمان . وكان له غلام اسمه نسيم يقول صاحب الاغاني انه جعله باباً من ابواب الحيل على الناس فاذا حصل في ملك بعض اهل المروات شبَّب به وتشوّقه ومدح مولاه حتى يهبه له ، فلم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم [1]

وفي شعر البحتري حنين الى البلاد الشامية والى احبابه وبلدته منبج كقوله من قصيدة مطلعها — خيال يعتريني في المنام

سلام الله كل صباح يوم ... عليك ومن يبلغ لي سلامي

لقد غادرت في قلبي سقاماً ... بما في مقلتيك من السقام

لئن قلَّ التواصل او تمادى ... بنا الهجران عاماً بعد عام

فكم من نظرة لي من بعيدٍ ... اليك وزورة لك اكتتام

أأتخذ العراق هوى وداراً ... ومن اهواه في ارض الشآم

وهو يجيد في موقف الوداع والذكرى ومن ذلك قوله —

بنفسي ما ابدت لنا حين ودّعت ... وما كتمت في الاتحميّ المسيّر

ولما خطونا دجلة انصرم الهوى ... فلم يبق الاّ لفتة المتذكر

وخاطر شوق ما يزال يهيجنا ... لبادين من اهل الشآم وحُضر

وقوله —

اراحلةٌ ليلى وفي الصدر حاجة ... اقام بها وجدٌ فما يترحل

وقفنا على دار البخيلة فانبرت ... سواكبُ قد كانت بها العين تبخل

على دارس الآيات عافٍ تعاقبت ... عليه صَباً ما تستفيق وشمأل

فلم يدر رسم الدار كيف يجيبنا ... ولا نحن من فرط البكا كيف نسأل

اجدّك هل تنسى العهود فتنطوى ... بها الدهر او ينسى الحبيب فيذهل

ارى حبَّ ليلى لا يبيد فينقضي ... ولا تلتوى اسبابه فتحلَّل

والغريب انه كان — برغم السنين الطوال التي اقامها في العراق يحسب نفسه غريباً هناك . واكبر ظننا انه كان صادقاً في حنينه الى الوطن فانه ، كما ذكرنا سابقاً عاد بعد هجرة طويلة وقضى بقية حياته في وطنه

---

(٣) الاغاني ١٠ — ١٧١

المختار من شعر البحتري

غدير في روض يجري فلا يعترضه جنادل يثب من فوقها هدّاراً الى الاعماق، ولا يتغلغل في منعطفات تضل في شعابها الاوهام : ينشد فيسمعك خريراً ناعماً تالفه الآذان ، ويصور فيريك الواناً بسيطة ترتاح اليها النواظر

قال يمدح الفتح بن خاقان ويذكر مبارزته الاسد

اجِدَّكَ ما ينفكُّ يسري لزينبا خيال اذا آب الظلام تاوَّبا (١)

سرى من اعالي الشام يجلبه الكرى هبوبَ نسيم الروض تجلبه الصَّبا

وما زارني الا ولهت صبابة اليه والاَّ قلت اهلًا ومرحبا

وليلتنا بالجزع بات مساعفاً يريني اناة الخطو ناعمة الصبا (٢)

اضرَّت بضوء البدر والبدر طالع وقامت مقام البدر لما تغيَّبا

ولو كان حقاً ما اتته لأطفأت غليلًا ولافتكَّت اسيراً معذَّبا (٣)

علمتك ان منَّيت منيت مَوعداً جَهاماً وان ابرقتَ ابرقتَ خُلَّبا

وكنتُ ارى ان الصدود الذي مضى دلال فما ان كان الاَّ تجنبا

فوا اسفي حتَّام اسال مانعاً وآمن خوَّاناً وأُعتب مذنبا (٤)

سأثني فؤادي عنك او اتبع الهوى اليك ان استعصى فؤادي او ابى

. . .

اقول لركب معتفين تدرَّعوا على عجل قِطعاً من الليل غيهبا

رِدُوا نائل الفتح بن خاقان انه اعمُّ ندى فيكم واقرب مطلبا

---

(١) اجدَّك بمعنى بجقك للقسم او التأكيد . وتأوّب وآب رجع

(٢) الاناة هنا المرأة الفاترة القيام دلالاً

(٣) اي لو كانت زيارتها حقيقية لخلّصتني من عذاب الوجد

(٤) أُعتبه اي ارجع الى ما يرضيه.

هو العارض الثجّاج أخضل جوده وطارت حواشي برقه فتلهّبا(١)
اذا ما تلظّى في وغى اصعق العدى وان خاض في أكرومة غمر الرُّبى
رزين اذا ما القوم خفّت حلومهم وقور اذا ما حادث الدهر اجلبا(٢)
حياتك أنْ يلقاك بالجود راضيا وموتك أن يلقاك بالباس مغضبا
حَرون اذا عازرته في ملمّة فان جئته من جانب الذل اصحبا(٣)
فتى لم يضيّع وجه حزم ولم يبت يلاحظ اعجاز الامور تعقّبا
اذا همَّ لم يقعد به العجز مقعدا وان كفَّ لم يذهب به الخُرق مذهبا
أُعير مودّات الصدور واعطيت يداه على الاعداء نصراً مرهّبا
فلم تخلُ من فضل يبلّغك التي تحبُّ ومن رأي يريك المغيّبا
وما نقم الحسّاد الا أصالة لديك وفعلا اريحيا مهذّبا
وقد جرّبوا بالامس منك عزيمة فضلتَ بها السيف الحسام المجرّبا
غداة لقيت الليث والليث مُخدر يحدّد نابا للقاء ومخلبا(٤)
يحصّنه من نهر نيزك معقل منيع تسامى روضه وتأشّبا
يرود مغاراً بالظواهر مُكثبا ويختلُّ روضاً بالاباطح معشبا(٥)
يلاعب فيه اقحوانا مفضّضاً يبصُّ وحوذاناً على الماء مُذهبا(٦)
اذا شاء غادى عانة او غدا على عقائل سرب او تقنّص ربربا(٧)
يجرُّ الى اشباله كل شارق عبيطاً مدمّى او رميلاً مخضّبا(٨)
ومن يبغ ظلماً في حريك ينصرفْ الى تلف او يثنِ خزيان أخيبا
شهدت لقد أنصفته يوم تنبري له مصلتاً عضباً من البيض مقضبا(٩)
فلم ارَ ضرغامين اصدق منكما عراكاً اذا الهيّابة النِكس كذّبا(١٠)

---

(١) هو كالغيم الماطر . يجمع بين ماء الجود ولهيب البطش (٢) اجلب توعد بالشر
(٣) اصحب اي انقاد. ومعناه شديد العناد اذا عوند ولكنه سهل الانقياد اذا جاءه الطالب متواضعاً
(٤) اخدر الليث اقام في غابته (٥) الظواهر اعالي الاودية . والاباطح عكسها
(٦) الحوذان اسم نبات . ويبصّ اي يلمع
(٧ و ٨) هكذا يرويها ابن الاثير . وفي الديوان ان تنقص ربربا ومعنى البيتين — يقتنص الحمر او الظباء فيجر منها كل ذبيحة وقد تخضبت بالدماء وتلوثت بالرمال
(٩) العضب المقضب اي السيف القاطع
(١٠) فلم ار اسدين اثبت منكما في موقف لا يثبت فيه الجبان

هِزَبْرٌ مشى يبغي هزبراً واغلب — من القوم يغشى باسل الوجه اغلبا
ادلَّ بشغب ثم هالته صولة — رآك لها امضى جناناً واشغبا
فاحجم لَمَّا لم يجد فيك مطمعا — واقدم لما لم يجد عنك مهربا
فلم يغنه أَن كَرَّ نحوك مقبلًا — ولم يُنجه ان حاد عنك منكّبا
حملت عليه السيف لا عزمك انثنى — ولا يدك ارتدَّت ولا حدُّه نبا
وكنت متى تجمع يمينَيك[1] تهتك الضريبة او لا تبق للسيف مضربا

. . .

أَلنتَ لي الأَيّام من بعد قسوة — وعاتبت لي دهري المسيء فاعتبا[2]
والبستنى النعمى التي غيّرت اخي — عليَّ فامسى نازحَ الدار اجنبا[3]
فلا فزتُ من مرِّ الليالي براحة — اذا انا لم اصبح بشكرك متعبا
على ان افواف القوافي ضوامن — لشكرك ما ابدى دجى الليل كوكبا
ثناء تقضّى الارض نجداً وغائراً — وسارت به الركبان شرقاً ومغربا

وقال يصف حاله ويصف الذئب حين لقيه

سلامٌ عليكم لا وفاءٌ ولا عهدُ — أما لكمُ من هجر احبابكم بدُّ
أَأَحبابنا قد انجز البين وعده — وشيكاً ولم يُنجَز لنا منكم وعد
بنفسيَ من عذَّبت نفسي بحبه — وان لم يكن منه وصال ولا ودُّ
حبيب عن الاحباب شطَّت به النوى — وايُّ حبيب ما اتى دونه البعد
يودُّ رجال أَنني كنت بعض من — طوته الليالي لا ارُوح ولا اغدو[4]
ذريني واياهم فحسبي صرامتي — اذا الحرب لم يُقدَح لمخمدها زند
ولي صاحب عضب المضارب صارم — طويل نجاد ما يفلُّ له حدُّ
وباكية تشكو الفراق بادمع — يبادرنها سحًّا كما انتثر العقد

---

(١) يمينيك اي ساعدك وسيفك (٢) اعتب اي رضي

(٣) لا يقصد اخاه هنا ولكن يقصد ان نعم الممدوح عليه اوجبت حسد الناس

(٤) اي يودّ بعضهم اني ميت

رشادَكِ لا يُحزنْك بين ابن هِمَّة ... يتوق الى العليـاء ليس له نِـدُّ
فمن كان حرًّا فهو للعزم والسرى ... ولِلَّيل من افعاله والكرى عبدُ

. . .

وليلٍ كأنَّ الصبح في أُخرياته ... حُشاشة نصلٍ ضمَّ إفرنده غِمد
تسربلته والذئب وسنان هاجع ... بعين ابن ليل ما له بالكرى عهد(١)
اثير القطا الكُدريَّ عن جَثَماته ... وتألفني فيه الثعالب والرُّبد
سما لي وبي من شدة الجوع ما به ... ببيداء لم تعرف بها عيشةٌ رَغد
كلانا بها ذئب يحدّث نفسه ... بصاحبه والجَدُّ يتعسه الجَدُّ(٢)
عوى ثم اقعى فارتجزت فهجته ... فاقبل مثل البرق يتبعه الرعـد
فاوجرته خرقاء تحسب ريشها ... على كوكب ينقضُّ والليل مسودُّ(٣)
فما ازداد الا جرأة وصرامة ... وايقنت ان الامر منه هو الجدُّ
فاتبعتها اخرى فاضللت نصلها ... بحيث يكون اللبُّ والرعب والحقد(٤)
فخرَّ وقد اوردته منهل الردى ... على ظمإٍ لو انه عـذُب الورد
وقمت فجمَّعت الحصى فاشتويته ... عليه وللرمضاء من تحته وَقْد

. . .

لقد حكمت فينا الليـالي بجورها ... وحكم بنات الدهر ليس له قصد
أفي العدل ان يشقى الكريم بجورها ... وياخذ منها صفوها القُعدد الوغد
ذريني من ضرب القداح على السرى ... فعزمي لا يثنيه نحس ولا سعد(٥)
سأحمل نفسي عند كل مُلمَّـة ... على مثل حد السيف اخلصه الهند(٦)
ليعلم من هاب السرى خشية الردى ... بان قضاء الله ليس له ردُّ
فان عشت محموداً فمثلي بغى الغنى ... ليكسب مالاً او ينثَّ له حمد(٧)
وان متُّ لم اظفر فليس على امرىء ... غـدا طالباً الا تقصّيه والجهد

---

(١) ابن الليل اللص

(٢) اي كلٌّ منا ذئب يحاول البطش بالآخر وذو الحظ الاوفر سينتصر

(٣) شبّه نصلة السهم بكوكب ينقض (٤) اي فاتبعتها سهماً آخر اصاب القلب

(٥) كانوا قديماً يضربون القداح قبل السفر ليستطلعوا ما سيكون

(٦) اي احسنت صنعه الهند (٧) ينث اي ينشر

وقال يفتخر بقومه

انما الغيّ ان يكون رشيدا فانقصا من ملامه او فزيدا
خلّياه وجدّةَ اللهو ما دا م رداء الشباب غضاً جديدا
ان ايامه من البيض بيض (١) ما رأين المفارق السود سودا
ايها الدهر حبذا انت دهراً قف حميداً ولا تولِ حميدا
كلَّ يوم تزداد حسنا فما تبعث يوماً الا حسبناه عيدا
ان في السِرب لو يساعدنا السر ب شموساً يمشين مشياً وئيدا (٢)
يتدافعن بالاكفّ ويعرضـن علينا عوارضاً وخدودا
يتبسّمن عن شتيت اراه اقحواناً مفصّلاً او فريدا (٣)
رحن والليلُ قد اقام رواقا فاقمن الصباح فيه عمودا
بمهاةٍ مثل المهاة ابت ان تصل الوصل او تصدّ الصدودا (٤)
ذات حسن لو استزادت من الحسن اليه لما اصابت مزيدا
فهيَ الشمس بهجةً والقضيب الغضُّ لينا والرئم طرفاً وجيدا

. . .

يا ابنة العامريِ كيف يرى قو مك عدلاً ان تبخلي واجودا
ان قومي قوم الشريف قديماً وحديثاً ابوّةً وجدودا
لم ادع من مناقب المجد ما يُقنع من همّ ان يكون مجيدا
معشر امسكت حلومُهم الار ض وكادت من عزّهم ان تميدا
متزلاً قارعوا عليه العمايق وعاداً في عزّها وثمودا
فاذا المحل جاء جاؤا سيولاً واذا النقع ثار ثاروا اسودا
يحسن الذكر عنهمُ والاحاديث اذا حدّث الحديد الحديدا (٥)
في مقام تخرُّ من ضنكه البيض على البيض ركّعاً وسجودا (٦)

---

(١) البيض الاولى الحسان والثانية جمع ابيض
(٢) كنى بالشموس عن الحسان (٣) الشتيت الثغر الافلج
(٤) بمهاة متعلق بما قبله اي رحن مساء فجعلن الظلام مضيئاً بجمال مهاة ابت الا الفراق
(٥ و٦) حدّث الحديد الحديد اي عند تلاحم السيوف في الحرب . والبيض السيوف

يفرجون الوغى اذا ما اثار الضرب من مُصمَت الحديد صعيدا
بوجوه تغشى السيوف ضياء وسيوف تغشى الوجوه وقودا
عدلوا الهضبَ من تِهامة احلا ماً ثقالاً ورملَ نجد عديدا(١)
ملكوا الارض قبل ان تُملك الار ضُ وقادوا في حافتيها الجنودا
وجروا قبل مولد الشيخ ابرا هيم في المكرمات شأواً بعيدا(٢)
فهم قوم تبَّع خير قوم لهمُ الله بالفخار شهيدا(٣)
بمساعٍ منظومة البستهنَّ اللآلي قلائداً وعقودا
سائلِ الدهر مذ عرفناه هل يعرف منا الا الفَعال الحميدا
قد لعمري رزناه كهلًا وشيخاً ورأيناه ناشئاً ووليدا
وطوينا ايامه ولياليه على المكرمات بيضاً وسودا
لم نزل قطُّ مذ ترعرع نكسو ه ندىً ليّناً وبأساً شديدا
فهو من مجدنا يروح ويغدو في عُلىً لا تبيد حتى يبيدا
نحن ابناءَ يعربٍ اعربُ النا س لساناً وانضر الناس عودا

وقال في المتوكل وموكبه الفخم في عيد الفطر

أُخفي هوى لك في الضلوع وأُظهر وأُلام في كمد عليك وأعذر
واراك خنت على النوى من لم يخن عهد الهوى وهجرت من لا يهجر
وطلبتُ منك مودّةً لم اعطها ان المعنَّى طالب لا يظفر
هل دَين علوةَ يستطاع فيقتضى او ظلم علوة يستفيق فيَقصر(٤)
بيضاء يعطيك القضيب قَوامها ويريك عينيها الغزال الاحور
تمشي فتحكم في القلوب بدلّها وتميس في ظل الشباب وتخطر

(١) اي وازنوا الجبال بعقولهم والرمال بعددهم
(٢) يريد بالشيخ ابرهيم ابرهيم الخليل اشارة الى قدم مجدهم
(٣) شهيدا تعرب هنا حالاً من الله
(٤) هل لعلوة مطالب يمكننا قضاؤها اوهل يكف ظلمها فينتهي عنّا

اني وان جانبت بعض بِطالتي — وتوهّم الواشون اني مُقصر
ليشوقني سحر العيون المجتلى — ويروقني ورد الخدود الاحمر

. . .

الله مكّن للخليفة جعفرٍ — ملكاً يحسّنه الخليفة جعفر
نعمى من الله اصطفاه بفضلها — والله يرزق من يشاء ويقدُر
فاسلم امير المؤمنين ولا تزل — تعطى الزيادة في البقاء وتشكر
عمّت فواضلك البريّة فالتقى — فيها المقلُّ على الغنى والمكثر(١)
بالبرّ صمت وانت افضل صائم — وبسنَّة الله الرضيَّة تُفطر
فانعم بيوم الفطر عيناً انه — يومٌ اغرُّ من الزمان مشهَّر
اظهرت عزَّ الملك فيه بجحفلٍ — لجِبٍ يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت — عُدداً يسير بها العديد الاكثر
فالخيل تصهل والفوارس تدّعي(٢) — والبيض تلمع والاسنَّة تَزهر
والارض خاشعة تميد بثقلها — والجوُّ معتكر الجوانب اغبر
والشمس ماتعة توَقد بالضحى — طوراً ويطفئها العجاج الاكدر(٣)
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلت — تلك الدجى وانجاب ذاك العِثير
وافتنَّ فيك الناظرون فاصبعٌ — يُوما اليك بها وعين تنظر
يجدون رؤيتك التي فازوا بها — من انعُم الله التي لا تُكفر
ذكروا بطلعتك النبيَّ فهللوا — لما طلعت من الصفوف وكبّروا
حتى انتهيت الى المصلّى لابساً — نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع — لله لا يُزهى ولا يتكبّر
فلو انَّ مشتاقاً تكلّف غير ما — في وسعه لسعى اليك المنبر
أبديْت من فصل الخطاب بحكمة — تنبي عن الحق المبين وتخبرُ
ووقفت في برُد النبي مذكّراً — بالله تنذر تارة وتبشِّر(٤)
ومواعظٍ شفت الصدور من الذي — يعتادُها وشفاؤها متعذِّر

(١) بفواضلك التي عمّت الناس جعلت الفقراء والاغنياء في حال واحدة من اليسار
(٢) ادعت الفوارس اي اعتزوا بانسابهم (٣) ماتعة اي مرتفعة
(٤) كان الخلفاء في المواقف الرسمية يضعون على اكتافهم بردة النبي

حتى لقد علم المجهول واخلصت نفس المروّي واهتدى المتحير(١)
صلّوا وراءك آخذين بعصمة من ربهم وبذمة لا تُخفر
فاسلم بمغفرة الاله فلم يزل يهب الذنوب لمن يشاء ويغفر
الله اعطاك المحبة في الورى وحباك بالفضل الذي لا ينكر
ولأنت املأ للعيون لديهم واجلُّ قدراً في الصدور واكبر

وقال يمدح احمد بن دينار

ويصف مركباً له غزا فيه بلاد الروم

ألم ترَ تغليسَ الربيع المبكّر وما حاك من وشي الربيع المنشّرِ (٢)
وسرعانَ ما ولّى الشتاء ولم يقف تسلّلَ شخص الخائف المتنكّر
مررنا على بطياس وهي كأنها سبائب عَصْبٍ او زرابيُّ عبقر (٣)
كأنّ سقوط القطر فيها اذا انثنى اليها سقوط اللؤلؤ المتحدّر
وفي ارجوانيٍّ من النّور احمر يشاب بافرند من الروض اخضر
اذا ما الندى وافاه صبحاً تمايلت اعاليه من درّ نثير وجوهر
اذا قابلته الشمس رد ضياءها عليها صقالُ الاقحوان المنوّر
اذا عطفته الريح قلت التفاتة لعلوةَ في جاديّها المتعصفر (٤)
بنفسي ما ابدت لنا حين ودّعت وما كتمت في الاتحميّ المسيّر (٥)
ولما خطونا دجلة انصرم الهوى فلم يبق الا لفتة المتذكّر
وخاطرُ شوق ما يزال يهيجنا لبادين من اهل الشآم وحضّر

---

(١) بمواعظك التي شفت الصدور من امراضها تعلم الجاهل واهتدى المتحير واخلصت لله نفس المفكر (٢) الم تر ورود الربيع الباكر وما حاك من وشي الازهار الربيعية

(٣) بطياس مكان قرب حلب . اي مررنا على هذا المكان وهو كأنه شقق برود مصبوغة او بسط عبقرية . وعبقر محل ينسبون اليه كل ما تعجبوا من حسن صنعته وقوّته

(٤) اي اذا عطفت الريح الغصن او الزهرة قلت تلك التفاتة علوة في ثوبها الزعفراني

(٥) الاتحمي المسير اي الثوب المخطط

باحمد أَحمدْنا الزمـانَ واسهلت لنـا هضبات المطلب المتوعّر
هو الغيث يجري من عطاء ونائل عليك فخذ من صيّب الغيث اوذر
ولما تولّى البحر والجود صِنوه غدا البحر من اخلاقه بين ابحر (١)
اضاف الى التدبير فضل شجاعة ولا عزم الا للشجاع المدبّر
غدوت على الميمون صبحاً وانما غدا المركب الميمون تحت المظفَّر (٢)
اطلَّ بعِطفيـه ومرَّ كانمـا تُشرّف من هادي حصان مشهَّر (٣)
اذا زمجر النوتيُّ فوق عـلاته رأَيت خطيباً في ذؤابة منبر (٤)
اذا عصفت فيه الجنوب اعتلى له جناحا عُقابٍ في السماء مهجّر
اذا ما انكفا في هَبوة الماء خلته تلفّع في اثناء بُرد محبَّر
وحولك ركّابون للهول عاقروا كوس الردى من دارعين وحسّر
تميل المنايا حيث مالت اكفُّهم اذا اصلتوا حدَّ الحديد المذكّر
اذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم ليقلع الاَّ عن شُواء مقتَّر (٥)
صدمت بهم صهبَ العثانين دونهم ضراب كايقاد اللظى المتسعر (٦)
يسوقون اسطولاً كأن سفينه سحائبُ صيف من جهام وممطر
كأن ضجيج البحر بين رماحهم اذا ختلفت ترجيع عَود مجرجر (٧)
فما رِمت حتى اجلت الحرب عن طُلىً مقطَّعة فيهم وهام مطيَّر (٨)
وكنت ابن كسرى قبل ذاك وبعده مليًّا بان توهي صفاة ابن قيصر (٩)
جدحت له الموت الذعاف فعافه وطار على الواح شطب مسمّر (١٠)
مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها عليه ومن يولَ الصنيعة يشكر

---

(١) اي لما تولى البحر غدا البحر بين بحور من مكارمه

(٢و٣و٤) الميمون اسم مركب اي اطل علينا فكان مقدمه كعنق حصان مرفوع وكان النوتي في اعلاه كانه خطيب على منبر

(٥) المقتر الساطع الرائحة (٦) صهب العثانين اي الروم لان لحاهم شقراء

(٧) عود مجرجر اي جمل تردد صوته

(٨) ما رمت اي ما زلت . والطلى الاعناق

(٩) اشارة الى اصل الممدوح الفارسي . اي كنت قادراً ان تقهر ملك الروم (ابن قيصر)

(١٠) اي تجنب الموت فهرب على مركب

اذا الموج لم يبلغه ادراك عينه ثنى في انحدار الموج لحظة اخزر
وكنا متى نصعد بجدك ندرك المعالي ونستنصرْ بيمينك نُنصر

وصف ايوان كسرى

(وآثاره اليوم قرب بغداد وتعرف بطاق كسرى)

صنتُ نفسي عما يدنّس نفسي وترفّعت عن جَدا كل جِبس (١)
وتماسكت حين زعزعني الدهر التماساً منه لتعسي ونكسي
بُلغٌ من صُبابة العيش عندي طفّفتها الايام تطفيف بخس
وبعيدٌ ما بين وارد رِفهٍ علل شربه ووارد خِمس (٢)
وكأنَّ الزمان اصبح محمو لاً هواه مع الاخسّ الاخس
واشترائي العراق خطّة غبنٍ بعد بيعي الشآم بيعة وكس (٣)
لا ترزني مزاولاً لاختباري عند هذي البلوى فتنكر مسّي
وقديماً عهدتني ذا هَنات آبيات على الدنيئات شُمس
فلقد رابني نبوُّ ابن عمي بعد لين من جانبيه وأُنس
واذا ما جُفيت كنت حرياً ان أُرى غير مصبح حيث امسي

...

حضرت رحلي الهموم فوجّهت الى ابيض المدائن عَنسي (٤)
اتسلّى عن الحظوظ وآسى لمحل من آل ساسان درس
ذكّرتنيهم الخطوب التوالي ولقد تُذكر الخطوب وتنسي
وهم خافضون في ظلّ عالٍ مشرفٍ يحسر العيون ويخسي (٥)
حلل لم تكن كاطلال سعدى في قفار من البسابس مُلس (٦)

(١) وترفعت عن عطية كل لئيم
(٢) وارد رفهٍ اي يرد الماء كل يوم متى شاء ووارد خمس اي يرد مرة كل اربعة ايام
(٣) انه لخسارة عظيمة ان اترك الشام واستوطن العراق
(٤) في هذا البيت وما بعده يقول حلت الهموم بساحتي فركبت جملي الى قصر المدائن الابيض لا تسلى عن حظي واسى لما درس من قصور آل ساسان (وهم ملوك الفرس) (٥) خافضون ناعمو العيش
(٦) اي هذه الآثار العظيمة ليست كاطلال البدو في القفار الخاوية

نقل الدهر عهدهنّ عن الجدّة حتى غدون انضاء لِبس (١)

فكأنّ الجرماز من عدم الانس واخلاله بنيّة رمس (٢)

لو تراه علمت ان الليالي جعلت فيه مأتمًا بعد عُرس

وهو ينبيك عن عجائب قوم لا يُشاب البيان فيهم بلبس

فاذا ما رأيت صورة انطا كيّة ارتعت بين روم وفرس (٣)

والمنايا مواثل وانوشر وان يزجي الصفوف تحت الدِرَفس

في اخضرار من اللباس على اصفر يختال في صبيغة ورس

وعراكُ الرجال بين يديه في خفوت منهم واغماض جَرس

من مُشيح يهوي بعامل سيف ومُليح من السنان بترس

تصف العين أنهم جِدُّ احياء لهم بينهم اشارة خرس

يغتلي فيهم ارتيابيَ حتى تتقرّاهمُ يداي بلمس

عكست حظّه الليالي وبات المشتري فيه وهو كوكب نحس

فهو يبدي تجلُّداً وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرسي

لم يعبه أن بزّ من بسط الديباج واستلّ من ستور الدمقس (٤)

مشمخرّ تعلو له شُرفات رُفعت في رؤوس رضوى وقُدْس (٥)

لابسات من البياض فما تبصر منها الا فلائل بُرس

ليس يُدْرى أصنع إنس لجن سكنوه ام صنع جن لإنس

عمرت للسرور دهراً فصارت للتعزي رباعهم والتأسي

فلها ان أُعينها بدموع موقفات على الصبابة حُبس

ذاك عندي وليست الدار داري باقتراب منها ولا الجنس جنسي (٦)

غير نعمى لاهلها عند اهلي غرسوا من ذكائها خير غرس

---

(١) انضاء لبس اي ثياب بالية (٢) الجرماز احد القصور في الايوان

(٣) في هذا والابيات الستة التابعة يصف صورة على جدار القصر تمثل معركة دارت في انطاكية بين كسرى والروم والوصف دقيق وقد مرّ تفسيره في كلامنا عن الشاعر

(٤) لم ينقص من قيمته ان الدهر سلبه بسط الديباج وستور الدمقس

(٥) رضوى وقدس جبلان

(٦) فهي جديرة ان ابكيها وان كنت غريباً لا امتُّ لاصحابها بنسب جنسي

أيدوا مَلكنا وشدُّوا قواهُ ... بكُماةٍ تحت السَّنوَّر حُمس [1]
واعانوا على كتائب أرياطٍ ... بطعن على النحور ودعس [2]
واراني من بعدُ اكلف بالاشراف طرّاً من كل سِنخ وإسِّ [3]

وقال يمدح المتوكل ويذكر وفد الروم

قل للسحاب اذا حدته الشمألُ ... وسرى بليلٍ ركبه المتحمّل
عرج على حلبٍ فحيِّ محلَّة ... مأنوسة فيها لعلوةَ منزل
لغريرةٍ ادنو وتبعد في الهوى ... واجود بالود المصون وتبخل
وعليلة الالحاظ ناعمة الصبى ... غري الوشاة بها ولجَّ العذَّل
لا تكذبنَّ فانت ألطفُ في الحشا ... عهداً واحسن في الضمير واجمل
احنو اليك وفي فؤادي لوعة ... واصدُّ عنك ووجه ودّي مقبل
واعزُّ ثم اذلُّ ذلة عاشق ... والحب فيه تعزُّز وتذلل

...

ان الرعيَّة لم تزل في سيرة ... عُمريَّة مذ ساسها المتوكل [4]
الله آثر بالخلافة جعفراً ... ورآه ناصرها الذي لا يخذل
هي افضل الرتب التي جُعلت له ... دون البرية وهو منها افضل
ملك اذا عاذ المسيء بعفوه ... غفر الاساءه قادراً لا يُعجل
وعفا كما صفح السحاب ورعده ... قصفٌ وبارقه حريق مشعل
شرفٌ خُصصت به ومجد باذخ ... متمكن فوق النجوم مؤثّل
لا يعدمنك المسلمون فانهم ... في ظلِّ ملكك ادركوا ما أمّلوا
حصَّنت بَيضتهم وحطت حريمهم ... وحملت من اعبائهم ما استثقلوا

(١) الا اني افعل ذلك ليد كانت للفرس عند اهلي (اليمنيين) فهم ساعدوا ملكنا (سيف بن ذي يزن) بابطال تحت الدروع شجعان

(٢) واعانوه على جيوش قائد الحبش (ارياط) بطعن في نحور الاعداء

(٣) ولذا صرت مولعاً بمدح الاشراف واهل المروءة مهما كان اصلهم

(٤) عمرية نسبة الى عمر بن الخطاب اي سيرة عدل وحزم

ورأَيت وفد الروم بعد عِنادهم عرفوا فضائلك التي لا تجهل[1]
لحظوك اول لحظة فاستصغروا من كان يعظم فيهم ويبجَّل
احضرتهم حججاً لو اجتُلبت بها عصم الجبال لاقبلت تتنزَّل
ورأوك وضَّاح الجبين كما يُرى قمر السماء السعد ليلة يكمل
نظروا اليك فقدَّسوا ولو انَّهم نطقوا الفصيح لكبَّروا وهللوا
حضروا السماط فكلما راموا القرى مالت بايديهم عقول ذُهَّل
تهوي اكفهم الى افواههم فتحيد عن قصد السبيل وتعدل
متحيِّرون فباهتٌ متعجب مما رأَى او ناظر متأمل
ويودُّ قومهم الاولى بعثوا بهم لو ضمَّهم بالامس ذاك المحفل
قد نافس الغيبَ الحضورُ على الذي شهدوا وقد حسد الرسولَ المرسِل
اعجلتَ رفدهم فافضل نائل حُبي الوفود به الهنيء المُعجَل
فاللهَ اسأل ان تعمّر صالحاً فدوام عمرك خير شيء يسأل

ميلوا الى الدار من ليلى نحييها

يصف فيها بركة بناها المتوكل

ميلوا الى الدار من ليلى نحيّيها نعم ونسألها من بعض اهليها
يا دمنةً جاذبتها الريح بهجتها تبيت تنشرها طوراً وتطويها
لا زلتِ في حلل للخير ضافية ينيرها البرق احياناً ويسديها[2]
تروح بالوابل الداني روائحها على ربوعك او تغدو غواديها
ان النحيلة لم تُنعم لسائلها يوم الكُثيب ولم تسمع لداعيها
يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والانسات اذا لاحت مغانيها[3]

(١) اشارة الى وفد ارسله ملك الروم الى المتوكل وفي الابيات التالية يصف دهشة الوفد لما راوه من عظمة الخليفة ومجده وما اعتراهم من الذهول عند ما حضروا المأدبة (السماط)

(٢) انار الحلل واسداها نسج لحمتها وسداها والكلام مجازي معناه لا زالت غيوم الخير فوقك يتلألا فيها البرق

(٣) في زهر الآداب ١—٢٣٠ البركة الحسنا ورونقها. وفي نهاية الارب ١—٣٧٤ والآنسات التي

يحسبها انها في فضل رتبتها تعدُّ واحدة والبحر ثانيها
ما بال دجلة كالغيرى تنافسها في الحسن طوراً واطواراً تباهيها
اما رأت كالىء الاسلام يكلأها من ان تعاب وباني المجد يبنيها(١)
كان جنَّ سليمان الذين ولُوا ابداعها فادقُّوا في معانيها
فلو تمرُّ بها بلقيس عن عُرض قالت هي الصرح تمثيلاً وتشبيها(٢)
تنصبُّ فيها وفود الماء مُعجَلة كالخيل خارجة من حبل مجريها
كانما الفضة البيضاء سائلةً من السبائك تجري في مجاريها
اذا علتها الصبا ابدت لها حُبُكاً مثل الجواشن مصقولاً حواشيها(٣)
فحاجب الشمس احياناً يضاحكها ورَيّقُ الغيث احياناً يباكيها
اذا النجوم تراءت في جوانبها ليلاً حسبت سماء ركِّبت فيها
لا يبلغ السمك المحصور غايتها لبعد ما بين قاصيها ودانيها
يعُمنَ فيها باوساط مجَنَّحة كالطير تنقضُّ في جوٍّ خوافيها
لهنَّ صحنٌ رحيب في اسافلها اذا انحططن وبهوٌ في اعاليها
تغنى بساتينها القصوى برؤيتها عن السحائب منحلاً عزاليها
كانَّها حين لجَّت في تدفُّقها يد الخليفة لما سال واديها
وزادها رتبة من بعد رتبتها انَّ اسمهُ يوم يدعى من اساميها(٤)
محفوفة برياض لا تزال ترى ريشَ الطواويس تحكيه ويحكيها

...

اذا مساعي امير المؤمنين بدت للواصفين فلا وصفٌ يدانيها
ان الخلافة لما اهتزَّ منبرُها بجعفر أُعطيت اقصى امانيها
ابدى التواضع لما نالها دعةً عنها ونالته فاختالت به تيها
اذا تجلَّت له الدنيا بحليتها رأت محاسنها الدنيا مساويها

(١) كالىء الاسلام اي حاميه ويقصد بذلك الخليفة
(٢) اشارة الى قصة النبي سليمان وبلقيس ملكة سبا وما شاهدته عنده من جلال صرحه العظيم
(٣) الجواشن الدروع
(٤) اسم المتوكل جعفر ومعنى جعفر النهر اي ان البركة واسم الخليفة متشابهان في المعنى

يا ابن الاباطح من ارض اباطحها — في ذروة المجد اعلى من روابيها[١]
ما ضيَّع الله في بدو وفي حضر — رعيَّةً انت بالاحسان راعيها
وامَّةً كان قبح الجور يسخطها — دهراً فاصبح حسن العدل يرضيها
بثثتَ فيها عطاءً زاد في عدد الـ — عليا ونوَّهت باسم المجد تنويها[٢]
ما زلت بحراً لعافينا فكيف وقد — قابلتنا ولك الدنيا بما فيها
اعطاكها الله عن حقٍّ رآك له — اهلاً وانت بحق الله تعطيها

وقال يمدح ابا سعيد محمد بن يوسف

أَأفاق صبٌّ من هوى فأُفيقا — ام خانَ عهداً ام أَطاع شفيقا
إنَّ السلوَّ كما تقول لراحةٌ — لو راحَ قلبي للسلوّ مطيقا
هذا العقيقُ وفيه مرأى مونقٌ — للعينِ لو كان العقيقُ عقيقا[٣]
أشقيقةَ العلمينِ هلْ من نظرةٍ — فتبلَّ قلباً للغليل شقيقا
علَّ البخيلة أَن تجود بها النوى — والدار تجمعُ شائقاً ومشوقا
ماذا عليكِ لو اقتربت لموعدٍ — يُنئي الجوى وسقيتنا ترنيقا

...

غدت الجزيرةُ في جَناب محمد — ريًا الجناب مغاربا وشروقا
برقتْ مخايلهُ لها وتخرَّقتْ — فيها عزالي جوده تخريقا[٤]
صفحتْ له عنها السنونَ وواجهت — أطرافُها وجه الزَّمانِ طليقا
رفعَ الاميرُ ابو سعيدٍ ذكرها — واقامَ فيها للمكارم سوقا
يستمطرونَ يداً يفيض نوالها — فيغرّقُ المحرومَ والمرزوقا
يقظٌ إذا اعترضَ الخطوبَ برأيه — تركَ الجليل من الخطوبِ دقيقا

---

(١) يا ابن اباطح قريش الذين اذا قيسوا بسواهم في الشرف فاقوهم كثيراً (كانت سهولهم اعلى من جبالهم) (٢) نوَّه به رفع ذكره

(٣) العقيق اسم وادي في بلاد العرب يتغنى بذكره الشعراء

(٤) اي برقت سحب وعوده ففاضت سيول جوده. والمخايل هي السحب المنذرة بالمطر

هلّا سألتَ محمّدٍ بحمداً تجدُ الخبيرَ الصادقَ المصدوقا[١]

وسلِ الشُراةَ فانهم اشقى بهِ من أهلِ موقانَ الاوائل موقا[٢]

جاؤا براعيهم ليتخذوا به عمداً الى قطع الطريق طريقا

طرحوا عباءَتهُ والقوا فوقه ثوبَ الخلافةِ مشرباً راوُوقا[٣]

عقدوا عمامتهُ برأس قناتهِ ورأوهُ برًّا فاستحال عقوقا

وأقامَ ينفذُ في الجزيرة حكمهُ ويظنُ وعدَ الكاذبينَ صدوقا

حتى إذا ما الحيّةُ الذكرُ انكفا من أرزنٍ حنقاً يمجُ حريقا[٤]

غضبانَ يلقى الشمسَ منه بهامةٍ تعشي العيونَ تالقاً وبريقا

أوفى عليه فظلَّ من دهش يظنُ البرَّ بحراً والفضاء مضيقا

غدرتْ أمانيهِ به وتمزّقتْ عنهُ غيابةُ سكرهِ تمزيقا

طلعتْ جيادكَ من ربى الجوديِّ قد حُمّلنَ من دُفَعَ المنونِ وسوقا[٥]

يطلبنَ ثارَ الله عند عصابة خلعوا الامام وخالفوا التوفيقا

يرمونَ خالقهمْ باقبحِ فعلهمْ ويحرّفونَ قُرانهُ المنسوقا[٦]

فدعا فريقاً من سيوفكَ حتفُهم وشددتَ في عقدِ الحديدِ فريقا

. . . .

يا تغلبُ ابنةَ تغلبٍ حتى متى تردونَ كفراً موبقاً ومروقا[٧]

تتجاوبونَ بدعوةٍ مخذولةٍ دعوى الحمير إذا أردنَ نهيقا

ولقد نظرنا في الكتاب فلم نجد لمقالكم في آيةٍ تحقيقا

أوَما علمتمْ أنَّ سيفَ محمدٍ أمسى عذاباً بالطغاةِ محيقا

لا تنتضوهُ بانْ ترموا خطةً عسراء تعيي الطالبينَ لحوقا

خلُوا الخلافةَ إنَّ دونَ لقائها قدراً بأخذِ الظالمينَ خليقا

(١) سأل به اي سأل عنه

(٢) في هذا البيت وما قبله يقول هل سألت عن الممدوح محمدًا (وهو قائد آخر) فينبئك بالخبر الصحيح بل اسأل الخوارج (الشراة) فقد نالهم منه اكثر ما نال اهل موقان قبلاً — والموق الهلاك

(٣) اي جعل الخوارج زعيمهم خليفة فالبسوه العباءة الجيدة النسج

(٤) ارزن اسم مكان ويراد بالحيّة الذكر هنا الداهية الفتاك (وهو الممدوح)

(٥) الجودي اسم جبل (وهو الذي استقرت عليه سفينة نوح) (٦) القران المنسوق القرآن المنظم

(٧) يا بني تغلب حتى متى تردون الكفر المهلك بمساعدتكم للخارجين على الامام

وقال يمدح مالك بن طوق

رحلوا فأيَّةُ عبرةٍ لم تُسكبِ أسفاً وأيُّ عزيمةٍ لم تُغلبِ
قد بيَّنَ البينُ المفرِّق بيننا عشقَ النوى لربيب ذاك الرَّبرب
صدقَ الغرابُ لقدْ رأيتُ شموسهمْ بالأمس تغربُ عن جوانب غرَّب (١)
لو كنتَ شاهدَنا وما صنع الهوى بقلوبنا لحسدتَ من لم يحببَ
شُغلَ الرقيبُ واسعدتنا خلوةٌ في هجرِ هجرٍ واجتناب تجنُّب
فتلجلجتْ عبراتها ثم انبرتْ تصفُ الهوى بلسان دمعٍ مُعرب
تشكو الفراق الى قتيل صبابةٍ شرقِ المدامع بالفراق معذَّب
أأُطيعُ فيك العاذلات وكسوتي ورقُ الشبابِ وشرَّتي لم تذهب
وإذا التفتُّ الى سِنِيَّ رأيتها كمجرِّ حبل الخالع المتصعِّب (٢)
عشرون قدَّرها الصبي واطالها ولعُ العتابِ بهائم لم يُعتب
ما لي وللأيام صرَّف صرفها حالي واكثر في البلاد تقلُّبي
فأكون طوراً مشرقاً للمشرق الاقصى وطوراً مغرباً للمغرب
وإذا الزمانُ كساك حلة مُعدمٍ فالبس لها حلل النوى وتغرَّب
ولقد أبيتُ مع الكواكب راكباً أعجازها بعزيمة كالكوكب
والليل في لونِ الغراب كأنه هُوَ في حلوكتهِ وان لم يَنعب
والعيس تنصُل من دجاه كما انجلى صبغُ الشبابِ عن القذال الاشيب (٣)
يطلبنَ مجتمعَ العلى من وائلٍ في ذلكَ الاصلِ الزَّكيِّ الاطيب
وبقيَّةَ العربِ الذي شهدتْ له أبناء ادٍّ بالفخار ويعرُبِ (٤)
بالرَّحبة الخضراء ذات المنهل العذْب المشاربِ والجناب المُعشب (٥)

---

(١) غرَّب اسم جبل (٢) الخالع المتصعب اي الجمل الضعيف

(٣) العيس النياق البيض يخالطها شقرة وظلمة خفية . ومعنى البيت ان العيس تخرج من الليل كما يخرج القذال الاشيب من سواد الشباب

(٤) اد ويعرب من جدود العرب المعروفين

(٥) الرحبة مكان الممدوح

عطنُ الوفودِ فمنجدٌ أوْ مُتهمٌ أو وافدٌ من مشرقٍ أو مغربِ (١)
القوا بجانبها العصيَّ وعوّلوا فيها على ملكٍ أغرَّ مهذّبِ
ملكٌ له في كل يوم كريهةٍ اقدامُ ليثٍ واعتزامُ مجرّبِ
وتراهُ في ظلم الوغى فتخالهُ قمراً يشدُّ على الرجالِ بكوكبِ (٢)
يا مالكُ ابنَ المالكيّينَ الأُلى ما للمكارمِ عنهمُ من مذهبِ
اني أتيتكَ طالباً فبسطتَ منْ أملي وأطلبَ جودُ كفك مطلبي (٣)
وغدوتَ خيرَ حياطةٍ مني على نفسي وأرأفَ بي هنالك من أبي
أعطيتني حتى حسبت جزيل ما أعطيتنيهِ وديعةً لم توهَبِ
فشبعتُ من برٍّ لديك ونائلٍ ورويتُ من أهلٍ لديكَ ومرحبِ
قومٌ اذا قيلَ النجاءُ فما لهم غيرُ الحفائظِ والرّدى من مهربِ (٤)
يمشونَ تحت ظبى السيوفِ الى الرّدى مشيَ العطاش الى برودِ المشربِ
يتراكمون على الاسنّة في الوغى كالصبحِ فاض على نجوم الغيهبِ
ينسيكَ جودَ الغيثِ جودهمُ اذا عثرتْ أكفُّهمُ بعامٍ مجدبِ
حتى لو انَّ الجودَ خُيّرَ في الورى نسباً لأصبح ينتمي في تغلبِ

---

(١) اي هو وطن او مقصد الوافدين من شتى الامصار

(٢) وتراه وسط غبار الحرب مشرقاً كالقمر وهو ينقضّ على الرجال بسيف او رمح متألق كالكوكب (٣) اطلبه اي اعطاه ما طلب

(٤) يريد بذلك قوم الممدوح بني تغلب . النجاء الهرب

ابن الرومي

ابو الحسن علي بن العباس

٢٢١ هـ — ٢٨٣ هـ

٨٣٧ م — ٨٩٩ م

مصادر دراسته — منشأه وطرف من سيرته — ممدوحوه

عقليته واخلاقه — فنه ومزاياه الشعرية

مصادر دراسة

الفهرست (المانيا) ١٦٥

العمدة لابن رشيق ج ١ — ٤٠و٤٢ و١٩٤

ج ٢ — ١٣٦ و ١٤٠ و ١٨٤ — ١٨٥ و١٩٠

زهر الآداب للحصري ج ١ — ٢٣٢ ذكر عمامته

٢٤٨ عتابه لابي الصقر

ج ٢ — ١٧١ ، ١٧٧ ، ١٧٨ تطيره وخوفه من ركوب البحر

ج ٢ — ٩ نهمه

ج ٣ — ٩٩و١٠٢ داره وحنينه للوطن

〃 〃 ١٠٥ مواليه

ج ٤ ٤١ تسليه عن الهموم

وفيات الاعيان ١— ٤٩٩

شرح شواهد التلخيص للعباسي ص ٣٨ — ٤٢

وقد ذكر المعري في رسالة الغفران شيئاً عن تشيعه وذكره الجرجاني في الوساطة ص٥٠ وصفحات اخرى

ومن المراجع الحديثة غير دوائر المعارف وغير كتب التاريخ الادبي العامة

مختارات ابن الرومي (للكيلاني)

〃 (للبارودي)

ديوان ابن الرومي ج ١ طبع محمد شريف سليم

حصاد الهشيم للمازني ٢٩٩ — ٤٢٧

ابن الرومي للعقاد وهو احدث واوفى ما كتب عنه

منشأه وطرف من سيرته

نشأ ابن الرومي في بغداد، وليس في شعره ما يدل على انه تركها طويلًا او جاب الاقطار، كما فعل ابو تمام والمتنبي وسواهما من الشعراء. ويستدل من بعض اخباره انه سافر مرة الى سامرّا وطال مقامه فيها، [1] فكان يتشوق الى ايام بغداد كقوله —

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ولبست ثوب العيش وهو جديد
فاذا تمثّل في الضمير رايته وعليه اغصان الشباب تميد

والارجح انه قصدها — وكانت يومئذ دار الخلافة — طلباً للرزق ولكنه لم يوفّق في طلبه فملّها، وحمل على الغربة وطلب المال فقال

وفيم اجتهادي في محاولة الغنى وما للغنى عند الجواد به قدر
وما انا الأ محرزُ المجد والعلى وذلك كنزي لا اللّجين ولا التِبر
وان يقضِ لي الله الرجوع فانه عليّ له ان لا افارقكم نذر
ولا ابتغي عنكم شخوصاً ورحلة يدَ الدهر، الا ان يفرّقنا الدهر

فلم يكن لشاعرنا تلك الطبيعة المغامرة المجازفة في سبيل الحصول على الاماني. وقد ترك لنا في ذلك قصيدة عصماء وصف فيها اهوال السفر براً وبحراً، وسنتناولها في غير هذا المقام.

وهو كما يتضح من لقبه ونسبه رومي الاصل واسم جدّه جريج الرومي (او جورجيوس)[2]. ولا نعلم عن اسرته شيئاً يذكر، الا ان في بعض شعره تلميحاً الى ان امه فارسية الاصل كقوله

كيف اغضي على الدنيّة والفرس خؤولي والروم اعمامي

وكان جده، كما ذكر ابن خلكان، مولى عبيد الله بن عيسى بن جعفر المنصور فنشأ والده، كما يستدل من اسمه، مسلما وولد صاحب الترجمة كذلك، وتثقف في بيئة اسلامية محضة. ولم يتصل بنا ان والده كان يتكلم الرومية او يعرفها، او انه هو عرفها، على

---

(١) زهر الآداب ج ٣ — ١٠٠

(٢) معجم الادباء ج ٦—٤٧٤ تحت سيرة محمد بن حبيب

اننا لا نشك في انه كان يعرف نسبه الى اليونان ويفخر به احياناً ، كقوله من قصيدة في ابي سهل النوبختي

ونحن بنو اليونان قوم لنا حجاً   ومجد وعيدانٌ صلاب المعاجم
وما تتراءى في المرايا وجوهنا   بلى في صفاح المرهفات الصوارم

وقوله من قصيدة يذكر فيها بني العباس

انا منهمُ بقضاء من خُتمت   رُسل الاله به وهم اهلي
مولاهمُ وغـذيُّ نعمتهم   والروم — حين تنصُّني — اصلي

وقوله في رجل طعن بشعره والظاهر انه وصمه بروميته

قد تحسن الروم شعرا   ما احسنته عُرَيب
يا منكر المجد فيهم   اليس منهم صُهَيب

ويظهر ان شاعرنا لم يكن موفّقاً في حياته العائلية فقد مات والده على الارجح وهو صغير ، ولم يبق له غير اخ اكبر كان يعوّل عليه في الشدائد . على ان هذا توفي والشاعر لم يتجاوز الثلاثين كثيرا . وقد فقد ابناءه الثلاثة وزوجته فجزع عليهم جدا ، وكان لفقدهم تاثير عميق في نفسه . وليس من الغريب ان يكون قد تزوج ثانية وهو شيخ كما يرّجح الاستاذ العقاد[1] ، على اننا لا نعلم شيئاً عن امر هذا الزواج

حالة ممدوحيه

ولد ابن الرومي على رواية ابن خلكان سنة ٢٢١ ﻫ ، فلم يدرك المعتصم والواثق الاّ صبياً صغيراً . وقد ادرك سن البلوغ في زمن المتوكل ، وعاش الى خلافة المعتضد . ومع كل ذلك لا نرى في شعره ما يدل على تقربه من الخلفاء والحظوة عند الامراء . فاذا قابلناه بزميله البحتري (الذي ولد قبله بنحو ١٥ سنة) نرى ان هذا مدح خلفاء زمانه ، ولا سيما المتوكل والمعتز ، بعشرات من القصائد ونال جوائزهم ، ومدح ما يقارب المئة من كبار الوزراء والقادة ، وحصَّل من ذلك مالاً وجاهاً . امـا ابن الرومي فليس لهُ شيء يذكر في الخلفاء . ولعل السبب انه لم يدرك منهم غير المستضعفين كالمستعين والمعتز والمهتدي

(١) راجع ابن الرومي للعقاد ص ٩٠

والمعتمد ، وكلهم قتل او خلع او حكم وليس له من الامر شيء . على اننا لا نجزم في ذلك لخاله في ذلك حال البحتري، وان يكن هذا ادرك المتوكل والخلافة لم تزل في رونقها

وقد عاش ابن الرومي اربع سنوات في خلافة المعتضد ولهُ فيه بعض المديح . اما رجال الدولة الذين اتصل بهم فجُلّهم من الاعاجم ، وقد مرّ بنا ما كان لهم من النفوذ في الخلافة العباسية ، واليك اهمّ ممدوحيه –

اسمعيل بن بلبل

كان من وزراء المعتمد وجمع لهُ السيف والقلم . وهو يرفع نسبه الى بني شيبان ويفاخر بذلك على ان بعضاً غمزوه وقالوا هو دعيّ[1] . وكان مادحوه كالبحتري وابن الرومي يذكرون نسبه الشيباني بالتمجيد والتعظيم ، على ان ابن الرومي انقلب عليه وصار يلقبه بالدعيّ كقوله

عجبت من معشر بعقوتنا	باتوا نبيطا واصبحوا عربا
مثل ابي الصقر انَّ فيه وفي	دعواه شيبان آية عجبا

آل طاهر

وقد مرَّ معنا ذكرهم في الكلام عن ابي تمام والبحتري ، وهم من الفرس : كانوا من كبار رجال الدولة وقد تقلبوا منذ ايام المامون في اعلى مراتبها . واخص ممدوحي ابن الرومي منهم عبيدالله بن عبدالله واخوه محمد بن عبدالله امير بغداد

آل وهب

وزعيمهم في ايام الشاعر القاسم بن عبيدالله : كان على ما نقله صاحب الفخري من دهاة العالم ومن افاضل الوزراء ، وكان شهماً كريماً مهيباً جباراً . وقد لزمه ابن الرومي ومدح آله وعلى يده قتل

---

(١) الفخري ١٨٧

آل المنجم

وهم من الفرس وقد مدح شاعرنا منهم علي بن يحيى . وكان ابوه مولى المامون واتصل بالفضل بن سهل، واتصل علي بن يحيى بمحمد بن اسحق المصعبي ثم بالفتح بن خاقان وعمل لهُ خزانة حكمة[1] . وآل المنجم من علماء الفلك الذين كان يشار اليهم بالبنان

. . .

ومن ممدوحيه احمد بن ثوابة وآل المدبر والقاضي يوسف وآل مخلد وآل نوبخت وابو القاسم التوزي وآل شيخ والباقطاني ، ومعظمهم من اصحاب النفوذ والوجاهة . على ان ابن الرومي لم يحظَ بشعره فلم يكن ميسور الحال . وفي شعره ما يدل على ذلك ، فهو كثير التبرم من الزمان وسوء الحال وقلة ثواب الممدوحين كقوله —

تأمل العيبِ عيبُ وليس في الحق ريبُ
إن يمسك الناس عني سيباً فللّه سيبُ

وقوله

ذقت الطعوم فما التذذت براحة من صحبة الاخيار والاشرار
امّا الصديق فلا احب لقاءَه حذر القلى وكراهة الاعوار
وارى العدوّ قذىً فاكره قربه فهجرت هذا الخلق عن اعذار

ولكن ابن الرومي لم يهجر الدنيا وملذاتها ولم يبتعد عن الناس وعطاياهم ، بل بعكس ذلك كان يتهافت على ما في الحياة مما يشبع شهوات نفسه، ويسرف في ذلك كل الاسراف . وكان يرمي بنفسه على ابواب الكبراء والوجهاء طالباً رفدهم ، ممنياً نفسه بالحظوة عندهم . ومع كل ذلك تراه في شعره محروماً ناقماً ، او ساخراً عابثاً ، ليس له من منزلة توجب احترامه ، او صداقة تشفي اوامه . ولماذا ؟ لان في طبعه كما يستدل من شعره ما كان ينفره من الناس وينفر الناس منه . — هذا الطبع هو الذي جنى عليه والزمه حالة الحاجة والخمول . وقد اصاب في وصف نفسه اذ قال

اسخطت اخواني واخفق مطمعي فبقيت بين الدُّور والابواب

وبينا ترى زملاءَه من كبار الشعراء قد فاض كسبهم تراه وهو في الخمسين من عمره يشكو الزمان بقصيدة رفعها الى اسمعيل بن بلبل وفيها يقول

(١) الفهرست ١٦٣

ويح القوافي ما لها سفسفت حظّي كاني كنت سفسفتها
انحتْ على حظّي ببراتهـا شكراً لاني كنت ارهفتها
او كثَّفت دون الغنى سدَّها حتى كاني كنت كثَّفتها
حُرمتُ في سنّي وفي ميعتي قراي من دنيا تضيَّفتها
فكّرت في خمسين عاماً خلت كانت امامي ثم خلّفتها
لا عذر لي في اسفي بعـدها على العطايا — عفتُهـا عفتها

والقصيدة طويلة واكثرها على هذا النمط . ومثلها قصيدة يعاتب فيها صديقاً ومنها تتبين شيئاً من حاله ونظر اخوانه اليه — قال

ايها الحاسدي على صحبتي العسر وذمي الزمان والاخوانا
ليت شعري ماذا حسدت عليه ايهـا الظالمي اخائي عيانا
اعلى انني ظمئت واضحى كلُّ من كان صادياً ريّانا
ام على انني امشّى حسيراً وارى الناس كلهم ركبانا
ام على انني ثكلت شقيقي وعدمت الثراء والاوطانا

والبيت الاخير يشير الى فقده لاخيه الاكبر الذي كان يعطف عليه ، والى دار وعقار تركهما والده فاضاعهما[1] . ومما يدلك على سوء حاله بالنسبة الى زمـلائه قوله لمن عاب قريضه —

أبعدَ ما اقتطعوا الاموال واتخذوا حدائقاً وكروماً ذات تعريش
يحاسدوني وبيتي بيت مسكنة قد عشّش الفقر فيه اي تعشيش

وكيفما قلبت ديوانه تجد هذه النفثات الناضحة بروح التبرم والغيظ والالم . واذا رجعت الى حكمه التي هي عنوان عقله المفكر رايت اساسها تاثير بيئته فيه . فقد ترك شاعرنا كثيراً من الابيات الحكمية ومعظمها يدور على ما يلي —

قباحة البخل وجمال الثواب راجع مختارات ابن الرومي (للكيلاني) ١٠٦
عدم منفعة الاخوان « « « « ١٠٧
نكد الزمان « « « «

(١) وفي بعض قصائده اشارة الى دار له غصبت منه ، وفيها ما يشير الى سوء حاله في اواخر ايامه كالتي مطلعها — لا زلت تبلغ اقصى السوءل والامل

الموضوع	المرجع	الصفحة
غرور الشباب	راجع مختارات ابن الرومي (للكيلاني)	٢٦
وجوب الحزم	〃 〃 〃 〃	٧١
نفع الشدائد	〃 〃 〃 〃	٢٠٢
الحظ	〃 〃 〃 〃	١٠٩،٩٤
الملل من الناس	〃 〃 〃 〃	٩٦
عدم المبالاة	〃 〃 〃 〃	١٠٣
فساد الذوق	〃 〃 〃	٣٩٧
الوشاة	〃 〃 〃	٤٠٥
عدم التغرب	〃 〃 〃	٤٤١،٣٧٧
الصبر	〃 〃 〃	٣١٦

الى غير ذلك من الاغراض التي تشير الى ما كان يشعر به من وطأة الزمان ، وما كان يختلج في نفسه المنفعلة من تاثير الحرمان

عقليته واثرها في شعره

لابن الرومي مع فرط ادبه وتوقد قريحته عقلية غريبة . فهو في حال سكينته واطمئنانه لبيب مفكر يأتيك بالحكم والاقوال الساحرة ، ولكنه عصبي المزاج شديد الانفعال : فاذا هاجه هائج اضاع لبَّه واندفع على وجهه لا يبالي ، حتى في معاتباته لكبار الرجال تجده مرًّا اليم اللسان . ويتجلى لك مزاجه العصبي في قوله يعاتب اسمعيل بن نوبخت (وهو احد ممدوحيه) يوازن اولاً بين نفسه وسواه من الشعراء فيصفهم بالجيف النتنة والغثاء الطافي على وجه اليم ، وانه احق منهم ببلوغ الاماني . ثم يخاطب اسمعيل فيقول —

واجبي ان ارى جوابيَ عتباك   فلا تجعل السكوت جوابي

انَّ في ان تعتَّني بعض اغضابي   وفي ان تهينني اغضابي

كنت تأتي الجميل ثم تنكرت   فعاتبتُ مُجملًا في العتاب

فائتنف توبة وراجع فعالاً   ترتضيه الاسلاف للاعقاب

ومثل ذلك قصيدة يعاتب بها اسمعيل بن بلبل وقد شعر بشيء من الجفاء منه : قال فيها

فما لعطاياك اضحت حمىً   عليَّ واضحت لغيري نهابا

قبلتَ مديحي وانشدته انساً وامسكت عني الثوابا
فلله انت وما جئتـه اليّ لقد جئت شيئاً عجابا
اتهتـك ستري عن خلّتي وتغلق دون عطـاياك بابا
حلفت لـئن انت لم ترضني لتنصرفنّ القوافي غضابا

واقلُ ما يقال في هذا العتاب انه تهديد ، وان صاحبه ممن اذا غضبوا لا ينظرون الى العواقب. ويجوز لنا ان نقول ان ما عرف به ابن الرومي من الهجاء هو اثر من تلك الطبيعة الشديدة الانفعال التي يخرج بها الانسان احياناً عن طور الرشاد . ومن هنا هذه الجرأة في مهاجمة الاعيان والحكام وهذا الاقذاع في الطعن بالمناوئين ، مما كان – على ما يعتقد ابن رشيق – سبباً في هلاكه (١).

وقد غالى بعضهم في هجاء ابن الرومي وجعلوه فناً من فنون الشعر ، وهو كذلك لو اقتصر فيه الشاعر على تصوير المساوىء الشخصية او الاجتماعية ، وعرضها بقالب يثير في النفس كراهية تلك المساوىء. ولكن شعرنا العربي الهجائي في كل اطواره لم يصل الى تلك الدرجة الراقية الا نادراً . فالهجاء الفني يقتضي امرين الفكاهة او الدعابة ، وحسن التصوير الاول يرفعه عن الخشونة والاقذاع ، والثاني يضعه في صف الفنون الجميلة. وانك لترى في بعض الهجاء العربي شيئاً من ذلك ، ولكن اكثره من قبيل الطعن الشخصي الذي يراد به الحط من كرامة الشخص او كرامة اهله ، لا لقصد اصلاحي بل تشفياً او تفاخراً . هكذا كانت نقائض جرير والاخطل والفرزدق ، وعلى هذا النمط جرى اكثر الهجائين عند العرب. ولم يشذ ابن الرومي عن هذه القاعدة – قال ابن رشيق وقد غلب عليه الهجاء حتى شهر به وحتى صار يقال اهجى من ابن الرومي ، وليس هجاء ابن الرومي باجود من مدحه ولا اكثر ولكن قليل الشر كثير (٢).

ولا ينكر ان في هجاء صاحبنا شيئاً من الدعابة وحسن التصوير ، ولكن معظمه فاحش لا يرتفع الى ما نسميه فناً ادبياً.

ومن دلائل ضعفه العصبي اعتقاده بالطِّيَرَة : كان يتشاءم من بعض الالفاظ او الحوادث ، وكان لهذا الطبع اثر شديد في تصرفه مما جعله سخرية في اعين العقلاء . ولا نستطيع ان نعلل هذه الظاهرة العقلية التي تضعف ارادة الانسان وتحملها على ربط الحوادث بغير اسبابها

---

(١) العمدة ١ – ٤٣ (٢) العمدة ج ١ – ١٩٤

الا بقولنا ان صاحبها شاذ في عقليته وان في جهازه العصبي ضعفاً خاصاً . وقد تناول ابو العلاء المعري تطيّر ابن الرومي في رسالة الغفران وانتقده ، ولم يتعدَّ دائرة الصواب اذ قال عنه « ان ادبه اكثر من عقله »

وقال ابن رشيق كان ابن الرومي كثير الطيرة ربما اقام المدة الطويلة لا يتصرّف تطيُّراً بسوء ما يراه او يسمعه ، حتى ان بعض اخوانه من الامراء افتقده فأعلم بحاله في الطيرة ، فبعث اليه خادماً اسمه اقبال ليتفاءل به . فلما اخذ اهبته للركوب قال للخادم انصرف الى مولاك فانت ناقص ، ومنكوس اسمك لابقا . وابن الرومي هو القائل : الفأل لسان الزمان والطيرة عنوان الحدثان ، وله فيه احتجاجات وشعر كثير[1] . من ذلك قصيدة قالها وهو في السابعة والخمسين وقد رأى عجوزاً في احدى عينيها نكتة وجارية حولاء ، فتطيّر من ذلك . واتفق بعد مدة يسيرة ان جفاه القاسم بن عبيدالله ، وسقطت ابنة لبعض اصدقائه من بعض السطوح فماتت ، فكتب الى صديقه قصيدة يقول فيها

لا تهاوِنْ بطيرة ايها النظّار واعلم بانها عنوان
قف اذا طيرة تلقّتك وانظر واستمع ثَمَّ ما يقول الزمان
فتحك المِهرجان بالحول والعور ارانا ما اعقب المهرجان
كان من ذاك فقد ابنتك الحرّة مصبوغة بها الاكفان
وتجافي مؤمَّلٍ لي خليل لجَّ منه الجفاء والهجران

عقلية كهذه لا تستطيع ربط الاسباب بمسبباتها ، بل تميل الى الوهم والذعر لا ينتظر ان يكون صاحبها ذا اقدام وعزيمة صادقة . وبرغم ما نقرأه في شعر ابن الرومي من ذكر المجد والعلى فانه لم يتعدَّ في ذلك حد الكلام. كان ذا موهبة شعرية حادة مقرونة بضعف عصبي حاد ، وقد تولد من امتزاجهما ذلك الخوف الصبياني وتلك الغيرة الشاذة التي كانت توهمه انه فوق العالمين ، وانه جدير بكل اكرام وتعظيم ، وان من لا يكرمه فقد نقص قدره وحق عليه ان يهجوه ويحط من كرامته ايًّا كان ومهما كانت منزلته . واننا لنوافق الاستاذ العقاد في ان شاعرنا كان حسن النية رقيق القلب لم يخلق شريراً مطوياً على الشكس والعداوة »[2] ، ولكن الرجل كان على ما يظهر يجمع في نفسه نقائض من الاخلاق فهو

---

(١) العمدة ١ – ٤٠ و ج ٢ – ١٣٦
(٢) ابن الرومي للعقاد ٢٢٣

مسالم شديد العداء ، رقيق القلب اليم البغض ، وفيّ ساخر ، شجاع جبان ، الى آخر هذه الصفات الغريبة التي يقف المنتقد الاخلاقي لديها حائراً ، والتي لا يمكن لنا الا ان نعزوها الى اختلال في جهازه العصبي جعله غريب الاطوار شاذ الاخلاق ، ميالاً الى الاسراف في كل شيء .

ومن ظواهر اسرافه نهمه في المآكل والمشارب ، حتى ان الحصري يعزو موته الى شدة نهمه[1] . ولا شك ان ما تجده في شعره من كثرة وصفه لاصناف الطعام والشراب راجع الى هذا الميل فيه . واليك وصفه لالذّ الملذات عنده .

يا سائلي عن مجمع اللـذات ساءلت عنه انعت النعاّت
خـذ يا مريدَ المآكل اللذيذ جرداقتَي خبز من السميذ
لم تر عين ناظر مثليهما فقشَّر الحرفين عن وجهيهما

ثم يصف ما يضاف الى ذلك من لحم فرّوج ولوز وجبن وبيض ونعنع وملح وكيفية تحضيرها وطبخها ويختم القصيدة بقوله

ومتِّع العـين به مليًا واطبق الخـبز به هنيًا
املأ ثناياك واكدم كدما تسرع فيما قد بنيت هـدما
لهفي عليهـا وانا الزعيم بمعدة شيطانهـا رجيم

وكثيراً ما كان يدفعه نهمه الى ذم رمضان والصيام لما فيهما من كبح الشهوات والملذات كقوله

اذا برّكت في صوم لقوم دعوت لهم بتطويل العذاب
وما التبريك في شهر طويل يطاول يومه يوم الحساب
فليت الليل فيـه كان شهراً ومرّ نهاره مرَّ السحاب
فلا اهلاً بمانع كل خـير واهـلًا بالطعام وبالشراب

وقوله من قصيدة —

شهر يصدُّ المرء عن مشروبه مما يحـلُّ له وعن مأكوله
لا استثيب على قبول صيامه حسبي تصرُّمه ثواب قبوله

(١) زهر الآداب ٢—٩

وله في الخمر شيء كثير ، وكان من مدمنيها المتسلين بها عن الهموم حتى في ايام مشيبه كقوله

ساعرض عمن اعرض الدهر دونه واشربها صرفاً وان لام لوَّم
فاني رايت الكاس اكرم خلَّةٍ وفت لي وراسي بالمشيب معمَّم
ومَن صارمَ اللذَّات ان حان بعضها ليرغم دهراً ساءه فهو ارغم

وقال من قصيدة بعث بها الى زميله ابن المسيِّب

ادركْ ثقاتك انهم وقعوا في نرجس معه ابنة العنب
فهمُ بحال لو بصرت بها سبَّحت من عجب ومن عجب
ريحانهم ذهب على درر وشرابهم درر على ذهب

ثم يصف مجلسهم في الروضة الغناء ويطلب اليه القدوم ليتم انسهم به . ومن خمرياته قوله يصف الخمر ويصف حسناء تشرب

ومدامة كحُشاشة النفس لطفت عن الادراك باللمس
لنسيمها في قلب شاربها روح الرجاء وراحة اليأس
وتمدُّ في امل ابن نشوتها حتى يؤمِّل مرجع الامس
ومهفهف كملت محاسنه حتى تجاوز منية النفس
ابصرته والكأس بين فم منه وبين انامل خمس
فكأنها وكأن شاربها قمر يقبِّل عارض الشمس

واليك هذه المداعبة الساخرة التي تذكرنا بشعر ابي نواس

احلَّ العراقيُّ النبيذ وشربه وقال « الحرامان المدامة والسكر »
وقال الحجازيُّ الشرابان واحد فحلَّت لنا بين اختلافهما الخمر
سآخذ من قوليهما طرفيهما واشربها لافارق الوازرَ الوِزر

وفي ديوانه كما ذكرنا آنفاً شعر كثير في الخمر وانواع الماكل . فاذا قرنت ذلك الى الى ولعه بالشباب ، وشغفه بكل ما يقدمه من اطايب الحياة — كما سترى في قصائده التي يصف بها الشيب باكيا ايام الشباب ، نادباً اوقات اللهو والملذات — تعرف ما كان في نفس شاعرنا من نهم باللذائذ الطبيعية ، وكيف كان مفتوناً بما تُقدمه لحواسه من نشوة جسدية ومن الانصاف ان نقول ان شاعرنا لم يكن فريداً بين شعراء العرب في ذلك فمثله

كان ابو نواس واضرابه ، ومثله كثيرون من محبي الحياة الدنيا في كل عصر . على ان له على ما يظهر منزلة خاصة : فهو شغوف بالحياة لاجل الحياة — يحب ان يعيش وان يعيش قوياً ليتمتع بجمالها واطايبها ، وقد وهبته الطبيعة حساً دقيقاً فكان يرى فيها ادق الالوان واخفى الاصوات والحركات . ولعل شعوره بالحرمان وبسوء الحال كان يزيد فيه هذا الشغف وهذه الشهوة الحيوانية القوية : نقول الشهوة الحيوانيـة لاننا لا نرى في شعره ما يدل على غير ذلك — لا نرى فيه ذلك الميل الى الباس الطبيعة حلة روحانية ترتفع به عن التمتع باللذة . فالمرأة والخمرة والطعام والربيع والشباب والرياض كلها في نظره ادوات للسرور ووسائل للتمتع ، وبقدر ما يستطيع الانسان ان يستخدمها يكون حظه في الحياة .

شعره وشاعريته

قال ابن خلكان « هو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب يغوص على المعـاني النادرة فيستخرجها من مكامنها ويبرزها في احسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه الى آخره ولا يبقي فيه بقية »[1] . وقد سبقه ابن رشيق فقال « وكان ابن الرومي ضنيناً بالمعاني حريصاً عليها يأخذ المعنى الواحد ويولّده ، فلا يزال يقلّبه ظهراً لبطن ويصرّفه في كل وجه والى كل ناحية ، حتى يميته ويعلم انه لا مطمع منه لاحد »[2] .

ومع علو كعبه في الشعر لم يذكره صاحب الاغاني ولا ياقوت ولا الانباري ، وقد خصه ابن النديم في الفهرست بكلمة وجيزة ذكر فيها ان شعره كان على غير الحروف رواه عنه المسيّبي ثم عمله الصولي على الحروف ، وجمعه ابو الطيب ورّاق بن عبدوس من جميع النسخ[3] . وتابعه ابن خلكان في ذلك ولكنه جعل راويته المتنبي لا المسيبي[4] وهو على ما يتراءى لنا خطأ نسخي فان المتنبي ولد بعـد موت ابن الرومي بعشرين سنة فلا يصح ان يقال انه رواه عنه ، ولم ينتبه الى هذا الخطأ اكثر المؤرخين والمتأدبين الحديثـين فنقلوا كلام ابن خلكان على علاته .

ويميل نقاد العصر الى القول بالوحدة في قصائد ابن الرومي كقولهم « فقصيدته قطعـة مؤلفة تاليفاً منطقياً فنياً لا عوج فيها ولا ضعف ولا ميل الى الاستطراد »[5] ، او كقولهم

---

(١) وفيات الاعيان ١—٤٩٩ (٢) العمدة ٢—١٨٥

(٣) الفهرست ١٦٥ (٤) كما في الطبعة الميرية (٥) المجمل ١٣٨

« نخالف ابن الرومي هذه السنّة (اي سنة الذين جعلوا البيت وحدة النظم) وجعل القصيدة كلاً واحداً لا يتم بغير تمام المعنى الذي اراده على النحو الذي نحاه . فقصائده موضوعات كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الاغراض ، ولا تنتهي حتى ينتهي مؤدّاها »(١)

والذين يقولون بالوحدة يجعلون اساسها طبيعة شاعرنا اليونانية ، واختلافها في الاسترسال والتوحيد عن الطبيعة العربية . والمدقق في درس شعره يجد هذا الحكم العام صحيحاً في بعض قطع خاصة ، او بعض اجزاء من القصائد لا في القصائد عموماً ، كوصفه للمشيب او للحزن او لمشقة السفر او للمهارة في لعب الشطرنج وما شاكل . وليس من الضروري ان يكون ذلك راجعاً الى « يونانية » تميزه عن سائر الشعراء ، ففي الشعر العربي قديماً وحديثاً امثلة كثيرة على اتصال الفكر في قطع تطول او تقصر بالنسبة الى الاحوال . خذ قصيدة عمر بن ابي ربيعة «امن آل نعم» ، او مرثاة ابي ذؤيب « أمن المنون» ، او وصف الايوان للبحتري ، او وليمة ابن الواساني : بل خذ كثيراً من خمريات ابي نواس وما اشبهها من الكلام المتصل الفكر الذي تجده في كل الاعصر الادبية ، ولا سيا في عصرنا الحاضر ، تجد ان ابن الرومي لم ينفرد في ذلك ، وليس في شعره ما يدفعنا الى القول بطبيعة تخالف طبائع معاصريه . واليك مثلاً قصيدته في علي بن يحيى المنجم ومطلعها

شاب رأسي ولات حين مشيب وعجيب الزمان غير عجيب

فهي ١١٧ بيتاً . منها ثلاثون في وصف المشيب والخضاب ونظر الغواني اليهما ، وبقية القصيدة في الممدوح يعدد فضائله من كرم ودهاء وسمو وشجاعة وما شاكل من المناقب الرفيعة . واذا درستها لا تراها تختلف عن مدائح عصره من حيث الاسلوب والتفنن في ضروب الوصف والمدح ، بل تستطيع ان تقتطع منها ما شئت من الابيات وتبقى القصيدة تامة المعنى . وما يصدق على هذه القصيدة يصدق على قصيدته في عبيدالله بن طاهر التي مطلعها

صبا من شباب مفرقه تصابي وان طلب الصبا والقلب صاب

وهي ١٧٥ بيتاً خصص منها نحو ٧٠ بيتاً للشيب وتذكارات الشباب ، وساق الباقي في مدح الممدوح على الطريقة المتبعة عند الشعراء . وكذلك القصيدة التي يهنئه فيها بعيد المهرجان وهي تقرب من ١٣٠ بيتاً وتختلف بين وصف يوم العيد وتعداد فضائل الممدوح

(١) ابن الرومي للعقاد ٣٠٨

وآله ، وغير ذلك من سائر مطوّلاته كمرثاته لابي الحسين يحيى بن عمر العلوي وهي ١٠٩ ابيات ومطلعها

امامك فانظر ايَّ نهجيك تنهج   طريقان شتى مستقيم واعوج

وقصيدته في احمد بن ثوابة—دع اللوم ان اللوم عون النوائب — وهي ١٨٢ بيتاً ، ورثاؤه لاهل البصره — ذاد عن مقلتي لذيذ المنام — وهو ٨٣ بيتاً ، وعتابه لابي القاسم التوزي — يا اخي اين ريع ذاك اللقاء — في ١٦٨ بيتاً ، وقصيدته في القاسم بن عبيدالله —ايها القاسم القسيم رواء—وتبلغ٢١٦ بيتاً—، وغير ذلك من عيون قصائده. في كل هذه القصائد تجد بعض القطع التي تستقل بوحدة فكرية ولكنك لا تجد القصائد عموماً تختلف عن امثالها في دواوين الشعراء، لا من حيث استقلال الابيات، ولا من حيث اتساق الافكار. ولا نرى علمياً ما يؤيد القول بتأثير النزعة اليونانية في ادبه. وقد حاول الاستاذ العقاد ان يجمع بين النظرين فجعل العبقرية اليونانية فيه ادبية لا نسبية، او كما قال «انها كلمة مفهومة في لغة الاداب وان لم تكن مفهومة في لغة الانساب»[1]

مزاياه الفنية

وانما يمتاز شعره بما يلي —

١ — طول النفس مع المحافظة على السلاسة عموماً

٢ — استيفاء المعنى وتقصِي كل ما يقال فيه

٣ — دقة الاحساس بالمؤثرات الطبيعية

٤ — ميله الى تشخيص ما لا يعقل

اما طول النفس فقد اشرنا اليه سابقاً ، ونزيد به مقدرة الشاعر على الاسهاب في النسج دون تعب او تكلف ظاهر. فانك لا ترى لشاعر عربي ما تراه لابن الرومي من كثرة المطوَّلات التي تتجاوز المئة والمئة والخمسين بيتاً ، واكثرها حسن السبك كثير الالوان المعنوية. وبديهي ان تجد في مطولات كهذه بعض الحشو والتكرار وشيئاً من السفسفة ، ولكنها عموماً تدل على غزارة مادته اللغوية وعلى مهارته في استخدام الالفاظ لمعانيه . فهو فيَّاض كثير الاطناب والمراجعة بعيد المدى في ميدان النظم، ولكنه لا يصل الى آخر مداه

(١) ابن الرومي للعقاد ٣٠١—٣٠٢

منهوكاً مقطوع النفس،ولا تشعر في شعره بتكلف مضنٍ او جهاد عنيف

على ان الاطالة لا تؤمن احياناً ، فقد تضطر صاحبها الى استعمال غرائب الصيغ والالفاظ محافظة على وزن او معنى ، ولا سيما اذا كان واسع الاطلاع في اللغة كشاعرنا ابن الرومي. واثباتاً لذلك نذكر هنا بعض ما اخترنا من غرائب ديوانه مع الاشارة الى مواطن كل لفظة ليسهل الرجوع اليها ، وليس الذي نثبته هنا الا قليلًا من كثير مما يرد في ديوانه

موز جرَهي ديوان ابن الرومي لشريف حسن ج ١ — ١١
حظي دون اللفاء (الخسيس) 〃 〃 〃 ٢٧
مريغو نداه (طالبوه) 〃 〃 〃 〃 ١١٠
لازب الجرب (لازم العيب) 〃 〃 〃 〃 ٢٠٢
خمر ثِلب (قديمة) 〃 〃 〃 〃 ٢٣٧
كوب وذباذب (اضطرابات) 〃 〃 〃 〃 ٢٩٤
مقفعلّ الرواجب (متشنج الاصابع) 〃 〃 〃 ٢٧٥
نعمة ترتُب (مقيمة) 〃 〃 〃 〃 ٣١٧
مرث (حليم) 〃 〃 〃 〃 ٣٢١
عسل اللصاب (عسل الجبال) 〃 〃 〃 〃 ٣٧٨
القفد (صفع القفا) 〃 〃 〃 〃 ٤١٠
السخاب (القلادة) 〃 〃 〃 〃 ٤٤٥
شتيم الوجه (كريهه) مختارات الكيلاني 〃 ٥٨
يومان ارونان (عصيبان) 〃 〃 〃 〃 ٨٥
للدهر منجنون (دولاب) 〃 〃 〃 〃 ١٢٠
اكفّ ضوابث (نواشب) 〃 〃 〃 〃 ١٧١
الزوش (العبد) 〃 〃 〃 〃 ٢٠٤
ارى خشله معوي (رديئه كحسني) — 〃 〃 ٢٢٠
البك الالب (جمعك المحتشد) 〃 〃 〃 〃 ٢٥١
ابريق ردوم (سائل) 〃 〃 〃 〃 ٣٩١
كدنتي تتخدد (سمني يهزل) 〃 〃 〃 〃 ٣٩٢
هل من عندد (اي بد) 〃 〃 〃 〃 ٣٩٣

ويكثر في مطولاته الروابط الكلامية ، ياتي بها ليربط ما تقدم بما تأخر ، ولا يستحسن ذلك في الشعر . ومن هذه الروابط ما يلي —

مع انه — لم لا — لا سيما — بل — كيما — غير ان — وظني انه — لذاك هذا — على انني — مع — واعلم — هكذا — برهان ذلك — وذاك ان — الخ[1]

. . .

ومع تمكن ابن الرومي من شوارد اللغة لا يأنف احياناً من استعمال بعض الالفاظ الاعجمية . وهي ان جاز استعمالها في المباحث العلمية لا تستحسن في الشعر وما اليه من الكلام الفني ، كاستعماله الالفاظ التالية

آبين — في قوله « اعجمي آبينه عربي » اى عادته ودأبه

شير « « « اعني سليمان الذى في رمسه قمر وشير » وهي الاسد في الفارسية

زرياب[2] « « وتهاويل من سندس ومن زرياب » اي ماء الذهب

الدوشاب[3] « علني احمد من الدوشاب » اي النبيذ الاسود

الكوش « « يا اصلم الكوش هاك ضامنةً جدع انوف وصلم آكواش

والكوش هي الاذن في الفارسية

وامثال ذلك من الالفاظ التي كان يتملّح بها على عادة بعض الشعراء في ذلك الزمان[4]

استيفاء المعنى وتقصي الاغراض

« ياخذ المعنى فلا يزال يعالجه حتى لا يبقى فيه بقية » ذلك رأي ابن خلكان فيه وهو رأي مصيب ، واليك بعض الادلة على ذلك من شعره

١ — في معاتبته لابي القاسم التَّوزي الشطرنجي يذكر هنوات ذلك الصديق ، وان الحاجة كشفت له عنهنّ ، ويجري بينه وبينهن محاورة لطيفة يقول فيها

---

(١) راجع ديوان شريف ج — ١٥١ — ١٦٥ — ١٨٤ — ١٨٥ — ١٨٩ — ٢٥١ — ٢٧٥ — ٣٢٨ — ٣٣٦ — ٣٨٦ — ٤١٩ — ٤٦٢ ومختارات الكيلاني ٨٤ — ٤٧١ — ٤٨٥

(٢و٣) ويجوز استعمال هذين اللفظين اذا اصبحا علماً كالكنياك مثلاً

(٤) البيان والتبيين ١ — ٦١ مثلاً

ليتني ما هتكت عنكنّ ستراً فثويتنّ تحت ذاك الغطاء
قلن—لولا انكشافنا ما تجلّت عنك ظلماء شبهة قتماء
قلت أعجِب بكنّ من كاسفات كاشفات غواشي الظلماء
قد افدتنّني مع الخُبر بالصاحب انْ ربّ كاسف مستضاء
قلن اعجب بمهتدٍ يتمنى انه لم يزل على عمياء
كنت في شبهة فزالت بنا عنك فاوسعتنا من الازراء
وتمنيت ان تكون على الحيرة تحت العماية الطخياء
قلت تالله ليس مثلي من ودّ ضلالاً وحيرة باهتداء
غير اني وددت ستر صديقي بدلاً باستفادة الانباء
قلنَ هذا هوى فعرّج على الحق وخلّ الهوى لقلب هواء
ليس في الحق ان تودّ لخل انه الدهر كامن الادواء
بل من الحق ان تنقّر عنهنّ والاّ فانت كالبعداء
ان بحث الطبيب عن داء ذي الداء لأسّ الشفاء قبل الشفاء
دونك الكشف والعتاب فقوّم بهما كل خلّة عوجاء

وهذه المحاورة تكشف لك عن فن ابن الرومي وميله الى البحث المستفيض وتقصِي كل معنى من الغرض الذي يرمي اليه . وفي هذه القصيدة نفسها يمدح صديقه بالمهارة في الشطرنج فيذهب في الوصف كل مذهب كقوله

غلط الناس لست تلعب بالشطرنج لكن بانفس اللعباء
لك مكر يدبُّ في القوم اخفى من دبيب الغذاء في الاعضاء
او مسير القضاء في ظلَم الغيب الى من يريده بالتواء

وعلى هذا النحو يصف لعبه في نحو عشرين بيتاً يتفنن في معانيها ما شاء ، وكلها شاهد على تدقيقه في اغراضه ومحاولته الوصول الى الغاية منها

٢ — ذكر السفر ومشاقه وما لاقاه من ذلك برّاً وبحراً في قصيدة يمدح بها احمد بن ثوابة وقد اجاد فيها كل الاجادة . واليك شيئاً منها مثالا لما نحن بصدده من تدقيقه وتقصيه قال

اذاقتنيَ الاسفارُ ما كرّه الغنى اليّ واغراني برفض المطالب

ومن نكبة لاقيتها بعد نكبة رهبتُ اعتساف الارض ذات المناقب
وصبري على الاقتار ايسر محملًا عليَّ من التغرير بعد التجارب

ثم يصف ما لاقاه من اهوال البر ابّان الشتاء من مطر وبردُ وثلج وصفاً في غاية الدقة، نذكر منه هنا وصف حاله وقد اضطرّ الى المبيت في خان

فملت الى خان مُرثّ بناؤه مَميلَ غريقِ الثوب لهفان لاغب
فلم الق فيه مستراحاً لمتعب ولا نُزلاً ، ايّان ذاك لساغب ؟
فما زلت في خوف وجوع ووحشة وفي سهر يستغرق الليل واصب
يورّقني سقف كانّي تحته من الوكف تحت المدجنات الهواضب
تراه اذا ما الطين اثقل متنه تصرّ نواحيه صرير الجنادب

وبعد ان يستوفي وصف الخان وهول السفر في الشتاء يصف متاعب القيظ في الصحراء في اثني عشر بيتاً ، ثم يتناول اهوال البحر (يقصد دجلة) اذا هبت الريح وطغت غوارب الماء ، ويحوك ذلك حوكاً دقيقاً في ستة وعشرين بيتاً نذكر منها ثلاثة يرد بها على من لا يرى في دجلة ما يراه المسافر في البحر من خطر او متاعب فيقول —

لدجلة خبٌّ ليس لليمّ انها ترائي بحلم تحته جهل واثب
تطامنُ حتى تطمئنَّ قلوبنا وتغضب من مزح الرياح اللواعب
زلازل موج في غمار زواخر وهوّات خسف في شطوط خوارب
ولليمِّ اعذار بعرض متونه وما فيه من آذيه المتراكب
ولست تراه في الرياح مزلزلا بما فيه الاَّ في الشداد الغوالب

٣ — وصف الشيب وايام الصبا وذلك كثير في ديوانه ، نجتزىء هنا بما جاء منه في قصيدة تبلغ ١٧٥ بيتاً قالها في عبيد الله بن عبدالله بن طاهر وخصص منا نحو سبعين بيتاً في هذا الغرض الخاص . من هذه السبعين ١٩ بيتاً في وصف الشيب ووجوب الترحيب به لانه يبشر بلحاق الماضي كقوله

وقلت مسلِماً للشيب اهلًا بهادي المخطئين الى الصواب
الست مبشِّري في كل يوم بوشك ترحُّلي اثر الشباب
لقد بشَّرتني بلحاق ماض احبَّ اليَّ من برد الشراب

فلست مسمِّياً بشراك نعياً — وان اوعدت نفسي بالذهاب

وانت وان فتكت بحبِّ نفسي — وصاحب لذّتي دون الصحاب

فقد اعتبتني وامتّ حقدي — بحثك خلفه عجلًا ركابي

و١١ بيتاً في ذكر ايام الحداثة وموقف الغانيات بين امس واليوم

و٤٠ بيتاً يصف فيها ما يذكّره بالشباب من جمال الحسان ومن جمال الطبيعة — ما فيها من مياه وجنان وسحاب وبروق ورياح — وصفاً لا يترك فيه زيادة لمستزيد يختمه بقوله

فيا اسفاً ويا جزعاً عليه — ويا حزنا الى يوم الحساب

أأفجع بالشباب ولا اعزّى — لقد غفل المعزّي عن مصابي

تفرّقنا على كره جميعاً — ولم يك عن قلى طول اصطحاب

وكانت ايكتي ليد اجتناء — فعادت بعده ليد احتطاب

ثم يقول

لبستك برهة لبس ابتذال — على علمي بفضلك في الثياب

ومن يراجع هذه السبعين بيتاً ويتأمل توفُّر الشاعر على تقصي المعاني وتدقيقه في رسم ظلالها ، ينكشف له ما قصد اليه ابن خلكان اذ قال « لا يُبقي في المعنى بقية »

ولما كان ابن الرومي بطبيعته دقيق الاحساس كان من الطبيعي ان نراه يجيد في وصف الالوان والاصوات ويفتنّ بها ما شاءت قريحته ، وله في ذلك لطائف تعد من اجمل ما في هذا الباب في الشعر العربي

ويمتاز بالباسه الجماد حياة ونقل غير العاقل الى مصاف العقلاء ، وهو ما يسمونه بالتشخيص او المجاز المرسل . ومن ذلك حديثه مع هنوات صديقه ، (وقد مر في كلامنا عن قصيدته « ايها القاسم القسيم رواء ») ، ومخاطبته للمشيب والشباب والبين والكساء ، وانطاقه الطيور والنسائم ، ونسبته التفكر الى الشمس والندى والاغصان ، مما سترى الامثلة عليه في المختار من شعره . ولم ينفرد ابن الرومي بذلك ، ولكنّ له فيه ما يلفت النظر ويجعله في مقدمة الوصافين . ومما يلفت النظر ايضاً في شعره حسن اختراعه ، وقد تحمس له ابن رشيق فقال « اما ابن الرومي فاولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن افتنانه »[1] . وفي موضع

(١) العمدة ١ — ١٩٤

آخر يقرنه بابي تمام ويقول « انهما اكثر المولدين اختراعاً فيما يقول الحذّاق »[١]

ويراد بالاختراع كما ذكرنا في غير هذا المقام بدائع التشبيه والتمثيل والاستعارة، كقوله وقد راى رجلاً يقلي الزلابية فوصفه ووصف عمله

رايته سحراً يقلي زلابية ... في رقة القشر والتجويف كالقصب
كانما زينة المقليِ حين بدا ... كالكيمياء التي قالوا ولم تصب
يُلقي العجين لُجيناً من انامله ... فيستحيل شبابيكاً من الذهب

وقال يصف قوس السحاب

وقد نشرت ايدي الجنوب مطارفاً ... على الجو دُكنا والحواشي على الارض
يطرّزها قوس السحاب باخضر ... على احمرٍ في اصفرٍ اثر مبيضِ
كاذيال خَود اقبلت في غلائل ... مصبّغة والبعض اقصر من بعض

ومن اقواله الجميلة يذكر ايام الشباب واننا لا نعرف قيمتها الا متى وات

لسنا نراها حق رؤيتها ... الاّ زمان الشيب والهرم
كالشمس لا تبدو فضيلتها ... حتى تغشّى الارض بالظلم
ولربّ شيء لا يبيّنه ... وجدانه الا مع العدم

ومثل ذلك قوله في ذم الدهر وانه يعلي الاسافل

دهرٌ علا قدر الوضيع به ... وترى الشريف يحطّه شرفه
كالبحر يرسبُ فيه لؤلؤه ... سفلا وتعلو فوقه جيفه

وله في الحكم باع طويلة ، فان دقة نظره لا تنحصر في الوان الطبيعة والحياة بل تتناول ايضاً العواطف وعلاقات الناس بعضهم ببعض. وهو يجاري في ذلك كبار الشعراء ، كقوله

اذا ما كساك الله سربال صحّة ... ولم تخلُ من قوت يحلُّ ويعذب
فلا تغبطنّ المترفين فانهم ... على حسب ما يكسوهم الدهر يسلب

وقوله —

خليليّ قد علّلتماني بالاسى ... فانعمتما لو انني اتعلل
وما راحة المرزوء في رزء غيره ... ايحمل عنه بعض ما يتحمّل ؟

(١) العمدة ١—١٧٧

وقوله —

فلا تتكل الا على ما فعلته   ولا تحسبن المجد يورث بالنسب
فليس يسود المرء الا بنفسه   وان عدّ آباء كراما ذوي حسب

وحكمه كثيرة وهي تعكس لنا في الغالب حياته وتأثير بيئته فيه[1]

***

اما اكثر ديوان ابن الرومي ففي المديح والهجاء والعتاب والوصف ، على ان له في باب الرثاء بضع قصائد جيدة . منها مرثاة في ابنه الاوسط هي من ارق ما فاضت به عواطف والد على ولد عزيز . قال في مطلعها يخاطب عينيه

بكاؤكما يشفي وان كان لا يجدي   فجودا فقد اودى نظيركما عندي
توخّى حمام الموت اوسط صبيتي   فلله كيف اختار واسطة العقد
طواه الردى عني فاضحى مزاره   بعيداً على قرب قريبا على بعد

ثم ياخذ بوصف الداء الذي اصاب ولده ، وما كان له من التاثير فيه ، ويشرح لنا العواطف الابوية المتالمة شرحاً يحرك اوتار القلب : وانك لترى شدّة المه ودقة تصويره في قوله يخاطب الفقيد

محمد ما شيء تُوهِم سلوةً   لقلبي الاّ زاد قلبي من الوجد
ارى اخويك الباقيين كليهما   يكونان للاحزان اورى من الزند
اذا لعبا في ملعب لك لذّعا   فؤادي بمثل النار من غير ما قصد

والقصيدة كلها من هذا النمط البليغ الذي يشهد لشاعرنا برقة الشعور ودقة الفن . وتجد معظمها في باب المختارات

***

والخلاصة ان ابن الرومي دقيق شديد الانفعال ، عصي المزاج الى حد الخروج عن جادة الرشاد . ومن هنا غرابة اطواره ، وفشله في الحصول على رغائبه ، وعدم قدر جيله لفنه ومواهبه .

---

(١) راجع منها في ديوان ابن الرومي (للكيلاني) ٢٦ و ٧١ و ٨٨ و ١٠٦ و ١٠٧ و ٩٤ ، ١٠٩ و ٢٠٢ و ٩٦ و ١٠٣ و ٣٩٧ و ٤٠٥ و ، ٣٧٧ ، ٤٤١ ، ٣١٥

المختار من شعر ابن الرومي

طبيعة شديدة الانفعال في شعر بعيد المدى كثير الالوان : تقرأه فيرتسم لك ما في نفس ناظمه من وَلهٍ في الحياة ومرارة لفقد اطايبها ، مقرونين باسراف في العاطفة يدفعه احياناً الى درجة الشذوذ

ذكرى الشباب

من قصيدة في عبيد الله بن عبدالله

كفى بالشيب من ناهٍ مطاع | على كرهٍ ومن داعٍ مجاب
حططت الى النهى رحلي وكلّت | مطيّة باطلي بعد الهباب[1]
وقلتُ مسلّماً للشيب : اهلاً | بهادي المخطئين الى الصواب
الستَ مبشّري في كل يوم | بوشك ترحُّلي اثر الشباب ؟
لقد بشّرتني بلحاق ماضٍ | احبَّ اليَّ من برد الشراب
فلستُ مسمّياً بشراك نعياً | وان اوعدتَ نفسي بالذّهاب
لك البشرى وما بشراك عندي | سوى ترقيع وهيك بالخضاب
وانت وان فتكتَ بحِبِّ نفسي | وصاحب لذّتي دون الصحاب
فقد اعتبتني ، وامتَّ حقدي | بحثّك خلفه عَجِلاً ركابي[2]
اذا الحقتني بشقيق عيشي | فقد وفّيتني فيه ثوابي
وحسبي من ثوابي فيه أنّي | واياه نئوب الى مآب
لعمرك ما الحياة لكل حيّ | اذا فقد الشباب سوى عذاب

---

(١) الهباب النشاط والسرعة

(٢) وانت وان ذهبت بحبيبي او صاحبي فقد ارضيتني بانك تدفعني الى اللحاق به عاجلاً

فقل لبنات دهري : فلتُصبني اذا ولّى ، باسهمها الصُّياب
سقى عهدَ الشبيبةِ كلُّ غيثٍ اغرَّ مجلجِلٍ داني الرَّباب (١)
ليالي لم اقل : سقياً لعهـد ولم ارغب الى سُقيا سحاب (٢)

. . .

يذكّرني الشبابَ هوانُ عتبي وصدُّ الغانيات لدى عتابي (٣)
يذكرني الشبابَ سهامُ حتفٍ يصبن مقاتلي دون إلاهاب
رمت قلبي بهنّ فاقصدته طَلوعُ النَّبل من خَلل النقاب (٤)
فراحت وهي في بالٍ رخيّ ورحت بلوعة مثلِ الشهاب
وكل مبارز بالشيب قِرناً فسبيٌ لعمركَ غير ساب

. . .

يذكرني الشبابَ جنانُ عدنٍ على جنبات انهارٍ عذاب
تُفيّىءُ ظلّها نفحاتُ ريح تهزُّ متون اغصانٍ رطاب (٥)
اذا ماست ذوائبها تداعت بواكي الطير فيها بانتحاب
يذكرني الشبابَ وميضُ برقٍ وسجعُ حمامة وحنينُ ناب (٦)
فيا اسفاً ويا جزعاً عليه ويا حَزَناً الى يوم الحساب
أأُفجع بالشباب ولا اعزّى ؟ لقد غفل المعزّي عن مصابي
تفرقنا على كره جميعاً ولم يك عن قلىً طول اصطحاب
وكانت ايكتي ليد اجتناء فعادت بعده ليد احتطاب (٧)

. . .

ايا بُرد الشباب، لكنت عندي من الحسنات والقِسَم الرِّغاب

(١و٢) سقى عهد الشبيبة كل مطر كثير الرعد داني السحاب — ذلك العهد الذي لم اكن اهتم بسواه ولم اشعر فيه بحاجة ما

(٣) يذكرني ايام الشباب عدم اهتمام الغانيات اليوم بي

(٤) طلوع النبل الخ اي حسناء تكثر رمي النبال من وراء النقاب

(٥) تفيء ظلها اي تحركه (٦) الناب الناقة

(٧) كنى عن الايكة بالحياة فقال وكانت حياتي مثمرة فاصبحت الان يابسة

بَليتَ على الزمان ، وكل بُرد فبينَ بلى وبين يد استلاب
وعزّ عليَّ ان تبلى وابقى ولكنّ الحوادث لا تحابي
لبستك برهة لبس ابتذال على علمي بفضلك في الثياب
ولو مُلّكت صونك فاعلمنه لصنتك في الحريز من العِياب[1]
ولم أَلبسك الاَّ يوم فخرٍ ويومَ زيارة الملك اللباب
عُبيدِ الله قرمِ بني زريقٍ وحسبك باسمه فصل الخطاب

الى ان يقول فيه

اظلّ سحاب عُرفك كلّ شيء ودرّ على البلاد بلا عِصاب[2]
سواي فانني عنه بظهرٍ كاني خلفَ منقطَع التراب[3]
تشير اليَّ بالمحروم ايدٍ كايدي الناس في يوم الحِصاب[4]
تطاول بي انتظارُ الوعد جدًّا وريب الدهر يؤذن بانشعاب

. . .

افكِر في نصابٍ انت منه فيُغلَق دون عذرك كلُّ باب
الستَ المرءَ لا عزمٌ كهامٌ ولا بخلٌ اليه بذي انتساب
فعش في غبطة ونعيم بالٍ وملك لا يخاف يد اغتصاب

ومنها

وليس لانني سُدّت سبيلي ولا عَجز اصطرافي واصطحابي
تعالت هضبتي عن كلّ سيلٍ وفاتت نبعتي نضخ الذناب[5]

---

(١) العياب خزائن الثياب

(٢) بلا عصاب اي عفوًا دون ان يُطلب . والعُرف المعروف

(٣) لم يصبني غيث معروفك كاني كنت في الطرف الذي ينقطع عنده المطر

(٤) اي يُشير الي الناس بايديهم ويقولون « محروم » من الحظ . وقد شبه كثرة المشيرين اليه بايدي الناس يوم رمي الحجارة بمنى (في الحج)

(٥) اقصدك لا لانه قد سُدّت في وجهي سبل الرزق فاني كريم النفس اتعالى عن الاسافل وقد عبر عن ذلك بقوله (تعالت هضبتي عن السيول ونبعتي عن رش الدلاء)

فليس ينالني الاَّ مثيلٌ يُطلّ عليَّ اطلال السحاب
ولو اني قطعت الارض طولاً لكان اليك من بعدُ انقلابي

وقال في ذلك مادحاً علي بن المنجم

شابَ رأسي ولاتَ حينَ مشيبِ وعجيبُ الزمان غيرُ عجيبِ
قد يَشيب الفتى وليس عجيبا ان يُرى النَور في القضيب الرطيب
ساءها ان رأت حبيباً اليها ضاحكَ الرأس عن مفارق شِيب
فدعته الى الخضاب وقالت ان دفن المَعيب غير مَعيب
خضبت رأسه فبات بتبريحٍ واضحى فظلَّ في تأنيب
ليس ينفكُّ من ملامة زارٍ قائلٍ بعد نظرتي مستريب
ضِلَّةً ضلة لمن وعظته غِيَرُ الدهر وهو غير مُنيب
عاجز واهن القوى يتعاطى صِبغةَ الله في قناع المشيب[1]
رام اعجاب كل بيضاءَ خودٍ بسواد الخضاب ذي التعجيب
فتضاحكن هازئاتٍ وماذا يُونق البيض من سوادٍ جليب[2]
يا حليفَ الخضاب لا تخدع النفس فما انت للصِبا بنسيب
فاتخذه على الشباب حداداً وابكِ فيه بعبرة ونحيب

. . .

وفتاة رأت خضابي وقالت عزَّ داء المشيب طبَّ الطبيب
خاضبُ الشيب في بياضٍ مُبينٍ حين يبدو وفي سوادٍ مريب
ليس تنقاد غادةٌ لهواه وهو ينقاد كانقيادِ الجنيب[3]
ظلمتني الخطوبُ حتى كأني ليس بيني وبينها من حسيب
سلبتني سواد رأسي ولكن عوَّضتني رياش كلِّ سليب

---

(١) اي ضعيف يتناول الصبغة يستر بها مشيبه مظهرًا انها اللون الطبيعي الذي خلقه الله
(٢) جليب اي مجلوب مصطنع (٣) الجنيب ما يقاد من الركاب

عوّضتني اخا المعالي عليًّا ... عِوَضٌ فيه سلوةٌ للحريب
يستغيث اللهيفُ منه بمدعوٍّ ... لدى كل كربةٍ مستجيب
يتلقّى المدفَعين عن الابواب ... بالبشر منه والترحيب
غرّبته الخلائق الزُهر في النا ... س وما اوحشته بالتغريب
ما سعى والسعاة للمجد الاّ ... سبق المُحضِرين بالتقريب (١)
من رآه رأى شواهد تُغني ... عن سماع الثناء والتجريب
لوذعيٌ له فؤاد ذكيٌّ ... ما له في ذكائه من ضريب
يقظٌ في الهَنات ذو حركات ... لسكون القلوب ذات الوجيب (٢)
ألمعيٌّ يرى باوّل ظنٍ ... اخر الامر من وراء المغيب
ثابت الحال في الزلازل منهال ... لسؤّاله انهيال الكثيب
ليّن عِطفه فان رِيم منه ... مكسر العود كان جِدَّ صليب
احسنت وصفه مساعيه حتى ... افحمت كل شاعر وخطيب
يمّمته بنا المطايا فافضت ... من فضاء الى فضاء رحيب
بأبي انت من جليل مَهيبٍ ... مطلبُ العُرف منه غير مهيب
اعجز الطالبيك شأوٌ بعيدٌ ... لك ادركته بعُرف قريب
هاكها مدحةً تغنّى بها الركبانُ ... ما ارزمت روائمُ نيب (٣)
نظم الفكر درّها غير مثقوبٍ ... اذا الدرُّ شينَ بالتثقيب
يطرب السامعين ايسر ما فيها ... وان أُنشدت بلا تطريب
منك جاءت اليك يحدو بها الودُّ ... على رغبةٍ بلا ترغيب

---

(١) اي ما سعى هو وواحد الى المجد الا وسبق بتقريبه جريهم السريع
(٢) اي انه لدى الخطوب يقظ تتحرّك همّته بما يسكن اضطراب القلوب
(٣) اي ما حنت النياق الى اولادها

رثاء ابنه الاوسط

بكاؤكما يشفي وان كان لا يجدي فجودا فقد اودى نظيركما عندي
ألا قاتل الله المنايا ورميها من القوم حبَّات القلوب على عمد
توخّى حِمام الموت اوسط صبيتي فلله كيف اختار واسطة العقد !
على حين شِمتُ الخير من لمحاته وآنست من افعاله آية الرشد
طواه الردى عني فاضحى مزاره بعيداً على قرب قريباً على بعد
لقد انجزت فيه المنايا وعيدها واخلفت الآمال ما كان من وعد
لقد قلّ بين المهد واللحد لُبثه فلم ينس عهد المهد اذ ضُمّ في اللحد[1]
الحّ عليه النزفُ حتى احاله الى صفرة الجادي عن حمرة الورد[2]
وظلّ على الايدي تَساقط نفسه ويذوي كما يذوي القضيب من الرند
فيالك من نفس تَساقَطُ انفساً[3] تساقطَ درّ من نظام بلا عقد

. . .

عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له ولو أنه اقسى من الحجر الصلد
وما سرّني ان بعته بثوابه ولو أنه التخليد في جنة الخلد
ولا بعته طوعاً ، ولكن غُصبته وليس على ظلم الحوادث من مُعد

. . .

واني وان مُتِّعت بابنيّ بعده لذاكره ما حنّت النيب في نجد[4]
واولادنا مثل الجوارح[5] ، أيُّها فقدناه كان الفاجعَ البيِّنَ الفقد
لكلٍّ مكانٌ لا يسدُّ اختلاله مكانُ اخيه من جَزوعٍ ولا جلد
هل العين بعد السمع تكفي مكانه ام السمع بعد العين يهدي كما تهدي

---

(١) اي انه مات صغيراً
(٢) كثر عليه نزف الدم حتى احال لونه الوردي الى اصفرار الزعفران
(٣) فيالك من نفس تذوي فتذوي معها نفوس كثيرة
(٤) النيب النياق . اي وان كان لي باخوته سلوة فاني ساذكره دائماً وساتوجع لذكراه
(٥) الجوارح اعضاء الجسم

لعمري لقد حالت بي الحال بعده فيا ليت شعري كيف حالت به بعدي
ثكلتُ سروري كله اذ ثكلته واصبحت في لذَّات عيشي أخا زهد

. . .

أريحانةَ العينين والانف والحشا الاليت شعري هل تغيَّرتَ عن عهدي؟
سأسقيك ماء العين ما اسعدت به وان كانت السقيا من الدمع لا تُجدي
أعينيَّ جودا لي ، فقد جدت للثرى بانفسَ مما تُسألان من الرفد[1]
كأني ما استمتعت منك بضمَّةٍ ولا شَمَّةٍ في ملعب لك او مهد
ألام لما ابدي عليك من الاسى واني لأُخفي منك اضعاف ما أُبدي

. . . .

محمدُ ما شيء تُوُهِّم سلوةً لقلبي ، الا زاد قلبي من الوجد[2]
أرى اخويك الباقيين كليهما يكونان للاحزان اورى من الزند
اذا لعبا في ملعب لك لذَّعا فؤادي بمثل النار عن غير ما قصد
فما فيهما لي سلوة بل حرارة يهيجانها دوني واشقى بها وحدي
وانت وان أفردتَ في دار وحشة فاني بدار الانس في وحشة الفرد
عليك سلام الله مني تحيَّةً ومن كل غيثٍ صادق البرق والرعد

رثاء ابي الحسين يحيى بن عمر العلوي[3]

امامَك فانظر ايَّ نهجيك تنهج طريقان شتى ، مستقيم واعوجُ
ألا أيُّهذا الناس طال ضريركم بآل رسول الله فاخشوا او ارتجوا

---

(١) الرفد العطاء

(٢) في هذه الابيات وما بعدها يقول يا محمد ما من شيء يحسبونه سلوة الا ويزيدني حزناً على حزن . انظر الى اخويك الباقيين فاذكرك في كل حركة من حركاتها ويشتد لذلك اضطرام الامى في نفسي فانت وان كنت وحيداً في القبر فاني بين الناس وحيداً بآلامي

(٣) وهو حفيد حفيد الامام علي وكان قد قام على العباسيين فقتلوه وفي هذه القصيدة يظهر تشيع الشاعر لآل البيت

أكلَّ أوان للنبيِّ محمـد قتيل زكيٌّ بالدماء مضرَّج (١)

...

بني المصطفى كم يأكل الناس شِلوكم لبلواكم – عما قليـل – مُفرَّج
امـا فيهم راعٍ لحق نبيّه ؟ ولا خائـفٌ من ربه يتحرّج
أبعـد المكنّى بالحسين شهيـدكم تضيء مصابيح السماء فتَسرُجُ (٢)
لنا وعلينا ، لا عليـه ولا له تسحسح اسراب الدموع وتنسج
وكنا نرّجيـه لكشف عماية بامثاله امثـالها تتبلّج

...

أيحيى العلي لهفي لذكراك لهفـة يباشر مكواها الفؤاد فينضج
لمن تستجدُّ الارض بعـدك زينة فتصبحَ في اثوابها تتبرَّج
سلام وريحان وروح ورحمـة عليك ، وممدود من الظل سجسج (٣)
ولا برح القاع الذي انت جاره يرفُّ عليـه الاقحوان المفلّج (٤)
ويا أسفي الاَّ تردَّ تحيَّـة سوى أرجٍ من طيب رمسك يأرج
الا انما ناح الحمائم بعـد ما ثويت ، وكانت قبـل ذلك تهزج
اذمُّ اليك العين أنّ دموعهـا تداعى بنار الحزن ، حين توهَّج
واحمدها ـ لو كفكفت من غروبها عليك ، وخلَّت لاعج الحزن يلعج
أتمنعني عيني عليك بدمعة وانت لاذيال الروامس مُدرج
عفـاءٌ على دار ظعنت لغيرها فليس بهـا للصالحين معرَّج

...

الا ايهـا المستبشرون بيومـه اظلَّت عليكم غُمّة لا تفرَّج
أكلُّكم امسى اطمأنَّ مهاده بان رسول الله في القبر مزعَج !

---

(١) اشارة الى ان القتيل من بيت الرسول
(٢) تسرج تحسن طلعتها
(٣) سجسج اي لا حرّ فيه ولا قرّ
(٤) اي لا برح مدفنه يتألق عليه الاقحوان

كاني به كالليث يحمي عرينه واشباله لا يزدهيه المهجج (١)
كدأب عليّ في المواطن قبله ابي حَسَنٍ والغصن من حيث يخرج (٢)
كأني اراه — والرماح تنوشه شوارعَ كالاشطان تُدلى وتخلج (٣)
كأني اراه اذ هوى عن جواده وعُفِّر بالترب الجبين المشجَّج
فحُبَّ به جسماً الى الارض اذ هوى وحبَّ بها روحاً الى الله تعرُج
تأتَّت لكم فيه مُنى السوء هَينةً وذاك لكم بالغيّ أغرى وألهج
تَمُدُّون في طغيانكم وضلالكم ويُستدرج المغرور منكم فيَدرج
اجِنُّوا بني العباس من شنآنكم وأَوكوا على ما في العياب وأَشرجوا (٤)
وخلُّوا ولاة السوء منكم وغيَّهم فاحرِ بهم ان يغرقوا حيث لجّجوا
نظارِ لكم ان يُرجع الحق راجع الى اهله يوماً فتشجُوا كما شُجوا

. . .

بني مُصعب (٥) ! ما للنبي واهله عدوٌّ ، سواكم أفصحوا ، او فلجلجوا
واني على الاسلام منكم لخائفٌ بوائق شتى ، بابها الان مُرتج
وفي الحزم ان يَستدركَ الناسُ امركم وحبلهمُ مُستحكم العقد مُدمج
لعل قلوباً قد أطلتم غليلها ستظفر منكم بالشفاء فتُثلَج

البصرة وما حل بها يوم دخلها الزنج

وذلك ٢٥٧ هـ (٦)

ذاد عن مقلتي لذيذَ المنامِ شُغلُها عنه بالدموع السجامِ
ايُّ نوم من بعد ما حلَّ بالبصرة ، ما حلَّ من هناتٍ عظام

---

(١) كاني به في ساحة الحرب كالليث لا يستخفه زجر زاجر
(٢) اي هو في شجاعته كجده الامام علي
(٣) تنوشه تطلبه والاشطان الحبال . وتدلى وتخلج ان تمد وتحرك او ترسل وتجذب
(٤) استروا يا بني العباس بغضكم وشدوا على ما في داخلكم من الحقد
(٥) بنو مصعب من رجال العباسيين
(٦) نشبت هذه الثورة بزعامة علي بن محمد احد المدعين للنسب العلوي وكان قيامه في ايام المكتفي. فتفاقم امره واكتسح البصرة وما اليها ولم يتمكن العباسيون ان يخضعوهُ الا بعد مشقة طويلة

اي نوم من بعد ما انتهك الزّنج جِهاراً محارم الاسلام
ان هذا من الامور لامرٌ كاد ان لا يقوم في الاوهام

. . .

لهف نفسي عليك ايتها البصـ ـرة ، لهفاً كمثل لَهْب الضِرام
لهف نفسي عليك يا قبّة الاسـ ـلام ، لهفاً يطول منه غرامي
لهف نفسي عليك يا فرضة البلـ ـدان ، لهفاً يبقى على الاعوام
لهف نفسي لجمعك المتفاني لهف نفسي لعزّك المستضام

. . .

بينا اهلها باحسن حال اذ رماهم عبيدهم باصطلام
دخلوها كانّهم قِطَع الليـ ـل اذا راح مدلهمَّ الظلام
ايَّ هول رأوا بهم ، ايَّ هول حُقّ منه يشيب رأس الغلام
اذ رموهم بنارهم من يمين وشمال — من خلفهم وامام
كم اغصّوا من شارب بشراب كم اغصّوا من طاعم بطعام
صبحوهم فكابد القوم منهم طول يوم كانّه الف عام
ما تذكّرت ما اتى الزنج الاَّ أُضرم القلب ايمَّا اضرام

. . .

عرّجا صاحبيَّ بالبصرة الزهـ ـراء تعريج مُدنَف ذي سقام
فاسألاها ـ ولا جواب لديها لسؤالٍ ـ ومن لها بالكلام ؟
اين ضوضاء ذلك الخلق فيها اين اسواقها ذوات الزحام ؟
اين فُلك فيها ، وفلك اليها ، منشئاتٌ في البحر كالاعلام ؟[1]
اين تلك القصور والدور فيها اين ذاك البنيان ذو الاحكام
بُدّلت تلكم القصور تلالاً من رمادٍ ومن تراب ركام
وخلت من حُلولها ، فهي قفر ، لا ترى العين بين تلك الإكام

---

(١) اشارة الى انها كانت فرضة عظيمة

غير أيد وارجلٍ بائنات ... نُبذت بينهنّ افلاقُ هام

ووجوهٍ قد رمّلتها دماءٌ ... بأبي تكلم الوجوه الدوامي

وُطئت بالهوان والذلِ قسراً ... بعد طول التبجيل والاعظام

فتراها ، تسفي الرياحُ عليها ... جاريات ٍ ببهوةٍ وقتام

خاشعاتٍ ، كانها باكياتٌ ... باديات الثغور ، لا لابتسام

. . .

ايُ خطب ، واي رزء جليل ... نالنا في اولئك الاعام

واحيائي منهم ـ اذا ما التقينا ... وهمُ ، عند حاكم الحكّام (١)

اي عذر لنا ، واي جواب ... حين ندعى على رؤوس الانام

« يا عبادي ؟ اما غضبتم لوجهي ... ذي الجلال العظيم والاكرام

اخذَلتم إخوانكم ، وقعدتم ... عنهمُ ـ ويحكم ـ قعود اللئام ؟ » (٢)

. . .

بابي تلكم العظام عظاما ... وسقتها السماء صوب الغمام

وعليها من المليك صلاةٌ ... وسلام موكّد بسلام

انفروا ايها الكرام خفافا ... وثقالا الى العبيد الطَّغام

أبرَموا امرهم ، وانتم نيام ، ... سوءةً سوءةً لنوم النيام (٣)

صدِّقوا ظنّ اخوة أمّلوكم ... ورجوكم لنوبة الايام

ادركوا ثأرهم ، فذاك لديهم ... مثل ردّ الارواح في الاجسام

لم تقرُّوا العيون منهم بنصر ... فاقرُّوا عيونهم بانتقام

انقذوا سَبْيهم ـ وقلّ لهم ذا ... كـ ـ حفاظاً ورعيةً للذمام

عارُهم لازم لكم ، ايها النا ... س لان الاديان كالارحام

ان قعدتم عن اللعين فانتم ... شركاء اللعين في الآثام

---

(١) اي يوم الحساب امام الله

(٢) هذا البيت وما قبله خطاب من الله للمسلمين ثم يعود الشاعر في كل الابيات التالية يحرضهم على مساعدة اهل البصرة والانتقام لهم من عدوهم

(٣) قضوا امرهم وانتم في غفلة عنهم

بادروه قبـل الرويَّة بالعز م ، وقبل الاسراج بالاجـام
لا تطيلوا المقـام عن جنة الخ لد ، فانتم في غير دار مقام
فاشتروا الباقيات بالعرَض الاد نى ، وبيعوا انقطـاعه بالدوام

عتاب لابي القاسم التوزي الشطرنجي

يا اخي اين رَيْعُ ذاك اللقاء ؟ أين ما كان بيننا من صفـاء ؟
اين مصداق شاهدٍ كان يحكي أنك المخلص الصحيح الاخاء ؟
كشفت منك حاجتي هَنَواتٍ غُطّيت برهة بحسن اللقـاء
تركتني ـ ولم اكن سيّىء الظن ـ أسيء الظنون بالأصدقاء[1]

. . .

يا أخي ! هبك لم تهب ليَ من سع يك حظاً كسائر البخلاء
أفلا كان منك رد جميـل فيه للنفس راحة من عنـاء ؟
يا أبا القاسم الذي كنت ارجو ه لدهري قطعتَ متن الرجاء
لا اجازيك من غرورك اياً ي غرورا ـ وُقيت سوء الجزاء
أنت عيني وليس من حق عيني غَضُّ أجفانها على الاقـذاء
ما بأمثال ما أتيتَ من الام ر يحلُّ الفتى ذرى العلياء
لا ، ولا يكسب المحامد في النا س ولا يشتري جميل الثناء
ليس من حلَّ بالمحل الذي از ت به من سماحـة ووفاء
بَذَل الوعد للأخـلّاء سمحا وابى بعد ذاك بذل الغناء
فغدا كالخِـلاف[2] يورق للعيـ ن ويابى الإثمار كل الاباء
ليس يرضى الصديق منك ببشرٍ تحت مخبوئه دفين جفاء

. . .

(١) اي ان حاجتي اليك كشفت لي فيك عن سيئات جعلتني بعدها اسيء الظن بالاصدقاء
(٢) نوع من شجر الصفصاف

يا أخي ! يا اخا الدماثـة والرقّـة والظَّرف والحجا والدهاء
ربما هالني وحيّر عقـلي اخذُكَ اللاعبـين بالبأساء
عن تدابيرك اللطاف اللواتي هنّ اخفى من مستسِرّ الهَباء
بل من السرّ في ضمير محبٍ ادّبته عقوبة الافشاء
غلط النـاس لست تلعب بالشط رنج لكن بانفس اللعباء
لك مكر يدِبُ في القوم اخفى من دبيب الغِذاء في الاعضاء
او مسير القضـاء في ظُلَم الغيْـب الى من يريـده بالتواء
او سُرى الشيب تحت ليل شباب مستحـير في لمّةٍ سمحاء
دبّ فيها لها ومنها اليهـا فاكتست لون رثّة شمطـاء

. . .

ضِلّـةً لامرىء يشمّر في الجمـع لعيش مشمّرٍ للفناء
دائبا يكنز القناطير للوا رث ، والعمر دائبٌ في انقضاء
يحسب الحـظّ كلّه في يديه وهو منه على مدى الجوزاء
ليس في آجل النعيم له حـظّ ، وماذاق عاجل النعماء
ذلك الخائب الشقيُ ، وإن كا ن يرى انه مـن السعداء
حسب ذي إربةٍ ورأي جليٍ نظرت عينـه بلا غُلواء
صحّـة الدين والجوارح والعِر ض وإحراز مُسكة الحوباء(١)

. . . .

يا ابا القاسم الذي ليس يخفى عنـه مكنون خُطّةٍ عَوْصاء
اترى كل مـا ذكرتُ جليّاً وسواه من غامض الانحاء
ثم يخفى عليك اني صديق ربما عزّ مثله بالغلاء ؟
لا لعمر الاله ! لكن تعاشيـ ـت بصيراً في ليلة قمراء
بل تعاميت ، غير اعمى عن الحق نهاراً في ضحوة غرّاء
ظالمًا لي مع الزمان الـذي ابتزّ حقـوق الكرام للؤمـاء

---

(١) ان يحرز ما يحفظ النفس

ثقلت حاجتي عليك فاضحت وهي عبء من فادح الأعباء

. . .

ُظلمتْ حاجتي فلاذت بجقويك فأسلمتها لكفِّ القضاء[١]
وقضاء الاله احوطُ للنا س من الأُمهات والآباء
غير ان اليقين اضحى مريضا مَرَضاً باطنا شديد الخفاء

. . .

كنتُ مستوحشا فاظهرتَ بخسا زادني وحشة من الخلطاء[٢]
وعزيزٌ عليَّ عضّيك باللو م ، ولكن أصبتَ صدري بداء
انت أدويتَ صدر خلّك فاعذر ه على النفث ، انه كالدواء[٣]
ان تكن لفحة اصابتك من عذ لي ، فعماً قدحتَ في الاحشاء
والذي اطلق اللسان فعاتب تُك عَدّيك أولَ الفهماء[٤]
لم أخف منك غلطة حين عاتبـ تك تدعو العتاب باسم الهجاء
وانا المرء لا أسوم عتابي صاحباً غير صفوة الاصفياء
ذا الحجا منهم وذا الحلم والعلـ م — وجهلٌ ملامة الجهلاء
ان من لام جاهلا لطبيبٌ يتعاطى علاج داء عياء
لستُ ممن يظلُّ يربعُ باللو م على منزل خلاء قواء

. . .

في وحيد المغنية

وكان الشاعر يستحسنها ويستحسن غناءها

يا خليليَّ ! تيّمتني وحيدُ ففؤادي بها معنّى عميدُ
غادة زانها من الغصن قدٌّ ومن الظبي مقلتان وجيد

---

(١) ظُلمت حاجتي فتعلقت بك ولكنك نبذتها وتركتها للقضاء
(٢) كنت انا مستوحشاً من الناس فاظهرت لي من بخس حقي ما زادني نفوراً منهم
(٣) ادويت اي امرضت (٤) والذي اطلق لساني بعتابك اني اعدك افهم الفهماء

وزهاها من فرعها ومن الخدّ ـين ذاك السوادُ والتوريد
فهي بَردٌ بخدها وسلامٌ وهي للعاشقين جهد جهيد
مالما تصطليه من وجنتيها غيرُ ترشاف ريقها تبريد
مثل ذاك الرضاب أَطفأ ذاك الـ وجدَ ، لولا الاباء والتصريد(١)
وغريرٍ بحسنها قال : صفها قلت «أمران ، بيّن وشديد»(٢)
يسهلُ القول انها احسن الاشـ ياء طرًّا ، ويصعب التحديد
تتجلى للناظرين اليها فشقيٌّ بحسنها وسعيد
ظبية تسكن القلوب وترعا ها ، وقُمريّة لها تغريد
تتغنّى ، كأنها لا تغنّي من سكون الاوصال، وهي تجيد
لا تراها – هناك – تجحظ عينٌ لك منها ، ولا يدرّ وريد(٣)
من هدوٍّ وليس فيهِ انقطاع وسجوٍ ، وما به تبليد
مدَّ في شأو صوتها نَفَسٌ كا فٍ ، كأنفاس عاشقيها مديد
وارقّ الدلالُ والغنجُ منه وبراه الشجا ، فكاد يبيد
فتراه يموت طوراً ويحيا مستلَذٌّ بسيطُه والنشيد
فيه وشيٌ ، وفيه حليٌ من النغـ ـم مصوغ يختال فيه القصيد
في هوى مثلها يخفُّ حليمٌ راجحٌ حامه ، ويغوى رشيد
ما تعاطى القلوب الا اصابت بهواها منهنَّ حيث تريد
وترُ العزفِ في يديها مُضاهٍ وتر الرجف ، فيه سهم شديد
عيبها أَنها – اذا غنّت الاحـ ـرارَ – ظلّوا وهم لديها عبيد
واستزادت قلوبهم من هواها برِقاها ، وما لديهم مزيد

. . .

وحسانٍ عرضنَ لي، قلت : مهلا عن وحيدٍ ، تخفّها التوحيد
حسنها في العيون حسن جديد فلها في القلوب حب جديد

. . .

---

(١) ان مثل ذلك الرضاب يطفىء نار الوجد لولا المنع . والتصريد التقليل

(٢) الغرير المغرور (٣) لا تراها تتكلف وتجهد نفسها حتى تجحظ عيناها وتمتلىء اوردتها فتنتفخ

خُلقت فتنةً ، غناءً وحسنا ما لها فيهما جميعا نديد
فهي نعمى ، يبيد منها كبير وهي بلوى ، يشيب منها وليد
ليَ — حيث انصرفت منها — رفيق من هواها وحيث حلّت قعيد
عن يميني ، وعن شمالي ، وقدّا مي ، وخلفي ، فأين عنه أحيد ؟

بعض مقطعاته الحكمية

في الناس

عدوُّك من صديقك مستفاد فلا تستكثرنَّ من الصحاب
فان الدّاء اكثر ما تراه يحول من الطعام او الشراب
اذا انقلب الصديق غدا عدوّا مُبيناً ، والامور الى انقلاب
ولو كان الكثير يَطيب كانت مصاحبة الكثير من الصواب
ولكن قلّما استكثرتَ الا سقطتَ على ذئاب في ثياب
فدع عنك الكثير فكم كثيرٍ يُعاف وكم قليل مستطاب
وما اللجج المِلاح بمرْويات وتلقى الريَّ في النُطف العذاب (١)

٢

في الحياة

انَّ السعيد لمدركٌ دَرَكا واخو الشقاوة فهو في الدَّرَك
والشرُّ بين الناس مشترك والخير فيهم غير مشتَرك
والى الخمود مآل ذي لهب والى السكون مَحار ذي حرك
وغدا الرجال — على مكانتهم — يتبادرون مطارح الشَّبك
والعين تبصر اين حبَّتها لكنها تعمى عن الشَّرَك

(١) ان لجج البحر مع كثرتها لا تروي وتلقى الريّ في القليل من المياه العذبة

٣

في نفع الشدائد

عرفتُ مقادير الرجال بنكبة — أفدتُ بها غُنماً وان عُدّ مغرما
كفاني لعمري ايها الناس خبرتي — بكم بعد جهلي واغتراري مغنما
ألا طال ما حمّلت قلبي ظالماً — تكاليفَ من إعظام من ليس مُعظما
فقد حطّها عني الاله بمحنةٍ — اراني بها رشدي ،وما زال منعما

٤

في قصر العمر

دهر يشيّعُ سبتَه احدُه — متتابعٌ ، ما ينقضي امدُه
والحال من سعد يساعدنا — طوراً ، ونحس معقبٍ نكده
يوم يُبكّينا ، وآونةً — يوم يبكّينا عليه غده
نبكي على زمنٍ ومن زمن — فبكاؤنا موصولةٌ مُدَدُه
ونرى مكارهنا مخلّدةً ، — والعمرُ يذهب فانياً عدَدُه
أفلا سبيل الى تبجبجنا — في سرمدٍ لا ينقضي أبده
سكرى شباب لا يعاقبهُ — هَرَمٌ ، وعيش دائم رَغده
لا خير في عيش تُخوّنِنا — اوقاتهُ وتغولنا مُدَده
يُعطى الفتى الايام ينفقها — وقِصاصها ان يُقتوَى جَلَده

٥

القناعة بالصحة

اذا ما كساك الله سربال صحةٍ — ولم تخلُ من قوت يحلّ ويعذب
فلا تغبطنّ المترفين فانهم — على حسب ما يكسوهمُ الدهر يسلب

٦

انما المرء بنفسه

وما الحسب الموروث لا درَّ درُّه بمحتسَب الا بآخر مكتسَبْ
اذالعود لم يُثمر – وان كان شعبةً من المثمرات اعتدَّه الناسُ في الحطب[(١)]
وانت لعمري شعبة من ذوي العلا فلا ترض ان تُعتدَّ من اوضع الشُّعب
وللمجد قوم ساوروه بانفس كرام ، ولم يرضوا بامٍّ ولا بأب
فلا تتكل الا على ما فعلته ولا تحسبنَّ المجد يورث بالنسب
فليس يسود المرء الا بنفسه وان عدَّ آباء كراماً ذوي حسب

٧

حب الوطن

وحبَّب اوطانَ الرجال اليهم مآربُ قضَّاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا اوطانهم ذكَّرتهم عهود الصبى فيها فحنُّوا لذلكا



(١) اذا الغصن لم يثمر عده الناس حطبا ولو كان اصله من شجرة مثمرة

المتنبي

ابو الطيب احمد بن حسين

٣٠٣ — ٣٥٤هـ

٩١٦م — ٩٦٦م

مصادر دراسته — نشأته — في حلقة سيف الدولة — في بلاط مصر — بين العراق وبلاد فارس — مزاياه الخلقية — عصبيته — شهرته الادبية شخصيته في شعره — اطواره في شعره

مصادر دراسة

الوساطة للجرجاني
الفهرست (ليدن) ١٦٩
يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ٧٨— ١٦٤
العمدة لابن رشيق ١ ص ٨٧ — ١٣٣ — ١٩٤ ومواضع شتى
نزهة الالباء للانباري ٣٦٦
وفيات الاعيان ١ — ٦٢ والرسالة الحاتمية فيه (في سيرة الحاتمي)
مفتاح السعادة (لطاش كبري زاده) طبع الهند ج ١ص ١٩٢
الصبح المنبي للبديعي الدمشقي على هامش شرح العكبري
خزانة الادب للبغدادي (بولاق) ١ص٣٨٢— ٣٨٩
ومن الشروح شرح الواحدي والعكبري واليازجي

ومما كتب فيه حديثاً

رسالة ابرهيم اليازجي في ذيل شرحه للمتنبي
ابو الطيب المتنبي لمحمد كمال حلمي
حصاد الهشيم للمازني ١٨٤ — ٢٢٧
المتنبي لشفيق جبري مجلة المجمع العلمي مج ١٠ ج ٥ — ١٢
الانس المفيد ٣٣٠ — ٣٦٣
المقتطف ٠ مج ١٧— ٣٦١
العدد الخاص بيوبيله الالفي من مجلات المقتطف ، والهلال ، والحديث ، والعصبة
غير ما كتب في كتب التاريخ او دوائر المعارف لكتاب عرب ومستشرقين

نشأته الاولى

لم يكد ينتصف القرن الرابع الهجري حتى كانت الدولة العبَّاسية تتنازعها عوامل الانحلال . فكانت دار الخلافة بغداد بين مولد المتنبي ووفاته ، اي ايام المقتدر والقاهر والراضي والمتَّقي والمستكفي والمطيع تحت نفوذ بني بويه اصحاب السيادة في فارس، وكانت حلب والموصل وما اليهما في يد بني حمدان – ومصر واكثر الشام والحجاز في يد بني طغج ، وسائر الاقطار لغيرهم من الامراء المستقلين . ولم يبق للخلافة من رونق ، وكثر الادعياء والثائرون حتى عمت الفوضى السياسية . بين هذه الاضطرابات السياسية والقومية نشأ شاعرنا ، وكان مولده في مدينة الكوفة بالعراق ، وفيها نشأ نشأته الاولى . وكان يتردد بين البادية والحضر[1]، فاكتسب من الاولى صلابتها ونزعتها البدوية ومن الثانية علومها وثقافتها الادبية . ولا نعلم عن صباه كثيراً ، ولكن الثعالبي الذي ولد قبل وفاة المتنبي باربع سنوات والذي دوَّن في كتابه الشهير «يتيمة الدهر» اخبار شعراء عصره ومن تقدّمهم قليلا ذكر ان اباه سلّمه الى المكاتب وردّده في القبائل ،وانه توفي وقد ترعرع ابو الطيب وشعر وبرع[2].ونقل البغدادي عن ابي القاسم الاصفهاني انه كان يختلف الى كتَّاب فيه اولاد اشراف الكوفة فكان يتعلّم دروس العلوية لغةً وشعراً واعراباً الخ[3]. ويذكر البديعي الدمشقي في الصبح المنبي انه تعلم القراءة والكتابة وانه اخذ اكثر علمه من ملازمة الورّاقين[4] (باعة الكتب) . وفي مقدمة شرح اليازجي للديوان انه لقي كثيرين من اكابر علماء الادب منهم الزجَّاج وابن السرّاج والاخفش وابن دريد وابو علي الفارسي وغيرهم ، وتخرّج عليهم فخرج نادرة الزمان في صناعة الشعر . فيستدلّ من هذا ان شاعرنا تعلم القراءة في المكاتب على عادة الصبيان ، وكان ذكيًّا محبًّا للاستزادة فلازم الورّاقين يطالع دفاترهم وحضر حلقات العلماء في زمانه

وهناك امر آخر نعلم عن صباه ، وهو تردّده الى بادية السماوة واقامته زمناً بين

---

(١) اليتيمة ج ١–٧٨

(٢) " " ١–٧٩ (٣) خزانة الادب ١–٣٨٢

(٤) الصبح المنبي على هامش العكبري ١–٦

اعرابها . ويستنتج من مختلف الروايات ان تردّده كان اولاً الى بادية الكوفة ، ثم انتقل وهو حوالى السابعة عشرة من عمره الى بلاد الشام . وفي هذا الطور من حياته شيء من الغموض اذ لا تراه مستقراً في مكان خاصّ ، فتارة في المدن، وطوراً بين قبائل البادية ، يمدح بعضاً من ذوي النفوذ ، ولكنه لا يجد في مدحهم ما يروى ظمأ نفسه النزّاعه الى العلى .

وهكذا يعبس له الدهر فيشب ناقماً ثائراً ،ويتاح له ان يتصل في البادية بقبائل بني كلب، ويدرك نزعاتهم الى التمرّد ، فيتمكن ببلاغته وحماسة الشباب فيه من تحريكهم تحريكاً يلفت نظر الحكام، فيقبض عليه بامر والي حمص ويلقى في السجن وهو في نحو التاسعة عشرة ولم نتحقق كم بقي فيه تماماً ، ولكننا نستنتج انه بقي مدة غير يسيرة (نحو سنتين) .

وكان اول دخوله السجن يظهر الاستخفاف باهواله — ومن اقواله في ذلك الحين ابيات كتبها الى صديق له يدعى ابا دلف كان يتعهده وهو في السجن(١)

كن ايها السجن كيف شئت فقد ‎ ‎ ‎ وطّنت للموت نفس معترف
لو كان سكناي فيك منقصةً ‎ ‎ ‎ لم يكن الدرّ ساكن الصدف

على انه لقي في السجن عذاباً شديداً ، فقد وضعوا القيود في رجليه وعنقه(٢). ولما طال اعتقاله نفد صبره فارسل الى الوالي قصيدة يستعطفه ويعتذر اليه بصغر سنه قال منها —

امالكَ رقّي ومَن شأنهُ ‎ ‎ ‎ هبات اللُجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجاء ‎ ‎ ‎ والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلاء ‎ ‎ ‎ واوهن رجليَّ ثقل الحديد
وقد كان مشيهما في النعال ‎ ‎ ‎ فقد صار مشيهما في القيود
تُعجّل فيَّ وجوب الحدود ‎ ‎ ‎ وحدّي قبل وجوب السجود
وقيل عدوتُ على العالمين ‎ ‎ ‎ بين ولادي وبين العقود
فمالك تقبل زور الكلام ‎ ‎ ‎ وقدر الشهادة قدر الشهود

وهذه الابيات نفثات رجل متضايق نفد صبره وخاف مغبة الامر . ثم راح يستثير عواطف الوالي ورحمته فقال

---

(١) شرح الواحدي (برلين) ٨٠ ‎ ‎ (٢) هامش العكبري ١—٣٩

بيدي ايها الامير الاريبُ لا لشيء الاّ لاني غريب
او لامّ لها اذا ذكرتني دم قلبٍ بدمع عينٍ يذوب
ان اكن قبل ان رايتك اخطأت فاني على يديك اتوب

قال ابن خلكان ثم استتابه الوالي واطلقه[١]. ولكن من اي شيء استتابه ؟ هنا تتضارب آراء المؤرخين . فابن خلكان يجعل ادعاءه النبوّة سبب سجنه وقد تبعه في ذلك كثيرون ، وهو قول يحتمل الشك ، فان بين معاصري ابن خلكان او من تقدّمهم من يزعم غير ذلك بدليل قوله « وقيل غير ذلك »[٢]. اما الثعالبي فجعل السبب انه دعا الى بيعته قوماً من رائشي نبله ولما ذكر النبوءة قال : ويحكى انه تنبأ في صباه وفتن شرذمة بقوّة ادبه وحسن كلامه[٣]. وفي كلام الثعالبي إشعار بالشك في الحكاية ، وقد نقل تعزيزاً لهذا الشك ما رواه ابن جني تلميذ المتنبي وشارح ديوانه اذ قال سمعت ابا الطيب يقول انما لقّبت بالمتنبي لقولي[٤]

انا ترب الندى وربّ القوافي وسمام العدى وغيظ الحسود
انا في امّة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

وعن العمدة[٥] ، زعم ابو محمد عبد الكريم بن ابرهيم النهشلي ان ابا الطيب سمّي متنبياً لفطنته

ويتناول البديعي صاحب الصبح المنبي المتوفى ١٠٧٣ هـ ، اي بعد المتنبي باكثر من سبعة قرون ، هذه المسألة وينقل لنا بعض حكايات عن نبوته لا يسع المتأمل الا ان يتردّد في قبولها على علّاتها ، اولاً لتراخي المدة بينه وبين الشاعر ، وثانياً لما فيها من الاضطراب ، وثالثاً لانه ليس في ما ذكره معاصروه ما يثبتها . والذي يصح ان نستنتجه علمياً من الروايات المختلفة ان المتنبي وهو في اوائل شبابه ظهر في البادية على راس فئة من الاعراب ناقمة على

---

(١) وفيات الاعيان ١—٦٤
(٢) " " "
(٣) اليتيمة ١—٨٠
(٤) اليتيمة ١—٨٠ وشرح العكبري ٢٠١ ج ١
(٥) العمدة ١—٦٥

اولي الامر[١]، وانه كان بفطنته وفصاحته يستهويهم الى غاياته من حب الظهور والرئاسة ٠ ولكن امره لم يتم فالقي القبض عليه واودع السجن ثم خرج منه ، وما عتم ان لصق به لقب المتنبي[٢] ٠

بعد السجن الى اتصاله بسيف الدولة (٣٢٣ - ٣٣٧)

ولما اطلق سراحه اخذ يجول في اقطار البلاد الشامية مادحاً اعيانها ٠ بقي على هذه الحال بضع سنوات[٣]، حتى اتّصل سنة ٣٢٨ بالامير العربي بدر بن عمّار وكان يتولى الجيش في طبريا ، فلزمه ومدحه ، وقد رأى فيه ضالته المنشودة من كرم ورجولة ومجد قومي ٠ ولكن اتصاله به لم يطل[٤]، فقد دخلت بينهما مكايد الحسّاد والمناوئين حتى اضطرّ الى تركه والرجوع الى ما كان عليه من التنقُّل في الاقطار ٠ وله في هذه المدّة من الشعر ما يكاد يبلغ نصف ديوانه واهم ممدوحيه فيها —

بدر بن عمار ٦ قصائد ٠ آل اسحق التنوخي ٧ ٠ ابنا يحيى البحتري ٣ عبدالله بن خلكان ٢ ٠ شجاع الطائي ٢ ٠مساور الرومي ٢ ٠ المغيث العجلي ٢ ٠علي بن محمد التميمي ٢ الامير محمد بن طغج وابو العشائر الحمداني ٦ ٠ ونحو ٢٥ ممدوحاً قصيدة قصيدة

وشعره في بعض هؤلاء من الطبقة الاولى — كقصائده التالية

في الخد ان عزم الخليط رحيلا

بقائي شاء ليس هم ارتحالا

---

(١) راجع الواحدي ٨٣ وتعليقه على عمره واجتماع العصاة اليه

(٢) نلفت النظر هنا الى راي المستشرق بلاشير الذي يرى ان اولي الامر توهّموا ان لقيامه في بني كلب علاقة بحركة القرامطة (راجع دائرة المعارف الاسلامية — تحت المتنبي وتحقيق الاستاذ محمود شاكر اخذاً برواية الانباري ٣٦٩ ان المتنبي لم يدّعِ النبوة بل ادّعى النسب العلوي وانه لاجل ذلك حبس ثم استتيب (المقتطف مج ٨٨ ج ١ ص ٤٩)

(٣) زار في اثنائها الكوفة وبقي فيها مدة بقرب جدّته

(٤) لعله لم يكن اكثر من سنتين الى ثلاث

لا افتخار الا لمن لا يضام

افاضل الناس اغراض لذا الزمن

لك يا منازل في القلوب منازل

اطاعن خيلًا من فوارسها الدهر

بابي الشموس الجانحات غواربا

وغير ذلك من القصائد العامرة التي يردّدها الخاص والعام في كل مكان

على انه لم ينل في هذه السنوات ما يستحق الذكر . وما زال هذا دابه ينتقل من مكان الى آخر حتى القته المقادير الى انطاكية، وكان فيها ابو العشائر الحمداني والياً من قبل سيف الدولة ، فمدحه المتنبي . ولحسن حظه قدم انطاكية في تلك الاثناء سيف الدولة ، فقدّم ابو العشائر المتنبي اليه واثنى عليه ، وكان ذلك بدء اتصاله بهذا الامير الشهير ، وبدء سعادته من جاهٍ ومال وفير

في حلقة سيف الدولة (٣٣٧—٣٤٦)

كانت حلب ايام المتنبي عاصمة لامارة عربيـــة تشمل الجزيرة وشمالي سوريا ، اميرها علي بن حمدان الملقّب بسيف الدولة. وقد اشتهر هذا الامير بجهاده في محاربة الروم حتى بلغت غزواته نحو اربعين[1] . وكانت ساحة جهاده منطقة الثغور — اي المدن والحصون الواقعة على حدود الروم (الاناضول) ، ومنها انطاكية وزِبَطره وملطيه والحدث وخرشنه ومرعش وغيرها ، مما يرد ذكره كثيراً في شعر المتنبي . ولم يكن سيف الدولة موفقاً في كل غزواته الرومية ، ولكنه احرز في تاريخ العرب مجد المجاهد الكبير . والذي يلفت النظر تنازع امراء المسلمين انفسهم يومئذ وتناحرهم على السيادة — فبنو حمدان في حلب ، وامراء مصر الاخشيدية ، وبنو بويه في بغداد كانوا في نزاع مستمر وعداوة مستحكمة . وقد تمكن سيف الدولة بسخائه وعطفه على الادب ، ولكون امارته موئل الروح العربية في ذلك

(١) اليتيمة ١—١٧

العصر ، ان يجمع حوله حلقة من كبار الادباء والعلماء ممن كان يجزل لهم العطايا ، تخلدوا اسمه في سماء الادب. ومن هؤلاء ابن عمه ابو فِراس ، ومعلّمه ابن خالويه، وابو الفرج الببغا، وابو عبدالله الخليع، والوأوأ الدمشقي ، وابو بكر وابو عثمان الخالديان ، وابو الطيب اللغوي، والسريّ الرفّاء ، وابو علي الفارسي ، وابن نباتة ، ثم ابو الطيب المتنبي ، والصنوبري ، والفارابي ، والاصفهاني صاحب الاغاني وامثالهم .

ولما اتصل به شاعرنا نال الحظوة عنده والرعاية الخاصة : جاء في الصبح المنبي ان سيف الدولة قرّبه واجازه الجوائز السنيّة، ومالت نفسه اليه واحبه ، فسلمه للروّاض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة[١]. وقد صحب المتنبي اميره في بعض غزواته واظهر من الفروسية والشجاعة ما يذكر له : رووا انه في احدى تلك الغزوات تراجع الجيش ولم يثبت غير سيف الدولة وستة رجال احدهم المتنبي[٢]. وقد يشكّ في هذه الرواية ولكن مما لا شك فيه ان شعره يفيض بروح الشجاعة والاقدام ، ولا نرى في حياته ما يناقض ذلك.

. . .

دخل المتنبي حلقة سيف الدولة ، وفيها من ذكرنا من كبار الشعراء والادباء ، فعظم على البعض منهم ان ينال ما ناله من الامير ، وزاد غيرتهم منه وكرههم له ما في نفسه من صلابة وتعاظم . وانك لتلمح في شعره ما كان يقاسيه منهم ، وقد اضطر ان يطعنهم بقوافيه كقوله —

ازل حسد الحسَّاد عني بكبتهم   فانت الذي صيَّرتهم لي حسَّدا

وقوله —

افي كل يوم تحت ضبني شويعر   ضعيف يقاويني قصير يطاول

وقوله —

باي لفظ تقول الشعر زِعنفة   تجوز عنك لا عُرب ولا عجم

الى غير ذلك من سمات التحقير التي قلما تخلو منها قصيدة من قصائده في سيف الدولة.

---

(١) راجع الصبح المنبي هامش العكبري ١—٥٤

(٢) " " " " ١—٥٥

ولم يكن حساده ليسكتوا عنه ، فاخذوا يكيدون له ويحاولون الايقاع به ، ولا سيما الامير ابو فراس الشاعر المشهور[١]. فمن ذلك ما نقله البديعي عن ابن الدهان في المآخذ الكندية : « قال ابو فراس لسيف الدولة ان هذا المتسمّي كثير الادلال عليك ، وانت تعطيه في كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ، ويمكن ان تفرّق مئتي دينار على عشرين شاعراً ياتون بما هو خير من شعره »[١] (وفي خزانة الادب ان ما ناله في اربع سنين ٣٥ الف دينار)[٢]، فتاثر سيف الدولة من هذا الكلام وعمل به .

فسيف الدولة بعد ان خص الشاعر بالعطف ، وبعد ان نظم فيه نحو ٤٨ قصيدة عامرة (وهي لا تقل عن ثلث ديوانه) تولاّه انحراف عنه واصغى الى اقوال خصومه فيه . ولم يُجدِ الشاعر استعطافه وتنويهه بالرحيل عنه، فتجرأُوا عليه حتى كان ما كان من ضرب ابن خالويه له بالمفتاح في حضرة سيف الدولة . وراى المتنبي انه لا يستطيع دفاعاً وانتقاماً في حضرة امير نافر منه ، وخصوم يتربصون به ، فترك حلب بدعوى المسير الى اقطاع له[٣]، وفي نفسه ما فيها من الغيظ ، وقصد الشام فالرملة . ثم طلبه كافور الى مصر فتلكأَ اوّلاً ، ثم رحل اليه ونفسه تسوّل له انه سيبلغ هناك من المجد ما يغيظ الحاسدين — وقد صرح بذلك اذ قال

ابا المسك ارجو منك نصراً على العدى وآمل عزًّا يخضب البيض بالدم
ويوماً يغيظ الحاسدين وحالةً اقيم الشقا فيها مقام التنعم

ولكنه لم يبلغ ما كان يروم

في مصر (٣٤٦ — ٣٥٠)

مرّ معنا ان مصر كانت في يد الاخشيدية بني طغج ، وهم امراء يرجع نسبهم الى ملوك فرغانه . ولما هبط المتنبي مصر كان اميرها الحقيقي قاصراً ، وقيّم المملكة الاستاذ كافور ، وهو عبد اسود كان مولى لبني طغج ، ولكنه كان — على ما يظهر — داهية فاستبد بامور مصر واصبح هو الآمر الناهي ، او كما قال شاعرنا فيه

(١) يرى الاستاذ محمود شاكر ان المتنبي كان يحب خولة اخت سيف الدولة وان سيف الدولة وعده سرًّا بها فاتصل ذلك بعلم ابي فراس وكان سبباً في العداوة بين الرجلين المقتطف مج ٨٨ ج ١ ص ١٣٤

(١) راجع الصبح المنبي هامش العكبري ١ — ٦٥

(٢) خزانة الادب ١ — ٣٨٤

(٣) " " " "

يدبّر الملك من مصر الى عدن　　الى العراق فارض الروم فالنوب

قال ابن خلكان وكان يدعى له على المنابر بمكة والحجاز جميعه والديار المصرية وبلاد الشام[١]

قصد شاعرنا كافوراً تتنازعه عاطفتان — الاولى ما كان يشعر به من الغيظ لما اصابه في حلب ، والثانية رغبته ان يحصل بواسطة كافور على ولاية . اما غيظه من سيف الدولة فلم يصل الى حد البغض ، اذ بقيت في نفسه بقية من الحب والوفاء له . وقد صرّح بذلك في بعض قصائده لكافور كقوله

فلو كان ما بي من حبيب مقنَّع　　عذرت ولكن من حبيب معمَّم
رمى واتقى رمي ومن دون ما اتقى　　هوى كاسرٌ كفي وقوسي واسهمي

ولذا وصف الثعالبي شعره « بجمال الرمز والاشارة كجمعه بين مدح سيف الدولة حين فارقه ومدحه لكافور »[٢] . واما رغبته في الولاية او الامارة فكان يلمّح اليها تلميحاً لم يخف على احد — كقوله

وما رغبتي في عسجد استفيده　　ولكنَّها في مفخر استجدّه

وقوله

وغير كثير ان يزورك راجل　　فيرجع ملكاً للعراقين واليا

وقوله

قالوا هجرت اليه الغيث قلت لهم　　الى غيوث يديه والشآبيب
الى الذي تهب الدولات راحته　　ولا يمنُّ على اثار موهوب

الى غير ذلك من الابيات التي تُشعر بما كان يتطالّ اليه او ما كان يحدّث نفسه به . وقد نقل البديعي انه طلب ان يوليه صيدا من بلاد الشام ، او غيرها من بلاد الصعيد[٣] وبين هاتين العاطفتين — الغيظ والطمع — مدح كافور بعشر قصائد هن من اخر ما نظمه وسياتي ذكرها

---

(١) وفيات الاعيان ٢—١٨٨ . راجع سيرته في خطط المقريزي ٢—٢٦
(٢) اليتيمة ١—١٥٨　　(٣) الصبح المنبي شرح العكبري ١ — ١١٥

على ان اتصاله بهذا الامير لم ينله مراده . نعم نال منه كثيراً من الخلع والجوائز والاموال ، ولكن الامر الذي كان يصبو اليه ، تلك الامنية التي شغلت عقله — ولا سيما بعد ان وعده كافور بان يبلغه جميع ما في نفسه[1] — لم يأنس في وجه ممدوحه غير الاعراض عنها ، فاضطربت روحه حتى صار يستثقل وجوده في مصر ويتمنى الخروج منها

ولحظ ذلك منه كافور فخاف ان هو اطلقه ان ينقلب عليه بالطعن ، وهو المستبد بحكم مصر دون مليكها الحقيقي ، فمنعه من الرحيل . وظل على هذه الحالة المزعجة سنته الاخيرة في مصر لا يلتقي كافوراً الا ان يركب فيسير معه في الطريق لئلا يوحشه[2] . وله في ذلك قصيدة غراء يصف بها حاله ويصف حمى اصابته ، مطلعها

ملومكما يجلُّ عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام

وهي من بدائعه وسيرد ذكرها . وكان في اثناء ذلك يعد العدّة للهرب حتى تمكن منه يوم عرفة سنة ٣٥٠ ﻫ ، فقصد العراق ووصف مسيره بقصيدة مطلعها

الا كلُّ ماشية الخيزلى فدى كل ماشية الهيدبى

وفيها يعدِّد الاماكن التي مرَّ بها ، ويصف شجاعته واقدامه بابيات تنضح بالكبر كقوله

لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم اني الفتى
واني وفيت واني ابيت واني عتوت على من عتا
ومن يك قلبٌ كقلبي له يشقُّ الى العز قلب التَّوى

ثم يختمها بهجاء كافور . وله في هجائه بضع قصائد اوحاها اليه حب التشفي والفشل

بين العراق وبلاد فارس

خاتمة حياته (٣٥٠ — ٣٥٤) . ترك مصر في اواخر ٣٥٠ ﻫ قاصداً الكوفة فوصلها في جمادى ٣٥١ واقام فيها[3] ، ثم امَّ بغداد . ولا نعلم متى كان ذلك بالضبط ، ولكننا نعلم انه

---

(١) الصبح المنبي ١ — ١١٣ وفيات الاعيان ١ — ٦٤ وفي العمدة ١٠ — ٤٥ انه وعده بولاية بعض اعماله (٢) شرح اليازجي ٥٤٨ (٣) الصبح المنبي ١ — ١٤٤

بقي في العراق نحو ثلاث سنوات – والارجح انّه قضى منها سنتين في الكوفة . وكانت بغداد يومئذ بيد معزّ الدولة البويهي ، وكان وزيره المهلبي يأمل ان يقصده المتنبي ويمدحه اسوة بالكبراء الذين مدحهم ، ولكن الشاعر ترفع عنه ذهابا لنفسه كما قال الثعالبي عن مدح غير الملوك[١] ، او لنفوره من سخافة المهلبي واستهتاره بالهزل[٢] ، فنقم الوزير ذلك منه وحرّض عليه شعراء بغداد حتى نالوا منه وتباروا في هجائه وتماجنوا وتنادروا ، فلم يجبهم ولم يفكر فيهم[٣] . وقيل له في ذلك ، فقال اني فرغت من اصابتهم بقولي لمن هم ارفع طبقةً منهم في الشعراء –

ارى المتشاعرين غُروا بذمي ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فمٍ مرٍّ مريض يجد مرًّا به الماء الزلالا

وبقولي –

واذا اتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي باني كامل

قال ابن رشيق ان المتنبي حين بُلي بمجاقات ابن حجاج البغدادي سكت عنه اطّراحاً واحتقاراً ، ولو اجابه لما كان هو بحيث هو من الانفة والكبر ، لانه ليس من انداده ولا من طبقته[٤]

وجرت له مع ابي علي الحاتميّ حادثة ذكرها ابن خلكان في سيرة الحاتمي وذكرها البديعي في الصبح المنبي ، وسيرد ذكرها في كلامنا عن اخلاقه

ولما لم يطب مقامه في بغداد فارقها ليلًا متوجهاً الى ابي الفضل ابن العميد مراغماً للوزير المهلّبي ، فورد ارّجان ومدح ابن العميد باربع قصائد ، واحمد مورده عنده

وكان الصاحب بن عبّاد يطمع في زيارة المتنبي اياه في اصبهان ، واجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان ، وهو اذ ذاك شاب وحاله حويلة ، ولم يكن قد استوزر بعد ، فكتب اليه يلاطفه ، لكن المتنبي لم يقم له وزنا ولم يجبه عن مراده[٥] ، فكان ذلك سبب عداوة الصاحب له والطعن فيه وانشائه رسالة في مساوىء شعره .

---

(١) اليتيمة ١–٨٥ (٢) خزانة الادب ١–٣٨٦
(٣) " "
(٤) العمدة ١-٧١
(٥) اليتيمة ١ – ٨٦

وسار شاعرنا الى شيراز قاصداً عضد الدولة فتلقاه بالترحيب . ونظم المتنبي فيه ثماني قصائد ، فاجزل له العطاء ثمّ رجع من شيراز بثروة كبيرة تبلغ مئتي الف درهم ، ما عدا الخلع والهدايا والتحف[1] . وفي طريقه الى الكوفة خرج عليه فاتك الاسدي في نحو عشرين من رجاله وكان مع المتنبي ابنه محمّد ونفر من غلمانه وجمال تحمل امواله وتحفه ، فجرت بينهم موقعة انتهت بمقتل الشاعر وابنه وبعض اتباعه . هكذا قضى ابو الطيب . وعلى مقربة من سواد بغداد وفي رمضان من سنة ٣٥٤ خمدت تلك النفس التي نشأت نزّاعة الى المجد ، حريصة على غرور الدنيا ، فحملت صاحبها تارة على تجشّم الاهوال والضرب في الافاق ، وطوراً على الوقوف في ابواب الملوك والامراء طمعاً ، في « مفخر يستجدّه » او جاه يناله . ولكنه آب بالفشل وترك لنا بفشله من الحكم البالغة ما لا تزال السنة الزمان تردده في كل مكان .

مزاياه الخلقية

برغم ما كان يظهر في شعر المتنبي من التزلّف والاستجداء وبرغم بعض مساوئه التي قلما يخلو منها انسان ، نرى له صفة عامة تتخلل جميع صفاته وتتجلى لنا عند التأمل في ذاته ، وهي « صلابة النفس » . وقد طبعت شعره بطابع خاص يعرفه كل من درسه ، واهم ظواهرها — التعاظم والطمع بالمجد مقرونين بشيء من عدم الكياسة : واليك بيان ذلك

تعاظمه او اعتداده بنفسه

لم يكن المتنبي وحيداً بين الشعراء في هذه المزية ، ولكنه بلغ منها ما لم يبلغه سواه حتى ولا ابو تمام . وفي اخباره شواهد لا تترك للشك مجالاً — منها ما يلي

١ — انه لما اتصل بسيف الدولة اشترط عليه ان لا ينشده الا وهو قاعد وان لا يقبل الارض بين يديه[2] . وقد ذكر ابن خلكان انه لما انشد قصيدته « لكل امرىء من دهره ما تعوّدا » قال بعض الحاضرين يريد ان يكيده : لو انشدها قائماً لأسمع ، فقال ابو الطيب

---

(١) الصبح المنبي هامش العكبري ١—٢٢١

(٢) « « « « ١—٤٧

اما سمعت اولها : لكل امرىء من دهره ما تعوّدا [١]

ويظهر مما نقله البديعي ان سيف الدولة كان حيناً يغتاظ من تعاظمه ويجفو عليه اذا كلمه [٢]. ولعل لذلك علاقة بنجاح اعدائه في تنفير الامير منه، كما ان لفشله في مصر علاقة بما كان يراه كافور من تعاليه في شعره [٣].

٢ — سوء سياسته وعدم مداراته. فانه بعد ان كان ايام خموله يمدح القريب والبعيد ويصطاد كما قال الثعالبي ما بين الكركي والعندليب [٤]، اخذت نزعة الكبر تشتد فيه حتى صار في ابّان شهرته يترفع عن غير الملوك والامراء، وينظر الى سواه نظر الكبير الى الصغير . وكان ابو علي الفارسي يستثقله لما ياخذ به نفسه من الكبر [٥] : ومن شواهد ذلك ما جرى له مع وزير كافور ومع الوزير المهلّبي والصاحب بن عباد وسواهم

ومن رسالة الحاتمي يلمح ما كان يرى فيه زملاؤه من روح التشامخ . وهذه الرسالة كتبت في مساوىء المتنبي، وكاتبها من ادباء بغداد الذين اغراهم المهلبي به. قال صاحبها : لما ورد احمد بن الحسين المتنبي مدينة السلام منصرفاً عن مصر ومتعرضاً للوزير ابي محمد المهلبي التحف رداء الكبر واذال ذيول التيه، ونأى بجانبه استكباراً، وثنى عطفيه جبريةً وازوراراً، فكان لا يلاقي احداً الاّ اعرض عنه تيها، وزخرف القول عليه تمويهاً — يخيّل عجباً اليه ان الادب مقصور عليه وان، الشعر بحر لم يرد غير مائه غيره . . . فغبر جارياً على هذه الوتيرة مدّة مديدة — الى ان يقول : وثقلت وطأته على كثير ممن وسم نفسه بميسم الادب، وساء معزّ الدولة احمد بن بويه ان يرد حضرته، وهي دار الخلافة ومستقر العز وبيضة الملك، رجل صدر عن حضرة سيف الدولة بن حمدان — وكان عدوّاً مبايناً لعز الدولة — فلا يلقى احداً بمملكته يساويه في صناعته . وتخيّل الوزير المهلبي رجماً بالغيب ان احداً لا يستطيع مساجلته ولا يرى نفسه كفوءاً له . . . فنهدتُ له متتبعاً عواره ومقلِّماً اظفاره .

ثم يذكر انه قصده على بغلة سفواء في مركب رائع، وان المتنبي لما رآه داخلا وارى شخصه لكي لا يقف له. ثم يصف كيف قوبل هو بالترحيب والتكريم، وان المتنبي لما

---

(١) وفيات الاعيان ١—٦٦ (٢) الصبح المنبي — العكبري ١—٨٣
(٣) وفيات الاعيان ١—٦٤ (٤) اليتيمة ١—٨٢
(٥) الصبح المنبي ١—٢١٠

دخل جلس في صدر المكان ، واعرض عن الحاتمي وابى الا ازوراراً واستكباراً ، حتى كان ما كان بينهما من المناقشة والمساجلة . والرسالة طويلة تدخل في نحو ١٢ كراسة وقد نقل ابن خلكان قسماً منها ، وكذلك البديعي في الصبح المنبي [١].

وقال البديعي : كان الرجل سيء الراي وسوء رأيه اخرجه من حضرة سيف الدولة، وشدة تعرضه لعداوة الناس [٢].

ولا شك ان الحسد وحده لم يكن السبب في عداوة ادباء حلب او بغداد له ، ولو كان المتنبي على شيء من اللطف لما وصل الى ما وصل اليه : ففي طبعه كما قال ابن رشيق غلظة [٣] ، وفي شعره ترى هذا الخلق ظاهراً في كل ادوار حياته .

٣ – شعوره بالتفوق

ومن رسالة الحاتمي المار ذكرها يظهر لك اثر هذا الشعور في نفوس البغداديين – قال الثعالبي كان يخاطب الملوك مخاطبة الصديق والمحبوب ، وهو مذهب تفرّد به رفعاً لنفسه عن درجة الشعراء [٤] . فمن قوله في صباه –

أمط عنك تشبيهي بما وكأنما ... فما احدٌ فوقي ولا احدٌ مثلي

وقوله

ان اكن معجباً فعجب عجيب ... لم يجد فوق نفسه من مزيد

كبرياء ولدت فيه وظهرت في صباه فرافقته الى آخر حياته . وديوانه مشبع بهذه الروح – ماتت جدته فاضطرب لموتها ورثاها فلم يتمالك عن ان يصيح في وجه الزمان

لئن لذّ يوم الشامتين بيومها ... لقد ولدتْ مني لأنفهمِ رغما
تغرّب لا مستعظماً غير نفسه ... ولا قابلاً الا لخالقه حكما
يقولون لي ما انت في كل بلدة ... وماتبتغي؟ما ابتغي جل ان يُسمى
كأنّ بنيهم عالمون بانني ... جلوب اليهم من معادنه اليتما
واني لمن قوم كأن نفوسهم ... بها أنفٌ ان تسكن اللحم والعظما

---

(١) وفيات الاعيان ٢–٣٣٢ وهامش شرح العكبري ١ من ١٤٤–١٧٣

(٢) هامش العكبري ١–١٢٣ (٣) العمدة ١٣٣ (٤) اليتيمة ١–١٣٩

كذا انا يا دنيا اذا شئت فاذهبي ويا نفس زيدي في كراهتها قُدما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزّني ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

ومدح ابا سهل الانطاكي فلم يلبث حتى تغلب عليه طبعه فقال

ابدو فيسجد من بالسوء يذكرني فلا اعاتبه صفحاً واهوانا
وهكذا كنت في اهلي وفي وطني انّ النفيس غريب اينما كانا
محسّد الفضل مكذوبٌ على اثري القى الكميَّ ويلقاني اذا حانا

وهذا الشعور بالتفوّق كثيراً ما يظهر في شاعرنا بمظهر الشجاعة البالغة حدّ التهور . انظر اليه في مجلس سيف الدولة — في جو مشبع بروح العداء له وحوله خصوم الدّاء كابي فراس وابن خالويه واضرابهما ، وقد حملوا سيف الدولة على الاعراض عنه وسوء الظن به ، فلم ينخفض له جناح ، ولم تستول عليه رهبة ، بل عاتب الامير ثم اشار الى من حوله وقال بنفس تفيض كبرا

سيعلم الجمع ممن ضمّ مجلسنا بانني خير من تسعى به قدم
انا الذي نظر الاعمى الى ادبي واسمعت كلماتي من به صمم
وجاهلٍ مدّه في جهله ضحكي حتى اتته يدٌ فرّاسة وفم
اذا رايت نيوب الليث بارزةً فلا تظننَّ ان الليث يبتسم
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ويكره الله ما تاتون والكرم
ما ابعد العيب والنقصان من شرفي انا الثريا وذان الشيب والهرم

ومنها يلمّح بعزمه على الرحيل —

لئن تركنا ضُميرا عن ميامننا ليحدثنَّ لمن ودّعته ندم

وهذه القصيدة شهيرة وفيها تتجلى نفسية هذا الرجل الغريبة

ومن ادلّة شجاعته بل تهوره ما ذكره ابو نصر الجبلي للخالدّيين عن مقتله ، والرجل شاهد عيان راى الشاعر قبيل مقتله وحادثه وقد حذّره من فاتك الاسدي ورجاله ونصح له ان يستصحب معه من يخفره ، فاجابه المتنبي والله لا ارضى ان يتحدث الناس اني سرت في خفارة احد غير سيفي — معاذ الله ان اشغل فكري بهم لحظة عين . قال فقلت له قل : ان شاء الله . فقال هي كلمة مقولة لا تدفع مقضياً ولا تستجلب آتيا ، ثم ركب فكان آخر

العهد به . ذكر ذلك البديعي في حديث طويل[١] . وقد حاول بعضهم ان ينسب اليه الخوف والحذر ولكن سيرته لا تدل على ذلك ، وقد صدق الباقلاني اذ قال « وكان المتنبي من اهل الشجاعة[٢] »

طموحه الى المجد

خلق المتنبي طموحاً الى المراتب العالية طامعا بالحصول على مجد الدنيا .

اهمُّ بشيء والليالى كأنها ... تطاردني عن كونه وأطارده
وحيد من الخلّان في كل بلدةٍ ... اذا عظم المطلوب قلّ المساعد

صفة ظاهرة في كل حركاته واقواله — فمنذ كان فتى في السابعة عشرة من عمره يحدثنا شاهد عيان بهذيانه في ذلك[٣] . وما الحركة التي سجن لاجلها الاّ دليل على هذه النزعة في نفسه . ولما فشل في اول عهده تحوّل نظره الى المال ، والى وجوب حشده لا بخلًا او حباً بالمال لنفسه ، ولكن توصلًا به الى غاياته . ولعلّه تذكّر حادثة جرت له في الكوفة وهو غلام رواها البديعي في الصبح المنبي[٤] . وخلاصتها انه اراد ان يشتري بطيخا من بائع فلما ساومه على الثمن جبهه البائع واحتقره ، ثم جاء تاجر غني فرحّب به البائع وباعه البطيخ محمولا الى البيت بابخس مما عرض عليه المتنبي . ولما رجع كلّمه المتنبي في ذلك فقال اسكت — هـذا يملك مئة الف دينار . فوقع في نفس شاعرنا منذ ذلك الحين حب المال والحرص عليه ، وان الناس لا يحترمون غير صاحبه . وفي شعره ما يدل عـلى ما كان في نفسه من ذلك كقوله —

واتعب خلق الله من زاد همّه ... وقصّر عما تشتهي النفس وجده
فلا ينحلل في المجد مالك كله ... فينحلّ مجد كان بالمال عقده
ودبّره تدبير الذي المجد كفه ... اذا حارب الاعداء والمال زنده
فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ... ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

---

(١) الصبح المنبي على هامش العكبري ج ١ من ٢٢٨—٢٣٩
(٢) اعجاز القرآن ١٢٦
(٣) الصبح المنبي (العكبري) ١—٢٥
(٤) الصبح المنبي ١—٨٣

وقد ذكروا بعض حكايات عن حرصه وجشعه[1]، ولكنها عند التدقيق لا تدلُّ الاّ على حزمه وحسن تقديره للمال ومعرفته باحوال الدنيا . ولعل بعضها من تلفيق حساده كقصّته مع سيف الدولة ، رويت عن ابي الفرج الببغا وصوّر فيها المتنبي اولاً رجلاً ذا كبر واباء لا يمدُّ يده كما فعل سائر الشعراء ، ثم تتغيّر الصورة بغتة فيظهر فيها دنيئاً جشعاً — كل ذلك في مدة لا تتجاوز الدقائق القليلة .

كلا لم يكن المتنبي حشاداً للمال مخافة الفقر ، وقد قال

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

ولكنه كان يعرف قيمته وتأثيره في اكرام الناس له : كان شاعرنا معجباً بنفسه حريصاً ان يعجب الناس بها ايضاً ، ورأى في المال وسيلة لبلوغ ذلك فصار بعد خروجه من السجن يجوب الاقطار للحصول عليه ، ولكنه بقي حتى اتصاله بسيف الدولة لا ينال من ممدوحيه الا الشيء اليسير . ورأى سني شبابه تطوى على الفقر والفشل فغلب عليه الكدر من الناس ولا سيما اولي الامر منهم ، وكثر تشكّيه من الزمان واشتداده عليه ، فظهر ذلك في شعره كما سيجيء .

ولما اتصل بسيف الدولة اخذت الدنيا تبتسم له ، ونال عند ممدوحه ما كان يصبو اليه من كرامة ومال ، فطابت نفسه وقصر شعره على ذلك الامير العربي يصف غزواته ويمدح اخلاقه . وباقبال الدنيا عليه لم يخمد في نفسه ذلك الكبر الذي طبع عليه فكثر حساده ومبغضوه . ولم يكن دمثاً او لين العريكة بل غلبت عليه صلابة الراي ، مما ادى الى فتور الامير نحوه واشتداد الحساد عليه ، فاضطر كما ذكرنا الى ترك حلب وقصد مصر طامعاً بالمجد عن طريق الامارة — وقد مرَّ بنا ما كان من امره في مصر ثم بالعراق وفارس

ولم يكن فشله في مصر كافياً للقضاء على آماله قضاء مبرما ، ولكنه شلَّ مطامعه الى حين ، ودفعه الى استجمام القوى في الكوفة وبغداد نحواً من ثلاث سنوات

ثم تراءت له فارس ورأى الفرصة السانحة فقصد عضد الدولة وراى في حضرته ما جدد آماله . ولا نعلم ما كان يدور في خلده يومئذ ، وقد نال الغنى الوافر واصبحت شهرته تملأ الخافقين . يحدثنا المؤرخون انه ترك بلاط عضد الدولة قاصداً الكوفة — لاي غرض ؟

(١) اليتيمة ١—٨٥ والصبح المنبي (العكبري) ١ ص ٧٣—٨٣

لا ندري. ولكن البديعي يروي في الصبح المنبي[1] انه استأذن عضد الدولة في المسير ليقضي حوائج في نفسه ثم يعود اليه فاذن له . فما الذي كانت تسوّل له نفسه ؟ وما كان يؤمل ان يبلغه على يد هذا الملك البويهي الكبير ؟ ذلك ما اسدل عليه الحمام حجاباً لا سبيل الى نفاذه

عصبيته ونسبه

في نفس المتنبي وفي شعره نزعة عربية شديدة ، ولا غرابة فهو عربي يمني ينتمي الى قبيلة جُعفي من جهة الاب والى همدان من جهة الام. زد على ذلك انه كان في عصر ضعفت فيه شوكة العرب واصبحت اكثر البلدان الاسلامية في ايدي امراء من الفرس والترك ، فاوقد ذلك في نفوس العرب غيرة قومية زادها اضطراماً تلك المشادَّة بين الشعوبية والعربية، وما كان يرمي اليه الفريقان من الانفراد بالذكر والفخر . ولا نعلم هل كان شاعرنا من الذين اشتبكوا في هذه المعركة الكلامية ام لا ، ولكننا نعلم انه كان متعصباً للعرب والحياة العربية. وقد قوّى هذا التعصب فيه اقامته في البادية مدة طويلة ، وتعوُّده عاداتها ثم اتصاله بسيف الدولة زعيم العرب في عصره. ولذا يكثر في شعره الفخر باصله العربي وذم الاعاجم ، كقوله وقد جرى ذكر ما بين العرب والاكراد من الفضل ، فقال مخاطباً سيف الدولة

ان كنت عن خير الانام سائلا ... فخيرهم اكثرهم فضائلا
من كنت منهم يا همام وائلا ... الطاعنين في الوغى اوائلا
والعاذلين في الندى العواذلا ... قد فضلوا بفضلك القبائلا

وفي قصائده لسيف الدولة تراه يكرر كثيراً ذكر العرب مفاخراً بهم كقوله —

رفعت بك العرب العماد وصيّرت ... قمم الملوك مواقد النيران
انساب فخرهم اليك وانما ... انساب اصلهم الى عدنان

ومثل ذلك كثير في شعره. ومن امثلة تعصّبه للعرب قوله يمدح علي بن ابرهيم التنوخي

احقُّ عافٍ بدمعك الهمم ... احدثُ شيء عهداً بها القِدم

---

(١) هامش العكبري ١-٢٣٢

وانما الناس بالملوك وما تصلح عربٌ ملوكها عجم
لا ادبٌ عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم
لكل ارض وطئتها امم تُرعى بعبد كانها غنم

وتظهر نزعته البدوية في مدحه للاعرابيات ومقابلتهن بالحضريات ، وله في ذلك ابيات مشهورة نذكر بعضها هنا وهي من قصيدته « من الجآذر في زي الاعاريب »

ما اوجه الحضر المستحسنات به كاوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب
اين المعيز من الارام ناظرة وغير ناظرة في الحسن والطيب
افدي ظباءَ فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

وقوله —

ان الذين اقمت وارتحلوا ايامهم لديارهم دول
الحسن يرحل حيثما رحلوا معهم وينزل حيثما نزلوا
في مقلتي رشأٍ تديرها بدوية فتنت بها الحلل
تشكو المطاعم طول هجرتها وصدودها ومن الذي تصل ؟
ما اسأرت في القعب من لبن تركته وهو المسك والعسل

فالمتنبي يمثل في شعره عواطف العرب وخيالاتهم ، وهو كثير التحنان الى معيشتهم فخور بنسبه اليهم (وقد دعا نفسه في قصيدته — مغاني الشعب — « الفتى العربي ») يرى في فرسانهم منتهى الشجاعة وفي حسانهم غاية الجمال : فتراه من هذا القبيل يخالف ابا نواس وسواه من الذين عاشروا الجواري الاعجميات وانغمسوا في اللهو معهنَّ .

وعلى ذكر الجواري واللهو نقول انك لا تجد في حياة المتنبي او شعره ما يدل على ميل الى ترف او عبث ، فقد عاش منذ صباه جادًا رزيناً لا يهتم بما كان يهتمُّ به اكثر الشعراء من شرب مدام او مغازلة حسان ، او انصراف الى المطربات من الالحان :

كقوله —

وغير فؤادي للغواني رمية وغير بناني للزجاج ركاب(١)
تركنا لاطراف القنا كل شهوة فليس لنا الا بهن لعاب

---

(١) ويرويها ابن جني للرخاخ (من ادوات الشطرنج)

اعزُّ مكان في الدنى سرج سابح　　وخير جليس في الزمان كتاب

وخلاصة المعنى اني غير غزل بالنساء او محب للخمر قد قصرت نفسي على الجد في طعان الاعداء وتركت ما تشتهيه الانفس من الملاهي .

وكان جوّه مقروناً بالصدق والصراحة . قال ابن جنّي ما عرفت المتنبي الا صادقا[١] وهنا لا بد من القول ان بعض المؤرخين يزعمون ان اباه كان سقّاء في الكوفة[٢] . ومما قيل فيه

اي فضـل لشاعر يطلب الفضل من النـاس بكرةً وعشياً
عاش حينا يبيع في الكوفة المـاء وحيناً يبيـع ماء المحيا

على اننا اذا دققنا في ذلك نجد ان اهم الثقات الذين دوّنوا سيرة المتنبي يمرّون بهذا الزعم مرور المشكّك . فالثعالبي مثلاً ، وهو كما مرّ بنا قريب العهد بالشاعر (بل يكاد يكون معاصراً له) لم يزد على ان قال « وبلغ ابا الحسين ابن لنكك بالبصرة ما جرى على المتنبي من وقيعة شعراء بغداد فيه واستحقارهم له ، وكان حاسداً له طاعناً عليه زاعماً ان اباه كان سقاء بالكوفة[٣] . وفي رواية الثعالبي ما يُشعر بشكه في صحتها . ومثل الثعالبي ابن خلكان فانه لما اورد هذا الخبر قال ويقـال ان ابا المتنبي كان سقّاء بالكوفة ثم انتقل الى الشام بولده[٢] . ويقول البديعي وكان والده الحسين يعرف بعبدان السقّا ، ثم ينقل عن ابن خلكان ما ذكره عن ابن لنكك وطعنه على المتنبي[٤] . وفي ايضاح المشكل للاصبهاني انه كان في الكوفة يختلف الى كتّاب فيه اولاد الاشراف[٥] . فاذا دققت في هذه الروايات لم تجد فيها خبراً مجزوماً فيه ، بل لا تجد الا اقوالاً يصح ان نشكك فيها ، ويزيدنا تشكيكاً ان سقّاء بالكوفة لا يحظى عادةً بوضع لده في مكاتب الاشراف ، ولا ينتقل به الى بلد بعيد ، فيردّده بين المدن والقبائل . ولسنا هنا بمعرض الدفاع عن والده وتنزيهه عن تعاطي مهنة كالسقاية ، ولكننا لا نستطيع الا ان نظهر شكّنا بذلك اعتماداً على الروايات التي بين ايدينا على ان الرجل كان على ما يظهر فقير الحال مغمور الذكر ، ومع ذلك لم يتأخر عن تسهيل وسائل العلم لولده ، فنشأ الولد (شاعرنا) بين المكاتب والوراقين . ولما ترعرع ونال من

---

(١) الخصائص ١—٢٦٨　　(٢) وفيات الاعيان ١—٦٥ واليتيمة ٨٦
(٣) اليتيمة ١—٨٦　　(٣) وفيات الاعيان ١—٦٥　　(٤) الصبح المنبي ١—٦ و١٧٨
٥ نقلا عن خزانة الادب ج ١ — ٣٨٢

الادب قسطاً ظهرت عليه بوادر الطموح الى العلى، ورأى تطاول المماليك والموالي على اسيادهم، وكثرة القائمين بالدعوات في المملكة العباسية والامارات المختلفة، فحدثته نفسه ان يقوم باعراب البادية، وملكه هذا الوهم حتى حبس وتاب. ولكن حب الرياسة والولاية بقي يدور في راسه[1]، وهو القائل من قصيدة لكافور :—

وفؤادي من الملوك وان كان لساني يرى من الشعراء

شهرته الشعرية

لم ينل شعر عربي من الشهرة ما ناله شعر المتنبي، فهو بعيد الاثر في حلقات الادب شائع بين جميع الطبقات. ولم يكن حظه في عصره باقلّ من حظه اليوم. قال الثعالبي « فليس اليوم مجالس الدرس اعمر بشعر ابي الطيب من مجالس الانس، ولا اقلام كتّاب الرسائل اجرى به من السن الخطباء في المحافل، ولا لحون المغنين والقوالين اشغل به من كتب المؤلفين والمصنِّفين. وقد أُلفت الكتب في تفسيره وحل مشكله وعويصه، وكثرت الدفاتر على ذكر جيده ورديئه، وتكلم الافاضل في الوساطة بينه وبين خصومه، والافصاح عن ابكار كلامه وعُونه، وتفرَّقوا فرقاً في مدحه والقدح فيه، والنضح عنه والتعصب له وعليه. وذلك اول دليل دل على وفور فضله وتقدم قدمه، وتفرده عن اهل زمانه بملك رقاب القوافي ورقّ المعاني »[2]. وبعد موت المتنبي باكثر من قرن نرى الواحدي يقول في مقدمة شرحه « وان الناس منذ عصر قديم قد ولّوا جميع الاشعار صفحة الاعراض مقتصرين منها على شعر ابي الطيب نائين عما يروى لسواه ».

ومن دلائل شهرته ان كبار المترسلين في زمانه وبعده كانوا يستعينون بالفاظه ومعانيه، ومنهم خصمه ابن عباد، وابو بكر الخوارزمي، وابو اسحق الصابي، وابو العباس ابرهيم الضبي[3]. وقال ابن خلكان « واعتنى العلماء بديوانه فشرحوه، وقال لي احد المشايخ الذين اخذت عنهم : وقفت له على اكثر من اربعين شرحاً ما بين مطوّلات ومختصرات ولم يفعل هذا بديوان غيره »[4]

---

(١) اليتيمة ١—٨١ (٢) اليتيمة ١ : ٧٨ — ٧٩

(٣) راجع امثلة ذلك في اليتيمة ١ : ٨٧—٩٣

(٤) وفيات الاعيان ١—٦٣ والصبح المنبي هامش العكبري ١ : ٤٢٨—٤٤٢

ولما تناول البديعي شهرته نقل ما اوردناه من كلام الثعالبي وزاد عليه اسماء شرّاحه ونقاده (مثبتاً بذلك كلام ابن خلكان) ومنهم

ابن جنّي — وهو تلميذه واول من شرحه

ابو العلاء المعري — وله في ذلك اللامع العزيزي ومعجز احمد ، وكان من المعجبين بالمتنبي

الواحدي — المتوفى ٤٦٨ صاحب الشرح المشهور

ابو زكريا التبريزي — ٥٠٢ — تلميذ المعري وشارح المعلقات والحماسة

القاضي ابو الحسن الجرجاني — ٣٦٦ — صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه

العكبري — ٦١٦ — صاحب الشرح المشهور

ومنهم ابن فورجه البرُوجَردي ، والصاحب بن عباد ، والمغربي صاحب الانتصار ، والحاتمي ، والعميدي صاحب الابانة ، وابن الاثير صاحب الاستدراك على ابن الدهان . ويسوق البديعي اسماءهم الى اخر القائمة ثم يقول « سوى الشروح التي لم نسمع بذكرها . ولم يسمع بديوان شعر في الجاهلية ولا في الاسلام شرح مثل هذه الشروح الكثيرة ولا تدوول في السنة الادباء من نظم ونثر اكثر من شعر المتنبي (١) .

ولابن رشيق القيرواني صاحب العمدة جملة مشهورة في المتنبي وهي « ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس » . وطبيعيّ انه لم يشغل الناس على غير طائل ، وما تصدّى له خصومه او دافع عنه مريدوه الا لعلو مكانته ولبعد صيته ، حتى اصبح غرضا لاقلامهم وغاية تتسابق اليها جيادهم

واذا رجعت الى قائمة شرّاحه ونقّاده العديدين تجدهم ثلاث فرق

١ — الذين تحاملوا عليه وراموا الحط من قدره ، ومنهم الصاحب بن عباد والحاتمي والعميدي وابو هلال العسكري وابو الفرج الاصفهاني ، ولعل ذلك كان سبباً لاغفال ذكره في كتابه الاغاني

٢ — الذين لهجوا بفضله وبالغوا باكرامه ، ومنهم ابن جنّي وابن رشيق والواحدي والمعري وابن وكيع والعكبري وابن خلكان والبديعي

(١) الصبح المنبي (هامش العكبري) ١ : ٤٢٣ — ٤٢٧

٣ــ المعتدلون الذين راموا التوفيق بين الطرفين ومنهم الجرجاني والثعالبي وابن الاثير وهم الى قائمة مدّاحه اميل

تناول هؤلاء العلماء شعر المتنبي واسهبوا في ذكر حسناته وسيئاته — والغالب فيهم ان يحذو المتأخر حذو المتقدم — حتى لم يتركوا زيادة لمستزيد. على انهم قصروا همّهم على النقد اللغوي والبياني ولا سيما على السرقات الشعرية، ولهم في هذه الاخيرة خبط واوهام لا طائل تحتها. وقد اجاد البديعي في التمييز بين الممدوح والمذموم من ذلك وبحث في هذه المسالة بحث المنطقي المحقق(١). وخلاصة ما ذكروه ان للمتنبي حسنات وسيئات وان حسناته تنحصر فيما يلي —

(١) دقة الاشارة (٢) حسن التخلص (٣) حسن اختراع المعاني (التشابيه والاستعارات) (٤) وصف القتال وادواته (٥) حسن ضرب المثل

ويقابلها من السيئات

(١) التعمية او الابهام في الكثير من ابياته (٢) شذوذه اللغوي(٢) (٣) تكلفه وتعسفه (٤) جمعه بين البليغ والسفساف في القصيدة الواحدة

وامثلة الوجهين كثيرة تجدها في اليتيمة والوساطة والصبح المنبي وسواها. ولليازجي رسالة وافية في ذيل شرحه (العرف الطيّب) تناول فيها اقوال النقدة وعرضها عرضاً بليغا وقد اشتهرت اقوالهم في ذلك فلتراجع في مظانها، على انه لا بد من القول ان ما ذكروه من حسنات وسيئات يصدق على كل شاعر تقريباً وقد ورد معنا امثلة ذلك في الكلام على ابي تمام والبحتري مما يعدُّ العود اليه الان تكراراً لا فائدة منه

شخصيته الشعرية

بقي علينا ان ننظر في شعر المتنبي من حيث انه مظهر لشخصية تاريخية تتأثر بالمؤثرات الخارجية

---

(١) هامش العكبري ١: ٢٧٤— ٣١٩

(٢) راجع قول ابن رشيق العمدة ١—٨٧ . وقال العسكري في الصناعتين ١١٩ «لا اعرف احداً كان يتتبع العيوب فيأتيها غير مكثرث الاّ المتنبي

وهو عند التحقيق اربعة اطوار —

الطور الاول — يمثل عواطف الشباب ونفثات الالم من الزمان ، وقد نظم في انحاء مختلفة من بلاد الشام وفلسطين والعراق ، ويمتد من زمن الحداثة الى الرابعة والثلاثين من عمره

الطور الثاني — شعره في حلب. نظمه وهو بين الرابعة والثلاثين والثالثة والاربعين وهو يمثل (١) عواطف العظمة والجهاد القومي كما يظهران في سيف الدولة (٢) عواطف الفوز بالدنيا والقلق من الحساد كما تظهر في نفسه

الطور الثالث — شعره في مصر . نظمه بين الثالثة والاربعين والسابعة والاربعين وهو يمثل غيظه من الماضي وآماله الكبيرة بالمستقبل ثم مرارته لفشله

الطور الرابع — شعره في العراق وفارس . نظمه بين السابعة والاربعين والحادية والخمسين ، أمّا في العراق فذكريات سيف الدولة ، واما في فارس فانتعاش امل لم يلبث ان يخمده الحمام . واليك بيان ما تقدم والتدليل عليه من شعره

عواطف الشباب ونفثات الالم من الزمان

راينا في سيرته انه ولد طموحاً متهوساً بالمجد وانه ظل بعد خروجه من السجن حتى الرابعة والثلاثين من عمره فقير الحال يجوب الاقطار معرّضاً نفسه للاخطار والاهوال ، فلم ينل من الدنيا مراما . في هذا الطور يكثر في شعره ذكر المجالدة والاقدام والفخر بالرجولة ويقرن ذلك بذم الزمان واهله والسخط على اولي الامر من رؤساء وامراء ، حتى جعل ابن رشيق اهمّ مزاياه الامثال وذم الزمان[1] . وفيه نرى الكثير من الحكم البالغة التي تهيب بالشباب الى طلب العلى وتحمّل المشاق والبعد عن مواطن الذلّ والضيم . فمن قوله في الاقدام وتحمل المشاق

وَمَهمهٍ جبته على قدمي   تعجز عنه العرامس الذُّلُل

---

(١) العمدة ١٩٤

بصارمي مرتدٍ بمَخبُرتي مجتزىء بالظلام مشتمل
اذا صديق نكرت جانبه لم يُعيني في فراقه الحيل
في سعة الخافقين مضطربٌ وفي بلاد من اختها بدلُ

ومن هذا القبيل يذكر سيره في البوادي ويصف عزة نفسه وشجاعته ويذم الزمان

اواناً في بيوت البدو رحلي وآونةً على قتد البعير
اعرّض للرماح الصمِ نحري وانصب حُرَّ وجهي للهجير
واسري في ظلام الليل وحدي كأني منهُ في قمر منير
فقل في حاجة لم اقض منها على شغفي بها شروى نقير
ونفسٍ لا تجيب الى خسيس وعين لا تدور على نظير
وقلّة ناصر — جوزيتَ عني بشرّ منك يا دهر الدهور

ومثل ذلك قوله يصف جلده ومضاء عزمه

يحاذرني حتفي كأني حتفه وتنكزني الافعى فيقتلها سميّ
طوال الرُدينيّات يقصفها دمي وبيض السُريجيّات يقطعها لحمي
برتني السرى بري المُدى فرددنني اخفَّ على المركوب من نفسي جرمي
وابصر من زرقاء جوّ لانني متى نظرت عيناي ساواها علمي
كاني دحوت الارض من خبرتي بها كاني بنى الاسكندر السدَّ من عزمي

وقال في اهل زمانه مستخفًا بهم وبامرائهم وهو من هذا الطور يكثر اللهج بذلك ويغلو فيه

فؤاد ما تسلّيه مدام وعمر مثل ما تهب اللئام
وما انا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرَّغام
ارانب غير انهم ملوك مفتَّحة عيونهم نيام
خليلك انت — لا من قلت خِلّي وان كثر التجمّل والكلام
وشبه الشيء منجذب اليه واشبهنا بدنيانا الطَّغام

وعلى هذا الوتر يضرب في قصيدته الشهيرة «بابي الشموس الجانحات غواربا» فيذكر الزمان وتحامله عليه ويقول —

كيف الرجاء من الخطوب تخلصاً   من بعد ما انشبن فيَّ مخالبا
اوحدنني ووجدن حزناً واحدا   متناهيا فجعلنه لي صاحبا
ونصبنني غرض الرُّماة تصيبني   محن احدُّ من السيوف مضاربا
اظمتني الدنيا فلما جئتها   مستسقياً مطرت عليَّ مصائبا

وللمتنبي ثلاث قصائد تمثل خوالج نفسه في هذا الطور افضل تمثيل — الاولى في علي بن احمد المرّي ومطلعها — لا افتخار الا لمن لا يضام — نقتطف منها هنا الابيات التالية

ليس عزماً ما مرَّض المرء فيه   ليس همًّا ما عاق عنه الظلام[1]
واحتمال الاذى ورؤية جانيه   غذاء تضوى به الاجسام
ذلّ من يغبط الذليل بعيش   ربّ عيشٍ اخفُّ منه الحمام
من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميِّت ايلام
ضاق ذرعاً بان اضيق به ذرعا زماني واستكرمتني الكرام
واقفاً تحت أخمصَيْ قدر نفسي   واقفاً تحت اخمصَيَّ الانام
اقراراً الذُّ فوق شرار   ومراماً ابغى وظلمي يرام
دون ان يَشرق الحجاز ونجدٌ   والعراقان بالقنا والشام

والثانية في ابي عبدالله الخصيبي قاضي انطاكية — مطلعها افاضل الناس اغراض لذا الزمن — يذم فيها الناس وامراءهم ، ويصف عزمه ودهاءه وصحبته للاعراب ومضاءه في طلب العلى ومنها —

لا اقتري بلداً الا على غَرَرٍ   ولا امرُّ بخلق غير مضطغن
ولا اعاشر من املاكهم ملكاً   الا احقَّ بضرب الراس من وثن
قد هوّن الصبر عندي كل نازلةٍ   وليَّن العزم حدّ المركب الخشن
كم مخلصٍ وعلى في خوض مهلكة   وقتلة قرنت بالذمّ في الجبن
لا يعجبنَّ مَضيما حسن بزَّته   وهل تروق دفينا جودة الكفن
لله حال ارجّيها وتخلفني   واقتضي كونها دهري ويمطلني
مدحت قوماً وان عشنا نظمت لهم   قصائداً من اناث الخيل والحصن

---

(١) مرَّض اي قصَّر

والثالثة في علي بن احمد بن عامر الانطاكي – وفيها تتجلى خوالج الشباب باجلى ظواهرها : ترى نفسه تنتفض كبرا وتيها ، ويتجسم لديك ما فيها من مطامع وآمال . والقصيدة مشهورة نذكر منها على سبيل المثال الثانية الاولى

اطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر
واشجع مني كل يوم سلامتي وما ثبتتْ الا وفي نفسها امر
تمرستُ بالافات حتى تركتها تقول امات الموت ام ذُعر الذعر
واقدمت اقدام الأتيِّ كأن لي سوى مهجتي او كان لي عندها وِتر
ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها فمفترق جاران دارُهما العمر
ولا تحسبنّ المجد زقًا وقينة فما المجد الا السيف والفتكة البكر
وتضريب اعناق الملوك وان ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دويًا كانما تداول سمعَ المرء انمله العشر

. . .

ومما يلاحظ هنا تلك المرارة التي صحبته كل ايام حياته ، وكان منشأها طمعه وما تكبّده من المشاق على غير طائل ، ولا سيما في هذا الطور من حياته . فكان شعره الوجداني الحقيقي اعني الذي يعبّر عن عواطف نفسه مظهراً لما في نفسه من كبرياء حوّلها الفشل الى نقمة وسوء ظن . كقوله

فما لي وللدنيا طلابي نجومها ومسعاي منها في شدوق الاراقم
ومن عرف الايام معرفتي بها وبالناس روّى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم اذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

شعره في حلب

وهو كما ذكرنا يظهر في مظهرين كبيرين – (١ الجهاد القومي والشجاعة الحربية (٢) شعور الشاعر بالفوز وحمله على الحساد

ترى روح الجهاد القومي والحربي في اكثر مدائحه لسيف الدولة ، ولا بدع فقد كان سيف الدولة مجاهداً شجاعاً وكانت حياته حرباً متواصلاً على الروم . وقد صحبه المتنبي

واختبر بنفسه عظائم الحرب واهوال الوقائع : راى الجيوش في ساحة الحرب وخاض غمار القتال مع المجاهدين ، فشاهد الابطال تشتبك بالابطال والفرسان تطارد الفرسان ، والسيوف والرماح تسيل بدماء الاعداء — هبط الاودية وصعّد في النجود وذاق مرارة الهزيمة ولذة الظفر فابدع في وصف ذلك غاية الابداع . ولقد صدق ابن الاثير اذ قال في الحكم على شعره « انه اذا خاض في وصف معركة كان لسانه امضى من نصالها واشجع من ابطالها ، وقامت اقواله للسامع مقام افعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا . فطريقه في ذلك تضل بسالكه وتقوم بعذر تاركه . ولا شك انه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة بن حمدان فيصف لسانه ما ادّى عيانه »(١) . وقال ابن رشد في ترجمة كتاب الشعر لارسطو ذاكراً وصف الحروب والوقائع « والمتنبي افضل من يوجد له هذا الصنف من التخيل . وذلك كثير في اشعاره ، ولذلك يحكى عنه انه كان لا يريد ان يصف الوقائع التي لم يشهدها مع سيف الدولة(٢)

ولقد ترك لنا من شعره الحربي كثيراً من القصائد الخالدة : يقف فيها معلنا عظمة الاسلام في شخص الممدوح ، حاملاً على اعداء الخلافة ، مثيراً للحماسة القومية ويتخلل كل ذلك من الحكم البليغة ما يناسب المقام وينفذ الى اعماق النفوس . ولولا شهرة هذه القصائد وتوفّر طلاب الادب على تدارسها وحفظها لاتينا بالامثلة الكثيرة على شعر المتنبي في هذا الطور ، ولكننا نجتزىء هنا بالاشارة الى القصائد التي مطلعها :

غيري باكثر هذا الناس ينخدع
فديناك من ربع وان زدتنا كربا
لياليّ بعد الظاعنين شكول
لكل امرىء من دهره ما تعوّدا
دروع لملك الروم هذي الرسائل
على قدر اهل العزم تأتي العزائم
الرأي قبل شجاعة الشجعان
عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم
ذي المعالي فليعلون من تعالى

وكلها مما يجب على المتأدب درسه وحفظه والتأمل في روائع معانيه

(١) المثل السائر ٤٧١ (٢) راجع مقالات على علم الادب لشيخو ٢—٢٨٠

اما شعور الشاعر بالفوز والتفوق وحمله لذلك على الحساد فيظهر في مثل قوله لسيف الدولة —

انا السابقَ الهادي الى ما اقوله اذ القول قبل القائلين مقول
اعادَى على ما يوجب الحبَّ للفتى واهدأُ والافكار فيَّ تجول
سوى وجع الحسَّاد داوِ فانه اذا حلَّ في قلب فليس يحول
ولا تطمعن من حاسدٍ في مودة وان كنت تبديها له وتنيل
وانّا لنلقى الحادثات بانفس كثير الرزايا عندهنَّ قليل

وقوله —

ازل حسد الحسَّاد عني بكبتهم فانت الذي صيَّرتهم لي حسَّدا
اذا شدَّ زندي حسن رايك فيهم ضربتُ بسيف يقطع الهام مغمدا
وما الدهر الا من رواة قصائدي اذا قلت شعراً اصبح الدهر منشدا

واقواله في ذلك كثيرة ، واشدّها قصيدته الميمية واحرّ قلباه — ولقد نشأ هذا الشعور مع المتنبي ورافقه كل ايام حياته ، ولكنه يظهر على اشدّه في هذا الطور ، وفيه اكثر ما تركه المتنبي من هذه النفثات الاليمة .

شعره في مصر

وهو يمثل لنا عواطف الغيظ من الماضي والامل بالمستقبل ، وفيه تتجلى عبقرية المتنبي على اتمها — من دقة في الاشارة وروعة في المعاني وجمال في التوقيع .

فبينا ترى شعره في الطور الاول يكثر فيه التعقيد اللفظي والمعنوي ، وفي حلب يتكلف احياناً استعمال الغريب للدلالة على غزارة علمه ، تراه في مصر صقيلاً خالصاً من هذه الشوائب جارياً على الطبيعة . فهو يمثل غاية ما بلغه المتنبي من البلاغة . ولقد اخطأ البديعي اذ قال « ان احسن شعره في سيف الدولة وقد تراجع شعره بعد ذلك »[1] ، فان المدقق يرى في « كافورياته » من جلال المعنى وجمال الصياغة ما يشهد انه بلغ به كمال النضج . واننا نجاري في ذلك اليازجي اذ قال « على انك اذا تفقدت تلك المعجبات من ابياته ، فاكثر

---

(١) الصبح المنبي — هامش العكبري ١ — ٨٧

ما تجدها في اوائل شعره حين لم تستحكم فيه ملكة النظم ولم تطَّرد له وجوه التعبير . وما احسب المتنبي الا كان في صدر امره يتوخى طريقة ابي تمام ، فكان ينحو نحوه في الحوم على موارد الاغراب والتنقيب عن الوحشي من حكم الجاهلية ، والتورّك على الصيغ الشاذّة والتحذلق في اسلوب الخطاب » — الى ان يقول عن شعره في حضرة سيف الدولة « انه كان هناك في محفل حافل بالعلماء والشعراء والمنتقدين ، ولذلك لم يكن بدّ من حشد القريحة في مدح سيف الدولة والاكثار من التنطّس في الفاظه ومعانيه . ثم اذا انتقلت الى شعره في كافور وجدته قد عاد الى السهولة والرشاقة[1] »

ويكفي للدلالة على ذلك ان تراجع القصائد التالية

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا

فراق ومن فارقت غير مذمم

من الجآذر في زي الاعاريب

اودّ من الايام ما لا تودّه

اغالب فيك الشوق والشوق اغلب

مُنى كنّ لي ان البياض خضابُ

فان هذه القصائد « الكافورية » من اسلس قصائده واملأها معنى واجملها ايقاعا . ومن بدائعه في هذا الطور ميميته المشهورة في وصف حاله في مصر ووصف حمى اصابته نظمها وهو في الخامسة والاربعين فجاءت غاية الغايات من حسن الانسجام ودقة التعبير وحسن الاختراع ، وقد ادرجت في باب المختارات من شعره فلتراجع هناك .

الطور الاخير

ويمثله شعره في العراق وفارس ، وهو عموماً احط من شعره في حلب وفي مصر . يشعر فيه المتأمل بتراخي نفسه الشعري ورجوعه احياناً الى التعسف والتكلف ، فكأنه بلغ اوجه الشعري في الخامسة والاربعين من عمره ثم اخذ بالانقلاب البطيء : قد يكون للسن تأثيرها في ذلك ولكن مما لا شك فيه انه كان لفشله في مصر ، ثم ما لاقاه في بغداد اثرٌ في خضد شوكته ، وتخفيف تلك النائرة الشعرية فيه

---

(١) بتصرف عن رسالته في ذيل شرحه للديوان ٦٦٦—٦٧١

خاتمة في شعره الحكمي

اجاد المتنبي في كل انواع الشعر العربي من مدح وغزل وفخر ورثاء ووصف وهجاء ، وله في الرثاء خاصة مكانة سامية تشهد له بذلك مراثيه التي تعد من افضل المراثي في الادب العربي — ومنها

نعد المشرفية والعوالي

يا اخت خير اخ يا بنت خير اب

الحزن يقلق والتجمل يردع

وكلها مشهورة تجري اكثر ابياتها على السنة الادباء .

على ان المتنبي الحقيقي انما هو تلك الصورة التي ترسمها من قراءة حكمه ، وفهم علاقتها بالزمان – تلك الحقائق الادبية والاجتماعية الناصعة المعقودة في ارشق الالفاظ واسلس التعابير . نعم انها منتشرة في تضاعيف قصائده ، متفرقة بين اغراضه المختلفة ، ولكن لها علاقة حيوية بكل مقام يكون فيه الشاعر . واذا القينا اليها نظرة عامة وحاولنا ان نستخلص منها صورة لشاعرنا الكبير نجد فيها الواناً مختلفة تنعكس عن شيء واحد وهو « نزعته الفطرية » — تلك الطبيعة التي كانت تحاول التعالي والحصول على القوة ، ثم لا تلبث ان تعود وفيها شيء من المرارة والالم

كان للمتنبي غرض كبير في الحياة — المجد — لاجله ظهر غروره صغيراً ، ولاجله جاب الاقطار كبيراً ، ولاجله صحب الملوك وحشد المال حتى تعالى عن طبقة الشعراء ، وساوى نفسه بممدوحيه من الامراء . ولكنه فشل ، وفي سعيه وفشله عرف الحياة واختبر حقيقة المجتمع البشري ، فنظم ذلك لنا حكماً غالية ادرك الناس صحتها ، فتداولتها السن الزمان في كل مكان ، واصبحت على كرور الايام امثالاً يردّدها الخاص والعام .

غرّ المتنبي سراب الدنيا فسعى وراءه ، وطوى في ذلك السعي شبابه ورجولته . فاذا الدنيا سراب واذا السعي وراء الباطل باطل . على اننا لنحمد الاقدار على هذا السراب وهذا الباطل ، فلولاهما لما كان لنا شاعر الحكمة الكبير ، ولما تحدّر الينا منه ذلك الميراث الادبي الخالد .

المختار من شعر المتنبي

نفس عزيزة شديدة المطامع تدفعها شهوة الدنيا الى طلب المجد والقوة، فتندفع اليها بعزم الفارس المقدام . ثم لا تلبث ان تصطدم بالفشل فترتد على اعقابها دقيقة المعرفة بحوادث الزمان، صائبة النظر في عواطف الانسان — تلك هي حكم المتنبي البليغة وخوالج نفسه الكبيرة

نزعات شباب

كم قتيلٍ كما قُتلتُ شهيدِ لبياض الطُّلى وورد الخدودِ
وعيون المهى ولا كعيون فتكت بالمتيَّم المعمود
درَّ درُّ الصَّباء — ايَّامَ تجرير ذيولي بدار اثلةَ عودي [1]
عَمرك اللهَ هل رأيت بدورا طلعت في براقع وعقود
راميات باسهمٍ ريشها الهد ب تشقُّ القلوب قبل الجلود
يترشفن من فمي رشفات هنَّ فيه حلاوة التوحيد [2]
كل خُمصانةٍ ارقَّ من الخمر بقلبٍ اقسى من الجلمود [3]
ذات فرع كانما ضُرب العنبر فيه بماء وردٍ وعود
حالكٍ كالغداف جثل دجوجيٍّ اثيثٍ جعدٍ بلا تجعيد
تحمل المسك عن غدائرها الريحُ وتفترُّ عن شَنيب برود [4]

(١) ايام منادى اي ايتها الايام التي كنت اجرّر فيها ذيولي مرحاً في دار آثلة عودي الي
(٢) التوحيد نوع من التمر
(٣) الخمصانة الضامرة او النحيلة . والفرع الشعر . والغداف الغراب
(٤) شنيب برود اي ثغر لطيف عذب الماء

جمعتْ بين جسم احمدَ والسقمِ وبين الجفون والتسهيد[١]

...

هذه مهجتي لديك لحَيني فانقصي من عذابها او فزيدي
كل شيءٍ من الدماء حرام شربه ما خلا ابنةَ العنقود
فاسقنيها فدى لعينيكَ نفسي من غزالٍ ، وطارفي وتليدي
شيب رأسي وذلّتي ونحولي ودموعي على هواكَ شهودي
ايَّ يوم سررتني بوصال لم ترُعني ثلاثةٌ بصدود

...

ما مقامي بارض نخلة الاَّ كمُقام المسيح بين اليهود[٢]
مفرشي صهوة الحصان ولكنَّ قميصي مسرودةٌ من حديد
اين فضلي اذا قنعت من الدهر بعيش معجَّل التنكيد
ضاق صدري وطال في طلب الرزق قيامي وقلّ عنه قعودي
ابداً اقطع البلاد ونجمي في نحوسٍ وهمتي في سعود
عش عزيزاً او مت وانت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
فرؤوس الرماح اذهبُ للغيظ واشفى لغلٍّ صدر الحقود
لا كما قد حييت غيرَ حميد واذا متَّ متَّ غير فقيد
فاطلب العزَّ في لظى ودع الذلَّ ولو كان في جنان الخلود
يُقتَل العاجز الجبان وقد يعجز عن قطع بخُنُق المولود
ويوقّى الفتى المِخشُّ وقد خوّ ضَ في ماء لَبَّةِ الصنديد[٣]
لا بقومي شرُفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرتُ لا بجدودي
وبهم فخر كلّ من نطق الضَّاد وعوذ الجاني وغوث الطريد
ان اكن معجَباً فعجبُ عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد

---

(١) احمد اسم الشاعر
(٢) ارض نخلة قرية لبني كلب
(٣) اي ويوقى الشجاع المغامر وقد خاض في دماء الابطال

انا ترب الندى ورب القوافي وسمام العدى وغيظ الحسود
انا في امة – تداركها الله – غريب كصالح في ثمود[١]

وصف الاسد

وكيف صرعه بدر بن عمار، وذلك على ضفاف الاردن قرب طبريا

في الخد أن عزم الخليط رحيلا مطر تزيد به الخدود محولا[٢]
يا نظرة نفت الرقاد وغادرت في حد قلبي ما حييت فلولا
كانت من الكحلاء سؤلي انما اجلي تمثل في فؤادي سولا[٣]
اجد الجفاء على سواك مروءة والصبر الا في نواك جميلا
وارى تدللك الكثير محببا وارى قليل تدلل مملولا
حدق الحسان من الغواني هجن لي يوم الفراق صبابة وغليلا
حدق يذم من القواتل غيرها بدر بن عمار بن اسماعيلا[٤]
الفارج الكرب العظام بمثلها والتارك الملك العزيز ذليلا
رقت مضاربه فهن كانما يبدين من عشق الرقاب نحولا

. . .

امعفر الليث الهزبر بسوطه لمن ادخرت الصارم المصقولا
وقعت على الاردن منه بلية نضدت بها هام الرفاق تلولا
ورد اذا ورد البحيرة شاربا ورد الفرات زئيره والنيلا
متخضب بدم الفوارس لابس في غيله من لبدتيه غيلا[٥]

---

(١) صالح نبي ارسل الى ثمود فلم يؤمنوا به ولم يصغوا الى اقواله
(٢) لان العشراء عزموا على الرحيل هطل مطر الدموع على خدي فزاده محولاً (بعكس مطر السماء الذي يزيد خصب الارض)
(٣) كانت هذه النظرة كل ما اسأله ولكن ما اسأله كان السبب في هلاكي
(٤) يُذم يجير – اي ان الممدوح يجيرنا من كل قاتل سوى نظرات الحسان
(٥) هذا الاسد فتك بالناس وتخضب بدماء الفرسان وكنت تراه في غابه كانما عليه غابة من شعره

ما قوبلتْ عيناه الا ظُنَّتا تحت الدجى نار الفريق حلولا
في وحدة الرهبان الا انه لا يعرف التحريم والتحليلا
يطأ الثرى مترفقاً من تيهه فكأنه آسٍ يجسُّ عليلا
ويردُّ عُفْرَته الى يأفوخه حتى تصير لرأسه اكليلا
وتظنُّهُ – مما يزمجر – نفسُهُ عنها لشدة غيظه مشغولا[١]
قصرتْ مخافتُهُ الخطى فكانما ركب الكميُّ جواده مشكولا[٢]
القى فريسته وبربر دونها وقربْتَ قرباً خاله تطفيلا
فتشابه الخُلقان في إقدامه وتخالفا في بذلك المأكولا[٣]
اسد يرى عضويه فيك كليهما متناً ازلَّ وساعداً مفتولا
ما زال يجمع نفسه في زوره حتى حسبت العرض منه الطولا
ويدقُّ بالصدر الحجار كانه يبغي الى ما في الحضيض سبيلا
وكأنه غرَّته عين فادَّنى لا يبصر الخطب الجليل جليلا
أنفُ الكريمِ من الدنيئة تاركٌ في عينه العدد الكثير قليلا
والعار مضَّاض وليس بخائف من حتفه من خاف مما قيلا
سبق التقاءكهُ بوثبة هاجم لو لم تصادمه لجازك ميلا
خذلته قوته وقد كافحته فاستنصر التسليم والتجديلا
قبضت منيَّته يديه وعنقه فكانما صادفته مغلولا
سمع ابن عمته به وبحاله فنجا يهرول امس منك مهولا[٤]
وامرُّ مما فرَّ منه فراره وكقتله ان لا يموت قتيلا
تلفُ الذي اتخذ الجراءة خُلَّة وعظ الذي اتخذ الفرار خليلا

. . .

نطقتْ بسؤدُدِك الحمام تغنياً وبما تجشمها الجياد صهيلا
ما كلُّ من طلب المعالي نافذاً فيها ولا كلُّ الرجال فحولا

---

(١) وتظنه نفسه لكثرة زمجرته انه مشغول عنها
(٢) من شدّة الخوف اصبح الجواد غير قادر على الجري
(٣) تشابهتما في الاقدام وتخالفتما في انك كريم تبذل ما تصيده لسواك
(٤) يشير الى اسد آخر هرب منه بعد هذه الحادثة

بعض مدائحه في سيف الدولة

وهو يصوره في شعره بصورة البطل القومي والمجاهد الاكبر ضد الروم

قال يذكر بناءه مرعش سنة ٣٤١

فديناكَ من ربعٍ وان زدتنا كَرْبا ... فانك كنتَ الشرق للشمس والغربا
وكيف عرفنا رسمَ من لم يدعْ لنا ... فؤاداً لعرفان الرسوم ولالُبّاً
نزلنا عن الاكوار نمشي كرامةً ... لمن بانَ عنه أن نُلمَّ به ركبا
نذمُّ السحابَ الغرَّ في فعلها به ... ونعرضُ عنها كلما طلعت عتبا
ومن صحِبَ الدنيا طويلاً تقلّبت ... على عينهِ حتى يرى صدقها كذبا
وكيف التذاذي بالأصائل والضحى ... اذا لم يعدْ ذاك النسيمُ الذي هبّاً
ذكرت به وصلاً كأن لم أفزْ به ... وعيشاً كأني كنت اقطعُهُ وثبا
وفتّانةَ العينين قتّالة الهوى ... اذا نفحت شيخاً روائحها شبّاً
فيا شوقُ ما أبقى ويالي من النوى ... ويا دمع ما اجرى ويا قلبُ ما اصبى
لقد لعب البينُ المشتُّ بها وبي ... وزوّدني في السير ما زوّد الضبّاً (١)
ومن تكن الأُسدُ الضواري جدوده ... يكن ليله صبحاً ومطعمُهُ غصبا
ولست أُبالي بعد إدراكيَ العلى ... أَكان تراثاً ما تناولت أم كسبا
فرُبَّ غلامٍ علّمَ المجدَ نفسهُ ... كتعليم سيف الدولة الطعن والضربا
اذا الدولة استكفتْ به في مُلمّةٍ ... كفاها فكان السيفَ والكفَّ والقلبا
تُهاب سيوف الهند وهي حدائدٌ ... فكيفَ اذا كانت نزاريّةً عُرْبا (٢)
ويرهبُ ناب الليثِ والليثُ وحدهُ ... فكيف اذا كان الليوث له صحبا
ويخشى عُبابُ البحر وهو مكانه ... فكيف بمن يغشى البلاد اذا عبّاً

---

(١) الضب حيوان معروف ويضرب به المثل في الحيرة . اي ان البين الذي فرقنا جعلني حائراً
(٢) فكيف لا تهاب وهي عربية كريمة الاصل (اشارة الى سيف الدولة)

هنيئاً لاهل الثغر رأيك فيهمِ وأنك حزبَ الله صرت لهم حزبا[١]
وأنك رُعتَ الدهرَ فيها وريبهُ فان شكَّ فليحدِث بساحتها خطبا
فيوماً بخيلٍ تطرُدُ الرومَ عنهم ويوماً بجودٍ تطرُدُ الفقرَ والجدبا
سراياك تترى والدُمُستُقُ هاربٌ واصحابُهُ قتلى وأموالُهُ نهبى[٢]
أَتى مرعشاً يستقرِبُ البعدَ مقبلاً وادبرَ اذ أقبلتَ يستبعدُ القربا
كذا يترُكُ الاعداءَ من يكره القنا ويقفُلُ من كانت غنيمتهُ رُعبا
وهل ردَّ عنه باللُقانِ وقوفهُ صدورَ العوالي والمطهَّمةَ القبّا[٣]
مضى بعد ما التفَّ الرماحان ساعةً كما يتلقَّى الهدبُ في الرقدة الهدبا[٤]
ولكنه ولَّى وللطعن سورةٌ اذا ذكرتها نفسُهُ لمسَ الجنبا

. . .

ارى كلنا يبغي الحياة لنفسه حريصاً عليها مستهاماً بها صبّاً
فحبُّ الجبان النفسَ اوردَهُ البقا وحبُّ الشجاع الحربَ اورده الحربا
ويختلفُ الرزقان والفعلُ واحدٌ الى ان ترى إِحسان هذا لذا ذنبا[٥]

. . .

فاضحتْ كأنَّ السورَ من فوق بدئهِ الى الارض قد شقَّ الكواكب والتربا[٦]
تصدُّ الرياحُ الهوجُ عنها مخافةً وتفزع فيها الطير أن تلقطَ الحبَّا
كفى عجباً أن يعجبَ الناسُ أنهُ بنى مرعشاً تبّاً لآرائهم تبّا
وما الفرقُ ما بين الانام وبينهُ اذا حذِرَ المحذورَ واستصعب الصعبا
لأمرٍ أعدَّته الخلافةُ للعدى وسمَّتْهُ دونَ العالم الصارمَ العضبا
ولم تفترق عنه الاسنَّةُ رحمةً ولم تترُكِ الشأمَ الاعادي له حبّا

---

(١) ليهنأ اهل الثغر بحسن رأيك وانك يا حزب الله قد صرت حزباً لهم
(٢) الدمستق زعيم الروم
(٣ و ٤) اللقان اسم مكان . والرماحان اي رماح الفريقين
(٥) في هذه الابيات الحكمية يشير الى هرب الدمستق واقدام سيف الدولة فيقول ان حب الحياة يدفع الشجاع الى الحرب والجبان الى الهرب . غايتها واحدة ولكن فعل الجبان ذميم وفعل الشجاع حميد (٦) اضحت اي مرعش وسورها يناطح النجوم علوّاً وهو راسخ في احشاء الارض

ولكن نفاها عنه غيرَ كريمةٍ كريمُ الثنا ما سُبَّ قطُّ ولا سبّا
وجيشٌ يثنّي كلَّ طودٍ كأنهُ خريقُ رياحٍ واجهتْ غصناً رطبا
كأنَّ نجومَ الليل خافت مُغارَهُ فمدّت عليها من عجاجته حجبا
فمن كان يُرضي اللؤمَ والكفرَ ملكه فهذا الذي يرضي المكارم والربّا

وقال يذكر فوزه على الروم

في قلعة الحدث (بالاناضول) وكان المتنبي قد صحبه في هذه المعركة

على قدر اهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدرِ الكرامِ المكارم
وتعظمُ في عين الصغير صغارُها وتصغرُ في عين العظيم العظائم
يكلّفُ سيفُ الدولةِ الجيشَ همّهُ وقد عجزت عنه الجيوشُ الخضارم
ويطلب عند الناس ما عند نفسه وذلك ما لا تدّعيه الضراغم
يفدّي أتمُّ الطيرِ عمراً سلاحه نسورُ الفلا أحداثها والقشاعم
وما ضرّها خَلقٌ بغير مخالبٍ وقد خُلقت اسيافه والقوائمُ[1]

. . .

هلِ الحدثُ الحمراء تعرف لونها وتعلمُ ايُّ الساقيينِ الغمائم[2]
سقتها الغمامُ الغرُّ قبل نزوله فلما دنا منها سقتها الجماجمُ
بناها فأعلى والقنا يقرعُ القنا وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثلُ الجنون فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تمائم[3]
طريدةُ دهر ساقها فردَدتها على الدين بالخَطّيِّ والدهرُ راغم[4]
تُفيتُ الليالي كلَّ شيءٍ أخذته وهنَّ لما يأخذن منك غوارم[5]

---

(١) لو ان النسور بغير مخالب لما ضرّها ذلك لان سيوفه تغنيها بجثث القتلى
(٢) وصفها بالحمراء لما تلطخت به من دماء القتلى وكانت قد اصيبت بمطر قبل ذلك
(٣) التمائم هي التعاويذ التي كانوا يتوقون بها مسّ الجن
(٤) اي كان الدهر قد سلط الروم عليها فرددتها برماحك رغم انفه
(٥) تفيت الليالي اي تكرهها على تركه . وغوارم اي ملزمة بدفع غرامته

اذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم
وكيف ترجي الروم والروس هدمها وذا الطعنُ آساسٌ لها ودعائم
وقد حاكموها والمنايا حواكمٌ فما ماتَ مظلومٌ ولا عاشَ ظالم

. . .

أتوكَ يجرُّون الحديدَ كأنما سروا بجيادٍ ما لهنَّ قوائم
اذا برقوا لم تُعرَفِ البيضُ[1] منهمُ ثيابهُمُ من مثلها والعمائم
خميس بشرق الارض والغرب زحفهُ وفي أُذُنِ الجوزاءِ منه زمازم
تجمَّعَ فيه كلُّ لِسنٍ وأُمةٍ فما يُفهِمُ الحدَّاثَ الاَّ التراجم
فلله وقتٌ ذوَّب الغشَّ نارُهُ فلم يبقَ الا صارمٌ او ضُبارم[2]
تقطَّعَ ما لا يقطعُ الدرعَ والقنا وفرَّ من الفرسان من لا يصادم
وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمرُّ بك الابطالُ كلمى هزيمةً ووجهك وضَّاحٌ وثغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى الى قول قومٍ أنت بالغيبِ عالم
ضممتَ جناحيهم على القلب ضمَّةً تموت الخوافي تحتها والقوادم[3]
بضربٍ أتى الهامات والنصر غائبٌ وصار الى اللبَّاتِ والنصرُ قادم
حقرتَ الردينيَّات حتى طرحتها وحتى كأنَّ السيف للرمح شاتم
ومن طلب الفتحَ الجليل فانما مفاتيحه البيضُ الخفافُ الصوارم

. . .

نثرتَهم فوق الاحيدب كلِّهِ كما نثرت فوق العروس الدراهم
تدوس بك الخيل الوكور على الذُّرى وقد كثرت حول الوكور المطاعم
أفي كلِّ يومٍ ذا الدُمستُقُ مُقدمٌ قفاه على الاقدام للوجه لائم
أيُنكِرُ ريحَ الليث حتى يذوقهُ وقد عرفت ريح الليوث البهائم
وقد فجعته بابنه وابنِ صهره وبالصهر حملاتُ الامير الغواشم[4]

---

(١) البيض السيوف . اي مدرعون بالحديد وعلى رووسهم خوذ الحرب
(٢) ضبارم شجاع (٣) اي اهلكت الجيش جميعه
(٤) اشارة الى فوز سابق للممدوح على هؤلاء

مضى يشكر الاصحاب في فوته الظبى ... لما شغلتها هامُهم والمعاصم[1]
ويفهمُ صوتَ المشرفيَّة فيهم ... على أنَّ اصوات السيوف اعاجم
يُسَرُّ بما اعطاك لا عن جهالةٍ ... ولكنَّ مغنوماً نجا منك غانم

...

تشرَّفُ عدنانٌ به لا ربيعةٌ ... وتفتخرُ الدنيا به لا العواصم[2]
لك الحمدُ في الدرِّ الذي ليَ لفظُهُ ... فانك معطيه وانيَ ناظم
واني لتعدو بي عطاياك في الوغى ... فلا انا مذمومٌ ولا انت نادم[3]
على كل طيَّارٍ اليها برجله ... اذا وقعت في مسمعيه الغماغمُ
ألا أيها السيفُ الذي ليس مغمداً ... ولا فيه مرتابٌ ولا منه عاصم
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلى ... وراجيك والاسلامِ أنك سالم
ولِمَ لا يقي الرحمن حدَّيك ما وقى ... وتفليقه هام العدى بك دائم

وقال يمدحه ويعاتبه

على حيف لحقه منه ويظهر ما كان في نفسه من تحامل حساده عليه

واحرَّ قلباهُ ممنْ قلبهُ شبِمُ ... ومن بجسمي وحالي عنده سقَم[4]
مالي أُكتِمُ حباً قد برى جسدي ... وتدَّعي حبَّ سيف الدولة الامم
إن كان يجمعنا حبٌّ لغرَّتهِ ... فليت أنَّا بقدر الحب نقتسم
قد زُرته وسيوفُ الهند مغمدةٌ ... وقد نظرتُ اليه والسيوف دم
فكان احسنَ خلقِ الله كلِّهمِ ... وكان احسن ما في الاحسن الشِّيم
فوت العدوِّ الذي يمَّمته ظفرٌ ... في طيِّه اسفٌ في طيِّه نِعم
قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت ... لك المهابةُ ما لا تصنعُ البهم[5]

---

(١) مضى يشكر اصحابه لانهم شغلوا برؤوسهم السيوف فلم تنله
(٢) ربيعة قبيلة سيف الدولة . والعواصم هي البلاد المتاخمة للروم وعاصمتها انطاكية
(٣) اشارة الى عطاياه من الخيول (٤) شبم بارد
(٥) البهم الجيوش

أَلزمت نفسك شيئاً ليس يلزمها — أن لا يواريهم ارضٌ ولا علم
أَكلّما رمت جيشاً فانثنى هرَباً — تصرَّفتْ بك في آثاره الهمم
أَما ترى ظفراً حلواً سوى ظفرٍ — تصافحتْ فيه بيضُ الهند واللمم

. . .

يا أَعدلَ الناس إلاّ في معاملتي — فيك الخصام وأَنت الخصم والحكم
أُعيذُها نظراتٍ منك صادقةً — أن تحسب الشحمَ فيمن شحمُه ورم
وما انتفاع اخي الدنيا بناظرِهِ — اذا استوت عنده الانوار والظلم
سيعلمُ الجمع ممن ضمَّ مجلسنا — بانني خيرُ من تسعى به قدمُ
انا الذي نظر الاعمى الى ادبي — واسمعتْ كلماتي من به صمم
انام ملءَ جفوني عن شواردها — ويسهرُ الخلق جرَّاها ويختصم (١)

. . .

وجاهلٍ مدَّه في جهله ضحكي — حتى اتته يدٌ فرَّاسةٌ وفم
اذا رأَيتَ نيوبَ الليث بارزةً — فلا تظنّنَّ انَّ الليث يبتسم
ومهجةٍ مهجتي من همّ صاحبها — ادركتها بجوادٍ ظهرُهُ حرَم (٢)
ومرهفٍ سرتُ بين الجحفلينِ به — حتى ضربتُ وموج الموت يلتطم
الخيلُ والليلُ والبيداء تعرفني — والسيف والرمح والقرطاس والقلم

. . .

يا من يعزُّ علينا ان نفارقهم — وجداننا كلَّ شيءٍ بعدكم عدم
ما كان اخلقنا منكم بتكرمةٍ — لو أنَّ امركَم من امرنا أَمم
إن كان سرّكمُ ما قال حاسدُنا — فما لجرحٍ اذا ارضاكمُ أَلم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفةٌ — انَّ المعارف في اهل النهى ذمم
كم تطلبونَ لنا عيباً فيعجزُكم — ويكره الله ما تأتون والكرم
ما ابعد العيب والنقصانَ من شرفي — انا الثريّا وذان الشيبُ والهرم

---

(١) انام ملء جفوني عن شوارد الاشعار لاني خلافاً لغيري ادركها بسهولة
(٢) اي وربّ مهجة همّ صاحبها اتلاف مهجتي ادركتها بجوادي فقضيت عليها

ليت الغمامَ الذي عندي صواعقه ... يزيلُهنَّ الى من عنـدَهُ الدِّيمُ (١)

ارى النوى يقتضيني كلَّ مرحلةٍ ... لا تستقلُّ بهـا الوخَّادة الرُسُمُ

لئن تركنَ ضُميراً عن ميامننا ... ليحدثنَّ لِمَنْ ودَّعتهم نـدَمُ (٢)

اذا ترَحَّلت عن قومٍ وقد قدَروا ... أن لا تفارقهم فالراحلـون هم

شرُّ البلادِ مكانٌ لا صديق به ... وشرُّ ما يكسبُ الانسان ما يصم

وشرُّ ما قنصتهُ راحتي قنصٌ ... شهبُ البزاةِ سواءٌ فيه والرخم (٣)

بايِّ لفظٍ تقولُ الشعرَ زعنفةٌ ... تجوز عندك لا عُربٌ ولا عجم

هذا عتابك الاَّ أنهُ مِقـةٌ ... قد ضُمِّنَ الدرَّ الا أنه كلم (٤)

بعض مدائحه في كافور

قال سنة ٣٤٦ وهي اولى قصائده في مصر وكان كافور قد تلقاه بجفاوة وحمل اليه آلافاً من الدراهم

كفى بك داءً ان ترى الموت شافيا ... وحسبُ المنايا انْ يكُنَّ امانيا (٥)

تمنَّيتها لما تمنَّيتَ انْ ترَى ... صديقاً فأعيا او عدوًّا مداجيا (٦)

إذا كنت ترضى ان تعيشَ بذلَّةٍ ... فلا تستَجيدَنَّ العتاقَ المذاكيا (٧)

فما ينفعُ الأُسدَ الحياءُ من الطوى ... ولا تتَّقي حتى تكونَ ضواريا (٨)

حبَبتُكَ قلبي قبل حُبِّكَ منْ نأى ... وقد كانَ غدَّاراً فكن انتَ وافيا (٩)

---

(١) يشبه سيف الدولة بالغمام وسخطه بالصواعق ، والدّيم بعطاياه — اي ليت غضبه يكون على من غمرهم بعطاياه وهم لا يستحقونها

(٢) ضمير جبل وهو يشير الى سفره والى ان الممدوح سيندم على ذلك

(٣) يشير الى ان سيف الدولة سوّى عنده بين المتنبي وسواه من صعاليك الشعراء

(٤) مقة من فعل ومق ومعناها الحب

(٥) يخاطب الشاعر نفسه ويقول الشدّة التي ما وراءها شدّة ان تكون في حالة تحسب الموت شافياً لك او امنية تتمناها

(٦) اعياك ذلك اي اعجزك . ومداجي اي مداري

(٧) العتاق المذاكي اي الخيول الكريمة

(٨) الطوى الجوع

(٩) اي اني احببتك يا قلبي قبل حبك لمن في حلب فلا تكن غير وفيٍّ لي

واعلمُ انَّ البينَ يُشكيكَ بعدَهُ ... فلستَ فؤادي إنْ رايتكَ شاكيا
فإنَّ دموع العين غُدْرٌ بربها ... اذا كنَّ إثرَ الغادرين جواريا
إذا الجودُ لم يرْزَق خلاصاً من الاذى ... فلا الحمد مكسوبا ولا المال باقيا
وللنفس اخلاقٌ تدُلُّ على الفتى ... اكانَ سخاءً ما اتى ام تساخيا
أقِلَّ اشتياقاً ايها القلبُ ربما ... رأيتكَ تُصفي الوُدَّ من ليس صافيا
خلقتُ الوفاً لو رَجعتُ الى الصبى ... لفارقتُ شيبي موجعَ القلب باكيا
ولكنَّ بالفسطاط بحراً ازرْتهُ ... حياتي ونصحي والهوى والقوافيا[1]
ابا المسك ذا الوجهُ الذي كنتُ تائقاً ... اليه وذا اليوم الذي كنتُ راجيا[2]
ابا كلِّ طيب لا ابا المسك وحدَهُ ... وكل سحابٍ لا اخصُّ الغواديا
يُدِلُّ بمعنى واحدٍ كلُّ فاخرٍ ... وقد جمعَ الرحمنُ فيك المعانيا
اذا كسبَ الناسُ المعالي بالندى ... فانك تعطي في نداكَ المعاليا
وغيرُ كثيرٍ انْ يزوركَ راجلٌ ... فيرْجعَ ملكاً للعراقين واليا
فقد تهبُ الجيشَ الذي جاء غازياً ... لسائِلكَ الفردِ الذي جاء عافيا[3]
وتحتقرُ الدنيا احتقارَ مجرّبٍ ... يرى كلَّ ما فيها وحاشاكَ فانيا
وما كنتَ ممن ادركَ الملكَ بالمنى ... ولكنْ بايام اشبْنَ النواصيا
مدًى بلَّغَ الاستاذَ اقصاهُ ربُّهُ ... ونفسٌ لهُ لم ترضَ إلاَّ التناهيا
دعَتْهُ فلبَّاها الى المجد والعلى ... وقد خالفَ الناسُ النفوس الدواعيا
فاصبحَ فوقَ العالمينَ يرونه ... وإنْ كانَ يدْنيهِ التكرُّم نائيا

وقال ايضاً يمدحه

اودُّ من الايام ما لا توَدُّهُ ... واشكو اليها بيننا وهي جُندُهُ
يباعدنَ حِباً يجتمعنَ ووصلهُ ... فكيف بحِبٍّ يجتمعن وصدُهُ

---

(١) الفسطاط مصر . ويريد بالبحر كافور

(٢) ابو المسك كنية كافور

(٣) قد تهب الجيش الغازي لسائل واحد يأتيك طالباً لمعروفك

ابى خُلقُ الدنيا حبيباً تديمهُ ... فما طلبي منها حبيباً تَرُدُّهُ
واسرع مفعولٍ فعلتَ تغيّراً ... تكلّفُ شيء في طباعك ضدُّهُ
رعى الله عيساً فارقتنا وفوقها ... مهىً كلّها يولى بجفنيه خدُّهُ (١)
بواد به ما بالقلوب كأنه ... وقد رحلوا جيدٌ تناثرَ عقدُهُ (٢)
اذا سارت الاحداجُ فوقَ نباته ... تفاوحَ مسكُ الغانيات ورندُهُ
وحالٍ كاحداهنَّ رمتُ بلوغها ... ومن دونها غول الطريق وبعده (٣)
واتعبُ خلقِ الله من زاد همُّهُ ... وقصّرَ عما تشتهي النفس وجدُهُ (٤)
فلا ينحلل في المجد مالك كلُّه ... فينحلَّ مجدٌ كان بالمال عقدُهُ
ودبّره تدبيرَ الذي المجدُ كفُّه ... اذا حارب الاعداء والمال زندُهُ
فلا مجدَ في الدنيا لمن قلَّ ماله ... ولا مال في الدنيا لمن قل مجده
وفي الناس من يرضى بميسور عيشه ... ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكنَّ قلباً بين جنبيَّ مالهُ ... مدًى ينتهي بي في مرادٍ احدُّهُ
يرى جسمه يكسى شفوفاً تربُّهُ ... فيختارُ ان يكسى دروعاً تهدُّهُ (٥)
وامضى سلاحٍ قلَّدَ المرء نفسه ... رجاء ابي المسك الكريم وقصده
هما ناصرا من خانه كلُّ ناصر ... وأُسرةُ من لم يكثرِ النسل جدُّهُ
انا اليوم من غلمانه في عشيرةٍ ... لنا والدٌ منه يفدّيه وُلدُهُ
فمن ماله مال الكبير ونفسهُ ... ومن مالهِ دَرُّ الصغير ومهده
نجرُّ القنا الخطيَّ حول قبابه ... وتَردي بنا قبُّ الرباط وجردُهُ
ابو المسك لا يفنى بذنبك عفوهُ ... ولكنه يفنى بعذرك حقدُهُ
فيا ايها المنصورُ بالجَدّ سعيهُ ... ويا ايها المنصور بالسعي جدُّهُ (٦)
تولّى الصبى عني فاخلفتَ طيبهُ ... وما ضرّني لما رأيتك فقدُهُ

---

(١) رعى الله نياقاً فارقتنا وفوقها ظباء (حسان) تستقي خدودها من دموعها
(٢) بوادٍ به من الشوق والجزع ما بقلوب المحبين
(٣) وحال صعبة المنال كاحدى هذه الحسان
(٤) همه اي همته ووجده ماله. اي اتعب الناس من عظمت مطامعه وقصر ماله عن ادراكها
(٥) يرى جسمه مغطى بالحرير فيفضل ان يكسوه الدروع بدل الحرير
(٦) الجدّ الحظ

لقد شبَّ في هذا الزمان كهوله ... لديك وشابت عند غيرك مُرده
ألا ليت يوم السير يخبر حرُّه ... فتسأله والليلَ يخبرُ بردُه
وليتك ترعاني وحيران معرضٌ ... فتعلمَ اني من حسامك حدُّه (١)
واني اذا باشرت امراً أريدُهُ ... تدانت اقاصيه وهان اشدُّه
وما زال اهلُ الدهر يشتبهون لي ... اليك فلما لحتَ لي لاح فردُه
يقال اذا ابصرت جيشاً وربَّهُ ... امامك ربٌّ ربُّ ذا الجيش عبده
والقى الفمَ الضحّاك اعلم انه ... قريب بذي الكف المفدّاة عهده (٢)
فزارك مني من اليك اشتياقهُ ... وفي الناس الاَّ فيك وحدك زهده
فان نلتُ ما امّلتُ منك فربّما ... شربت بماء يعجزُ الطير ورده
ووعدك فعلٌ قبل وعدٍ لانّه ... نظير فعالِ الصادق القول وعده
فكن في اصطناعي محسناً كمجرّب ... يبنْ لك تقريبُ الجوادِ وشدُّه
اذا كنت في شكّ من السيف فابلهُ ... فامّا تنفّيه وإمّا تُعدُّه
وما الصارم الهنديّ الا كغيره ... اذا لم يفارقه النجادُ وغمدُه
وانك للمشكورُ في كل حالةٍ ... ولو لم يكن الا البشاشة رفدُه
فكلّ نوالٍ كان او هو كائنٌ ... فلحظةُ طرف منك عندي ندّه
واني لفي بحر من الخير اصلهُ ... عطاياك ارجو مدّها وهي مدّه
وما رغبتي في عسجد استفيده ... ولكنها في مفخرٍ استجدّه
يجود به من يفضحُ الجودَ جوده ... ويحمدُه من يفضحُ الحمدَ حمده
فانك ما مرَّ النحوسُ بكوكبٍ ... وقابلته الاَّ ووجهكَ سعده

---

(١) حيران اسم جبل اي ليتك كنت تراني وانا اسير مقابل حيران لتعلم مضائي وعزمي
(٢) وكلما ابصرت جيشاً على الطريق كان يقال لي اترى هذا الجيش ان قائده عبد لمن انت تقصده ، وكلما رايت فماً ضحاكاً اعلم انه قريب العهد بتقبيل يدك المفدّاة

ومن مدائحه في تلك السنة

مَن ِ الجآذرُ في زيِّ الاعاريبِ حمرَ الحلى والمطايا والجلابيب (١)
إنْ كنتَ تسألُ شكّاً في معارفها فمنْ بلاكَ بتسهيدٍ وتعذيبِ
ما اوجه الحضرِ المستحسناتُ به كاوجه البدوياتِ الرعابيب (٢)
حسن الحضارةِ مجاوبٌ بتطرية وفي البداوة حسن غيرِ مجاوبِ (٣)
اين المعيزِ من الارامِ ناظرةً وغيرَ ناظرةٍ في الحسنِ والطيب (٤)
افدي ظباءَ فلاةٍ ما عرفنَ بها مضغَ الكلام ولا صبغَ الحواجيب
ومِن هوى كلَ من ليستْ مموهةً تركتُ لون مشيبي غيرِ مخضوب (٥)
ومن هوى الصدقِ في قولي وعادته رغبتُ عن شعرٍ في الراس مكذوبِ

. . .

ليت الحوادثَ باعتني الذي اخذتْ مني بحلمي الذي اعطتْ وتجريبي (٦)
فما الحداثة من حلمٍ بمانعةٍ قد يوجدُ الحلمُ في الشبان والشيب
ترعرعَ الملكُ الاستاذُ مكتهلاً قبلَ اكتهالٍ اديباً قبل تاديب (٧)
يُدبرُ الملك من مِصر الى عدن الى العراق فأرض الرومِ فالنوب
يُصرفُ الامر فيها طينُ خاتمهِ ولو تطلّسَ منه كلُّ مكتوب (٨)
قالوا هجرتَ اليهِ الغيثَ قلتُ لهم الى غيوثِ يديه والشآبيب (٩)
الى الذي تهبُ الدولاتِ راحته ولا يمنُّ على اثار موهوب
ولا يروع بمغدورٍ به احداً ولا يفزع موفوراً بمنكوب (١٠)

---

(١) الجآذر اولاد بقر الوحش تشبه بها النساء لجمال عيونها . كان يقول من هؤلاء البدويات الحسان حمر الحلى والثياب والراكبات على النياق الحمر (هي اكرم النياق)

(٢) الرعابيب الطويلات الممتلئات الجسم (٣) التطرية التكلف والصنعة

(٤) يقصد بالمعيز نساء الحضر وبالآرام « الظباء » البدويات (٥) التمويه اي الطلي ويراد به التزيين

(٦) ليت الحوادث ترجع لي ما سلبتني من الشباب وتاخذ ما اعطتني من العقل والتجربة

(٧) اي نشأ حاصلاً على عقل الكهول قبل ان يكون كهلا

(٨) يدبر الامور بطين خاتمه الذي يختم به رسائله ولو امحى النقش الذي فيه

(٩) قالوا هجرت بتركك سيف الدولة المطر فقلت الى امطار يدي كافور الساكبة

(١٠) اي لا يغدر باحد ليروع به غيره ولا يسلب احداً ليفزع غير المسلوب

وَجدْتُ انفعَ مال كنت أذخرُهُ ما في السوابقِ من جري وتقريب [١]
لما راينَ صروفَ الدهرِ تغدر بي وفينَ لي ووفتْ صمُّ الانابيب [٢]
وكيفَ اكفرُ يا كافورُ نعمتها وقد بلغنك بي يا كلَّ مطلوبي
انت الحبيبُ ولكنني اعوذ به من ان اكون محباً غير محبوب

وقال يمدحه سنة ٣٤٧

فراقٌ ومن فارقتُ غيرُ مذمَّمِ وأمٌّ ومن يمَّمتُ خيرُ ميمَّمِ
وما منزلُ اللذَّات عندي بمنزل اذا لم أُبجَّلْ عنده واكرَّمِ
سجيَّة نفسٍ ما تزالُ مُليحةً من الضيم مرمياً بها كل مخرِمِ [٣]
رحلت فكم باكٍ باجفان شادنٍ عليَّ وكم باكٍ باجفان ضيغمِ [٤]
وما ربَّةُ القرط المليح مكانه باجزع من ربِّ الحسام المصمِّمِ
فلو كان ما بي من حبيب مقنَّعٍ عذرت ولكن من حبيب معمَّمِ [٥]
رمى واتقى رمي ومن دون ما اتقى هوى كاسرٌ كفي وقوسي واسهمي

...

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدَّق ما يعتاده من توهُّم
وعادى محبِّيه بقول عداته واصبح في ليلٍ من الشك مظلم
أُصادق نفس المرء من قبل جسمه واعرفها في فعلهِ والتكلُّم
واحلُمُ عن خلِّي واعلمُ انهُ متى اجزهِ حلماً على الجهل يندم
وإن بذلَ الانسان لي جود عابسٍ جزَيتُ بجود التارك المتبسم
واهوى من الفتيان كلَّ سميذعٍ نجيبٍ كصدر السمهريِّ المقوَّمِ

---

(١) وجدت انفع مال، جري الخيول . والتقريب نوع من عدو الخيل
(٢) النون في رأين راجعة الى الخيل اي لما رات الخيل غدر الدهر بي وفت لي بحملي عن مواطن الغدر وكذلك وفت الرماح بمساعدتي
(٣) مليحة من الضيم اي خائفة منه . مخرم طريق في الجبال
(٤) رحلت فكم حسناء تبكي عليَّ وكم بطل
(٥) الحبيب المقنع كناية عن المرأة والحبيب المعمم عن الرجل (يقصد سيف الدولة)

خطت تحته العيس الفلاةَ وخالطت به الخيل كبَّات الخميس العرمرم
ولا عفّةٌ في سيفه وسنانه ولكنها في الكفّ والطرف والفم
وما كلّ هاوٍ للجميل بفاعل ولا كلّ فعَّالٍ له بتتمم
فدًى لابي المسك الكرامُ فانها سوابق خيلٍ يهتدين بادهم (١)
اغرّ بمجدٍ قد شخصن وراءه الى خُلق رحبٍ وخَلقٍ مطهَّم
اذا منعت منك السياسةُ نفسها فقف وقفةً قدَّامهُ تتعلَّم
يضيق على من راءه العذرُ ان يُرى ضعيفَ المساعي او قليل التكرُّم (٢)
ومن مثلُ كافورٍ اذا الخيل احجمت وكان قليلًا من يقول لها اقدمي
شديد ثبات الطِرف والنقع واصلٌ الى لهواتِ الفارس المتلثِّم (٣)

. . . .

ابا المسك ارجو منك نصراً على العدى وآمل عزاً يخضب البيض بالدم
ويوماً يغيظ الحاسدين وحالةً أقيم الشقا فيها مقامَ التنعُّم
ولم ارجُ الا اهل ذاك ومن يردْ مواطرَ من غير السحائب يظلم
فلو لم تكن في مصر ما سرت نحوها بقلب المشوق المستهام المتيَّم
ولا نبحت خيلي كلاب قبائل كأنّ بها في الليل حملات ديلم (٤)
ولا أتبعت آثارَنا عين قائفٍ فلم ترَ الا حافراً فوق منسم (٥)
وسمنا بها البيداء حتى تغمَّرت من النيل واستذرت بظلّ المقطم

. . .

وابلجَ يعصي باختصاصي مشيرهُ عصيت بقصديه مشيري ولوَّمي
فساق اليَّ العرفَ غير مكدَّرٍ وسقت اليه الشكرَ غير مجمجم
قد اخترتك الاملاك فاختر لهم بنا حديثاً وقد حكَّمت رايك فاحكم (٦)
فاحسن وجهٍ في الورى وجه محسنٍ وايمنُ كفّ فيهم كفُّ منعم

---

(١) ابو المسك اي كافور . جعل الكرام جياداً وهو الادهم في مقدمتهم
(٢) راءه بمعنى رآه (٣) الطرف المهر اي شديد الثبات حين اشتداد الوغى
(٤) اي ولولاك لما قطعت القفار حتى نبحت خيلي كلاب القبائل كاني من بعض عصابات الديلم
(٥) القائف هو الذي يتتبع الاثر ليعرف صاحبه .
(٦) اي قد اخترتك واستغنيت بك عن كل الملوك فاحسن الي احساناً يلهجون به

واشرفهم من كان اشرف همةً واكثرَ اقداماً على كل معظم
لمن تطلب الدنيا اذا لم ترد بهـا سرورَ محبٍ او مساءة مجرم

. . .

ولو كنت ادري كم حياتي قسمتها وصيّرتُ ثلثيها انتظارك فاعلم
ولكنَّ ما يمضي من الدهر فائتٌ فجُدْ لي بحظّ البادر المتغنّم
رضيت بما ترضى به لي محبّةً وقدتُ اليك النفس قودَ المسلِم
ومثلك من كان الوسيط فؤادهُ فكلّمه عني ولم اتكلم

مرثاته في ابي شجاع فاتك الرومي

وكان من المشهورين بالمكارم وقد توفي بمصر سنة ٣٥٠

الحزن يقلق والتجمُّل يردعُ والدمع بينهما عصيٌّ طيّع
يتنازعان دموعَ عين مسهّدٍ هذا يجيءُ بها وهذا يرجع
النوم بعد ابي شجاع نافر والليل مُعيٍ والكواكب ظُلَّع [(١)]
اني لاجبن عن فراق احبّتي وتحُسُّ نفسي بالحمام فاشجع
ويزيدني غضب الاعادي قسوةً ويُلمّ بي عتب الصديق فاجزع
تصفو الحياة لجاهل او غافلٍ عما مضى منها وما يتوقّع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع
اين الذي الهرمانِ من بنيانه ما قومهُ ما يومه ما المصرع
تتخلّف الآثار عن اصحابها حيناً ويدركها الفناء فتتبع
لم يُرضِ قلبَ ابي شجاع مبلغٌ قبل الممات ولم يسعه موضع

---

(١) النوم بعده لا يالف العين والليل يطول كانه منهوك من التعب والكواكبُ كانها ظالعة لا تحسن السير

كنا نظنُّ دياره مملوءة ذهباً فمات وكلُّ دار بلقع

واذا المكارم والصوارم والقنا وبنات اعوج كل شيء يجمع(١)

المجد اخسرُ والمكارمُ صفقةً من ان يعيش لها الهمامُ الاروع

والناس انزل في زمانك منزلاً من ان تعايشهم وقدرك ارفع(٢)

بَرْدْ حشاي ان استطعتَ بلفظة فلقد تضرُّ اذا تشاء وتنفع

ما كان منك الى خليل قبلها ما يستراب به ولا ما يوجع

ولقد اراك وما تُلمُّ ملمّةٌ الا نفاها عنك قلبٌ اصمع

ويدٌ كأنَّ نوالها وقتالها فرضٌ يحقُّ عليك وهو تبرُّع

يا من يبدّل كلَّ يومٍ حلّةً أنَّى رضيتَ بحلة لا تنزع

ما زلت تخلعها على من شاءها حتى لبست اليوم ما لا تخلع

فظلتَ تنظر لا رماحك شُرَّع فيما عراك ولا سيوفك قُطَّع

بابي الوحيدُ وجيشه متكاثر يبكي ومن شرّ السلاح الادمع(٣)

واذا حصلت من السلاح على البكا فحشاك رعت به وخدّك تقرع

وصلتْ اليك يد سواء عندها الـ بازي الاشيهب والغراب الابقع(٤)

من للمحافل والجحافل والسُّرى فقدتْ بفقدك نيّراً لا يطلع

ومن اتخذت على الضيوف خليفة ضاعوا ومثلك لا يكاد يضيّع

قبحا لوجهك يا زمان فانه وجه له من كل قبح برقع

ايموت مثل ابي شجاع فاتك ويعيش حاسده الخصيُّ الاوكع(٥)

ابقيت اكذب كاذبٍ ابقيته واخذت اصدق من يقول ويسمع

ولّى وكل مُخالم ومنادم بعد اللزوم مشيّع ومودّع

من كان فيه لكل قوم ملجأ ولسيفه في كل قومٍ مرتع

---

(١) كنا نظن دياره ملأى بالذهب والاموال ولكنه لجوده لم يترك فيها شيئاً ولم يجمع في حياته غير المكارم والسلاح والخيول (٢) الناس في زمانك اقلّ قدراً من ان تعيش بينهم

(٣) يقصد بالوحيد الفقيد. وقوله بابي للتفدية

(٤) وصلت اليك يد الموت التي يتساوى بها العظيم والحقير

(٥) الخصي الاوكع يقصد به كافوراً

ان حلَّ في فرس ففيها ربُّها كسرى تذلّ له الرقاب وتخضع
او حلَّ في روم ففيها قيصر او حلَّ في عرب ففيها تُبّع (١)
قد كان اسرع فارس في طعنة فرساً ولكنَّ المنيَّة اسرع
لا قلَّبتْ ايدي الفوارس بعده رمحاً ولا حملت جواداً اربع

وقال يرثي والدة سيف الدولة ويعزيه عنها

سنة ٣٣٧

نُعدُّ المشرفيَّةَ والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال
ونرتبطُ السوابقَ مُقرباتٍ وما ينجين من خببِ الليالي
ومن لم يعشق الدنيا قديماً ولكن لا سبيل الى الوصال
نصيبك في حياتك من حبيبٍ نصيبك في منامك من خيال
رماني الدهرُ بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرتُ اذا اصابتني سهامٌ تكسَّرت النِصالُ على النصال
وهان فما أُبالي بالرزايا لاني ما انتفعت بان ابالي
وهذا اول الناعين طُراً لاول ميتةٍ في ذا الجلال
كأن الموت لم يفجع بنفسٍ ولم يخطر لمخلوقٍ ببال
صلاةُ الله خالقنا حَنوطٌ على الوجه المكفَّن بالجمال
على المدفون قبل الترب صوناً وقبل اللحد في كرم الخلال
اطاب النفس أنَّكِ متِّ موتاً تمنَّته البواقي والخوالي
وزُلت ولم ترَيْ يوماً كريهاً تسرُّ النفس فيه بالزَّوال
رواق العزّ فوقكِ مسبطرٌّ وملك عليّ ابنك في كمال (٢)
سقى مثواكِ غادٍ في الغوادي نظيرُ نوال كفِّك في النوال (٣)
يمرُّ بقبركِ العافي فيبكي ويشغله البكاء عن السؤال

(١) اي انه عظيم تظهر عظمته اينما حلّ في الفرس او في الروم او العرب
(٢) عليّ اي سيف الدولة
(٣) سقى قبرك سحاب هاطل يشبه جود كفك

وما اهداكِ للجدوى عليه ... لو انَّكِ تقدرين على فَعال
بعيشك هل سلوتِ فانَّ قلبي ... وان جانبتُ ارضكِ غير سال
نزلتِ على الكراهة في مكانٍ ... بعدتِ عن النُعامى والشَّمال[1]
تحجَّبُ عنك رائحةُ الخزامى ... وتمنَعُ منك انداء الطلال
بدارٍ كلُّ ساكنها غريبٌ ... بعيد الدار منبتُّ الحبال
حَصانٌ مثلُ ماءِ المزن فيه ... كتومُ السرِّ صادقةُ المقال
يعلِّلها نطاسيُّ الشكايا ... وواحدها نطاسيُّ المعالي[2]
اذا وصفوا له داءً بثغرٍ ... سقاه اسنَّة الاسل الطوال
وليست كالاناث ولا اللواتي ... تُعدُّ لها القبور من الحجال
ولا من في جنازتها تِجارٌ ... يكون وداعها نفض النعال
مشى الأمراء حوليها حفاةً ... كأنَّ المروَ من زِفِّ الرئال[3]
ولو كان النساء كمن فقدنا ... لفُضِّلت النساء على الرجال
وافجعُ من فقدنا من وجدنا ... قُبيل الفقد مفقود المثال
يدفِّنُ بعضنا بعضاً وتمشي ... اواخرنا على هام الاوالي
وكم عينٍ مقبَّلةِ النواحي ... كحيلٌ بالجنادل والرمال
ومغضٍ كان لا يغضي لخطبٍ ... وبالٍ كان يفكر في الهزال[4]
أسيفَ الدولة استنجدْ بصبرٍ ... وكيف بمثل صبرك للجبال
وانت تعلّم الناس التعزّي ... وخوض الموت في الحرب السجال
وحالات الزمان عليك شتى ... وحالك واحدٌ في كل حال
رأيتك في الذين ارى ملوكاً ... كأنك مستقيمٌ في محال
فان تفق الانامَ وانت منهم ... فانَّ المسك بعضُ دم الغزال[5]

---

(١) نزلت في مكان بعدت فيه عن ريح الشمال وريح الجنوب (يعني القبر)

(٢) يداويها طبيب الامراض ولكن ابنها طبيب المعالي

(٣) لم تكن من العامة فيسير وراءها اهل السوق والتجار ولكن الامراء مشوا حفاة وراءها كانما الحجارة كانت من وبر النعام

(٤) وكم عين كانت تقبل دلالاً اصبحت مكتحلة بالتراب وكم رجل كان لا ينكس رأسه لخطب اصبح منكساً في القبر. وكم ممن كان يفكر كثيراً في صحته اصبح الآن بالياً بتأثير الحمام

(٥) ليس من الغريب ان تفوق الناس وانت منهم فان المسك (وهو من دم الغزال) يفضله كثيراً

وقال يصف حمى اصابته ويعرض بالرحيل عن مصر

ملومكما يجلُّ عن الملام ... وَوَقعُ فعاله فوقَ الكلام (١)
ذراني والفلاةَ بلا دليلٍ ... ووجهي والهجيرَ بلا لثام
فاني أستريحُ بذي وهذا ... وأتعبُ بالاناخة والمقام
ولا أمسي لأهل البخل ضيفاً ... وليس قرى سوى مخ النَّعام (٢)
ولمَّا صارَ وُدُّ الناس خبًّا ... جزَيتُ على ابتسام بابتسام (٣)
وصرتُ أشكُّ فيمن أصطفيه ... لعلمي انه بعض الانام
يحبُّ العاقلون على التصافي ... وحبُّ الجاهلين على الوَسام (٤)
وآنف من اخي لابي وأُمي ... إذا ما لم اجدهُ من الكرام
أرى الاجداد تغلبها كثيراً ... على الاولاد اخلاق اللئام (٥)
ولستُ بقانع من كل فضل ... بان أُعزى الى جد همام (٦)
عجبت لمن له قدٌّ وحدٌّ ... وينبو نبوةَ القضمِ الكهام (٧)
ومن يجدُ الطريقَ الى المعالي ... فلا يذرُ المطيَّ بلا سنام (٨)
ولم ارَ في عيوب الناس شيئاً ... كنقص القادرين على التمام

...

أقمت بارض مصر فلا ورائي ... تخبُّ بي الركاب ولا امامي (٩)

---

(١) يخاطب صاحبيه فيقول ان من تلومانه على ركوب الاسفار هو اعلى من ان يصل اليه الملام
(٢) وليس لي زاد البتة . اشارة الى ان النعام لا مخ له (٣) خبًّا اي خداعاً
(٤) الوسام حسن النظر . يقول العاقل يحب لاجل تصافي الود بينه وبين محبوبه اما الجاهل فيهتم بالهيئة الخارجية (٥) اي ان الاخلاق اللئيمة قد تغلب الاصل الكريم فيجيء الولد لئيماً
(٦) اي لا اقنع ان أنسب الى جد كريم بل ادرك الفضل بنفسي (٧) اي عجبت من الشاب القوي الذي اذا عرض له الامر العظيم رجع عنه رجوع السيف الذي لا يقطع (٨) من لا يذيب اسنمة الابل بجهاده في سبيل المعالي (٩) تخب بي الركاب اي تسير بي الابل ويريد بهذا البيت انه لزم الاقامة بها

ومَلَّني الفراش وكانَ جنبي يمَلُّ لقاءه في كل عام
قليلٌ عائدي سقمٌ فؤادي كثيرٌ حاسدي صَعْبٌ مرامي
عليل الجسم ممتنع القيام شديد السكر من غير المدام

. . .

وزائرتي كأنَّ بها حياء فليس تزورُ الا في الظلام(١)
بذلتُ لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي(٢)
يضيق الجلد عن نَفسي وعنها فتوسعه بانواع السَّقام
كأنَّ الصبح يطرُدها فتجري مدامعها باربعةٍ سجام
أراقبُ وقتها من غير شوق مراقبةَ المشوقِ المستهام
ويصدق وعدها والصدق شرٌّ إذا القاكَ في الكرَب العظام
أبنتَ الدهر عندي كلُّ بنتٍ فكيف وصلت انت من الزحام(٣)
جرحتِ مجرَّحاً لم يبقَ فيه مكانٌ للسيوف ولا السهام
يقول لي الطبيب اكلت شيئاً وداؤك في شرابك والطعام
وما في طبّهِ اني جوادٌ اضرَّ بجسمهِ طولُ الجمام(٤)
تعوَّد أن يُغَبِّرَ في السرايا ويدخل من قتام في قتام(٥)
فأُمسك لا يطال له فيرعى ولا هو في العليق ولا اللجام(٦)

---

(١) اشارة الى الحمى (٢) المطارف اردية الخز. والحشايا الفرش (٣) يريد ببنت الدهر الحمى وبنات الدهر شدائده فيقول: ايها الحمى عندي كل نوع من انواع الشدائد فكيف لم يمنعك ازدحامهن من الوصول اليَّ (٤) الجمام الراحة (٥) تعود ان يثير الغبار بين الجيوش ويخرج من غبرة الى غبرة اي من معركة الى اخرى (٦) فأمسك لا يرخى له الحبل فيرعى ولم يقدم له العليق فياكل ولم يكن تحت اللجام في السفر. وقد شبه حالته مع كافور بحالة هذا الجواد

المعرّي

ابو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان

٣٦٣ – ٤٤٩هـ

٩٧٣ – ١٠٥٨م

مصادر دراسة

نزهة الالبَّاء للانباري ٤٢٥
كتاب الانصاف والتحري – لكمال الدين ابن العديم
وهو منشور ضمن كتاب اعلام النبلاء للطباخ ج ٤ من ص ٧٨
معجم الادباء لياقوت ج ١ص ١٦٢–٢١٦
وفيه ما دار من المراسلات بين المعرّي وداعي الدعاة
وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٧ (تحت حرف احمد)
ترجمة المعرّي للذهبي منشورة في ذيل رسائل المعري (اكسفورد)
مفتاح السعادة لطاش كبري زاده ج ١ ص ١٩١–١٩٢
رسائل المعرّي (طبع اكسفورد)
اللزوميات مطبعة المحروسة (مصر ١٨٩١)وبومباي ١٣٠٣ ﻫ
" مصر ١٩٢٤
شرح التنوير على سقط الزند مطبعة الاسلام (مصر) ١٣٣٤ ﻫ
ومما كتب عنه حديثاً
ترجمة مسهبة بالانكليزية للاستاذ مرغوليوث في مقدمة رسائل المعري
ترجمة للاستاذ نكلسون في دائرة المعارف الاسلامية
ذكرى ابي العلاء للدكتور طه حسين
اعلام النبلاء للطباخ ج ٤ص ١٧٥–١٨٠
ورسائل وترجمات شتى في كتب الادب والتاريخ لعرب ومستشرقين منها
ترجمة وشرح بعض اللزوميات لفون كرير في Z. M. D. G. المجلد ٣٠ و٣١ و٣٨

نوطئة تاريخية

ذكرنا في فصل سابق ان امارة بني حمدان كانت ايام سيف الدولة في حروب متواصلة وان هذا الامير كان كثير السخاء على الادباء والعلماء ، وقد اضطره كل ذلك الى الانفاق والتشديد في جمع الاموال من رعيته . ولما مات خلفه ابنه ابو المعالي ثم ابنه ابو الفضائل ، وفي ايامهما تفاقمت الخطوب واصبحت امارة حلب يوم نشأ شاعرنا معتركاً لاربع قوى رئيسية —

الاولى — الحمدانية وكانوا قد ضعف امرهم واخذت السيطرة تخرج من ايديهم

الثانية — الفاطمية اصحاب الامر في مصر وكان لهؤلاء مطامع في حلب ، فلم يألوا جهداً في دس الدسائس وارسال الجيوش لفتحها

الثالثة — قبائل البادية ، ومنهم المرداسية التي كان لها شأن يذكر في هذا الاضطراب السياسى

الرابعة الروم وغاراتهم على امارة بني حمدان معروفة ، على انهم بينا كانوا ايام سيف الدولة يُعدّون اعداء المسلمين عموماً ، اصبحوا ايام المعري — بسبب تطاحن امراء المسلمين — عوناً لبعض هؤلاء الامراء على بعض ، وسبباً في توسيع شقة الخلاف بينهم . فمن ذلك انهم ناصروا ابا الفضل بن حمدان على الفاطميين ، وكان هؤلاء يحاصرون حلب[1] ، وبهم استنجد حسان بن مفرّج ولولؤ مولى ابي الفضائل . فكان بين المسلمين حروب داخلية ادت الى تدخل الروم وانحيازهم الى احد الفريقين ، مما زاد الطين بلة في تلك الفوضى السياسية . وانك لتلمح في شعر المعري شيئاً من ذلك فقد قال في مدحة له لاحد الامراء

ايوعدنا بالروم ناس وانما هم النبت والبيض الرقاق سوامُ
كأن لم يكن بين المخاض وحارمٍ كتائب يُشجين الفلا وخيام[2]
كتائب من شرق وغرب تألّبت فُرادى اتاها الموت وهو تُوام

ويؤخذ من هذه الابيات ان بلدة الشاعر كانت في يد امير معادٍ للروم ، والارجح انها كانت قد استقلّت يومئذ عن حلب ، وان اعداء ذلك الامير كانوا يتوعدونه باستنجاد الروم عليه ، فنظم الشاعر قصيدته مشيراً الى بأس الامير والى انهزام كتائب الروم بين

(١) تجارب الامم لمسكويه — حوادث سنة ٣٨١
(٢) المخاض نهر قرب المعرة ، وحارم بلدة قرب انطاكية. يشجين الفلا اي يغصبهم الفلا لكثرتهم

هذين المكانين ، وانهم لذلك لا يخشون باسهم ولا يبالون بوعيدهم.

فاذا نظرنا الى الاحوال السياسية التي نشأ فيها ابو العلاء نراها كثيرة الاضطراب والفتن والاهوال ، ولا شك ان ذلك كان شديد التأثير في احوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية ، فاشتدت فيها الضائقة والفساد وبرزت في الرؤساء الروح الاشعبية ، روح التكالب على المال والامارة مما يُعكس لنا جلياً في شعر شاعرنا الكبير.

مُلَّ المقام فكم اعاشر امةً امرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعيّة واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها

. . .

ولد المعرّي في المعرّة وفيها نشأ. والمعروف من كتب التاريخ انه اصيب بجُدري وهو في الرابعة من عمره ذهب بنظره . على ان عماه لم يكن في اول الامر كلياً ، فان النصوص كلها تشير الى ان الجدري ذهب بيسرى عينيه وغشي يمناها بياض . ويقول الانباري انه كان ضريراً اعمى ولم يكن اكمه كما توهّم من لا علم له[(١)] . وقد روى ابن العديم عن بعض اهل الادب حكاية نقلها هذا عن رجل اسمه ابو منقذ انه رأى ابا العلاء وهو صبي دون البلوغ فقال في وصفه — وهو صبي دميم الخلق مجدور الوجه وعلى عينه بياض من الجدري وكأنه ينظر باحدى عينيه قليلاً[(٢)] .

والذي يترجح لدينا من ذلك ان الشاعر لم يفقد بصره تماماً الا بعد بضع سنوات من مرضه . على ان ما فقده من باصرته استعاض عنه بجدة بصيرته فقد اجمع المؤرخون على شدة ذكائه وقوّة حافظته ، ولهم في ذلك اقاصيص وروايات معروفة[(٣)] .

والمعري من بيت علم ورئاسة[(٤)] — فابوه من العلماء ، وجدّه وابو جدّه ، وجدّ جدّه كلهم تولوا قضاء المعرة . وقد بقي القضاء في بني اخيه الى ان دخلها الافرنج سنة ٤٩٢[(٥)] — اي الى ما بعد موت الشاعر باكثر من اربعين سنة.

ومن آله (آل سليمان) فضلاء وعلماء وشعراء لا يتسع المقام لذكرهم ، وكانت الفتاوى

(١) طبقات الادباء ٤٢٥
(٢) الانصاف والتحري (في اعلام النبلاء ج ٤—١٠٤)
(٣) راجع ترجمته في معجم الادباء، وفي الانصاف والتحري (طباخ ٤ — ١٠١)
(٤) مفتاح السعادة ١—١٩١ (٥) معجم الادباء ١—١٦٤

(على ما يستفاد من ياقوت وابن العديم) في بيتهم على المذهب الشافعي اكثر من مئتي سنة.

في وسط علمي ديني كهذا الوسط نشأ شاعرنا فاخذ العلم والادب اولاً عن ابيه ثم عن جماعة من علماء المعرّة، وزار في حداثته بعض المدن الشامية المعروفة بالعلم كانطاكية واللاذقية وطرابلس، فاخذ العلم عن علمائها ومما يجده في مكاتبها. ويؤخذ من رسالته الى خاله ابي القاسم بن سبيكة انه لم يقصد بعد العشرين احداً اجتداءاً لعلم[1]. بقي في ذلك بضع سنوات ثم عاد الى المعرة، والظاهر انه بدأ حياته العملية كسائر العلماء والشعراء (اي في قرض الشعر للامراء) ولكنه لم يكد يفعل ذلك حتى عدل عنه. فليس له في سقط الزند الا بضع مدائح فيمن يرجى عطاؤهم، كسعد الدولة بن حمدان وسواه. وهذه المدائح من اوائل شعره، اما سائر مديحه ففي فقهاء او ادباء من طبقته اختصهم بالوداد والاطراء.

ولما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره (اي سنة ٣٩٨) قام برحلة اولى الى بغداد ولا نعرف كثيراً عن هذه الرحلة، ثم رحل اليها ثانية سنة ٣٩٩ واقام فيها سنة وسبعة اشهر[2].

وهنا لا بد من ان نتساءل لماذا رحل الى بغداد ولماذا لم يقم فيها طويلاً؟ والذي يؤخذ من مراجعة شعره ورسائله ومقابلتها باقوال المؤرخين ان الاضطرابات السياسية في حلب والمعرة اهابت به الى ترك وطنه وقصد بغداد[3]. وكان ينوي الاقامة فيها واستخدام مواهبه في سبيل العلم، ولكنه لم يوفق الى امنيته. ففي رسالته الى خاله ابي القاسم التي كتبها على اثر رجوعه من بغداد يقول — « وكنت ظننت ان الايام تسمح لي بالاقامة، فاذا الضارية احجأ بعُراقها، والعبد اشحّ بكُراعه، والغراب اضنّ بتمرته». الى ان يقول « فلما زَبنت الضروسُ الحالب، ونَزّت العَنود تحت الراكب، ومنعت القَلوع النازع، وخبّ رائداً سحاب، وكذب شائمًا برق، عادت لعِترها لَميس[4] وذكر وِجاره ثُعاله». ثم يقول « ولما فاتني المقام بحيث اخترت، اجمعت على انفراد يجعلني كالظبي في الكناس. الخ »[5].

---

(١) رسائل المعري (اكسفورد) ٣٢

(٢) ابن خلكان ١—٤١

(٣) ويروي الذهبي انه ذهب الى بغداد متظلماً من امير حلب لمعارضته اياه في وقف له

(٤) مثل يضرب لمن يرجع الى ما كان عليه ويشير هنا الى رجوعه الى وطنه

(٥) راجع رسائل المعري (اكسفورد ٣٠—٣٢)

ولعلَّ ما في طبع المعري من الأَنفة منعه من ان يحصّل رزقه في بغداد على طريقة المدَّاحين المستجْدين من الشعراء ، فكان ذلك من الاسباب التي عجلت في رجوعه . فقد ذكر في الرسالة الآنفة الذكر ان اهل بغداد قابلوه بالاكرام وانهم لما احسّوا بتأهبه للرحيل اظهروا كسوف بال ، ثم يقول « وانصرفت وماء وجهي في سقاء غير سرب ، ما ارقت منه قطرة في طلب ادب ولا مال » . وتظهر انفته الشديدة ايضاً في ما جرى له في مجلس المرتضى ، وكان هذا يبغض المتنبي ، وكان المعرّي يتعصب له . فجرى يوماً بحضرته ذكر المتنبي فتنقَّصه المرتضى ، فقال المعري لو لم يكن للمتنبي من الشعر الاَّ قوله « لك يا منازل في القلوب منازل» لكفاه فضلا ، فغضب المرتضى وامر فسُحب برجله وأُخرج من مجلسه[1] ، وقال لمن بحضرته اراد هذا الاعمى قوله

واذا اتتك مذمتي من ناقص	فهي الشهادة لي باني كامل

وفي شعره كثير مما يشير الى هذا الطبع فيه ، كقوله من قصيدة كتب بها الى الفقيه ابي حامد الاسفراييني عند دخوله بغداد

ولا اتقـل في جاهٍ ولا نشبٍ	ولو غدوت اخا عُدم وادقاع

ومما كتبه من بغداد يخاطب اهل بلده

أَخواننا بين الفرات وجلَّق	يَد الله لا اخبرتكم بمحال
انبّئكم اني على العهـد سالم	ووجهيَ لمَّا يبتذلْ بسؤال
فاصبحت محسوداً بفضلي وحده	على بُعد انصاري وقلَّة مالي

رجل عزيز النفس مثله يأنف من السؤال ومن التزلف الى كبار القوم في عصر كان التزلف هو جادّة الاديب الى الرزق ، لا يُستغرب ان تضيق به الحال في عاصمة الخلافة حتى تحمله الى ان يقول

تمنَّيت ان الخمر حلّت لنشوة	تجهّلني كيف اطمأنت بي الحال
فاذهل اني بالعراق على شفاً	رزيّ الاماني لا انيس ولا مال
مُقلٍّ من الاهلَين يسرٍ واسرةٍ	كفى حَزَنًا بينٌ مشتٌ واقلال

(١) معجم الادباء ١—١٧٠

وكم ماجد في سيف دجلة لم أشم · له بارقاً والمرء كالمزن هطّال
سيطلبني رزقي الذي لو طلبته · لما زاد والدنيا حظوظ واقبال

وبرغم ما في قصيدته التي ودع فيها بغداد من مدح لاهل تلك المدينـة ، فان في قصائده الاخرى التي قالها في بغداد ما ينمّ على ما كان يشعر به من ضيق ومن تحنان الى وطنه[١] . وفي قصيدة بعث بها الى القاضي التنوخي يذكر ان الذي اهاب به الى تركها رجاؤه بلقاء والدته ونفاد ماله

اثارني عنكم امران ، والدة · لم القها وثراء عاد مسفوتا

اما والدته فماتت قبل وصوله الى المعرة فجزع لذلك ورثاها رثاء ابنٍ مفجوع .

ولما عاد الى المعرّة لزم منزله وعاش فيه على طريقة الفلاسفـة المتقشفين . ويظهر من بعض رسائله انه فكر كثيراً في ذلك ، فقد قال من رسالته لاهل المعرة « فوجدت اوفق ما اصنعه في ايام الحياة عزلة تجعلني من الناس كبارح الأروى من سانح النعام . وما أَلَوتُ نصيحةً لنفسي ، فاجمعت على ذلك واستخرت الله فيه بعد صلاته على نفر يوثق بخصائلهم ، فكلهم رآه حزما ، وعدَّه اذا تمَّ رشداً ، وهو امر ليس بنتيج الساعة ولا ربيب الشهر والسنة ولكنه غذيُّ الحقب المتقادمة ، وسليل الفكر الطويل الخ[٢] .

على ان زهد المعري لا يعني انقطاعاً عن العمل ، بل ترفعاً عن حطام الدنيا وغرورها . فالرجل كان كثير العمل حريصاً على التعليم والتأليف — وفي هذا الطور من حياته نظم لزوميّاته وصنف اكثر كتبه ورسائله[٣] . وكان منزله محجّة الطلاب يقصـدونه من كل الآفاق[٤] ، والى ذلك يشير في اللزوميات

يزورني الناس هذا ارضه يمنٌ · من البلاد وهذا داره الطَّبَس

وقد خرج منهم ائمة وقضاة ورؤساء في العلم : منهم الخطيب ابو زكريا التبريزي وابو المكارم الابهري وابو تمام ابن عيسى الانصاري وابو ظاهر الانباري وابو القاسم التنوخي وسواهم .

---

(١) ولا يستبعد ان يكون اكثر ذلك في اثناء رحلته الاولى

(٢) رسائل المعري (اكسفورد) ٣٦

(٣) من اراد ان يعرف عدد موءلفاته فليراجع معجم الادباء والانصاف والتحري وما نقله الذهبي عن القفطي (٤) ابن خلكان ١-٤١

وبرغم تقشفه ولزومه منزله كان له من الوجاهة اسمى مقام : قال ابن العديم « وما زالت حرفة ابي العلاء في علاء وبحر فضله مورداً للوزراء والامراء . وما علمت ان وزيراً مذكوراً وفاضلاً مشهوراً مرّ بمعرّة النعمان في ذلك العصر الا وقصده واستفاد منه »[1] . ومما يدلك على وجاهته ما نقله ياقوت والذهبي[2] من ان اهل المعرة لما اشتد عليهم صالح بن مرداس لم يجدوا بداً من ايفاد المعري مستشفعاً فيهم ، فقصد الامير ولما دخل عليه قال له الامير انت ابو العلاء ؟ فقال انا ذاك . فرفعه الى جانبه ، وبعد ان خاطبه المعري بامرهم قال له اني قد وهبتها لك ايها الشيخ

ولما اصبحت المعرة وحلب تحت سطوة الفاطميين بذل له المستنصر الفاطمي ما ببيت المال بالمعرة فلم يقبل منه شيئاً ، وكذلك داعي الدعاة لما عرف تزهد المعري وقلّة دخله كتب الى نائب الفاطميين بحلب بان يجري ما تدعو اليه حاجته وان يضاعف حرمته ويرفع منزلته عند الخاص والعام ، فامتنع من قبول ذلك[3] . وبين المعري وداعي الدعاة رسائل ومكاتبات نستدل منها على ما كان لشاعرنا من المنزلة الرفيعة عند زعماء ذلك العصر .

ويؤيد كل ذلك ما ذكره الشاعر الفارسي ناصر خسرو الذي زار المعرة سنة ٤٣٩ اي قبل موت المعري بعشر سنوات ، فوصفه بقوله « انه رجل ذو نفوذ عظيم في بلدته وذو غنى ، ينفق على الفقراء والمعوزين ، مع انه هو (اي المعري) كان يعيش عيشة الزهد والتقشف[4] . وفي شعر المعري ورسائله ما قد يزكي شهادة ناصر خسرو ، كقوله في اللزوميات مشيراً الى ما يعتقده الناس من حسن حاله

من ليَ ان لا أقيم في بلد   أُذكر فيه بغير ما يجب
يُظنُّ بي اليسر والديانة والعلم   وبيني وبينها حجب

ومن قصيدته

تفهّم يا صريع البين بشرى   اتت من مستقلٍّ مستقيل

---

(١) اعلام النبلاء ٤—٢٤٤

(٢) معجم الادباء ١—٢١٦ ورسائل المعرّي (اكسفورد) ١٣٠

(٣) الانصاف والتحري (في اعلام النبلاء ٤—١٤٤

(٤) نقلا عن Encyc. of Islam من فصل للاستاذ نكلسون

يستدل انه ارسل قدراً من المال الى اديب اسمه صريع البين ، ويسأله المعذرة على قلة ما ارسل اليه .

وكذلك في قصيدته

ايبسط عـذري منعم ام يخصّني بما هو حظّي من اليم عتاب

يعتذر لفقيه عن ان الهديّة التي ارسلها اليه اقلُّ من قدره وكان المعري يومئـذ في الخمسين من عمره فقال —

فيا ليتني اهديت خمسين حجةً مضت ليَ فيها صحتي وشبابي

وقلّت له— فاتركْ ثلاثين اسوداً متى ما تكشفْ تُلفَ غير لباب

لعل الذي انفذتُ يكفيه ليلة لاسباغ طهرِ حانَ او لشراب

وفي البيت الثاني اشارة الى ان الهدية ثلاثين درهماً فقط

ومثلها قوله في رسالة ارسلها الى علوي « وقد بعثت بشيء من النفقة ، نفسي من قلته كل المشفقة »(١).

ومما يؤيد ذلك ما ذكره ابن العديم مما قرأه بخط ابي الفرج محمد بن احمـد بن الحسن الكاتب الوزير «روزنامج» انشأه لولده الحسن يذكر فيه رحلته سنة ٤٢٨ الى الحجّ وعبوره بمعرة النعمان ، ويذكر اجتماعه بابي العلاء ومن قوله فيه « وقصر همه على ادب يفيـده وتصنيف يجيده ، ومتعلم يفضل عليه ومسترفد صعلوك يحسن اليه » . قال وله دار حسنة يأويها ومعاش يكفيه ويمونه ، واولاد اخ يخدمونه ويقرأون بين يـديه ويدرسون عليه ويكتبون له، وورّاق برسمه مستأجر ، ثم ينفق على نفسه من دخل معاشه نفقة طفيفة ، وما يفضل عنه يفرّقه على اخيه واولاده واللائذين به وللفقراء والقاصدين له من الغرباء(٢).

ولما قصده الخطيب التبريزي ليقرا عليه دفع اليه صرّة فيهـا ذهب ، وقال اوثر من الشيخ ان يدفعها الى بعض من يراه ليشتري لي ما تدعو اليه الحاجة مدة مقامي للقراءة واتوفر بذلك على الاشتغال . وعلم المعري ان هذا الطالب كان فقيراً فاخذ الصرة وخبأها وتقدم الى وكيله ان يجري للخطيب ما تدعو اليه الحاجة مدة اقامته بالمعرة . ولما اتم دروسه وهمّ

(١) رسائل المعري (اكسفورد) ٣٥

(٢) الانصاف والتحري (اعلام النبلاء ٤ — ١٥٢)

بالانصراف ودَّع الشيخ ، فدفع اليه صرته بعينها . ولما اصر عليه الخطيب قال المعري لا سبيل الى رد الصرة عليّ ، وهذا ذهبك بعينه[1] .

وهناك قصة نقلها الصفدي في نكت الهميان عن ابن سبط الجوزي عن رجل دخل المعرة ايام المعري وقد وُشي بشاعرنا الى محمود بن صالح انه زنديق — قال : فامر محمود بحمله اليه وبعث خمسين فارساً ليحملوه ، فانزلهم ابو العلاء دار الضيافة .

ولا نعلم مبلغ هذه القصة من الصحة ، ولكنها اذا قورنت بما ذكرناه عن جاه ابي العلاء وحسن حاله في المعرة — مما لا سبيل الى الشك فيه — ترجح لدينا تصديقها .

ومع كل ذلك فاكثر الذين يترجمون للمعري من قدماء ومحدثين يذهبون الى فقر شاعرنا ، وانه كان يعيش من وقف له لا يتجاوز الثلاثين ديناراً يعطي نصفه لخادمه . فكيف نجمع بين القولين — بين وجاهة المعري وكرمه من جهة ، وفقره وزهده من جهة اخرى ؟ — والجواب على ذلك ان المعري بعد ان استقر في المعرة وعكف على العلم والتعليم قصده الطلاب من الافاق وكاتبه الكبراء والامراء ، فعظم شانه وحسنت حاله . ولكنه لم يكن يستعمل من ماله الاّ النزر اليسير ، وينفق الباقي في سبيل اللائذين والمعوزين . وهنا سر العظمة في حياة المعري الزهدية . عاش عيشة الحكماء المتورعين عن الدنيا ، ولكنه لم يكن في ذلك كابي العتاهية واضرابه من الحريصين على المال المقبلين على حطام الحياة ، بل قنع باليسير اعتقاداً بحكمة القناعة ، وأحسنَ بما كان يفضل عنه اقتناعاً بشرف الاحسان .

زندقته وايمانه

اختلف الناس في المعرّي فمن ناعت اياه بالتقى وحسن العقيدة ، ومن ناسب اليه الضلال والالحاد . وسبب ذلك ما يجدونه في لزومياته من النقد الموجّه الى الزعماء والرؤساء ، وما يهاجم به احياناً بعض المذاهب والعقائد الدينية . فمن اتهموه في دينه ياقوت وابن الجوزي والصلاح الصفدي وجاراهم الذهبي فقال « مات متحيراً لم يجتم بدين من الاديان نسال الله ان يحفظ علينا ايماننا بكرمه »

وممن ذهب الى انه صحيح العقيدة ابو الحسن الهكاري وابن العديم صاحب « الانصاف

---

(١) الانصاف والتحري (اعلام النبلاء ٤ — ١٥٢)

والتحري في دفع التجري عن المعري » . ومنهم السلفي فقد لخص اقوال الناس فيه ثم ختم ذلك بقوله – ففي الجملة كان من اهل الفضل الوافر ، قرأ القرآن بروايات وسمع الحديث بالشام على ثقات . وله في التوحيد وإثبات النبوءة وما يحضّ على الزهد واحياء طرق الفتوة والمروّة شعر كثير[1]

...

ولا يزال الناس الى اليوم مختلفين في هذا الامر ، على انه لا بدّ قبل الحكم على المعرّي من ان نلقي نظرة على عصره وعلى ما كان له من الاثر في نفسه . فقد عاش شاعرنا ما بين منتصف القرن الرابع ومنتصف القرن الخامس الهجري – اي في ابّان الحركة الفكرية عند العرب . في ذلك العصر تم نقل العلوم اليونانية ونبغ بين المسلمين كثيرون من العلماء والمفكرين والنقادين ، فكانت بغداد وكثير من المدن الشرقية الاخرى مراكز علمية احتكّت فيها « الروحيّة » الساميّة التي حملت الى الناس الايمان بالتوحيد والمعاد والآداب الدينية « بالعقلية » اليونانية التي حملت اليهم البحث المنطقي والنظريات العلمية . وكان من جراء ذلك الاحتكاك اشتداد الفرق الكلامية وتعدُّد المنازع الفكرية بين مُناصر للنصوص الدينية او مضادٍ لها . ومن الانصاف هنا ان نقول ان هذا النزاع بين النقل والعقل كان يضعف او يشتدّ بالنسبة الى الاحوال الاجتماعية او السياسية . على ان العصور الوسطى مَدينةٌ للغة العربية في انها (اي العربية) اتسعت يومئذ للتفكير العلمي ، فكانت الموئل الذي حفظت فيه ثمار العقول القديمة .

ولا شك ان هذا النزاع الفكري احدث في العقول ميلاً الى النظر النقدي في الكون والحياة والدين والمعاد ، فتسرب الشك الى عقول بعض المفكرين ، واستولى عليهم روح الانكار ، فرفضوا ما لم تقبله عقولهم من تعاليم وسنن ، ونادوا بالرجوع الى المبادىء الاولية في الحياة الروحية والاجتماعية . ومن هؤلاء شاعرنا – فقد نشأ في هذا الجو الفكري المضطرب توّاقاً الى المعرفة والى بلوغ الحقائق ، وفي نفسه اصطدمت « تقاليد » الدين بأحكام العقل ، فاضطرب وصار يتلمّس طريقه توصلاً الى ما يشفي اوامه ، فلم يوفّق تمام التوفيق : كان الايمان اساس حياته ولكنه قضى الحياة حائرا تتقاذفه لجج الشك والتشاؤم .

---

(١) راجع القول في عقيدة المعري واختلاف الناس فيه (اعلام النبلاء ص ١٦٣ الى ١٦٧ والذهبي في رسائل اكسفورد ص ١٣٠ – ١٣٥) وراجع مفتاح السعادة ج ١ – ١٩١ و ١٩٢

ومن هنا هذا الاختلاف في الحكم عليه ·

على اننا اذا دققنا في درس حياته وشعره وحاولنا ان نخترق الضباب الذي يحيط به رايناه يظهر لنا في طورين مختلفين تفصل بينهما مدة اقامته في بغداد · فالطور الاول طور الشباب ويمتد الى سنة ٤٠٠ هـ · وفي هذا الطور نراه مسلماً حقيقياً ، وبرغم ما قد تنمُّ عليه بعض اشعاره من روح التفكير ، لا نراه يختلف في تصرفه العادي عن سائر المؤمنين ·

والطور الثاني طور العزلة · يبتدىء على اثر رجوعه من بغداد ، ويمتد الى آخر حياته وفي هذا الطور يقف موقفين رئيسيين

١ — تجاه الآخرة · وهو هنا حائر يجمع في نفسه التفكير الفلسفي والعاطفة الدينية الموروثة جمعاً غير محكم — فتارة تراه مؤمناً وطوراً مشككاً — ولهذا نجد في شعره بعض المتناقضات ، وسيأتي معنا تفصيل ذلك

٢ — تجاه الحياة والانسان · وهو هنا صريح ثابت الرأي يغلب عليه التشاؤم والمرارة ، ويلخص هذا الموقف بالمبادىء التالية

ان الطبيعة ثابتة لا تزول — (وهو مذهب الفلاسفة الطبيعيين)

ان الانسان فاسد بطبيعته ولا يمكن اصلاحه

ان الطمع اساس كل تصرفاته ومعتقداته

ان الدين انما هو حسن الاخلاق وشرف المعاملة (لا الفروض والسنن والايمان)

ان حقيقة الحياة هي القناعة والبساطة

ان الوجود علة الشقاء · فالافضل ان نتخلص منه بعدم التناسل

وله في المرأة آراء لا تخرج عن آراء عصره ، وسيظهر لنا كل ذلك في تحليلنا لشعره

شاعريته وشعره

للمعري مقام فريد بين شعراء العربية — لا من حيث اسلوبه وفنه — ولكن من حيث روحه ونظره الى الدنيا · وقد راينا ان حياته الفكرية تظهر في طورين مختلفين · وفي هذين الطورين تظهر حياته الشعرية ايضاً — الاول يتناول شعر الشباب منذ بدء عهده بالنظم الى اعتزاله ، ويدخل فيه ايضاً بعض ما نظمه بعد ذلك · وقد دون لنا هذا الشعر في سِقط

الزند — والثاني شعر العزلة ويتمثل لنا في لزومياته او ديوانه المعروف بلزوم ما لا يلزم ٠ ولنتقدم الى تحليل كل من هذين الطورين

الطور الاول — سقط الزند

في هذا الطور نجد المعري جارياً في سنن الاقدمين من الشعراء ، فيكثر في شعره ذكر النياق والرحيل والاحبة ٠ ولكي تعرف مقدار ذلك نقول خذ الجزء الاول من سقط الزند فهو يشتمل على اكثر من ثلاثين قصيدة ، وفي اكثر من ثلثيها تجد مقدمة يصف بها المطايا او يتكلّف الغزل على الطريقة القديمة ٠ اما الجزء الثاني من الديوان فاذا استثنيت « درعياته» رايت نصفه على هذا المنوال القديم

ومن امثلة وصفه للمطايا قوله يذكر سريها في الليل

واسودَ لم تعرف له الانس والدا — كساني منه حلّةً وخمارا
سرتْ بيَ فيه ناجياتٌ مياهها — تجمُ اذا ماء الركائب غارا
نخرّقن ثوب الليل حتى كانني — اطرتُ بها في جانبيه شرارا

الى ان يقول —

اذا قُيدتْ في منزل بتنوفةٍ — حسبت مُناخاً اوطنته مثارا
تظن غطيط النوم نهمة زاجرٍ — فتقطع قيداً او تبتُّ هجارا

ثم يقول —

وليست تحسُّ الارض منها بوطأة — فتُفزع سرباً او تروع صُوارا
تدوس افاحيص القطا وهو هاجد — فتمضي ولم تقطع عليه غرارا

وينسج مقدّمته على هذا النسق البدوي في نحو عشرين بيتاً ، ثم يتقدم الى الممدوح ويصف بأسه في الحرب ، ثم يتناول وصف خيله وكرّها في اثني عشر بيتاً لا تقول اذا قرأتها الا ان ناظمها فارسٌ من فرسان البادية[1]

وقس على ذلك عشرات من قصائده ٠ وقد يلفت النظر متابعته لابي تمام في وصف

---

(١) راجع هذه القصيدة في سقط الزند ١ — ١٧٥

المركب الذي حمله الى الأنبار ، وتشبيهه اياه بالناقة السريعة ، كقوله من قصيدة مطلعها « يا ناق جدّي فقد افنت اناتك لي »

على نجاة من الفرصاد ايّدها رب القَدوم باوصال واضلاع
تُطلى بقار ولم تجرب كأن طليت بسائل من ذفاري العيس مُنباع (١)
ولا تُبالي بحلٍ ان الحّ بها ولا تهشُ لاخصاب وامراع

اما غزله فظاهر الصناعة قليل الرونق ولا ينتظر ممن كان كالمعري غزلٌ خارجٌ من قلب متأثر بجمال الحبيب . فمن قوله في ذلك

لله ايامنا المواضي لو ان شيئاً مضى يعود
ابلى ودادي لكم زمان الينُ احداثه حديد
لم يبل من بذلة ولكن يبلى على طيّه الجديد

فانظر الى هذا الحب الذي بلي لتقادم العهد عليه وقابله بشعور محب صادق الحب متيم القلب . ومن غزله

ما يوم وصلك وهو اقصر من نفَس باطول عيشه غالي
علقت حبال الشمس منك يدي وجديدها في الضعف كالبالي
واردت وِرد الوصل من قمر فصدرت عنه كوارد الآل
وطلبت عندك راحة وعلى قدر اعتقادي كان ادلالي
وظننت في البلوى مناي ولم تكن المنية لي على بال
ما زلت ابلغ ما اهمُّ به حتى هممتُ بكوكب عال
ان فات سلوان الحياة فكلّ الناس بعد مماته سال

الى آخر الابيات واكثرها على هذا النسق من قلّة الطلاوة . وليس غزل المعري بقليل في شعره ، ولكنه فنياً دون غزل المتنبي او البحتري او ابي تمام — ناهيك بشعراء الحب المعروفين . ولا نرى الا ان المعري كان يجري فيه جرياً صناعياً متبعاً فيه طريقة من تقدمه في النظم .

---

(١) تطلى بقار كانه لسواده عَرَق سائل من ذفاري الابل (الذفاري موخر الاذن) وعرق الابل اسود . ورب القدوم اي النجار . نجاة ناقة سريعة

ومما يلازم ذكر المطايا والحبيب ذكر السيف والرمح والدرع ، وله في ذلك اقوال كثيرة تدل على مهارته اللغوية في الوصف كقوله

وكلُّ ابيض هنديٍّ به شُطَبٌ — مثل التكسُّر في جار بمنحدر
تغايرت فيه ارواح تموت به — من الضراغم والفرسان والجزُر
روض المنايا على ان الدماء به — وان تخالفن أبدال من الزهر
ما كنت احسب جفناً قبل مسكنه — في الجفن يطوى على نار ولا نهر
ولا ظننت صغار النمل يمكنها — مشيٌ على اللج او سعيٌ على السعر

ومما يبرز في شعره ذكر الضواري والطيور ، فهو كثير التمثل بالذئب والضبع والاسد والارقم والقطا والحمام والنعام والنسر والوعل والغراب

ومثل ذلك كثرة ذكره للنجوم والافلاك والصباح والظلام ، ونجتزىء منه بما يلي وهو من قصيدته « ارى العنقاء تكبر ان تصادا »

لي الشرف الذي يطأ الثريا — مع الفضل الذي بهر العبادا
ولو ملأ السُّهى عينيه مني — ابر على مدى زحل وزادا
وقد اثبتُّ رجلي في ركاب — جعلت من الزماع له بدادا
اذا اوطأتها قدمي سهيل — فلا سقيت خناصرة العهادا[1]
كان ظباءهنَّ بنات نعش — يردن اذا وردن بنا الثمادا

. . .

ومما يلاحظ في شعر المعري عموما كثرة استشهاده بالحوادث الماضية ورجالها . ففي الجزء الثاني من سقط الزند مثلًا نحو ثلاثين شاهداً من هذا القبيل[2]

وفي هذا الطور من شعر المعري نراه شديد الشعور باهمية نفسه كثير التفاخر بها ، يستلذ مدح المادحين ويؤلمه حسد الحسّاد

---

(١) خناصرة محل بالشام

(٢) راجع من ذلك الصفحات التالية ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٢، ٩٦ ، ٩٧، ١٠٣ ، ١٩٩ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٢٩، ١٣٩ ، ١٣٣ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥

كقوله —

تعاطوا مكاني وقد فُتُّهم فما ادركوا غير لمح البصر
وقد نبحوني وما هجتهم كما نبح الكلبُ ضوء القمر

وله كثير من الشعر الفخري ، وهو بذلك غير المعري في اللزوميات حيث تعدّى طور الشباب وانضجه اختبار الدنيا ، فلزم التواضع والتزهد وصار يبتعد عن السخائف والظواهر (١) اما اسلوبه فيكثر فيه الغريب من الالفاظ وغير المألوف من المصطلحات ، وهو كثير الولع بانواع البديع والمجاز ولا سيما الجناس والتمثيل وسنرى ذلك في كلامنا عن لزومياته

. . .

واذا نظرنا الى الرجل نفسه فانّا نراه في سقط الزند متمسكاً بعقائد دينه كسائر اهل زمانه . واذا كنت تلمح فيه شيئاً من روح الشك والتامل الفلسفي كقوله في مرثاة والده —

طلبت يقيناً يا جهينةُ عنهم ولن تخبريني يا جهينَ سوى الظن
فان تعهديني لا ازال مسائلاً فاني لم اعط الصحيح فاستغني

فذلك ضئيل جداً لا يكاد يظهر ازاء ما يظهر فيه من روح الاسلام والتعصب له والذود عن تعاليمه . وقد كان قبل سفره الى بغداد وقبل عزلته يناضل عن وجود الله وحدوث الكون والبعث ، وكلامه في ذلك ثابت صريح ، كقوله يرد على الدهريين القائلين ان العالم قديم وانه لا بعث ولا حساب

ضلَّ الذي قال البلادُ قديمةٌ بالطبع كانت والانام كنبتها
وامامنا يوم تقوم هجوده من بعد إبلاء العظام ورفتها

وعلى كلٍّ فان التأمل والتشكيك ليسا الطابعين اللذين طبع بهما شعره قبل رجوعه من بغداد

. . .

بقي علينا هنا ان نذكر درعياته وهي قصائد في وصف الدرع يصفها على لسان رجل

(١) راجع فخره في الجزء الاول ٨٧ ، ١١٥ ، ١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٨٢ . ومقابلة لذلك راجع من امثلة تواضعه في اللزوميات ٢—١٥ و٢٤٢ و ٢٤٧ وج ١ — ٩٣ و ٩٧ و١٠٠

اسنّ فترك لبسها او على لسان رجل رهنها ، وقد يصفها على لسان درع تخاطب سيفاً ، او رجل يبيع درعاً ، او رجل خانه آخر في درع ، او فارس سأل عن درع ابيه الى غير ذلك مما لا علاقة له بموضوعه الخاص.

وان الذي يطالع هذه الدرعيات يعجب من رجل كابي العلاء ينصرف الى موضوع كهذا الموضوع ، فيبذل جهده ويكدّ نفسه في اوصاف ومجازات وعبارات لا طائل تحتها ، وليس لها اقل علاقة بنفسه او حياته . ولا يسعنا ان نقول فيها الا انها في الارجح اداة استعملها لاظهار مقدرته اللغوية

اللزوميات

ينفرد هذا الديوان بميزتين — خلوّه من ابواب الشعر المطروقة (المديح والرثاء والفخر وما اليها) — وانصراف ناظمه الى نقد الحياة. وقد نظم كلُّه ، كما عرفنا سابقاً ، بعد رجوع المعري من بغداد ولزومه منزله في المعرّة ، ولذا فهو يمثل لنا نضج القوة الشعرية في الشاعر ونظراته الفلسفية في الكون والعمران . على انه مع ذلك قلما يختلف من حيث الصناعة عن شعره السابق ، فانك ترى الشاعر هنا — في هذا الجو الفكري الانتقادي — شديد الكلف بالصناعة وقد قيَّد نفسه تقييداً شديداً بلزوم ما لا يلزم ، فاضطر الى كثير من القوافي الغريبة والالفاظ الغامضة . ولقد يستغرب الذي يطالع ديوانه من جمعه بين النقيضين : فحينا تراه يتجنب كد النفس ويسلس للعاطفة القياد فيأتي شعره من الطبقة الاولى متانةً وعذوبة كقوله

يرتجي الناس ان يقوم إمامٌ ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظنُّ لا امام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

وقوله

قالوا فلانٌ جيّد لصديقه لا يكذبوا ما في البريّة جيد
فاميرهم نال الامارة بالخنا وتقيُّهم بصلاته متصيّد

وقوله

يا محلّي عليك مني سلام سوف امضي ويُنجز الموعود
ايرجون ان اعود اليهم لا ترجّوا فانني لا اعود

وجسمي الى التراب هبوط ولروحي الى الهواء صعود
وعلى حالها تدوم الليالي فنحوسٌ لمعشر وسعود

وهذا الضرب من شعره كثير. ومنه ما لا يجاريه فيه الا القليلون كقوله.

رويدك قد غررت وانت حرٌ بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرّم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء وفي لذّاتها رهن الكساء
اذا فعل الفتى ما عنه ينهى فمن جهتين لا جهة اساء

وقوله

يسوسون الامور بغير عقل فيُنفذ امرهم ويقال ساسهْ
فافٍ من الحياة وافٍ مني ومن زمنٍ رئاسته خساسهْ

وحيناً يهيم في اودية الغرائب اللفظية فيتعسَّف ويأتيك بالمكدود المتكلّف كقوله

ترى الهِمّ لا شيءٌ سوى الاكل همُّه له جسد ما اسطاع حرّاً ولا بردا
يقلّ العصا مستثقل الطِمر بعدما علا فرساً واجتاب ماذيّةً سردا
ولا تترك الايام مردىً لظبيةٍ من الأدم تختار الكباث ولا المردا
ولم يُلفِ منها فارد القُمر مخلصاً وقد بلغت احداثها القمر الفردا(١)

وقوله

لعمر ابيك ما خالي بخال لشائمهِ ولا شهدي بهفّ
فان أُعطى القليل يكن هنيئاً يجيء المستبيحَ بغير شفِّ
اذا ورد الفقير على احتياجي اغثت لهيفه بالمستدفِّ
ولو كان الكثير لقلّ عندي واهون بالطفيف المستطَفِّ(٢)

وقوله

فقد لاحت مخايل صادقات تروق العين باللمع الولاف

---

(١) الِهم الشيخ الهرم. الطمر الثوب البالي. الماذية السرد الدرع. مردى مهلك. الكباث والمرد ثمر الاراك. فارد القمر الحمار في بطنه بياض

(٢) المستدف القليل. والمستطف المستقل

فمن لــك بالغريّات سارت   باشباهٍ نسبنَ الى عِــلاف

واذا علمت ان الولاف هو البرق اللامع لمعتين وان علاف اسم رجل من قضاعة تنسب اليه الرجال ، علمت ما جناه عليه تقيده ، ولا سيما في قوله اشباه نسبن الى علاف

ومن هذا القبيل قوله

فامنح ضعيفك ان عراك ولو   نزراً ولا تصرفه بالكهر
وارفع له شقراء تُرمَح في   دهماء مثـل تأرّن المهر

اي امنح الضعيف ولا تصرفه بوجه عبوس وارفع له ناراً تتأجج في الظلام

وقوله

غُبقنا الأذى والجاشريّةُ همّنا   ونادى ظلامٌ لا سبيل الى الجشر
اتكتب سطراً ليس فيــه تخوف   لربّك ما اولى بنانك بالاشر
وان بُتكت عشر فمن بعد ما جنت   بكل فسيطٍ قصّ اكثر من عشر (1)

وقوله

كبرتَ فاصبحت للراشدين   كبُرتٍ يعدُّ لهدي دليــلا
كبرتَ فما زال هذا الزمان   كبَرتٍ يجــذّ قليلاً قليلا

واذا تأملت هذين البيتين لا تجد فيهما الا تكلفه الجناس بين كبرتَ الفعل وكبُرتٍ الجار والمجرور (اي كدليل) في البيت الاول ، وبين الفعل ايضاً ولفظة برت (بمعنى الفاس) في البيت الثاني

وامثال هذا الكلام المصنوع كثير جداً في شعر شاعرنا ، فلا جرم اذا جاء القسم الوافر منه صعباً مبهماً حتى على اهل الادب . واذا اردنا التدقيق في اسباب صعوبته وابهامه وجدناها ترجع الى ما يلي —

١ — شغفه في المحسنات البيانية ولا سيما في الجناس والطباق والتورية

٢ — كثرة الاشارات الى الحوادث التاريخية والى رجال التاريخ — المشهور منهم وغير المشهور

(1) الغبوق الشرب مساء والجاشرية شرب السحر . الاشر القطع . بتكت اي قطعت . فسيط قلامة ظفر .

٣ – استعماله لاوابد الكلام وشواذه

٤ – اضطراره الى القوافي الغريبة للزومه ما لا يلزم

فاذا اضفت الى ذلك ما في مواضيعه الفلسفية الاخلاقية من معان مجردة هي بطبيعتها صعبة المتناول ، علمت السر في هذا الابهام العام في معانيه .

ولا نذهب الى ما ذهب اليه بعض اعلام البحاثين من ان المعري كان يقصد ذلك ليخفي اغراضه[1] عن العامة . فان شاعرنا كان صريحاً ، وله في لزومياته كثير من النقد المر الذي بلغت به الصراحة ابعد مدى كبعض ما ذكرناه له آنفاً ، وكقوله

افيقوا افيقوا يا غواة فانما دياناتكم مكر من القدماء

او قوله

قد حُجب النور والضياء وانما ديننا رياء

يا عالم السوء ما علمنا ان مصلّيك اتقياء

وقوله

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ويهودُ حارت والمجوس مضلَّلهْ

اثنان اهل الارض ذو عقل بلا دين وآخرُ ديّن لا عقل لهْ

وقوله

في البدو خُرّاب اذوادٍ مسوّمةٍ وفي الجوامع والاسواق خُرّاب

فهؤلاء تسمّوا بالعدول او التجّار واسمُ اولاك القوم أعراب

وقوله

مُلّ المقام فكم اعاشر امة امرت بغير صلاحها امراؤها

ظلموا الرعيّة واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وقس على ذلك مئات الابيات في ديوانه

ويمتاز المعري في لزومياته بدقة تشابيهه وروعة حكمه : اما دقة التشبيه فيه فنتيج الخيال وحسن التعبير عن النفس ، واما الحِكم فلما في طبعه من صدق التأمل في الحياة

(١) راجع ذكرى ابي العلاء للدكتور طه حسين ص ٢٦٧

والموت . ويختلف عن المتنبي ان حكم المتنبي ناشئة عن نفس رجل خاض غمرات الحياة سعياً وراءها ، اما حكم المعري فناشئة عن نفس حكيم مفكِّر عرف الحياة فزهدها . وليس من الانصاف ان نقرنه من هذا القبيل بابي العتاهية فان للمعري من دقة التأمل وصدق التضحية ومعرفة الكون ما لا نراه لشاعر القبور والنشور : كان ابو العتاهية واعظ الموت، والمتنبي خطيب الحياة ، اما المعري فحكيم الموت والحياة

المواقف الشعرية في اللزوميات

تتناول اللزوميات منشأ الانسان ومصيره وما بينهما . وللشاعر فيها موقفان رئيسيَّان (١) تجاه الغيبيَّات (الله والبعث والحساب) . (٢) تجاه الانسان والطبيعة . واليك بيان ذلك —

الغيبيات

هنا نرى موقفه مضطرباً، ولكن اضطرابه اضطراب مؤمن يحاول ان يجمع بين العقل والنقل ، فيقع في شيء من الارتباك . ومن الخطأ ان نحكم عليه من شعره بالجحود فان الشواهد فيه على ايمانه بالله وبشكلٍ من اشكال الخلود كثيرة ، بل هي اكثر من اضدادها . ويتضح ذلك من الامثلة التالية

قال مستهزئاً بالتنجيم ومثبتاً قوة الله

متى ينزل الامر السماويُّ لا يُفدْ سوى شبحٍ رمحُ الكميِّ المناجد
وان لحق الاسلامَ خطبٌ يغضُّه فما وجدت مثلًا له نفس واجد
اذا عظَّموا كيوان عظَّمتُ واحداً يكون له كيوان اول ساجد

وقال

والله حقٌّ وابن آدم جاهل من شأنه التفريط والتكذيب

وقال

الله لا ريب فيه وهو محتجب بادٍ وكلٌّ الى طبع له جذبا

وقال

فَلَكٌ يدور بحكمة وله بـلا ريب مدير

وقال

اما الحياة فلا ارجو نوافلهـا لكنني لالهي خائـف راجي
ربِّ السماك ورب الشمس طالعةً وكل أزهرَ في الظلماء خوّاج

وفي الحشر يقول —

اذا كنت من فرط السفـاه معطّلًا فيا جاحدُ اشهدْ انني غير جاحد
اخاف من الله العقوبـة آجـلًا وازعم ان الامر في يـد واحد

ويقول

إن ادخل النار فلي خالق يحمل عني مثقلات العَـذاب
يقـدر ان يسكنني روضة فيها ترامى بالمياه العِذاب

ومن ذلك هذان البيتان المشهوران

قـال المنجم والطبيب كلاهما لا تحشرُ الاجساد قلت اليكما
ان صـح قولكما فلست بنادمٍ او صح قولي فالخسار عليكما

ويلي هذين البيتين خمسة ابيات كلها على هذا النمط

وله مثل ذلك قصيدة مطلعها

عجبي للطبيب يلحد في الخالق من بعد درسه التشريحا

وليس الذي ذكرناه الا نزراً مما في اثناء الديوان من هذه المعاني الايمانية. ولكن شاعرنا في هذا الموقف كما قلنا مضطرب متحير — تراه آونةً مؤمناً صريح الايمان — ثم تراه وقد غشيته الشكوك والاوهام. فهو بين مد وجزر لا يستقر على حال واحدة

ومن شكّه هذه الامثلة القليلة ، وهي قلٌّ من كثر

اما الجسوم فللـتراب مآلها وعييتُ بالارواح أنّى تسلك

. . .

دفنّاهم في الارض دفـن تيقُّنٍ ولا علم بالارواح غـير ظنون

ورَومُ الفتى ما قد طوى الله علمه يعدُّ جنوناً او شبيه جنون

. . .

قد قيل ان الروح تأسف بعدما تنأى عن الجسد الذي غنيت به
ان كان يصحبها الحجا فلعلها تدري وتأبهُ للزمان وغيبه
اولا فكم هذيان قومٍ غابرٍ في الكتب ضاع مداده في كتبه

. . .

تقدّم الناس فيا شوقنا الى اتّباع الاهل والاصدقاء
ما اطيب الموت لشرّابه ان صح للاموات وشك التقاء

. . .

اما اليقين فلا يقين وانما اقصى اجتهادي ان اظنّ واحدسا

. . .

اما القيامة فالتنازع شائعٌ فيها وما لخبيئها اصحار

ومما يكاد يكون انكاراً قوله

قلتم لنا خالقٌ حكيم قلنا صدقتم كذا نقول
زعمتموه بلا مكان ولا زمانٍ الا فقولوا
هذا كلام فيه خبيءٌ معناه ليست لنا عقول

وقوله

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً وحُقّ لسكان البسيطة ان يبكوا
يحطّمنا صرف الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك

وقوله

خذ المرآة واستنجد نجوماً تُمِرُّ بطعم الأَرْي المَشورِ
تدلُّ على الحياة بلا ارتياب ولكن لا تدلُّ على النشور

على اننا اذا دققنا في هذه الحيرة وهذا التناقض، وراجعنا كل ما قاله المعريُّ بهذا الصدد، ثم عارضناه بسيرته واقوال الناس فيه، ترجّح لدينا ان شاعرنا لم ينقطع عن الايمان بالله وبالآخرة. ولكن صورة الله في نفسه لم تكن صورته في نفس المؤمن العادي، وانما كان نظره الى ما وراء الطبيعة نظرياً «لا ادرياً» متأثراً بالاسلام

الطبيعة والحياة البشرية

ويتلخص ذلك بما يلي :

الاديان ورؤساؤها — الشعب وزعماؤه — الانسان وطبيعته ومصيره

وفي كل ذلك تراه ثابت النظر مستقرّ الراي مقتنعاً بصحة ما يقول ، والى القارىء زبدة هذه النظريات

الاديان

اذا قوبل الاسلام بسائر الاديان فهو عند المعري مفضل على الجميع . وانك لترى المعري في بعض مواقفه يتعرض للجدل ، فيهاجم اليهود والنصارى والفرق الاسلامية المختلفة (كالمعتزلة والمرجئة وبعض الشيعة والصوفية) ، وله فيها اشعار كثيرة لا يتسع لها المقام[1]

ومع كل ذلك فله في الدين نظر عام يشمل كل الاديان على السواء وهو يتناول الدين من وجهتين(١) العقائد والفروض او هيكل الدين و(٢) الفضائل والاعمال او روح الدين . اما الاولى فيحمل عليها حملة شعواء فيحذّر الناس من السنن والمذاهب ، ويزعم ان الدين من هذه الوجهة اداة يستعملها الرؤساء لجذب الدنيا اليهم

انما هذه المذاهب اسباب لجذب الدنيا الى الرؤساء

واقواله في ذلك لا تحصى فنكتفي بالاشارة اليها والى ما ذكر منها في غير هذا المقام

واما الوجهة الثانية فهي الدين الحق عنده . وعلى قدر استهزائه بخرافات الاقدمين واوهامهم المذهبية ترى تعظيمه للروح الدينية التي يراد بها التنزه عن الجشع والظلم والشهوات ، وبذلك يشارك المصلحين الروحيين في كل مكان وزمان . ومن اقواله في هذا الباب .

الدينُ هجر الفتى اللذات عن يُسر   في صحّةٍ واقتدارٍ منه ما عمرا

. . .

ما الخير صوم يذوب الصائمون له   ولا صلاةٌ ولا صوفٌ على الجسد

---

(١) راجع من ذلك اللزوميات ١—١٣٩ و ٢—١٧٢

وانما هو ترك الشرّ مطّرحاً ونفضك الصدر من غلّ ومن حسد

. . .

الدين انصافك الاقوام كلهم واي دين لآبي الحق ان وجبا

فالدين عنده ترك الشر وانصاف الجميع ، ولا دين لمن يرفض الحق . وقد كرّر هذا المعنى كثيراً في لزومياته ، ونجتزىء هنا بقوله التهكمي فيه

توهمت يا مغرور انك ديّن علي يمين الله مالك دين
تسير الى البيت الحرام تنسّكاً ويشكوك جار بائس وخدين

وقوله

سبّح وصلّ وطُف بمكة زائراً سبعين لا سبعاً فلست بناسك
جهل الديانة من اذا عرضت له اطماعه لم يُلفَ بالمتماسك

الشعب وزعماؤه

ولا يختلف نظره هنا عن نظره الى الدين ورؤسائه ، فهو يهاجم الامراء والحكام واصحاب الزعامة السياسية متهماً اياهم بالجهل والجشع والاستبداد

فشأن ملوكهم عزفٌ ونزفٌ واصحاب الامور جباةُ خرج

. . . .

مُلَّ المقام فكم اعاشر امة امرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها

. . .

ساس الانام شياطين مسلّطة في كل مصر من الوالين شيطان
متى يقوم إمام يستقيد لنا فتعرف العدل اجبال وغيطان

ومع اشفاقه على الشعب لا يرى فيه غير الفساد العام كقوله

قد فاضت الدنيا بادناسها على براياها واجناسها
وكلُّ حيّ فوقها ظالم وما بها اظلم من ناسها

. . .

كلُّنا غادرٌ يميل الى الظلم وصفو الايام للتعكير
ورجال الانام مثل الغواني غيرَ فرق التأنيث والتذكير

...

عشْ بخيلًا كأهل عصرك هذا وتبالهْ فان دهرك أبلهْ
قومُ سوءٍ فالشبلُ منهم يغول الليثَ فرْساً والليث يأكل شِبلهْ

وقس على هذا القول كثيراً من الامثلة التي تعكس لنا بيئته او نظره الاسود الى اهل زمانه عموماً ، لا فرق في ذلك بين حاكم ومحكوم او غني وفقير

هم السباع اذا عنَّت فرائسها وان دعوت لخير حُوّلت حُمُرا

وكما انه يهاجم الرجال فينعتهم بالجشع والغدر واللؤم كذلك يهاجم النساء فينعتهن بالضعف والرياء والخيانة والمكر ، ولا يرى لهن الا الاحتجاب التام والتزام المنزل والانصراف الى شؤونه . وانك لترى سوء ظنه بهن اذ يقول

فوارسُ فتنةٍ اعلامُ غيٍّ لقينك بالأساور مُعلَمات
ودفنٌ — والحوادثُ فاجعاتٌ — لاحداهن إحدى المكرمات

وهذان البيتان من قصيدة تنيف على التسعين بيتاً في كل بيت منها ذم للمرأة وتحقير من شأنها ، ومثلها في اللزوميات كثير . ولا ندري الذي حمل المعري على الازدراء بالمرأة ووصمها بكل الشوائن ، ولكنه ولا شك جارى عصره ، بل تمادى في هذه الاراء السقيمة الى الحد الاقصى — على انه عطف على الوالدات واوصى بهن خيراً

الطبيعة البشرية

اما الطبيعة البشرية ففاسدة عنده لا امل باصلاحها، والانسان مسيّر بقوتين قوّة داخلية هي الغريزة الوحشية التي لا يمكن تهذيبها

واللبُّ حاول ان يهذّب اهله فاذا البريَّة ما لها تهذيب

....

لم يقدر الله تهذيباً لعالمنا فلا ترومنَّ للاقوام تهذيبا

ولا تصدِق بما البرهان يبطله فتستفيد من التصديق تكذيبا

. . .

وجِبلَة الناس الفساد فضلَّ من يسمو بحكمته الى تهذيبها

وقوة خارجية هي قضاء جبار يدفع الانسان امامه فلا ارادة له ولا اختيار. ولكن كيف نجمع بين « حكمة الله » كما نراها في شعر المعري وبين جبروت القضاء؟ وكيف نوفق بين القدر والحساب؟ مسألة فلسفية دقيقة لا نرى الشاعر يوضحها او يهتم بتطبيقها تطبيقاً صحيحاً ، وانما همّه من ذلك ان يصف ما يشعر به او يتوهمه ، ولذا لا ينتظر ان نراه هنا متّسق الخواطر مطّرد الفكر

ومن هذا القبيل ذكره للعقل والنقل ، فانك تراه يهيب بالناس الى رفض الشرائع ناسباً اليها كل اسباب الفتن والاضطراب كقوله

ان الشرائع القت بيننا احناً واودعتنا افانين العداوات

ولا يرى من هادٍ غير العقل

كذب الظنُّ لا امام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

. . .

تستّروا بامورٍ في ديانتهم وانما دينهم دين الزناديق
نكذِّب العقل في تصديق كاذبهم والعقل اولى باكرام وتصديق

. . .

اذا رجع الحصيف الى حجاه تهاون بالشرائع وازدراها

ولكن اي عقل نتبع واي نقل نرفض؟ هنا لا بد من الحذر. فالمعري يندفع بتأثير التامل الفلسفي الى تقديس العقل دون النظر الى عاقبة ذلك التقديس ، وهو بذلك هدّام — ونعم المعول العقل — على شرط ان يستخدمه فيما يفيد ، في تهذيب الشرائع ورفعها الى مستوى الكمال الممكن ، لا في التخلص منها تبعاً لنزعات الفوضى. والذي يلوح لنا ان المعري لم يكن فوضوياً ، ولم يقصد الهدم المطلق ، بل قصد الاصلاح الاجتماعي. على انه اندفع الى ذلك متاثراً من طبيعته ومن الفساد الذي حوله ، فلم يسلك طريقاً يصح ان نسميها طريق الهداية العملية

وليس من اثر للفوضى في شعره الا حمله على النسل ، ودعوته الناس الى الفناء. واقواله في ذلك معروفة نذكر منها هنا هذين البيتين

لو ان كل نفوس الناس رائيـة كرأي نفسي تناءت عن خزاياها
وعطّلوا هـذه الدنيا فما ولدوا ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها

كلمة ختامية

وهنا لا بد ان نسال : ما العوامل التي احلّت المعري هذا المحل الرفيع في تاريخ الادب العربي وخلّدت له هذا الاحترام في نفوس المتادبين ؟ والجواب على ذلك

١ — صراحته في مهاجمة ما كان يراه فاسداً
٢ — صرفه الشعر الى مواضيع عمرانية اخلاقية لم يسبق اليها
٣ — تطبيقه الحكمة على نفسه واظهاره مبادئها في حياته
٤ — زهده الحقيقي وترفعه عن اغراض الدنيا

نعم قد يؤخذ عليه بعض شذوذه الفكري الذي حمله احياناً الى اقاصي التطرف وجعله هداماً لا يحسن البناء ، وتحرّجه اللغوي الذي دفعه مراراً الى ركوب اخشن المراكب توصلاً الى معانيه . على ان المعرّي برغم ذلك الشذوذ وذلك التحرّج هو تلك الشخصية التي تجمع بين الاخلاص والشدّة — الاخلاص في خدمة الحقيقة كما تتراءى له ، والشدّة في مهاجمة اهل الفساد . وهو بذلك يختلـف عن سائر الشعراء الذين لمعوا في تاريخ الادب العربي اذ ليس لاحدهم مهما تسامت مكانته الفنية ما للمعرّي من النظر الى الحياة التي تعجّ حوله ومحاولة نقدها . كان الشعراء قبله لا يرون في الحياة الاّ انفسهم ولا يرون في الادب الاّ ما يوصل الى اغراضهم ، فجاء المعري ينظر الى البيئة التي تحويه محاولاً رفعها واصلاح شؤونها . على انه لم يرَ فيها غير اوجه الفساد والظلام لم ينتبه — الى مجالي الجمال التي تزيّن وجه الطبيعة والحياة — فجاء شعره قاتم اللون كانما هو مصباح تنفذ اشعته الينا من وراء زجاجة سوداء .

المختار من شعر المعرّي

قارب في خضم مضطرب تتقاذفه الرياح وتترامى به الامواج — ذلك هو المعري في نظره الى الحياة

ظلمات من كل جانب ، وعقل مفكر يحاول ان يرى من ورائها ما لا يرى ، فيرتد خائباً ناقماً على الدهر وجوده ، ناعياً على الحياة مسرّاتها ، مهيباً بالناس : الى الفناء الى الفناء ، فما الوجود الا شقاء في شقاء

نخبة من سقط الزند

— ١ — في المراثي

قال في صباه يرثي والده

نقمت الرضا حتى على ضاحك المزن فلا جادني الا عَبوس من الدّجنِ
فليت فمي ان شام سنّي تبسمي فم الطعنة النجلاء تدمى بلا سنِّ
كأنّ ثناياه أوانس يبتغى لها حسنُ ذكرٍ بالصيانة والسجنِ (١)

...

ابي حكمتْ فيه الليالي ولم تزل رماح المنايا قادراتٍ على الطعن
مضى طاهرَ الجثمان والنفس والكرى وسهد المنى والجيب والذَّيل والرُّدن
فيا ليت شعري هل يخفُّ وقارهُ اذا صار أُحدٌ في القيامة كالعهن
وهل يرد الحوضَ الرويَّ مبادراً مع الناس ام يأبى الزحامَ فيستأني

---

(١) كرهت الرضا حتى على السحاب المتألق. فسوف يبقى فمي مطبقاً كأن اسنانه نساء مصونات في خدورهنّ

حجاً زاده من جرأةٍ وسماحةٍ وبعض الحجا داعٍ الى البخل والجبن (١)

. . .

على ام دَفْر غضبة الله إنها لاجدرُ أنثى ان تخونَ وأن تُخني (٢)
كعابٌ دجاها فرعُها ونهارها محيًاً لها قامتْ له الشمسُ بالحسن
رآها سليل الطين والشيب شاملٌ لها بالثريا والسماكين والوزن (٣)
زمانَ تولّتْ وأد حوّاء بنتها وكم وأدتْ في إثر حوّاءَ من قرْنْ

. . .

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذي يراد بنا والعلم لله ذي المنّ
اذا غُيّبَ المرء استسرّ حديثه ولم تخبر الافكار عنه بما يغني
تضلُّ العقولُ الهبرزيّات رشدها ولم يسلم الرأيُ القويُّ من الأفن (٤)
وما قارنتْ شخصاً من الخلق ساعةٌ من الدّهر الا وهي افتكُ من قِرن
وجدنا اذى الدنيا لذيذاً كأنما جنى النحل اصناف الشقاء الذي نجني
فما رغبت في الموت كدرٌ مسيرها الى الورد خمسٌ ثم يشربن من أجن (٥)
يصادفن صقراً كلَّ يوم وليلة ويلقين شرّاً من مخالبه الحُجن
وخوف الردى آوى الى الكهف اهله وكلّف نوحاً وابنه عمل السفن (٦)
وما استعذبته روحُ موسى وآدم وقد وُعدا من بعده جنّتي عدن

. . .

أمولى القوافي كم اراك انقيادها لك الفصحاء العربَ كالعجم اللُّكن
هنيئاً لك البيتُ الجديدُ موسّداً يمينك فيه بالسعادة واليمن

---

(١) في هذا البيت وما قبله يصف اباه بالوقار ويقول : هل يخفّ وقاره يوم القيامة (يومٌ يصبح جبل احد كالقطن) وهل يتدارع مع الناس ويزاحمهم الى الحوض. ان عقله قد زاده جرأة وسماحة في حين ان العقل يدعو اصحابه الى الحذر الشديد .

(٢) ام دفر كناية عن الدنيا . وتخني تهلك

(٣) شبه الدنيا بالحسناء في قلة الوفاء وقال انها قديمة رآها آدم وهي شائبة وعلامات شيبها هذه النجوم — الثريا والسماكان والوزن

(٤) الهبرزيات القوية . والافن النقص والضعف

(٥) فما رغبت في الموت قطا تسير خمسة ايام حتى تصل الماء فتشرب به فاسدًا آسناً

(٦) قصة اصحاب الكهف وقصة نوح معروفتان

مجاورَ سَكْنٍ في ديار بعيدةٍ من الحيّ سقياً للديار وللسكن
طلبتُ يقيناً من جهينـةَ عنهم ولن تخبريني يا جهينُ سوى الظن
فانْ تعهديني لا ازال مسائلاً فاني لم أُعـطَ الصحيح فاستغني

. . .

أمرٌ بربع كنتَ فيه كانما امر من الاكرام بالحجر والرُّكن(١)
وما اكثرَ المثني عليكَ ديانةً لو انَّ حماماً كان يَثنيه من يُثني
يوافيك من رب العلا الصدق بالرضا بشيراً وتلقاك الامانة بالأمن
فيا قبر واهٍ من ترابكَ ليّناً عليه وآهٍ من جنادِلك الخشن
لاطبقتَ اطباقَ المَحارة فاحتفظ بلوءلوءةِ المجدِ الحقيقة بالخزن(٢)
سأبكي اذا غنّى ابنُ ورقاءَ بهجةً وان كان ما يعنيه ضدَّ الذي اعني
ونادبةٌ في مسمعي كل قينةٍ تغرِّد باللحن البريِّ عن اللحن(٣)
واحمل فيك الحزن حيّاً فان امتْ وألقكَ لم اسلك طريقاً الى الحزن
وبعدك لا يهوى الفـؤاد مسرَّةً وان خان في وصل السرور فلا يَهني

داليته المشهورة

يرثي صديقاً له من الفقهاء

غيرُ مجدٍ في ملّتي واعتقادي نوحُ باكٍ ولا ترنُّمُ شادِ
وشبيـهٌ صوتُ النعيِّ اذا قيس بصوت البشيرِ في كل ناد
ابكتْ تلكم الحمامةُ ام غنَّت على فرع غصنها الميَّاد
صاح هذي قبورنا تملأ الرحبَ فاين القبور من عهـد عاد
خفِّف الوطء ما أظنُّ اديم الا أرض إلاَّ من هذه الاجساد

---

(١) الحجر ما حول الحطيم في مكة . والركن ركن البيت الحرام
(٢) انك ايها القبر كالصدفة وهو فيك كاللؤلؤة
(٣) اللحن الخالي من الخطأ

وقبيحٌ بنا وان قدم العهد هوان الآباء والاجداد
سر ان اسطعتَ في الهواء رويداً لا اختيالا على رفات العباد
ربَّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحك من تزاحم الاضداد
ودفينٍ على بقايا دفينٍ في طويل الازمان والآباد
فاسأل الفرقدين عمن احسا من قبيل وآنسا من بلاد(١)
كم اقاما على زوال نهار وانارا لمدلج في سواد
تعبٌ كلُها الحياة فما اعجبُ الا من راغب في ازدياد
إنَّ حزناً في ساعة الموت اضعا فُ سرور في ساعة الميلاد
خُلقَ الناس للبقاء فضلّت أُمةٌ يحسبونهم للنفاد
إنما ينقلونَ من دارِ أعما لِ الى دار شقوةٍ او رَشاد
ضجعة الموت رقدةٌ يستريح الجسم فيها والعيشُ مثل السهاد

. . .

أبناتِ الهديل أسعِدنَ اوعِد نَ قليل العزاء بالإسعاد
إيهِ لله درُّكنَّ فانتنَّ اللواتي تُحسنَّ حفظَ الوداد
ما نسيتنّ هالكاً في الاوان الخال اودى مِن قبلِ هُلك إياد(٢)
بيدَ أني لا ارتضي ما فعلتنَّ واطواقكنَّ في الاجياد
فتسلّبنَ واستعرنَ جميعاً من قميص الدجى ثياب حداد
ثمَّ غرّدنَ في المآتم واندبنَ بشجو مع الغواني الخراد

. . .

قصد الدهرُ من ابي حمزة الأوّ ابِ مولى حجىً وخدن اقتصاد(٣)
وفقيهاً افكاره شدنَ للنعمانِ ما لم يشده شعر زياد(٤)

---

(١) فاسأل هذين الكوكبين عما عرفاه وشهداه من احوال الناس
(٢) اشارة الى ان الحمام لا تزال تبكي على هديلها الذي هلك قديماً
(٣) ابو حمزة اسم الفقيه المرثي . قصد الدهر منه رجلاً صالحاً عاقلاً
(٤) في لفظة نعمان هنا تورية فالنعمان ملك الحيرة ، والنعمان الامام ابو حنيفة وهو المراد . وزياد هو النابغة المشهور وكان شاعر ملك الحيرة

فالعراقيُّ بعده للحجازيّ قليل الخلاف سهل القياد
انفق العمر ناسكاً يطلب العلمَ بكشفٍ عن اصله وانتقاد
ذا بنانٍ لا تلمسُ الذهبَ الاحمرَ زهداً في العسجدِ المستفاد

. . .

ودِّعا ايها الحفيّان ذاك الشخصَ انَّ الوداع أيسر زاد
واغسلاه بالدمع ان كان طُهراً وادفناه بين الحشى والفؤاد
واحبُواه الاكفان من ورق المصحف كِبراً عن انفس الأَبراد
واتلوا النعش بالقراءة والتسبيح لا بالنحيب والتعداد
اسفٌ غيرُ نافعٍ واجتهادٌ لا يؤدّي الى غناء اجتهاد
طالما اخرجَ الحزين جوى الحز نِ الى غير لائقٍ بالسداد
مثلما فاتتِ الصلاةُ سليما نَ فأنحى على رقاب الجياد
وهو من سُخِرتْ له الانس والجنُّ بما صحَّ من شهادة صاد[1]

. . .

كيف اصبحت في محلك بعدي يا جديراً مني بحسن افتقاد
قد اقرَّ الطبيب عنك بعجز وتقضّى تردّد العوّاد
وانتهى اليأس منك واستشعر الوجدُ بان لا معادَ حتى المعاد
هجدَ الساهرون حولك للتمريضِ ويحٌ لأعينِ الهجّاد
كنتَ خلَّ الصبا فلما اراد البينَ وافقتَ رأيه في المراد[2]
ورأيتَ الوفاء للصاحب الاوّل من شيمة الكريم الجواد
وخلعتَ الشباب غضاً فياليتك ابليته مع الانداد
فاذهبا خير ذاهبين حقيقين بسُقيا روائحٍ وغواد
ومراثٍ لو أنهنّ دموعٌ لمحونَ السطور في الانشاد

. . .

(١) ان الحزن قد يخرج الانسان عن صوابه كما فعل سليمان من ضرب الخيل لما عرضت عليه فاشتغل بها حتى فاتته الصلاة . وهو الذي شهد له في سورة صاد اذ قيل — فسخرنا له الريح تجري بامره — الآية

(٢) الضمير في اراد راجع الى الصبا

زحلٌ اشرف الكواكب داراً من لقاء الردى على ميعاد
ولنارِ المرّيخ من حدثان الدهر مطفٍ وان علت في اتقاد
والثريّا رهينةٌ بافتراق الشمل حتى تُعَدّ في الافراد
كل بيت للهدم ما تبتني الورْ قاء والسيّد الرفيع العماد
والفتى ظاعنٌ ويكفيه ظِلُّ السِدْرِ ضربَ الاطناب والاوتاد(١)
بان امر الاله واختلف النا س فداعٍ الى ضلال وهاد
والذي حارت البريّة فيه حيوانٌ مستحدثٌ من جماد
واللبيب اللبيب من ليس يغترُّ بكونٍ مصيره للفساد

قصيدته الحكمية

في رثاء جعفر بن علي بن المهذّب

احسنُ بالواجد من وجدهِ صبرٌ يعيد النار في زنده
ومن ابى في الرزء غير الاسى كان بكاه منتهى جُهده
فليذرف الجفنُ على جعفرٍ اذ كان لم يُفتح على ندّه
والشيء لا يكثر مدّاحه الا اذا قيس الى ضِدّه
لولا غضى نجدٍ وقُلّامُهُ لم يُثنَ بالطيب على رنده(٢)
ليس الذي يُبكى على وصله مثل الذي يبكى على صدّه
كانَ الاسى فرضاً لو انّ الردى قال لنا افدوه فلم نَفده
هل هو الا طالعٌ للهدى سار من الترب الى سعده

. . .

يا دهرُ يا منجزَ إيعاده ومخلفَ المأمول من وعده

---

(١) والانسان راحل يغنيه ظل السدر عن ان يبتني الخيام — اي انه قليل الاقامة في الدنيا فيجب ان لا يهتم بها . والسدر شجر النبق

(٢) اي ان الرند خص بالثناء لمقابلته بسائر الاشجار التي لا طيب لها

اي جديدٍ لك لم تُبلِه ... واي أقرانك لم تُرده
تستأثر العقبان في جوّها ... وتُنزل الاعصم من فِنده[١]
ارى ذوي الفضل واضدادهم ... يجمعهم سيلك في مدّه
ان لم يكن رشد الفتى نافعاً ... فغيُّهُ انفع من رشده
تجربةُ الدنيا وافعالها ... حثّت اخا الزهد على زهده
والقلب من اهوائه عابدٌ ... ما يعبدُ الكافرُ من بُدّه[٢]
إنَّ زماني برزاياه لي ... صيَّرني امرح في قِدّه[٣]
كأننا في كفّه مالهُ ... ينفق ما يختار من نقده
لو عرَف الانسان مقداره ... لم يفخر المولى على عبده
امسِ الذي مرّ على قربه ... يعجز اهل الارض عن ردّه
اضحى الذي أُجِلَ في سنّه ... مثل الذي عوجلَ في مهده
والواحد المفرد في حتفه ... كالحاشد المكثر من حشده
وحالة الباكي لآبائه ... كحالة الباكي على وُلده

...

ما رغبة الحيّ بابنائه ... عما جنى الموت على جدّه[٤]؟
ومجدُه افعالهُ لا الذي ... من قبله كان ولا بعده
لولا سجاياه واخلاقه ... لكان كالمعدوم في وجده
تشتاق ايّارَ نفوس الورى ... وانما الشوق الى وردْه[٥]
تدعو بطول العمر افواهنا ... لمن تناهى القلب في ودّه
يُسَرُّ ان مُدَّ بقاءٌ لهُ ... وكل ما يكرهُ في مدّه
كم صائنٍ عن قبلةٍ خدَّه ... سُلِطَتِ الارض على خدّه

---

(١) تقهر العقبان في الجو وتنزل الوعل من معقله في الجبل
(٢) البد الصنم
(٣) اي لكثرة ائتلافي رزايا الدهر وتمرني عليها صرت لا ابالي بها بل ازداد نشاطاً ومرحاً . والقد سير يقد من جلد يوثق به الاسير
(٤) كيف يحترز الحي بابنائه من الموت وهو الذي فتك باجداده
(٥) كما ان النفوس تشتاق ايار لاجل ورده كذلك الانسان انما هو اخلاقه وسجاياه

وحاملٍ ثقل الـثرى جيدُهُ | وكان يشكو الضعف من عقده
ورُبَّ ظمآنَ الى موردٍ | والمـوت لو يعلمُ في وردْه

. . .

فيا اخا المفقود — في خمسة | كالشهب ما سلَّاك عن فقده (١)
جاءك هذا الحزن مستجدياً | اجركَ في الصبر فلا تُجده
سلِّم الى الله فكلُّ الذي | ساءك او سرَّك من عنده
لا يعـدَم الاسمرُ في غابهِ | حتفاً ولا الابيض في غمْدهِ (٢)
ان الذي الوحشةُ في داره | تؤنسه الرحمة في لحـده
لا أُوحشت داركُ من شمسها | ولا خـلا غابُك من أسده

امثلة من وصفه وفخره

قال متبرماً من بغداد ومتشوقاً الى وطنه

مغاني اللّوى من شخصكِ اليوم اطلال | وفي النوم مغنىً من خيالكِ محلال (٣)
وابغضتُ فيك النخلَ والنخـل يانعٌ | واعجبني من حبّك الطلحُ والضال (٤)
حملتُ من الشامَينِ اطيب جُرْعـةٍ | واتزرَها والقوم بالقفرِ ضـلّال (٥)
فسقياً لكأسٍ من فمٍ مثـلِ خاتمٍ | من الـدُّرِّ لم يهمم بتقبيله خال (٦)
كأنَّ الخزامى جمّعتْ لك حُلّـةً | عليكِ بها في اللون والطيب سرْبال
أتعلمُ ذاتُ القُرطِ والشّنف أنـني | يشنِّفني بالزأرِ اغلبُ رئبال (٧)

---

(١) يعزي اخا الفقيد ويقول ان في اولاده الخمسة ما يسليك عن فقده
(٢) الاسمر الرمح والابيض السيف
(٣) يخاطب الحبيبة ويقول ان المنازل منك خالية ولكن خيالك كثير الحلول في عيوننا عند النوم
(٤) وابغضت لاجلك النخل واحببت اشجار البادية لانك بدوية
(٥) اي حملت من الشام والجزيرة اطيب جرعة واقلها (اي رضابك)
(٦) الخال هنا الخائل اي المدل بعظم شأنه
(٧) اتعلم هذه الفتاة المتحلية في اذنها بالقرط والشنف ان لي فيها خصماً يتهددني ويزأر علي كالاسد

فيا دارها بالحزن إنَّ مزارها قريبٌ ولكن دون ذلك اهوال
بكتْ فكأنَّ العِقدَ نادى فريدَهُ هلمَّ لعقدِ الحلفِ قُلبٌ وخلخال(١)
تحلّى النقا دُرَّين دمعاً ولؤلؤاً وولّتْ أَصيلًا وهي كالشمس معطال
وغنَّت لنا في دارِ سابورَ قينةٌ من الوُرْقِ مطرابِ الاصائل ميهال(٢)
فقلت تَغنَّي كيف شئتِ فانما غناؤكِ عندي يا حمامةُ إعوال

. . .

تمنّيتُ أَنَّ الخمرَ حلّتْ لنشوةٍ تجهّلني كيف أطمأنتْ بي الحال
فاذهلُ أَني بالعراق على شفىً رزيُّ الاماني لا انيسٌ ولا مال
مُقلٌّ من الاهلَين يسرٍ واسرةٍ كفى حزَنًا بينٌ مشتٌّ واقلال
طويتُ الصبا طيَّ السجلّ وزارني زمانٌ له بالشيبِ حكم وإسجال
متى سألتْ بغدادُ عني واهلها فاني عن اهل العواصم سأال
اذا جنَّ ليلي جنَّ لبيّ وزائدٌ خفوقُ فؤادي كلما خفق الآلُ(٣)
وماء بلادي كان انجعَ مشرَباً ولو انَّ ماء الكرخ صهباء جريال(٤)
فيا وطني ان فاتني بكَ سابقٌ من الدهر فلينعمْ لساكنك البال
فان استطع في الحشر آتكَ زائراً وهيهات لي يومَ القيامة اشغال
وكم ماجدٍ في سِيف دجلةَ لم أَشِمْ له بارقاً والمرء كالمزنِ هطّال(٥)
من الغرّ تراكُ الهواجر معرضٌ عن الجهل قذّافُ الجواهر مفضال
سيطلُبني رزقي الذي لو طلبتُهُ لما زادَ والدُّنيا حظوظٌ واقبال
اذا صدقَ الجدُّ افترى العمُّ للفتى مكارمَ لا تُكري وان كذَبَ الخال(٦)

---

(١) بكت الحبيبة للفراق وقطرت دموعها على قدمها فصار القلب (الاسوار) والخلخال يناديان الفريد في العقد هلم نتحالف مع الدموع

(٢) وغنت لنا في هذا المكان مغنية من الحمام

(٣) الآل السراب

(٤) ماء بلادي اطيب ولو ان ماء بغداد كالصهباء

(٥) سيف دجلة اي شط دجلة . وكم من كريم هناك لم اقصده ولم اطمع في جوده

(٦) اذا خدم الحظ احداً اخترع له الناس (العم) من المكارم ما ليس في مخايله . وقد تلاعب في جد وعم وخال تلاعباً بيانياً ظاهر التكلف

وقال في الشريف موسى بن اسحق مجيباً اياه عن قصيدة

عللاني فانَّ بيضَ الاماني فنيتْ والظلامُ ليس بفاني
ان تناسيتما ودادَ أناس فاجعلاني من بعض من تذكران
رُبَّ ليلٍ كأنه الصبحُ في الحسنِ وان كان اسود الطيلسان
قد ركضنا فيه الى اللهو لما وقفَ النجمُ وقفةَ الحيران[١]
كم اردنا ذاك الزمان بمدحٍ فشغلنا بذمِّ هذا الزمان
فكأني ما قلت والبدرُ طفلٌ وشبابُ الظلماء في عنفوان
ليلتي هذه عروسٌ من الزَّنج عليها قلائدٌ من جمان
هربَ النوم عن جفوني فيها هربَ الامن عن فؤاد الجبان
وكانَّ الهلال يهوى الثريَّا فهما للوداع معتنقان
قال صحبي في لجّتين من الحندسِ والبيدِ اذ بدا الفرقدان
نحن غرقى فكيف ينقذنا نجمان في حومة الدُّجى غرقان[٢]؟
وسهيلٌ كوجنةِ الحِبِّ في اللوْ ن وقلب المحبِّ في الخفقان
مستبدًّا كانه الفارسُ المعلَمُ يبدو معارضَ الفرسان
يسرعُ اللمحَ في احمرارٍ كما تسرعُ في اللمح مقلةُ الغضبان
ضرَّجته دماً سيوف الاعادي فبكتْ رحمةً له الشِعريان
قدَّماهُ وراءه وهو في العجز كساعٍ ليست له قدمان[٣]
ثمَّ شاب الدُّجى وخاف من الهجر فغطّى المشيبَ بالزَّعفران
ونضا فجرُهُ على نسره الواقعِ سيفاً فهمَّ بالطيران
وعلى الدهر من دماء الشهيدين عليٍّ ونجله شاهدان[٤]

---

(١) تكلف المطابقة بين الجري والوقوف فقال كم جرينا فيه الى اللهو والنجم في الليل واقف حائراً (يصف الليل بالطول)

(٢) قال صحبي وقد دخلنا في احشاء الظلام والقفر نحن غرقى فكيف ينقذنا الفرقدان وهم غرقان

(٣) خلف سهيل نجمان يقال لها قدما سهيل . فهو معكوس الحال يمشي عاجزاً كمن لا قدمان له . والشعريان نجمان

(٤) النسر الواقع اسم نجم. قال ويلوح على الدهر من دماء الشهيدين الامام علي وابنه الحسين شاهدان

فهما في اواخر الليل فجرا ن وفي أولياته شفقان[١]
وجمالُ الاوان عقبُ جدودٍ كلُّ جدٍّ منهم جمالُ اوان

. . .

يا ابنَ مستعرضِ الصفوف ببدرٍ ومبيدِ الجموع من غطفان[٢]
أحدِ الخمسة الذين هم الاغراض في كل منطقٍ والمعاني[٣]
والشخوصِ التي خُلقنَ ضياءً قبل خلق المرّيخ والميزانِ[٤]
قبل ان تخلقَ السمواتُ او تؤ مر افلاكُهنَّ بالدَّوَران
لو تأتّى لنطحها حملُ الشهبِ تَردَّى عن رأسه الشرَطان[٥]
او اراد السماكُ طعناً لها عا دَ كسيرَ القناةِ قبلَ الطعان[٦]
او عصاها حوتُ النجوم سقاهُ حتفهُ صائدٌ من الحدثان
انت كالشمس في الضياء وان جا وزت كيوانَ في علوِّ المكان[٧]
وسَجايا محمّدٍ اعجزت في الوصفِ لطفَ الافكارِ والاذهان
وجرت في الانام اولادُهُ الستّةُ مجرى الارواح في الابدان
اقبلوا حاملي الجداولِ في الاغماد مستلئمين بالغدران[٨]
يضربون الاقران ضرباً يعيدُ السعدَ نحسا في حكم كل قران
وجلوا غمرَةَ الوغى بوجوهٍ حسنتْ فهي معدِنُ الاحسان
قد اجبنا قولَ الشريف بقول واثبنا الحصى عن المرْجان
ايها الدرُّ انما فضتَ من بحرٍ مخلّى الطريق للجريَان
ما أمرؤ القيس بالمصلّي اذا جا راهَ في الشعر بل سُكَيتُ الرهان

---

(١) هذا الشاهدان هما الفجران الكاذب والصادق اي الحمرة التي ترى اول الصبح وكذلك الشفقان اي الحمرة او الصفرة التي تبقى في افق المغرب بعد الغروب . ويزعم انهما من آثار ما اريق من دم الشهيدين (يريد بذلك انها تلوح مدى الدهر)

(٢) يا ابن النبي الذي عرض صفوفه بواقعة بدر واباد هذه القبائل

(٣) يريد بالخمسة الذين هم موضوع كل ثناء اعضاء العترة الشريفة — النبي وعلياً وفاطمة والحسن والحسين (٤) المريخ والميزان من النجوم

(٥) الشرَطان كوكبان مضيئان في برج الحمل يقال لهما قرنا الحمل

(٦) يقصد السماك المعروف بالرامح (٧) كيوان اسم لزحل

(٨) يقصد بالجداول السيوف وبالغدران الدروع

يا ابا ابراهيم قصَّرَ عنك الشعرُ لما وُصفتَ بالقرآن
أُشرِبَ العالمونَ حبَّكَ طبعاً فهو فرضٌ في سائر الاديان
بانَ للمسلمينَ منك اعتقادٌ ظفروا منه بالهدى والبيان
عش فداءٌ لوجهك القمران فهما في سناه مستصغران

وقال يفتخر ويذم الزمان

أَلا في سبيل المجد ما انا فاعلُ عفافٌ وإِقدامٌ وحزمٌ ونائلُ
أعندي وقد مارستُ كلَّ خفيَّةٍ يصدَّق واشٍ او يخيَّبُ سائل
تُعَدُّ ذنوبي عند قوم كثيرةً ولا ذنب لي الا العلا والفواضل
كأَني اذا طلتُ الزمان واهلهُ رجعتُ وعندي للانام طوائل (١)
وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم باخفاء شمس ضوءها متكامل
يهمُّ الليالي بعض ما انا مضمرٌ ويثقل رُضوى دون ما انا حامل (٢)
واني وان كنتُ الاخيرَ زمانُهُ لآتٍ بما لم تستطعه الاوائل
واغدو ولو أَنَّ الصباح صوارمٌ وأَسري ولو انَّ الظلام جحافل
واني جوادٌ لم يُحلَّ لجامه ونضوٌ يمانٍ اغفلته الصياقل (٣)
وان كان في لبس الفتى شرفٌ له فما السيف الاَّ غمده والحمائل
ولي منطق لم يرضَ لي كنه منزلي على أنني بين السماكين نازل (٤)
لدى موطن يشتاقه كلُّ سيدٍ ويقصر عن ادراكه المتناول
ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً تجاهلت حتى ظُنَّ أَني جاهل
فواعجبا كم يدَّعي الفضل ناقصٌ ووا أَسفا كم يظهر النقص فاضل

---

(١) كاني اذا فقت اهل الزمان عادوني فاصبحت وفي نفوسهم علي ثارات
(٢) رضوى اسم جبل بالمدينة
(٣) قوله لم يحل من التحلية . والنضو اليماني السيف اليماني والصياقل الذين يصقلون السيوف
(٤) السماكان نجمان معروفان

وكيف تنام الطير في وكناتها وقد نُصبت للفرقدين الحبائل (١)
ينافس يومي فيّ امسي تشرّفاً وتحسد اسحاري عليّ الاصائل
وطال اعترافي بالزمان وصرفهِ فلست أُبالي من تغول الغوائل
فلو بانَ عضْدِي ما تأسّفَ منكبي ولو مات زندي ما بكته الانامل
اذا وصف الطائيَّ بالبخل مادرٌ وعيّر قساً بالفهاهةِ باقل (٢)
وقال السُّهى للشمس انتِ خفيّة وقال الدُّجى يا صبح لونك حائل
وطاولتِ الارضُ السماء سفاهةً وفاخرت الشهبَ الحصى والجنادل
فيا موتُ زرْ انَّ الحياةَ ذميمةٌ ويا نفس جِدّي انَّ دهركِ هازل

. . .

اذا انت أعطيتَ السعادةَ لم تُبَلْ وان نظرت شزْراً اليك القبائل (٣)
تقتْكَ على اكتاف ابطالها القنا وهابتك في اغمادهنَّ المناصل (٤)
وان سدّد الاعداء نحوك اسهماً نكصن على افواقهنَّ المعابل (٥)
وترجع اعقاب الرماح سليمةً وقد حُطّمت في الدارعين العوامل
فان كنت تبغي العزَّ فابغ توسّطاً فعند التناهي يقصرُ المتطاول
تُوقّى البدور النقص وهي أهلّة ويدركها النقصانُ وهي كوامل

امثلة من لزومياته

وفيها تظهر نزعته الى التشاؤم من اعمال الانسان والزمان

اولو الفضل في اوطانهم غرباءُ تشذُّ وتنأى عنهم القُرَباءُ
وحسبُ الفتى من ذلة العيش أنه يروح بادنى القوت وهو حِباءُ

---

(١) شبه نفسه بالفرقدين في علو المقام وقال اذا كان مثلي تنصب له الحبائل فما قولك فيمن هم دوني

(٢) الطائي هو حاتم المشهور بكرمه . ومادر رجل من بني هلال معروف بالبخل . وقس هو الخطيب الجاهلي المشهور. وباقل يضرب به المثل في العي

(٣) اذا انت اعطيت الحظ والسعادة فلا تبالي ولو حسدك الناس

(٤) الرماح تحميك والسيوف في اغمادها تهابك

(٥) اي اذا جاء حظك وسدد الاعداء سهامهم نحوك رجعت النصال عليهم

وما بعد مرّ الخمس عشرة من صبا ولا بعد مرّ الاربعين صَباء
تواصل حبل النسل ما بين آدم وبيني ولم يوصل بلاميَ باء
تثاءب عمروٌ اذ تثاءب خالدٌ بعدوى فما اعدتني الثؤباء[١]
وزهّدني في الخلق معرفتي بهم وعلمي بان العالمين هَباء
اذا نزل المقدار لم يك للقطا نهوض ولا للمُخدرات[٢] إباء
على الوُلد يجني والد ولو انهم ولاةٌ على امصارهم خطباء
وزادك بعداً من بنيك وزادهم عليك حقوداً أنهم نجباء

٣

اذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع فالخُسر للعلماء
قضى الله فينا بالذي هو كائنٌ فتمّ وضاعت حكمة الحكماء
وهل يأبق الانسان من ملك ربه فيخرج من ارض له وسماء
وقد بانَ أنَ النحس ليس بغافل له عملٌ في النجم الفهماء
ومن كان ذا جود وليس بمكثر فليس بمحسوب من الكرماء[٣]

. . .

افيقوا افيقوا يا غواةُ فانما دياناتكم[٤] مكرٌ من القدماء
ارادوا بها جمع الحطام فادركوا وبادوا وماتت سنّة اللؤماء
يقولون ان الدهر قد حان موته ولم يبقَ في الايام غيرُ ذَماء[٥]
وقد كذبوا ما يعرفون انقضاءه فلا تسمعوا من كاذب الزعماء

٣

يرتجي الناس ان يقوم إمامٌ ناطق في الكتيبة الخرساء[٦]

---

(١) يريد بهذين البيتين ان حبل النسل انقطع فيه (اي انه لم يتزوج) وان التزوج كالثؤباء عدوى تصيب الناس بعضهم من بعض اما هو فبقي سليماً منها

(٢) المخدرات الاسود في آجامها

(٣) المكثر اي كثير المال (٤) لا يقصد بالديانة هنا الايمان الحقيقي بل النظم والظواهر والطقوس الخارجية التي هي من وضع الانسان

(٥) ذماء بقية الروح في الجسد

(٦) اشارة الى القول بظهور المهدي

كذب الظنُّ لا إمامَ سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ما اطعته جلب الرحمة عند المسير والارساء
انما هـذه المذاهبُ اسبا بٌ لجذب الدنيا الى الرؤساء
فانفردْ ما استطعت فالقائل الصا دق يضحي ثقلاً على الجلساء

٤

يحسُنُ مرأىً لبني آدمٍ وكلهم في الـذوق لا يعذبُ
ما فيهم بَرٌّ ولا ناسكٌ الاَّ الى نفعٍ له يجذب
افضلُ من افضلهم صخرةٌ لا تظلم الناس ولا تكذب

٥

من ليَ أن لا اقيم في بلدٍ أذكر فيـه بغير ما يجب
يُظَنُّ بي اليسر والديانة والعلم وبيني وبينهـا حجب
كلُّ اموري عليَّ واحـدة لا صفرٌ يتَّـقى ولا رجب
اقررت بالجهل وادَّعى فَهَمي قومٌ فامري وامرهم عجب

٦

قد قيل ان الروح تأسف بعدما تنأى عن الجسد الذي عنيت به
ان كان يصحبها الحجى فلعلهـا تدري وتفطن للزمان وعتبه
او لا فكم هذيان قوم غابر في الكتب ضاع مِداده في كتبه

٧

انا صائم طول الحيـاة وانما فطري الحمام ويوم ذاك أُعيِّد
لونان من ليـل وصبح لوَّنا شعري واضعفني الزمان الأَيِّد
والناس كالاشعار ينطق دهرهم بهمٍ فمطلقُ معشرٍ ومقيَّد
قالوا فلانٌ جيّدٌ لصديقه لا يكذبوا ما في البرية جيد
فاميرهم نال الامارة بالخنـا وتقيُّهم بصلاته متصيِّـد
كن من تشاء مهجَّناً او خالصاً واذا رزقت غنىً فانت السيد

٨

لا تبدأُوني بالعداوة منكمُ فمسيحكم عندي نظير محمد
أَيغيث ضوءُ الصبح ناظرَ مدلجٍ ام نحن اجمع في ظلامٍ سرمد
ان السيوف تراح في اغمادها وتظلُّ في تعب اذا لم تغمد
روح اذا اتصلت بشخص لم يزل هوَ وهي في مرض العناء المكمد
ان كنتِ من ريحٍ فيا ريح اسكني او كنت من لهبٍ فيا لهب اخمد

٩

جُرْ يا غراب وأَفسد لن ترى أحداً الا مسيئاً وايُّ الخلق لم يجُرِ ؟
خُذْ من الزرع ما يكفيك عن عرض وحاول الرزق في العالي من الشجر
وما أَلومك بل أُوليك معذرة اذا خطفت ذبال القوم في الحجر
فآل حوّاء راعوا الاسد مُخدرةً ولم يغادوا بسلمٍ ربَّة الوُجُر (١)
ومن اتاهم بظلم فهو عندهم كجالب التمر مغتراً الى هجَر (٢)
هم المعاشر ضاموا كلَّ من صحبوا من جنسهم واباحوا كلَّ محتجَر
لو كنتَ حافظ اثارٍ لهم ينعتْ ثمَّ اقتربت لما اخلوك من حجر

١٠

العالمُ العالي (٣) برأي معاشر كالعالم الهاوي يحسُّ ويعلم
زعمتْ رجالٌ انَّ سيَّاراته تسق العقول وانها تتكلم
فهل الكواكب مثلنا في دينها لا يتَّفقن فهائدٌ او مسلم ؟
والنور في حكم الخواطر محدَث والأَوليُّ هو الزمان المظلم
والخير بين الناس رسمٌ داثرٌ والشرَّ نهجٌ والبرية مَعلمُ
طبعٌ خُلقتُ عليه ليس بزائل طول الحياة وآخر متعلّم

. . .

إن جارت الأُمراء جاء مؤمَّرٌ اعتى واجور يستضيم ويكلُم (٤)

---

(١) اي اخافوا الاسدَ في عرينها واقلقوا سائر الحيوانات في اوجرتها
(٢) هجر بلد مشهور بتمره
(٣) يريد بالعالم العالي عالم الافلاك والعالم الهاوي عالم الانسان والطبيعة
(٤) يكلم اي يدمي

ان شئت ان تُكنى الحمام فلا تعشْ هذي الحياة الى المنية سلّم
أحسِنْ بدنيا القوم لو كان الفتى لا يُقتضى وأديمه لا يحلم[١]
وكأنما الاخرى تيقُّظ نائم وكانما الاولى منامٌ يُحلم
يتشبه الطاغي بطاغٍ مثله واخو السعادة بينهم من يسلم
في الناس ذو حلم يسفّه نفسه كيما يهابُ وجاهل يتحلّم
وكلاهما تعِبٌ يحارب شيمةً غلبتْ فآض بجربها يتألم[٢]

١١

أركان دنيانا غرائزُ اربعٌ جُعلت لمن هو فوقنا اركانا
والله صيّر للبلاد واهلها طرفين وقتاً ذاهباً ومكانا
والدهر لا يدري بما هو كائن فيه فكيف يلام فيما كانا
والمرء ليس بزاهد في غارةٍ لكنه يترقب الامكانا
والحيُّ تُخلق جسمَه حركاتُه فيكلُّ وهو يحاذر الاسكانا
نبكي ونضحك والقضاء مسلَّطٌ ما الدهر اضحكنا ولا ابكانا
نشكو الزمان وما اتى بجنايةٍ ولو استطاع تكلماً لشكانا
متوافقين على المظالم رُكِبت فينا وقارب شرَّنا ازكانا
يمضي بنا الفتيانِ[٣] ما اخذا لنا نفساً على حالٍ ولا تركانا

١٢

قد اختلَّ الانامُ بغير شكٍّ فجُدُّوا في الزمانِ او العبوهُ
وودُّوا العيش في زمنٍ خؤون وقد عرفوا أذاهُ وجرّبوه
وينشأ ناشيءُ[٤] الفتيانِ منّا على ما كان عوّدَهُ أبوه
وما دان الفتى بحجاً ولكن يعلّمه التديُّنَ أقربوه

---

(١) اديمه لا يحلم اي جلده لا يفسد والمعنى لو كان الانسان لا يصير الى زوال
(٢) آض اي رجع
(٣) الفتيان الليل والنهار
(٤) الناشيء الحدث اليافع

وضمَّ الناس كلَّهم هواءٌ يذلل بالحوادث مصعبوه[١]
لعلَّ الموت خيرٌ للبرايا وان خافوا الردى وتهيبوه
أطاعوا ذا الخداع وصدَّقوه وكم نصح النصيح فكذَّبوه
وجاءتنا شرائعُ كلِّ قومٍ على آثار شيء رتَّبوه
وغيَّر بعضهم أقوال بعضٍ وأبطلتِ النهى ما اوجبوه
فلا تفرحْ إذا رُجِبت فيهم فقد رفعوا الدنيء ورجَّبوه[٢]
صحبنا دهرنا دهراً — وقدماً رأى الفضلاء ان لا يصحبوه
وغيظَ به بنوهُ وغيظَ منهم فعذَّبَ ساكنيهِ وعذَّبوه
وهل ترجى الكرامة من أوانٍ وقد غلبَ الرجالَ مغلَّبوه
وهل من وقتهمْ أبغى وأطغى على أيِّ المذاهب قلَّبوه
أَجلُّوا مكثراً وتنصَّفوه وعابوا من أقلَّ وأنَّبوه[٣]

(١) اصعب الجمل فهو مصعب لم يركب قط وكل ما استصعب من الامور فهو مصعب
(٢) رجبه عظمه وهابه
(٣) المكثر الغني . تنصفوه اي خدموه

ابن الفارض

ابو القاسم (ابو حفص) عمر بن علي بن مرشد

٥٧٧ – ٦٣٢ هـ

١١٨١ – ١٢٣٥ م

مصادر دراسة شعره وتصوفه

اللمع لابن السراج الطوسي ليدن ١٩١٤

الرسالة القشيرية دار الكتب المصرية ١٣٣٠

كشف المحجوب للحجويري ترجمة Nicholson 1911

الاحياء للغزالي وبهامشه عوارف المعارف للسهروردي مصر ١٣٠٢

وفيات الاعيان لابن خلكان الطبعة الميرية

الخطط والآثار للمقريزي مطبعة النيل ١٣٢٥

حسن المحاضرة للسيوطي مصر ١٣٢١

شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي مصر ١٣٥١

قوانين حكم الاشراق لابي المواهب الشاذلي مطبعة ولاية سوريا ١٣٠٩

شرح الديوان للبوريني والنابلسي مصر ١٣١٠

« « « (نشر الدحداح) مرسيليا ١٨٥٣

التائية الكبرى شرح الفرغاني (١٢٩٣ هـ) والكاشاني (١٣١٠)

التائية الكبرى تحرير Von Hausman فينا ١٨٥٤

Nicholson , Studies in Islamic Mysticism, Cambridge, 1921

Massignon – Encyc. of Islam. Tasawwuf

ومقالات شتى لادباء عرب ومستشرقين

نشأته

يرجع ابن الفارض بنسبه الى بني سعد[١]. ووالده حمويّ الاصل قدم مصر يقطنها، وكان يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدي الحكّام فلُقِّب بالفارض[٢]. ويستدل انه (الوالد) كان رجل فضل وجاه، يتصدّر مجالس الحكم والعلم، حتى سئل ان يكون قاضي القضاة فامتنع ونزل عن الحكم، واعتزل الناس، وانقطع الى الله تعالى بقاعة الخطابة في الجامع الازهر الى ان توفاه الله[٣].

وفي مصر ولد شاعرنا، ولا شك انه كان لوالده يد كبيرة في ثقافته، وفي تكييف نزعاته النفسيّة. قال ابن العماد الحنبلي — « فنشأ تحت كنف ابيه في عفاف وصيانة وعبادة، بل زهد وقناعة وورع، واسدل عليه لباسه وقناعه. فلما شبّ وترعرع اشتغل بفقه الشافعية، واخذ الحديث عن ابن عساكر[٤]».

وقد ظهر فيه منذ اوائل شبابه ميل الى التديّن والتلذّذ بالتجريد الروحي على طريقة المتصوّفين. فكان يستأذن والده في الانفراد للعبادة والتأمل. ويظهر انه كان في جبل المقطم مكان خاص يعرف بوادي المستضعَفين يختلف اليه المتجردون[٥]، فحبّب الى ابن الفارض الخلاء فيه، فتزهّد وتجرّد وكان ياوي الى ذلك المكان احياناً[٦]. ثم انقطع عنه ولزم اباه. فلما توفي الوالد عاد الولد الى التجريد والسياحة الروحية او سلوك طريق الحقيقة فلم يفتح عليه بشيء[٧] (اي لم يكشف له من المعرفة ما يستغني به ولعلّه يريد هنا لم يوح اليه من الشعر شيء). ثم قيّض له رجل من الاتقياء اشار عليه ان يقصد مكة. فقصدها واقام فيها مجاوراً نحواً من ١٥ سنة. وهناك بين المناسك المقدّسة نضجت شاعريته وكملت مواهبه الروحية. ثم عاد الى مصر، وكانت يومئذ تحت سيادة الايوبيين، وقد عُنوا كل العناية بفتح المدارس والمعاهد فيها، فتجدّدت في ايامهم الروح الدينية. والتعاليم

---

(١) قبيلة السيدة حليمة مرضعة النبي العربي (٢) شذرات الذهب ٥—١٤٩

(٣) عن سبطه في الديوان ص ٧

(٤) شذرات الذهب ٥ — ١٤٩. وابن عساكر هذا غير الحافظ الشهير صاحب التاريخ الكبير

(٥) الديوان ٦ (٦) شذرات الذهب ٥—١٤٩

(٧) الديوان ٧. شذارت الذهب ١ — ١٥٠

السنية . حدث ذلك على اثر انتصاراتهم على الصليبيين ، تلك الانتصارات التي وطدت مركزهم في مصر والشام والحجاز ، وتركت لهم في تاريخ الشرق الاسلامي ذكرى خالدة .

والذي يلفت النظر ان عطف الايوبيين على السنّة كان مقروناً بتزايد عدد الصوفية[١] في مصر ، فكأنّ التصوّف يومئذ كان يعتبر مظهراً من مظاهر التديّن ليس الاّ . ولذلك نرى الجمهور يكرمون مشايخ الطرق ويعظمون شأنهم ، ونرى الحكام والامراء يقفون لهم « الخوانك »[٢] . ويذكر المقريزي ما ملخصه[٣] ان صلاح الدين خصّص سنة ٥٦٩ بمصر داراً للصوفية كانت قبلاً لوزراء الفاطميين ، ووقف لهم وقفاً كبيراً ، فكانت اول خانكاه عملت بديار مصر ، وعُرفت بدُويرة الصوفية . وكان سكّانها من الصوفية يعرفون بالعلم والصلاح وترجى بركتهم . وولى مشيختها الاكابر والاعيان . قال « واخبرني الشيخ احمد بن علي القصّار انه ادرك الناس في يوم الجمعة ياتون من مصر الى القاهرة ليشاهدوا الصوفية عندما يتوجهون منها الى صلاة الجمعة ، كي تحصل لهم البركة والخير بمشاهدتهم » . ثم يصف موكبهم الفخم ويعقب على ذلك بقوله « انه كان من اجمل عوايد القاهرة » وقد بقي الامر كذلك الى اوائل القرن التاسع الهجري .

فلا نستغرب اذن ما نسمعه عن اكرام الناس لابن الفارض وقد رجع من مكة شيخاً متصوّفاً وشاعراً كبيراً ، حتى كان اذا مشى في المدينة تزدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء ، ويقصدون تقبيل يده[٤] . قال ولده[٥] « وكان اذا حضر في مجلس يظهر على ذلك المجلس سكون وهيبة ، وسكينة ووقار . ورايت جماعة من مشايخ الفقهاء والفقراء (المتصوفة) واكابر الدولة من الامراء والوزراء والقضاة ورؤساء الناس يحضرون مجلسه وهم في غاية ما يكون من الادب معه ، والاتضاع له . واذا خاطبوه فكأنهم يخاطبون ملكاً عظيماً » . وقال ابن العماد الحنبلي[٦] « فاقام بقاعة الخطابة في جامع الازهر ،

---

(١) راجع قائمتهم في حسن المحاضرة ١ ص ٢٤٣—٢٥٤

(٢) جمع خانكاه وهي فارسية معناها البيت ويقصدون بها محلات خاصة لاقامتهم

(٣) الخطط (بولاق) ٢—٤١٥

(٤) الديوان ٦

(٥) " "

(٦) شذرات الذهب ٥ — ١٥٠

وعكف عليه الائمة وُقصد بالزيارة من الخاص والعام ، حتى ان الملك الكامل كان ينزل لزيارته »

قلنا اننا لا نستغرب ما رواه ولده ، وما نقله صاحب شذرات الذهب عن منزلة شاعرنا الدينية والاجتماعية ، على انه لا بدّ من القول انصافاً للتاريخ ان ابن خلكان الذي ادرك الشاعر وترجم له[1] لا يذكر شيئاً من هذا القبيل . وكل ما يقوله من ذلك « سمعت انه كان رجلاً صالحاً كثير الخير على قدم التجرّد ». فهو يزكّي قول سبطه وولده ومن نقل عنهما انه كان معروفاً بالصلاح والكرم وسلوك طريقة التصوّف على انه يسكت عما ذهبوا اليه من تعظيم الخاصة والعامة له . ولا يلزم عن سكوته انكار ما ذهبوا اليه ، ولكنّ فيه ما يجوز لنا التحرّز مما قد يكون من قبيل الغلوّ او التغرّض .

شخصيته

يجمع مؤرخوه على انه كان ورعاً وقوراً طيّب الاقوال والافعال . والذي يراجع سيرته ، ويتفهّم روح قصائده يتجلّى له في نفسيته ثلاث مزايا بارزة .

١ — انه كان شديد التاثر (ولا سيما بالجمال) الى درجة الانفعال العصبي ، يسحره جمال الشكل حتى في الجمادات . ومن ذلك ما يروونه عن تاثره بجسن بعض الجمال ، او ببرنية حسنة الصنعة رآها في دكان عطّار[2] . وقد يسحره جمال الالحان — فاذا سمع انشاداً جميلاً استخفّه الطرب فتواجد ورقص ولو على مشهد من الناس . نقل عن ولده ان الشيخ كان ماشياً في السوق بالقاهرة فمرّ على جماعة من الحرسية يضربون بالناقوس ويغنُّون . فلما سمعهم صرخ صرخة عظيمة ، ورقص رقصاً كثيراً في وسط السوق ، ورقص جماعة كثيرة من المارّين . وتواجد الناس الى ان سقط اكثرهم الى الارض . ثم خلع الشيخ ثيابه ورمى بها اليهم وحمل بين الناس الى الجامع الازهر ، وهو عريان مكشوف الراس ، وفي وسطه

---

(١) كان ابن خلكان في الرابعة والعشرين لما توفي ابن الفارض

(٢) شذرات الذهب ٥—١٥١

لباسه . واقام في هذه السكرة (النوبة العصبية) ملقى على ظهره ، مسجًّى كالميت[١] .

ومما يذكر من هذه السكرات او النوبات التواجدية انه كان مرّة جالساً في الجامع الازهر على باب قاعة الخطابة ، وعنده جماعة من الفقراء والامراء ، وجماعة من مشايخ الاعجام المجاورين بالجامع وغيرهم . وكلما ذكروا حالاً من احوال الدنيا مثل الطشت او الفرش قالوا هذا من زخم (اي وضع) العجم . فبينما هم يتفاوضون في ذلك ويفخّمون « زخم العجم » رفع المؤذنون اصواتهم بالاذان جملة واحدة فقال الشيخ « وهذا زخم العرب » ، وتواجد ، وصرخ كل من كان حاضراً حتى صار لهم ضجّة عظيمة[٢] .

فالرجل كان شديد التاثر العصبي وسنرى اثر ذلك في شعره ولا سيما في قصيدته الكبرى نظم السلوك . والظاهر ان للطريقة الصوفية وما يلازمها من رياضة وأذكار وتأملات روحية تاثيراً بيّناً من هذا القبيل . وقد روي في كتاب كشف المحجوب كثير من اخبار الصوفيين الذين ماتوا لشدة وجدهم[٣] .

٢ — ميله الى الخلوة والتقشف . وهو ظاهر منذ حداثته في ما ذكرناه سابقاً من اختلافه الى وادي المستضعفين وظاهر ايضاً في مجاورته بمكة ، وما رووه عن هيامه باوديتها يستأنس بوحشها . وقد عبّر عن ذلك بقوله —

وابعدني عن اربُعي بُعد اربعٍ شبابي وعقلي وارتياحي وصحّتي
فلي بعد اوطاني سكون الى الفلا وبالوحش انسي اذ من الانس وحشتي

وكان ايام النيل يتردد الى المسجد المعروف بالمشتهى في الروضة ، ويحب مشاهدة البحر (اي نهر النيل) مساء[٤] . وفي ذلك ما يشير الى حبه التأمل بالجمال الطبيعي والبعد عن ضجيج الناس ومتاعبهم .

وقد قرن كل ذلك بقهر النفس تقشفاً وصياماً حتى نقل عن ولده انه كان للشاعر اربعينيات[٥] يحييها بالصيام والتأمل . وكانت تلك طريقة اعتمدها بعض المتصوّفين ولهم في ذلك الحديث التالي يرفعونه الى النبي « من اخلص لله تعالى العبادة اربعين يوماً ظهرت ينابيع

(١) الديوان ١٤ (٢) الديوان ١٥

(٣) كشف المحجوب (نقله نكلسون من الفارسية الى الانكليزية) راجع في النسخة الانكليزية الصفحات ٤٠٦ — ٤١٠ (٤) شذرات الذهب ٥ — ١٥٠

(٥) الديوان ١٧ وشذرات الذهب ٥ — ١٥٠ ومعنى الاربعينية اربعون يوماً

الحكمة من قلبه على لسانه »[١]. وقد عقد السُهروردى فصلاً في هذه الطريقة ومعانيها وكيف يدخلها المريد وما يتطلّب منه فليراجعه من يريد التعمّق في ذلك[٢]. وخلاصته ان مشايخ الصوفية متفقون على ان بناء امرهم على اربعة اشياء — قلّة الطعام ، وقلّة المنام ، وقلة الكلام ، والاعتزال عن الناس . فمن استطاع ان يحتمل الجوع ابتغاء الفرح الاعلى الذي ينسيه لهب الجوع فله ذلك. ولا يتحتم عليه الانقطاع التام عن الطعام والشراب طيلة الاربعين يوماً بل الاكتفاء بالقليل القليل من خبز وملح اوما شاكل ، والقيام بما تتطلبه الخلوة من رياضة روحية حتى يفتح عليه ويكاشف بشيء من المنح الالهية

ويظهر مما رووه ان شاعرنا كان يقوم بهذه الرياضة الزهدية احياناً ولعله الى ذلك يشير في قوله

في هواكم رمضان عمرهُ ينقضي ما بين احياء وطيّ

ومهما حاولنا غربلة الاخبار التي يروونها عن تقشفه وصيامه فاننا لا نرى محيصاً عن القول ان الرجل كان متصوفاً وكان يسلك طريقة اهل الورع والزهد[٣]، وقصائده ولا سيما التائية الكبرى تنضح بذلك نضحاً لا سبيل الى انكاره .

٣ — كرم سجيته وحسن عشرته . قد يكون في امرىء ما كان في شاعرنا من حدّة التأثر ، والميل الى الطريقة الزهدية ، وقد يكون مع ذلك سيّء العشرة قليل الخير. اما ابن الفارض فقد اجمع الكلّ على نعته بسموّ الخلق من رقة وايناس وكرم وترفع عن حطام الدنيا[٤]. فهو لم يكن من الذين يصطنعون التدين طمعاً بالحصول على المال او شرف المقام ، بل كان التديّن طبعاً فيه يرفعه عن الشهوات والاطماع المعيبة . وقد عرف الناس له ذلك فاكرموه ورفعوه الى مصاف الصالحين .

ومن مزاياه البارزة السخاء. رُوي انه ركب مرّة مع مكارٍ الى جامع مصر واشترط المكاري ان تكون اجرته « على الفتوح » اي بقدر ما يفتح على الشاعر من العطايا . قال

---

(١) عوارف المعارف (هامش الاحياء) ٢ — ٢٢٣
(٢) « « « الفصل الثامن والعشرون
(٣) راجع قصته مع السلطان الملك الكامل. الديوان ١٥
(٤) ابن خلكان في ترجمته ، وشذرات الذهب ٥ — ١٥٠

الراوي — وكان يرافقه — وتبعنا فارس من جهة الامير فخرالدين فاستند الي َّ فقال لي قل للشيخ هذه مئة دينار يقبلها من الامير على الفتوح . فقلت ذلك للشيخ . فقال نحن ركبنا مع المكاري على الفتوح وامر له بها . فرجع الفارس الى الامير واخبره بذلك . فبعث اليه مثلها ، فقال اعطها للمكاري . ولما وصلنا الى الجامع اعتذر الشيخ الى المكاري ودعا له[1].

وكان شديد المؤاخذة لنفسه . قال لولده[2] حصلت مني هفوة انحصرت بسببها باطناً وظاهراً حتى كادت روحي تخرج من جسدي ، فخرجت هائماً كالهارب من امر عظيم فعلَهُ وهو مطالبٌ به ، فطلعت المقطّم وقصدت مواطن سياحتي ، وانا ابكي واستغيث واستغفر فلم ينفرج ما بي . وقصدت مدينة مصر ودخلت جامع عمرو بن العاص ، ووقفت في صحن الجامع خائفاً مذعوراً ، وجددت البكاء والتضرّع والاستغفار ، فلم ينفرج بالي ، فغلب عليَّ حال مزعج لم اجد مثله قط ، فصرخت وقلت

من ذا الذي ما ساءَ قط ومن له الحسنى فقط

قال فسمعت قائلاً يقول بين السماء والارض ، اسمع صوته ولا ارى شخصه

محمد الهادي الذي عليه جبريل هبط

ولا ننكر انه لا يجوز التقيد بمثل هذه القصص ، والاستناد اليها في الحكم على شاعرنا ولكنها ترينا على الاقل راي الذين ترجموا له ، او كيفية تأثرهم باخلاقه . والقصة الاخيرة ترجع الى ايام الشاعر فقد رواها ابن خلكان عن بعض اصحابه وانه ترنم يوماً وهو في خلوة ببيت الحريري « من ذا الذي ما ساء قط » فسمع البيت الثاني من قائل لم يرَ شخصه . ولا يذكر ابن خلكان دقائق القصّة كما يرويها ولد الشاعر . وليس بالعجيب ان يكون ابن الفارض كما ذكرنا وان يوهمه الانفعال النفسي انه يسمع صوت شخص لا يراه . فما ذلك الشخص الا ّ نفسه الواجدة ، التي كثيراً ما كان الوجد يفصلها عن العالم المحسوس .

. . .

(١) الديوان ١٦

(٢) « ١٣

فرجل كابن الفارض – شديد الاحساس والتأثر ، كثير الخلوة والتأمل ، ورع مترفع عن حطام الدنيا ، محبّ حسن الصحبة كثير الخير ، لا يستغرب ان تفيض نفسه بقصائد الوجد والهيام ، وان ينال من معاصريه ومن تبعهم جميل الذكر والاكرام

اثر الصوفية في شعره

مرّ معنا في القسم الاول من هذا الكتاب شيء عن الطريقة الصوفية ومنشأها ، فلا لزوم لاعادته هنا . على انه لا بدّ لنا لدرس ابن الفارض وتفهم شعره ، من النظر في الصوفية ومصطلحاتها العامة فنقول –

« للقلب بابان ، باب مفتوح الى عالم الملكوت ، وباب مفتوح الى الحواسّ الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة . فعلم الاولياء والانبياء ياتي من الباب الاول ، وعلم الحكماء (العلماء والفلاسفة) ياتي من الثاني . والفرق بين الفريقين ان الحكماء يعملون في اكتساب العلوم واجتلابها الى القلب ، واما الاولياء (الصوفية) فيعملون في جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيتها وتصقيلها فقط حتى تتلألأ فيها جليّة الحق بنور الاشراق ، وهذا هو الكشف »[1]

فالصوفية اذن مجاهدةٌ لتطهير القلب من الادران وللانفراد بذكر الله توصّلًا الى الحصول على الالهام النورانيّ – او الاتحاد الكامل بالحق الاعلى

وفي خلال هذه المجاهدة تمرّ نفس الصوفيّ في تطوّراتٍ شتّى ، منها ما يُدعى مقامات ، ومنها ما يدعى احوالاً . ويراد بالمقامات قيام العبد بين يدي الله والانقطاع اليه ، ولزوم العبادات والمجاهدات والرياضات الروحية . وبكلمة اوضح هي المسالك التي يتدرّج فيها نحو غايته المنشودة ، كالتوبة – والورع – والزهد – والفقر – والصبر – والتوكل – والرضا – وغير ذلك[2] .

واما الاحوال فهي ما يحلّ بالقلوب من صفاء الأذكار – او هي اختبارات النفس اذ

---

(١) ملخصاً عن الاحياء للغزالي ٣ – ٢١

(٢) من اراد معاني هذه الالفاظ من الوجهة الصوفية فليراجع اللمع ٤٣ – ٥٤ او كتاب قوانين حكم الاشراق لابي المواهب الشاذلي

تمرّ في شتّى المقامات . ومن ذلك القرب — المحبة — الخوف — الرجاء — الشوق — الانس — الطمأنينة — المشاهدة — اليقين[١]

وللصوفية مصطلحات يكثرون من ترديدها في اشعارهم ، وقد افرد لها ابن السرّاج الطوسيّ في اللُمع بابا خاصاً ذكر فيه نحواً من ١٥٠ نوعاً ، ثم شرحها شرحاً وافياً فليراجعها من شاء[٢] . وانما نجتزىء هنا باشهرها واكثرها تردداً في الشعر الصوفي وخاصّة في شعر ابن الفارض — ومنها

الجمع والتفرقة — فالجمع هو اتحاد الواجد بالله عن سبيل الوجد ، والتفرقة تعلّقه بالبشرية — فالاول عن طريق القلب والثاني عن طريق العقل — فمثال الجمع قوله .

لها صلواتي بالمقام اقيمها واشهد فيها انها لي صلّت
كلانا مصلٍّ واحد ساجد الى حقيقته بالجمع في كل سجدة

الفناء والبقاء — فناء رؤية حركات العبد لبقاء رؤية عناية الله . كقوله

وتلافي ان كان فيه ائتلافي بك عجل به — جُعلت فداكا

وقوله

ان كان في تلفي رضاك صبابة ولك البقاء وجدت فيه لذاذا

الحبّ والهوى — وما يتعلّق به من كتمان — والم — ونحول — وشوق — وهجر — ووصل — وتهتك — وعذل وغيره من الوجهة الصوفية وهو الموضوع العام في شعر ابن الفارض ، والامثلة اكثر من ان تحصر هنا

الوجد — ان ينقطع القلب عن العلاقات الدنيوية فيشاهد ويسمع ما لم يكن يتهيأ له من قبل .

يا اخا العذل في من الحق مثلي هام وجداً به عُدمتُ أخاكا
لو رايت الذي سباني فيه من جمال — ولن تراه — سباكا

القبض والبسط — وهما حالان شريفان لاهل المعرفة (الصوفية) . اذا قبضهم الله

(١) راجع معانيها في اللمع ٥٤ — ٧٢
(٢) اللمع ٣٣٣ — ٣٧٦

حشمهم عن تناول المباحات حتى والاكل والشرب والكلام ، واذا بسطهم ردّهم الى هذه الاشياء حتى يتأدب الخلق بهم .

وفي رحموت البسط كلّي رغبةٌ ‏ بها انبسطت آمال اهل بسيطتي
وفي رهبوت القبض كلّي رهبة ‏ ففيها اجلت العين منّي اجلّت

السكر والصحو — (الغشية والحضور) فالسكر غيبة القلب عن مشاهدة الخلق ، ومشاهدته للحق بلا تغير ظاهر على العبد (ويختلف عن الغشية بانها تظهر)

تهذّب اخلاق الندامى فيهتدي ‏ بها لطريق العزم من لا له عزم
وفي سكرةٍ منها ولو عمرَ ساعةٍ ‏ ترى الدهر عبداً طائعاً ولك الحكم

والصحو رجوع القلب الى ما غاب عن عيانه لصفاء اليقين ، ويختلف عن الحضور بان هذا دائم والصحو حادث

المحو وصحو الجمع — وهما حالان تتلوان السكر والصحو . فالمحو صعقة السكر ثابتة بعد الصحو الاول يتلوها صحو الجمع وهو الرتبة العليا وفيها يتم الاتحاد بالله واذ ذاك تتساوى الطوالع وتجتمع الاضداد فيصبح العابد والمعبود واحداً، وكذلك الرسول والمرسل ، والمحب والمحبوب ، والحاضر والماضي ، والليل والنهار ، والصفة والذات

فالوجد واحد ، وليس هنالك زمان ، او سابق ذوات ، او اختلاف اديان ، او انا وانت وهو ، بل روح واحدة هي حقيقة الحقائق التي تتجلى بمظاهر مختلفة في الوجود الحسّي .

فني الصحو بعد المحو لم اكُ غيرها ‏ وذاتي بذاتي اذ تحلّت تجلّت
فكل الذي شاهدته فعل واحد ‏ بمفرده لكن بحجب الاكنّة
اذا ما ازال الستر لم ترَ غيره ‏ ولم يبق بالأشكال إشكال ريبة

واذا بزغت انوار التوحيد على قلب العارف (الصوفي) كسف سلطانها سائر الانوار

وفي حبّها بعت السعادة بالشقا ‏ ضلالاً وعقلي عن هدايَ به عقل
وقلت لرشدي والتنسّك والتقى ‏ تخلّوا وما بيني وبين الهوى خلّوا

الكشف — بيان ما يستتر على الفهم فيكشف عنه للعارف كأنه رأي عين

وما برحوا معنىً اراهم معي فان نأوا صورة في الذهن قام لهم شكل

. . .

فالدياجي لنا بك الآن غرٌّ حيث اهديت لي هدى من سناكا

واقتباس الانوار من ظاهري غير عجيب وباطني مأواكا

التجريد — ما تجرَّد للقلب من شواهد الالوهية اذا صفا من كدورة البشرية

ابعينيه عمىً عنكم كما صمَمٌ عن عذله في أذُنَي

اوَ لم ينهِ النهى عن عذله زاوياً وجه قبول النصح زي

. . .

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سرٌّ ارقُّ من النسيم اذا سرى

واباح طرفي نظرة أمّلتها فغدوت معروفاً وكنت منكَّرا

فدهشت بين جماله وجلاله وغدا لسان الحال عني مخبرا

الشطح — كلام غريب يترجمه اللسان عن وجد يفيض عن قلب الواجد كما يفيض الماء الغزير اذا جرى في مجرى ضيّق · كقوله —

نخمر ولا كرم وآدم لي ابٌ وكرم ولا خمر ولي امّها امٌّ

وقوله في حالة الاتحاد —

فاتلو علوم العالمين بلفظةٍ واجلو عليَّ العالمين بلحظةٍ

واستعرض الآفاق نحوي بخطرة واخترق السبع الطباق بخطوة

فمن قال او من طال او صال انما يمتُّ بامدادي له برقيقة

وما سار فوق الماء او طار في الهوا او اقتحم النيران الاّ بهمّتي

ومنّي لو قامت بميتٍ لطيفة لرُدّت اليه نفسه وأعيدتِ

اسلوبه الشعري

نشأ ابن الفارض في عصر بلغت فيه الأَناقة البديعيَّة نثراً ونظماً اعلى درجاتها . فهو عصر القاضي الفاضل ، والعماد الاصبهاني ، وابن التعاويذي ، وابن النبيه ، والبهاء زهير ، وابن سناء الملك ، وابن الساعاتي ، وسواهم ممَّن عاصروا شاعرنا او سبقوه قليلاً . وقد عُرفت هذه الطبقة جميعها بولعها الشديد بالصناعة اللفظية ، وتكلّف انواع البديع . ولم يشذّ عنهم ابن الفارض ، بل لعله ابعدهم شأواً في ذلك . فالتأنق البديعي عامٌّ في جميع قصائده بل في اكثر ابياتها . واكثر ما يظهر في ما يلي —

الجناس (في انواعه المختلفة) — ومنه

التامّ — ليت شعري هل كفى ما قد جرى مذ جرى ما قد كفى من مقلتي

والملفق — جنَّة عندي رباها امحلت ام حلت عجِلتها من جنتي

المشتق او شبهه — دار خلد لم يدر في خَلَدي انه من ينأ عنها يلق غيّ

وكثيراً ما يعنى بجمع عدد من ضروب الجناس في بيت واحد — كقوله

وباينت بانات كذا عن طويلع بسلعٍ فسل عن حلّةٍ فيه حلّتِ

ففيه الملفق والمحرف وشبه المشتق

فذاك هوى اهدى اليّ وهذه على العود اذ غنت عن العود اغنت

وفيه شبه المشتق والتام والناقص

الطباق — فلي بين هاتيك الخيام ضنينة عليّ بجمعي سمحة بتشتّتي

. . .

وبسطٌ طوى قبض التنائي بساطه لنا بطوى ولّى بارغد عيشة

. . .

منّي له ذلّ الخضوع ومنه لي عزّ المنوع وقوّة المستضعف

الطيّ والنشر — فضعفي وسقمي ذا كرأي عواذلي وذاك حديث النفس عنها برجعة

. . .

فقلبي وطرفي ذا بمعنى جمالها معنّى وذا مغرى بلين قوام

. . .

وعقدي وعهدي لم يحلّ ولم يحل ووجدي وجدي والغرام غرامي

وقد يحمله الشغف بهذه الصناعة على جمع بضعة من انواع البديع — كقوله

وقالوا جرت حمرا دموعك قلت عن امورٍ جرت في كثرة الشوق قلّتِ

نحرت لضيف الطيف في جفني الكرى قرى فجرى دمعي دماً فوق وجنتي

ففي هذين البيتين جناس وطباق ومراعاة نظير ومجاز مرسل

وقوله

ايْ صبا ايَّ صباً هجتَّ لنا سَحَرا من اين ذيّاك الشذي

ذاك ان صافحت ريّان الكلا وتحرّشت بجوذان كُلَي

فلذا تُروي وتُروي ذا صدا وحديثاً عن فتاة الحيَّ حيّ

ففيه من الجناس التام والمحرّف ، وفيه التناسب، والطباق ، والطي والنشر

ومن مزايا اسلوبه . توهم التناقض . وهو ان يوهمك بوجود تناقض في المعنى والحقيقة غير ذلك . كقوله —

ما بين ضال المنحنى وظلاله ضلَّ المتيم واهتدى بضلاله

. . .

فلي بعد اوطاني سكون الى الفلا وبالوحش انسي اذ من الانس وحشتي

. . .

فلعلّ نار جوانحي ان تنطفي بهبوبها واودّ ان لا تنطفي

. . .

وقلت لرشدي والتنسّك والهوى تخلّوا وما بيني وبين الهوى خلّوا

. . .

ومن اجلها اسعى لمن بيننا سعى واعدو ولا اغدو لمن دأبه العذل

ومنها لطف العبارة والاشارة وحلاوة الجرس– ويكاد يكون مذهبه العام. ولا بدع فموضوعه حبّي والفاظه رقيقة مألوفة ، وهو يجمع بين سلاسة البحتري وصنعة ابي تمام جمعاً لطيفاً قد يعلو به عن كليهما . نعم تلك صفات الشعر الغزلي في كل زمان ، ولكن لابن الفارض نَفَس خاص يمتاز به– لطف روحي ينعكس عن اسلوبه فيحبّبه الى القلوب برغم ما فيه من عيوب سيأتي ذكرها . ولو اردنا التدليل على ذلك لاتينا باكثر ديوانه وانما نكتفي هنا بقوله –

يا اخت سعدٍ من حبيبي جئتني برسالةٍ اديتها بتلطف
فسمعتُ ما لم تسمعي ونظرت ما لم تنظري وعرفت ما لم تعرفي

وقوله

زدني بفرط الحب فيك تحيُّرًا وارحم حشا بلظى هواك تسعّرا
واذا سالتك ان اراك حقيقة فاسمح ولا تجعل جوابي ، لن ترى

ومن حسناته دقّة الوصف والتمثيل . وتظهر في بلاغة تشابيهه ، ووضوح رسومه الفكرية كقوله –

خافياً عن عائد لاح كما لاح في برديه بعد النشر طي

فتشبيه ما صار اليه من النحول باثر الطيّ في الثوب يدلّ على دقة في الرسم تذكر للشاعر . وقوله يصف شيوع الجمال الاسنى في كل شيء –

تراه ان غاب عني كل جارحة في كل معنى لطيف رائق بهج
في نغمة العود والناي الرخيم اذا تآلفا بين الحان من الهزج
وفي مسارح غزلان الخمائل في برد الاصائل والاصباح في البلج
وفي مساقط انداء الغمام على بساط نور من الازهار منتسج

الى آخر هذه الابيات المشهورة .

وقوله يشبه تواجده بحال الطفل الذي يبكي من شدّ القماط ويحن الى الخلاص منه فيحركُ ويناغي فيجد في ذلك ما يسكّنه وينسيه شدّ القماط – (التائية ٤٣٠)

ويُنبيك عن شاني الوليد وان نشا بليدا بإلهامٍ كوحي وفطنة
اذا انّ من شدّ القماط وحنّ في نشاطٍ الى تفريج إفراط شدّة

ينـاغي فيلغى كلُّ كلٍّ اصابه ويُصغي لمن ناغاه كالمتنصّت
يُسكَّن بالتحريك وهو بمهده اذا ما له ايـدي مربّيه هزّتِ
وجدت بوجد آخذي عند ذكرها بتحبير تال او بالحان صيّت

وقس على ما ذكر كثيراً من لطائفه التي يشرح بها حاله فيصف تاثير الحب او جمـال المحبوب ، او ضلال العذّال وما الى ذلك مما يبلغ فيه الطبقات العليا من الخيال الشعري

. . .

عيوب اسلوبه

على ان في شعر ابن الفارض عيوباً لا يجوز الاغضاء عنها اهمّها

تكرير المعاني — وذلك طبيعي في قصائد تدور على موضوع واحد ، وما اشبهه في ذلك بابي العتاهية . على ان شاعرنا لا يكتفي بتكرير المعنى بل كثيراً ما يكرّر العبارة وقد يكرّر البيت في اماكن شتّى . كقوله —

اخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي يضرّكم لو كان عندكم الكلّ

فقد جاء في قصيدة اخرى —

اخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي يضرّكم لو تتبعوه بجملتي

وورد هذا المعنى مراراً في مواضع اخرى

وقوله

كهلال الشك لولا انه انّ عيني عينه لم تتأي

وتراه في موضع آخر

كأني هلال الشك لولا تأوهي خفيت فلم تهدَ العيون لرويتي

وقوله

ليت شعري هل كفى ما قد جرى مذ جرى ما قد كفى من مقلتي

وقد ورد ايضاً بقوله

قد كفى ما جرى دماً من جفون بك قرحى فهل جرى ما كفاكا

وقوله

فلو بسطت جسمي رأت كل جوهر · به كل حسن فيـه كل محبّة

ومثله

ولو بسطت جسمي رات كل جوهر · به كل قلب فيـه كل غرام

وقوله عن العين

فانسانهـا ميت ودمعي غسله · واكفانه ما ابيضّ حزناً لفرقتي

ومثله

فسهدي حيّ في جفوني مخلّـد · ونومي بها ميت ودمعي له غسل

وقس على ما ذكر ما لم يذكر .

وقلما تجد قصيدة من قصائده تخلو من مخاطبة سائق الظعن ، والتقدم اليه ان يحمل السلام الى الاحباب ، وان يذكر لهم صباً صريعاً نحيل الجسم الى درجة الخفاء

ويكثر في شعره التنقص من العذّال واللائمين ، وذكر ريح الصَّبا التي يخصّهـا بحمل اخباره او اخبار الحبيب .

ومن عيوبه الغموض — وهو امّا لبعد اشاراته وشطحاته احياناً ، او لتعسّفه في الصناعة

خذ قوله مثلاً

ناب بدر التمام طيف محيّاك · لطرفي بيقظتي اذ حكاكا

فتراءيت في سواك لعيـنٍ · بك قرّت وما رايت سواكا

وكذاك الخليل قلّب قبلي · طرفه حين راقب الافلاكا

ومعنى الابيات — ظهر لي البدر نائباً عنك مشبها محيّاك ، فما ظهر لي سواك لان عيني لا تشاهد الاّ جمالك . وكذا ابرهيم الخليل كان يرقب النجوم باحثاً عن مبعثها العظيم . وفي هذا التركيب من التعسف ما ترى

وله من هذا القبيل ما يلفت النظر . واغمض منه شطحياته وهي راجعة الى غرائب ما يصفه من احواله الصوفية وهذه لا يفهمها الاّ ارباب هذه الطريقة او المطلعون على اسرارها .

اما غموض البديع فمعروف وهو يشارك فيه كل اهل الصناعة ، وربما فاقهم احياناً لمحاولته الجمع بين عدة ضروب في معنى او بيت واحد .

. . .

وبرغم مقدرته اللغوية وشاعريته الممتازة لا يخلو ديوانه من هفوات لغوية او اعرابية كقوله —

لو طويتم نصح جارٍ لم يكن فيه يوما يألُ طيًا يالَ طي

وصحيحه يألو طيًا يا آل طي

وقوله يضرُّكم لو تتبعوه بجملتي — الصواب لو تتبعونه

وقوله ناب بدر التمام طيف محيَّاك — وصوابه عن طيف محيَّاك

وقوله لعلّ اصيحابي بمكة يبردوا بذكر سليمى ما تجن الاضالع

وصوابه يبردون

وقوله فان لها في كل جارحة نصلُ وصوابه نصلا وقد يخرّجونه بتقدير ضمير الشان فتصبح فانه الخ

وهو يكثر من استعمال لغة « اكلوني البراغيث » كقوله

وان كثروا اهل الصبابة او قلُّوا وقوله وان مزجوه عذّلي

وما الى ذلك مما يلاحظ في تضاعيف ديوانه .

ومن تساهله اللغوي

قوله لم يرق لي منزل بعد النقا . وهو لطيف على ان فعل راق يتعدى رأساً فيقال راقني ذلك.

وليس ما ذكرناه بالذي يتفرّد به ابن الفارض ، فقد مرّ معنا ما عيب على المتنبي وغير المتنبي . وقلما يخلو ديوان من مثل هذه الهفوات ، واكثرها للمحافظة على الوزن .

غزله

عُرف ابن الفارض بانه شاعر الحبّ . والناس في ذلك طائفتان ، اهل الظاهر ، واهل الباطن . فاهل الظاهر هم القائلون بانه لا يخرج عن سبيل العشاق او الغزليين الذين وصفوا

الجمال الانساني (ولا سيما جمال المرأة) وتاثيره في نفوس المحبين وقد عزا اليه بعضهم ولعه بسماع الغناء من جوارٍ له وانه كان يرقص لذلك ويتواجد[١] . وعلى الظاهر يفسّرون حبّه وسماعه وشعره او على الاقل لايتعرّضون لما في ذلك من رموز صوفية . ذكروا ان بعضهم في عصر الحافظ ابن حجر كتب على التائية شرحاً ، وارسله الى بعض عظماء صوفيّة الوقت ليقرّظه ، فاقام عنده مدة ، ثم كتب عليه عند ارساله اليه

سارت مشرّقة وسرت مغرّبا   شتان بين مشرّق ومغرّب

« فقيل له في ذلك ، فقال : مولانا الشارح اعتنى بارجاع الضمائر والمبتدا والخبر والجناس والاستعارة ، وما هنالك من اللغة والبديع ، ومراد الناظم وراء ذلك كلّه »[٢]

وممن نظر الى الديوان نظراً ظاهرياً ابن ابي حجلة . وقد قال في وصفه[٣] « هو من ارقّ الدواوين شعراً ، وانفسها درّاً برّاً وبحراً ، واسرعها الى القلوب جرحاً ، واكثرها على الطلول نوحاً ، اذ هو صادر عن نفثة مصدور ، وعاشقٍ مهجور ، وقلبٍ بجرّ النوى مكسور » .

ولا يقصد ابن ابي حجلة بالعشق هنا النوع الصوفي منه الذي يرمز الى الجمال الالهي ، اذ المعروف عنه انه كان من سيّئي الاعتقاد بابن الفارض[٤] ، بل يقصد ما يذهب اليه كثيرون من ان غزله غزل عاديّ كغزل ابن ابي ربيعة ، وعباس ابن الاحنف ، والبهاء زهير وسواهم . ولا ينكر ان شهرة شاعرنا قائمة عند الجمهور على هذه الوجهة الظاهرية ، فهم يحفظون قصائده ويرددونها لضربها على اوتار الغرام ، ولانها تلائم ما يشعرون به من خوالج الوجد والهيام . على ان شعور الجمهور لا يحتّم علينا ان ننظر اليها كذلك ، ومهما حاولنا ان نضرب صفحاً عن تصوّفه ، فان من قصائده ما لا يفسّر الاّ تفسيراً باطنياً او رمزياً (صوفياً) . ومن ذلك قصيدته الخمرية ، واليك مثالاً منها —

ولو جُليتْ سراً على اكمهٍ غدا   بصيراً ومن راووقها يسمع الصُمّْ
ولو انّ ركباً يمّموا ترب أرضها   وفي الركب ملسوع لما ضرّه السمّْ

---

(١) شذرات الذهب ٥ — ١٥٢
(٢) " " ١٥١
(٣) " " ١٥١
(٤) الديوان ١١

تقدّم كل الكائنات حديثها قديماً ولا شكلٌ هناك ولا رسم
وقامت بها الاشياء ثم لحكمة بها احتجبت عن كلّ من لا له فهم
وهامت بها روحي بحيث تمازجا اتحاداً ولا جرمٌ تخلّله جرم
وقالوا شربت الاثم كلاً وانما شربت التي في تركها عندي الاثم

والذي يقرا هذه القصيدة ويتفهّم معانيها ومراميها ، ثم يقابلها بخمريات ابي نواس مثلا يرى فرقاً واضحاً برغم ما قد يتوهمه من تشابه الصفات في الخمرين النواسية والفارضية

. . .

واهمُّ من هذه الخمرية واسمى تصوُّفاً تائيته الكبرى « او نظم السلوك » التي مطلعها —

سقتني حمياً الحبّ راحةُ مقلتي وكاسي محيّاً من عن الحسن جلّت

وهي قصيدة فريدة في الادب العربي ، او كما يقول المستشرق العلّامة هامَر في مقدمة ترجمته لها «انها اسمى ما وصل الينا من هذا القبيل في ادب الشرق والغرب»(1). ويقابلها « بنشيد الانشاد » في التوراة فيقول «هي نشيد انشاد العرب في الحب الصوفي ولئن قصرت عن « نشيد الانشاد » في الصور الطبيعية ، فانها تفوقه في الرموز التصوفية »(2)

. . .

والمرويّ « انه لم ينظمها على حدّ نظم الشعراء اشعارهم بل كانت تحصل له جذبات يغيب فيها عن حواسّه فاذا افاق املى ما فتح الله عليه منها ، ثم يدع حتى يعاوده ذلك الحال(3) »

ويصف ولده هذه الغيبوبة فيقول « كان الشيخ في غالب اوقاته لا يزال دهشاً ، وبصره شاخصاً ، لا يسمع من يكلّمه ولا يراه : فتارة يكون واقفاً ، وتارة يكون قاعداً ، وتارة يكون مضطجعاً على جنبه ، وتارة يكون مستلقياً على ظهره مسجّى كالميت . ويمرّ عليه عشرة ايام متواصلة ، واقلّ من ذلك واكثر ، وهو على هذه الحالة — لا يأكل

---

(١) مقدمة الترجمة XX (فينا ١٨٥٤)
(٢) " " VIII
(٣) الديوان ١١

ولا يشرب ولا يتكلم ولا يتحرك — ثم يستغيث وينبعث من هذه الغيبة ، ويكون اول كلامه انه يملي من القصيدة « نظم السلوك » ما فتح الله عليه »[١].

وعلى ما رووه من غيبته يعقب المستشرق الاستاذ نكلسون بقوله « انا لا نرى لزاماً ان نشك في صحة ما رووه في التاريخ ما يزكيه — هذا بلايك (Blake) فقد قال عن نفسه ان سكرة روحية كانت تغشاه كلما مسك القلم او المرقم — وسانت كاترين اوف سيانا كانت تملي احاديثها على كتبتها وهي في حالة الوجد او الغيبة (Ecstasy) . وكان جلال الدين الرومي ، اذا غاص في بحر المحبة ، امسك بعمود في داره واخذ يدور حوله وفي خلال ذلك ينظم ويملي »[٢]

فليس من الغريب ان تأخذ « الحال » شاعراً رقيق الشعور شديد التاثر كابن الفارض . والذي يتأمل تائيته العجيبة يرى فيها آثار تلك الحال ، كقوله —

ودلّني منها ذهولي ولم أُفِق … عليَّ ولم اقفُ التماسي بظنّتي
فاصبحت فيها والهاً لاهياً بها … ومن ولّهت شغلاً بها عنه الهتِ
وعن شغلي عنّي شُغلت فلو بها … قضيت ردى ما كنت ادري بنقلتي
وما زلت في نفسي بها متردِداً … لنشوة حبّي والمحاسن خمرتي

وقوله

يشاهدها فكري بطرف تخيُّلي … ويسمعها ذكري بسمع فطنتي
ويُحضرها للنفس وهمي تصوُّراً … فيحسبها في الحسّ وهمي نديمتي
فاعجبُ من سكري بغير مدامة … واطرب في سري ومنّي طربتي

ومما يشير الى انه نظم كثيراً منها على اثر تواجد او « حال » ان المعاني تتكرر فيها على طرق شتى . في نفس الشاعر شوق مستعر يحمله الى العلى ، وكثيراً ما يحجب عنه ابواب التأمل المنطقي . على انه يثير شعوره فيظهر في ابيات او قطع قد تختلف لفظاً عما نظم قبلاً ولكنها لا تختلف معنى . ومن ذلك معظم ما نظمه في الجمع والاتحاد والفناء والصحو وما شاكل من هذه المعاني التي كانت تشغل عقله فاذا غاب تسارعت الى خاطره

---

(١) الديوان ١١

(٢) Studies in Islamic Mysticism 167

فالى لسانه. واذا اعترض ان الصنعة البديعية فيها تعارض ذلك لتطلبها التدقيق في التركيب وامتلاك الحواس في اختيار الالفاظ المناسبة ، قلنا قد يكون ذلك صحيحاً ، ولكنه ليس بحتم . واذا كان رجل كابن الفارض مشبع الروح بالتأملات الصوفية ، وكان مع ذلك واسع الاطلاع على لغة عصره الشعرية يخزن في ذاكرته الكثير من اوضاعهم واساليبهم ، لم يستحل عليه حتى في حال ذهوله ان يبث شعوره بواسطة تلك الاوضاع والاساليب

فالتائية الكبرى نشيد الوجد الروحي. فيها نشعر بذلك الحب الاسنى الذي يملك على الناظم حواسه فيسكره وينقله من عالم المادة الى عالم الروح . فيها نرى ذلك العراك المستمرّ بين الصلاح والشرّ وذلك الفوز النهائي الذي انما ينال بشاهدة الجمال الالهي —

وما هو الاّ ان ظهرت لناظري باكمل اوصاف على الحسن اربتِ
تخليت لي البلوى تخليت بينها وبيني فكانت منك اجمل زينةِ

وما الحبّ الحقيقي الاّ الذي ينتهي بتلاشي ارادة المحب او اتحاده في حقيقة المحبوب

وغيّبتُ عن إفراد نفسي بحيث لا يزاحمني ابداء وصفٍ بحضرتي
وها انا ابدي في اتحادي مبدأي وأنهي انتهائي في تواضع رفعتي

اما الجمال فهو الجمال المطلق الذي يتجلى في كل ما هو جميل في الطبيعة والانسان

وصرّح باطلاق الجمال ولا تقل بتقييده ميلًا لزخرف زينةِ
فكلّ مليح حسنه من جمالها مُعار له بل حسن كلّ مليحة

وحب الجمال هو حب الله نفسه وهو عند ابن الفارض أعلى من عبادة النسّاك ومن عبادة المثقلين انفسهم بظواهر التقليد والنقل

وطب بالهوى نفساً فقد سُدت انفسَ العباد من العبّاد في كل امّة
وفُز بالعلى وافخر على ناسكٍ علا بظاهر اعمالٍ ونفسٍ تزكّت
وجز مُثقلًا لو خفّ طفّ مُؤمّلًا بمنقول احكام ومعقول حكمة
وحُز بالولا ميراث ارفع عارفٍ غدا همُّه ايثار تأثير همّة
وته ساحباً بالسّحب اذيال عاشق بوصلٍ على اعلى المجرّة جُرّت

على ان الجمال الانساني لا يمكن مشاهدته الاّ بعد التجرُّد من اثواب العقل والحس

الى ان بـدا مني لعيني بارق وبان سنا فجري وبانت دجنّتي
هناك الى ما احجم العقل دونه وصلت وبي مني اتّصالي ووصلتي
واستار ُلبس الحسّ لمّا كشفتها وكانت لها اسرار ُحكمي ارخت
رفعت حجاب النفس عنها بكشفيّ النقابَ وكانـت عن سؤالي مجيبتي

ومتى شاهدت النفس المتجرّدة الجمال الاسنى تساوت لديها الاسماء والصفات واصبحت هي والوجود الالهي شيئاً واحداً ، فرأت في كل الاشكال معنىً واحداً

ترى صور الاشياء تجلى عليـك من وراء حجاب اللّبس في كل ِخلقةٍ
تجمّعت الاضداد فيهـا لحكمةٍ فاشكالها تبدو عـلى كل هيئة

وكل الاديان مظاهر لدين واحد حتى عبّاد الاوثان ليس عبادتم في الحقيقة الاّ اتجاهاً نحو الجمال الالهي المطلق

فما قصدوا غيري وان كان قصدهم سواي وان لم يظهروا عقـد نيَّة

ولشيوع مثل ذلك في شعره اتّهمه البعض بالحلول[1] وكفروه ، حتى قال المناوي وهو من المدافعين عنه[2] — « والحاصل انه اختلف في شان صاحب الترجمة (ابن الفارض) وابن عربي ، والعفيف التلمساني (وفلان وفلان يعددهم) من الكفر الى القطبانية ، وكثرت التصانيف من الفريقين في هذه القضية » على ان ابن الفارض يدافع عن نفسه فيقول

وكيف وباسم الحقّ ظـلّ تحققي تكون اراجيف الضـلال مخيفتي
ولي من اصـحّ الرؤيتين اشارةٌ تنزّه عن رأي الحلول عقيـدتي
وفي الذكر ذكر اللبس ليس بمنكر ولم اعدُ عن حكمَي كتاب وسنَّة

فابن الفارض لا يتعمد في شعره الطريقة الجدلية ، ولا يدخل في نضال فلسفي يدعمه بالادلّة والبراهين ، بل هو يصوّر الوجود بالوان الجمال المطلق ، وينسج من عواطفه حلة سداها ولحمتها الحب المُسكر ، حلّة تلبسها النفس فتحتجب عن علاقاتها المادية ، وتعلو في لُوح الفضاء الى حيث تمتزج بروح الكون ٠ وفي ذلك المقام تطلّ على الوجود فلا ترى فيه

---

(١) الديوان ١٢
(٢) شذرات الذهب ٥ — ١٥٢

الاّ شكلًا واحداً ولوناً واحداً ، وقوّة واحدة.

الحبّ هو نشيد ابن الفارض. وهو ، سواء نظرت اليه من وجهة الظاهر او وجهة الباطن ، حب سامٍ يرفع النفس الى المثل العليا ، ويكشف لها عن جمال الوجود الاعظم.

وما ميّ ، وعتب ، وريّا ، وسلمى ، وليلى وسواهنّ عنده الاّ مرايا تعكس لنا نور المحبوب الاسنى.

وما الوجد ، والشوق ، والوصل ، والهجر ، والعذل ، والتعذيب ، والذلّ ، والنحول ، والموت ، والغدر ، والوفاء ، واللوم ، والعتاب ، والرضا واضراب هذه الاوضاع الغزليّة الاّ اختبارات نفس شديدة الاحساس في سعيها نحو مصدر الجمال

وما مرابع الحجاز الاّ رمز للمرابع العلوية ، ولذلك تراه يردد ذكراها في اكثر قصائده ، فيقول مثلًا

يا ساكني البطحاء هـل من عودةٍ احيا بها يا ساكني البطحاء

. . .

لا تُملـني عن هوى مرتبعي عـدوتي تيا لربعٍ بتُمي

. . .

قسماً بمكّة والمقـام ومن اتى البيـت الحرام ملبّياً سيّاحا
ما رنّحت ريح الصبا شِيح الرُّبى الاّ واهـدت منكم افراحا

تلك هي عاطفته المجازية التي تبرز في اكثر قصائده. ومهما غلا المشككون فان في تلك العاطفة ما يبرّر قولنا بصوفيّة شاعرنا ونبالة حبّه.

المختار من شعر ابن الفارض

نفس رقيقة ترتفع على اجنحة الحب الى العلى ثمّ تذوب في الفضاء الواسع تاركة وراءها نغماً لطيفاً يرجّعه الشعر فيطرب السامعين

يائيته المشهورة

سائقَ الاظعانِ يطوي البيدَ طي ... منعماً عرّج على كثبانِ طَي (١)

وبذاتِ الشّيحِ عني إنْ مررْ ... تَ بحيٍّ من عُرَيب الجِزع حي (٢)

وتلطَّفْ واْجرِ ذكري عندهم ... علّهم أن ينظروا عطفاً إليّ

قل تركتُ الصبَّ فيكم شبحاً ... ما له مما براه الشوقُ فَيْ

خافياً عن عائدٍ لاح كما ... لاح في بُرْدَيهِ بعد النشر طي

كهلالِ الشكِّ لولا أنّهُ ... أنَّ عيني عينه لم تتأي (٣)

مسبلاً للنأيِ طرفاً جاد إنْ ... ضنَّ نوءُ الطرف أن يسقطَ خي (٤)

بين اهليه غريباً نازحاً ... وعلى الاوطان لم يعطفه لَي (٥)

نشرَ الكاشحُ ما كان له ... طاويَ الكشح قُبَيلَ النأيِ طي

في هواكمْ رمضانٌ عُمْرُهُ ... ينقضي ما بين إحياء وطي

حائراً في ما اليه امرُهُ ... حائرٌ والمرءُ في المحنةِ عي

يا أُهيلَ الودِّ أنّى تنكرو ... ني كهلاً بعدَ عِرفاني فُتي

---

(١) طيّ الاولى مصدر طوى . والثانية اسم قبيلة

(٢) ذات الشيح موضع. الجزع منعطف الوادي . وحيّ (الثانية) اي سلّم

(٣) هو في الخفاء كالهلال الذي لم تثبت روءيته ولولا انينه لما رات عيني ذاته (عينه)

(٤) ساكباً دموع طرف يجود بالبكاء وان بخل نجم « الطرف » عند سقوطه بالمطر (وكان نوءه ماحلا او خياً)

(٥) لي اي عطف

وهوى الغـادةِ عمري عادةً يجلُبُ الشيبَ الى الشاب الأحي (١)
نصباً أكسبـني الشوق كما تكسب الافعـال نصباً لام كي
ومتى اشـكُ جراحاً بالحشا زيد بالشكوى اليهـا الجرح كي
عجباً في الحـربِ أُدعى باسلاً ولهـا مستبسلاً في الحبِّ كي (٢)
هل سمعتم او رأيتم أسداً صاده لحظ مهاةٍ او ظبي
وضعَ الآسي بصدري كفَّهُ قال مالي حيلةٌ في ذا الهوَيّ
سقمي من سُقمِ أجفانكم وبمعسولِ الثنـايا لي دُوَيّ
اوعِدوني او عِـدوني وٱمطُلوا حكمُ دينِ الحبِّ دَينَ الحبِّ لي
رجعَ اللاحي عليكم آئساً من رشادي وكذاك العشق غي
أبعينيه عمىً عنكم كما صممٌ عن عذلهِ في أذُني (٣)
ظلَّ يهدي لي هُـدًى في زعمه ضلَّ كم يهذي ولا أُصغي لغي
ذابتِ الروح اشتياقـاً فهيَ بعدَ نفاد الدمع اجرى عبرتي
فهبوا عينيٍّ – ما اجدى البكا – عينَ ماء فهيَ إحدى منيتي
او حشا سالٍ وما أختارُه إن ترَوا ذاك به مَنًا علي
بل أسيئوا في الهوى او احسنوا كلُّ شيءٍ حسنٌ منكم لدَي

. . .

روِّح القلـب بذكرِ المنحنى وأعِدهُ عند سمعي يا أُخي
لم يرُقْ لي منزلٌ بعدَ النقا لا ولا مستحسنٌ من بعدِ مي
آهِ واشوقي لضاحي وجههـا وظما قلبي لذيَّاك اللُّمي (٤)
فبكلٍّ منه والالحـاظ لي سكرةٌ واطرَبا من سكرتي
جنَّةٌ عندي رُباها أمحلتْ امْ حلت – عُجِّلتها من جنتي (٥)

---

(١) الاحي اي الاسود الشعر (٢) كي جبان
(٣) هل عميت عينه عن جمالكم كما صُمّت اذني عن سماع عذله
(٤) تصغير لمى وهو سمرة في باطن الشفة او ماء الثغر
(٥) هي عندي جنة سواء اجدبت ام تحلت بالخصب ويشير بالجنة الثانية الى السماء

دارُ خُلدٍ لم يدرْ في خلَدي أنه من ينأ عنها يلقَ غي

. . .

خاطبَ الخطب دع الدعوى فما بالرُّقى ترقى الى وصل رُقَي[(١)]
رُحْ معافىً واغتنم نصحي وإن شئت ان تهوى فللبلوى تهيْ
كمْ قتيلٍ من قبيلٍ ما له قوَدٌ في حبّنا من كل حيْ
ايُّ تعذيب سوى البعد لنا منك عذبٌ حبّذا ما بعد ايْ
إن تشيْ راضيةً قتلي جوًى في الهوى حسبي افتخاراً أن تشَي
ما رأت مثلكِ عيني حسناً وكمثلي بكِ صباً لم ترَي
نسبٌ اقربُ في شرعِ الهوى بيننا من نسبٍ من أبويْ
ليت شعري هل كفى ما قد جرى مذ جرى ما قد كفى من مقلتَيْ
سرُّكمْ عنديَ ما اعلنَهُ غيرُ دمعٍ عندميٍّ عن دُمي[(٢)]
مظهراً ما كنتُ أخفي من قديمِ حديثٍ صانه منيَ طيْ
يا أُصيحابي تمادى بيننا ولبعدٍ بيننا لم يُقضَ طي
علّلوا روحي بارواح الصبا فبريّاها يعود الميتُ حي
أيْ صَبا أيَّ صباً هجت لنا سحراً من اينَ ذيّاك الشّذَي
ذاك ان صافحتِ ريّانَ الكلا وتحرّشتِ بحوذان كُلي[(٣)]
فلذا تُروي وتَرْوي ذا صدًى وحديثاً عن فتاة الحيِّ حي[(٤)]
سائلي ما شفّني في سائلِ الدمعِ لو شئتَ غنًى عن شفتيْ
عُتْبُ لم تُعتِبْ وسلمى اسلمتْ وحمى اهلُ الحمى رؤيةَ ريّ[(٥)]

. . .

---

(١) رقي اسم فتاة ويكنى بها عن الجمال الاسنى

(٢) عندمي اي احمر . دُمي تصغير دم اي سائل من دمي

(٣و٤) اي انما ذلك الشذا لانك لمست الكلا الناضر وتحرشت بنبات الحوذان في وادي الحبيب. ولذا فانت تروي صاحب العطش وتروي الخبر الصادق (الحي) عن فتاة الحي

(٥) يا من تسألني عما اصابني انظر الى الدمع السائل تجد فيه جوابي . وعتب وسلمى وري اسماء فتيات

هو الحب

هو الحبُّ فاسلم بالحشى ما الهوى سهلُ ... فما اختاره مُضنىً به وله عقلُ
وعش خالياً فالحبُّ راحتُهُ عناً ... واوّلُهُ سقمٌ وآخرُه قتل
ولكن لديَّ الموت فيه صبابةً ... حياةٌ لمن اهوى عليَّ بها الفضل
نصحتك علماً بالهوى والذي ارى ... مخالفتي فاْخترْ لنفسك ما يحلو
فإن شئت أن تحيا سعيداً فمتْ به ... شهيداً والا فالغرام له اهل
فمَنْ لم يمت في حبّه لم يعشْ به ... ودون اْجتناء النحل ما جنتِ النحل
تمسَّكْ باذيال الهوى واْخلعِ الحيا ... وخلِّ سبيل الناسكين وان جلُّوا(١)
وقل لقتيل الحبِّ وفّيتَ حقَّه ... وللمدَّعي هيهات ما الكَحَلُ الكُحْلُ
تعرَّضَ قومٌ للغرام واعرضوا ... بجانبهم عن صحّتي فيه واْعتلُّوا
رضوا بالاماني وابتُلوا بحظوظهم ... وخاضوا بحارَ الحبِّ دعوى فما اْبتلُّوا

. . .

أحبةَ قلبي والمحبةُ شافعي ... لديكم اذا شئتم بها اتصَّلَ الحبل
عسى عطفةٌ منكم عليَّ بنظرةٍ ... فقد تعبتْ بيني وبينكم الرُّسل
احبايَ انتم احسنَ الدهرُ ام أَسا ... فكونوا كما شئتم انا ذلك الخِلُّ
اذا كان حظي الهجرَ منكم ولم يكن ... بعادٌ فذاك الهجر عندي هو الوصل
وتعذيبكم عذبٌ لديَّ وجورُكم ... عليَّ بما يقضي الهوى لكمُ عدل
وصبريَ صبرٌ عنكمُ وعليكمُ ... ارى ابداً عندي مرارتُهُ تحلو
اخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي ... يضرُّكمُ لو كان عندكمُ الكلُّ
نأيتم فغير الدمعِ لم ارَ وافياً ... سوى زفرةٍ من حرِّ نارِ الجوى تعلو
فسهديَ حيٌّ في جُفوني مخلَّدٌ ... ونومي بها ميتٌ ودمعي له غُسْلُ
هوًى طلَّ ما بين الطُّلولِ دمي فمِنْ ... جفوني جرى بالسفح من سفحه وبل(٢)

---

(١) ان حبَّ الجمال الاسنى والتمادي فيه (على طريقة الصوفية) هو افضل الطرق، فسر به ولو خالفت اهل الطرق الاخرى

(٢) هوى هدر دمي بين طلول الاحبة فجرى من جفوني لذلك وابل من الدموع

تَباله قومي اذ رأوني متيَّماً   وقالوا بمن هذا الفتى مسَّهُ الخَبلُ ؟

وماذا عسى عني يقال سوى غدا   بنُعمٍ له شغلٌ نَعَمْ لي بها شُغلُ

وقال نساء الحيِّ عنّا(١) بذكر مَنْ   جفانا وبعد العزِّ لذَّ لهُ الذُّلُّ

اذا انعمتْ نُعمٌ عليَّ بنظرةٍ   فلا اسعدتْ سُعدى ولا اجملتْ جُمْلُ

وقد صدئت عيني برؤيةِ غيرِها   ولثم جفوني تربها للصدا يجلو

وقد علموا أني قتيل لحاظها   فانَّ لها في كلِّ جارحةٍ نصل(٢)

حديثي قديمٌ في هواها وما له   كما علمت بعدٌ وليس له قبلُ

ومالي مثلٌ في غرامي بها كما   غدتْ فتنةً في حسنها ما لها مثل

حرامٌ شِفا سقمي لديها رضيتُ ما   به قسمتْ لي في الهوى ودمي حِلُّ

فحالي وان ساءت فقد حسنت به   وما حطَّ قدري في هواها به أعلو

ولي همةٌ تعلو اذا ما ذكرتها   وروحٌ بذكراها اذا رخصتْ تغلو

جرى حبُها مجرى دمي في مفاصلي   فاصبح لي عن كلِّ شغلٍ بها شغل

فنافس ببذلِ النفس فيها أخا الهوى   فان قبلتْها منك يا حبَّذا البذل

فمَنْ لم يجدْ في حبِّ نعمٍ بنفسه   ولو جاد بالدنيا اليه انتهى البخلُ

ولولا مراعاةُ الصيانةِ غيرةً   ولو كثُروا اهلُ الصبابة او قلُّوا

لقلتُ لعشاق الملاحة اقبِلوا   اليها على رأيي وعن غيرها ولُّوا

وان ذُكِرَت يوماً فخرُّوا لذكرِها   سُجوداً وان لاحت الى وجهها صلُّوا

وفي حبِّها بعتُ السعادةَ بالشقا   ضلالاً وعقلي عن هدايَ به عقل(٣)

وقلت لرشدي والتنسُّكِ والتقى   تخلّوا وما بيني وبين الهوى خلُّوا

وفرَّغتُ قلبي عن وجودي مخلصاً   لعلّيَ في شغلي بها معَها اخلو

واصبو الى العذَّال حباً لذِكرِها   كأنَّهمُ ما بيننا في الهوى رُسل

فان حدَّثوا عنها فكلّي مسامعٌ   وكلّيَ انْ حدَّثتُهم ألسنٌ تتلو

---

(١) عنّا به اي ابعدوه

(٢) الاصل فان لها نصلا ولكنهم يخرّجون الاعراب بتقديرهم ضمير الشان فكانه يقول فانه لها الخ .

(٣) عقل الثانية مصدر عقل اي منع او ربط

تخالفت الاقوالُ فينا تبايناً   برَجمِ ظنونٍ بيننا ما لها اصل
فشنّعَ قومٌ بالوصال ولم تصِلْ   وارجف بالسلوان قومٌ ولم أسلُ
فما صدّق التشنيعُ عنها لشقوتي   وقد كذَبتْ عني الاراجيف والنقل
وكيف أُرجّي وصلَ من لو تصوّرت   حماها المنى وهماً لضاقت بها السبل
تُرى مقلتي يوماً ترى من أُحبُّهمْ   ويُعتبني دهري ويجتمع الشمل
وما برحوا معنىً اراهمْ معي فان   نأوْا صورةً في الذهن قام لهم شكل
فهم نصب عيني ظاهراً حيثما سرَوا   وهم في فؤادي باطناً اينما حلّوا
لهم ابداً مني حُنوٌّ وإنْ جفَوْا   ولي ابداً ميلٌ اليهم وان ملّوا

انا القتيل

ما بين معتركِ الاحداق والمُهَج   انا القتيل بلا إثمٍ ولا حرجِ
ودّعت قبل الهوى روحي لِما نظرت   عينايَ من حُسن ذاك المنظر البهج
لله اجفانُ عينٍ فيكَ ساهرةٍ   شوقاً اليك وقلبٌ بالغرامِ شجِ
واضلُعٌ نحِلتْ كادتْ تقوّمها   من الجوى كبدي الحرّى من العوج
وادمُـعٌ هملت لولا التنفّسُ من   نارِ الهوى لم اكدْ انجو من اللُجج
وحبّذا فيك اسقامٌ خفيتُ بها   عنّي تقومُ بها عند الهوى حُججي
اصبحتُ فيك كما أمسيتُ مكتئباً   ولم اقل جزَعاً يا أزْمةُ انفرجي
أهفو الى كلِّ قلبٍ بالغرام له   شُغلٌ وكلِّ لسانٍ بالهوى لهِجِ
عذّبْ بما شئتَ غيرِ البعد عنك تجد   اوفى محبٍّ بما يرضيك مبتهج
وخذ بقيّةَ ما ابقيتَ من رمقٍ   لا خير في الحبِّ إن ابقى على المهج
من لي باتلاف روحي في هوى رشاٍ   حُلوِ الشمائل بالارواح ممتزج
من مات فيه غراماً عاش مرتقياً   ما بين اهل الهوى في ارفع الدّرج
محجّبٌ لو سرى في مثلِ طُرّته   اغنتهُ غُرّتُهُ الغرّا عن السُرج (١)

(١) اي لو سرى في ليل اسود كشعره لكان له من غرته نور يغنيه عن السُرج

وان ضَلِلتُ بِليلٍ من ذوائبه اهدى لعيني الهدى صبحٌ من البلَج
وان تنفَّسَ قال المسكُ معترفاً لعارفي طيبه « من نشره أرجي »
يا ساكنَ القلبِ لا تنظر الى سكني واربح فؤادكَ واحذرْ فتنةَ الدعج
تباركَ اللهُ ما احلى شمائله فكم اماتتْ واحيتْ فيه من مُهج
يهوى لذكرِ اسمهِ من لجَّ في عذَلي سمعي ، وان كان عذلي فيه لم يلج (١)
وأَرحمُ البرقَ في مسراه منتسباً لثغره وهو مستحيٍ من الفلج
تراه ان غابَ عني كلُّ جارحةٍ في كلِّ معنىً لطيفٍ رائقٍ بهج
في نغمةِ العود والناي الرخيمِ اذا تألّفا بين ألحانٍ من الهزج
وفي مسارح غزلان الخمائل في برد الاصائلِ والإصباح في البلج
وفي مساقط انداء الغمام على بساط نَور من الازهارِ منتسج
وفي مساحب اذيال النسيم اذا اهدى اليَّ سُحيراً اطيبَ الارج
وفي التثامي ثغرَ الكأس مرتشفاً ريق المدامةِ في مستنزهٍ فرج
لم ادرِ ما غربةُ الاوطانِ وهوَ معي وخاطري اين كنا غيرُ منزعج

قلبي يحدثني

قلبي يحدّثني بانكَ متلفي روحي فِداكَ عرفت ام لم تعرف
لم أقضِ حقَّ هواكَ ان كنتُ الذي لم اقضِ فيه اسًى ومثلي من يفي (٢)
مالي سوى روحي وباذلُ نفسهِ في حبِّ من يهواه ليس بمسرف
فلئنْ رضيتَ بها فقد اسعفْتني يا خيبةَ المسعى اذا لم تُسعِف
يا مانعي طيبَ المنامِ ومانحي ثوبَ السَّقام به ووجدي المُتلف
عطفاً على رمقي وما ابقيتَ لي من جسميَ المضنى وقلبي المُدنف
فالوجدُ باقٍ والوصالُ مماطلي والصبر فانٍ واللقاء مسوّفي

---

(١) اي يهوى سمعي ان يسمع كلام العاذل اللجوج لانه يذكره وان كان (سمعي) لا يقبل العذل
(٢) اقضي الاولى أؤدّي . والثانية اموت

لم اخلُ من حسدٍ عليك فلا تُضِعْ ... سهري بتشنيعِ الخيال المرجُف
واسألْ نُجومَ الليلِ هل زار الكرى ... جفني وكيف يزورُ من لم يعرف
لا غروَ إنْ شحّت بغُمضٍ جُفونها ... عيني وسحّتْ بالدُّموع الذُّرَّف
وبما جرى في موقفِ التوديعِ من ... ألمِ النوى شاهدتُ هول الموقف(١)
ان لم يكن وصلٌ لديك فعدْ به ... املي وماطل انْ وعدتَ ولا تفي
فالمطلُ منك لديَّ ان عزَّ الوفا ... يحلو كوصلٍ من حبيبٍ مسعف
اهفو لانفاس النسيمِ تعلّةً ... ولوجه من نقلتْ شذاهُ تشوُّفي
فلَعلَّ نار جوانحي بهبوبها ... ان تنطفي واودُّ ان لا تنطفي
يا اهل ودّي انتمُ املي ومن ... ناداكمُ يا اهلَ ودّي قد كُفي
عودوا لما كنتم عليه من الوفا ... كرماً فاني ذلك الخلُّ الوفي
وحياتكم وحياتكم قَسَماً وفي ... عمري بغير حياتكم لم احلِف
لو أنَّ روحي في يدي ووهبتها ... لمُبشّري بقدومكم لم أُنصفِ
لا تحسبوني في الهوى متصنّعاً ... كَلَفي بكم خُلُقٌ بغيرَ تكلُّف
اخفيتُ حبّكمُ فاخفاني اسًى ... حتى لعمري كدتُ عني اختفي
وكتمتهُ عنّي فلو ابديتهُ ... لوجدتُهُ اخفى من اللطف الخفي
ولقد اقولُ لمن تحرَّش بالهوى ... عرَّضتَ نفسك للبلا فاستهدف
انت القتيلُ بايِّ من احببته ... فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي
قل للعذول اطلتَ لومي طامعاً ... أنَّ الملام عن الهوى مستوقفي
دع عنك تعنيفي وذُق طعم الهوى ... فاذا عشقت فبعدَ ذلك عنِّف
برحَ الخفاء بحبِّ من لو في الدجى ... سفرَ اللثامَ لقلت يابدرُ اختف
وهواهُ وهو أليَّتي وكفى به ... قسماً اكادُ أُجلُّه كالمصحف(٢)
لو قال تيهاً قف على جمرِ الغضا ... لوقفتُ ممتثلاً ولم اتوقَّف
لا تنكروا شغفي بما يرضى وان ... هو بالوصالِ عليَّ لم يتعطَّف

---

(٢) الموقف الثانية يوم الحساب في الآخرة
(١) اليتي اي قسمي . والمصحف القرآن الكريم

غلب الهوى فاطعتُ امر صبابتي ... من حيث فيه عصيت نهيَ معنّفي
منّي له ذلُّ الخضوع ومنه لي ... عزّ المنوعِ وقوّةُ المستضعف
أَلِفَ الصدودَ ولي فؤادٌ لم يزل ... مذ كنت غير وداده لم يألف
لو اسمعوا يعقوبَ ذكرَ ملاحةٍ ... في وجهه نسيَ الجمال اليوسفي
او لو رآه عائداً أيوبُ في ... سِنة الكرى قدماً من البلوى شُفي
كلُّ البدور اذا تجلّى مقبلاً ... تصبو اليه وكلُّ قدٍّ اهيف
ان قلتُ عندي فيك كلُّ صبابةٍ ... قال الملاحةُ لي وكلُّ الحسن في[1]
كملتْ محاسنُهُ فلو اهدى السنا ... للبدر عند تمامه لم يخسف
وعلى تفنُّنِ واصفيه بحسنه ... يفنى الزمانُ وفيه ما لم يوصفِ
ولقدْ صرفتُ لحبه كلّي على ... يدِ حسنه فحمدت حسنَ تصرُّفي
اسعدْ أُخيَّ وغنّني بحديثه ... وأنثر على سمعي حلاهُ وشنّف
لأرى بعين السَّمعِ شاهد حسنه ... معنىً فاتحفني بذاك وشرّف[2]
يا أختَ سعدٍ من حبيبي جئتني ... برسالةٍ اديتِها بتلطُّف
فسمعتُ ما لم تسمعي ونظرت ما ... لم تنظري وعرفت ما لم تعرفي[3]
ان زار يوماً يا حشايَ تقطّعي ... كلَفاً به او سار يا عين اذرفي
ما للنوى ذنبٌ ومن اهوى معي ... ان غاب عن انسان عيني فهو في[4]

زدني بفرط الحب

زدني بفرط الحبِّ فيك تحيُّرا ... وارحم حشىً بلظى هواك تسعَّرا
واذا سألتك ان اراك حقيقةً ... فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى

---

(١) اي وكل الحسن فيَّ
(٢) غنّني بحديثه لارى جماله عن طريق السمع وقد جعل للسمع عينا عن طريق المجاز
(٣) اي ايتها الفتاة المنتمية الى قبيلة سعد انك حملت لي رسالة الحبيبة ولكنك لم تسمعي منها ولم تعرفي ما سمعت وعرفت انا
(٤) اي في القلب

يا قلبُ انت وعدتني في حبّهم صبراً فحاذرْ ان تضيق وتضجرا
انَّ الغرامَ هو الحياةُ فمتْ به صبًّا فحقُّك ان تموتَ وتُعذرا
قل للذين تقـدَّموا قبلي ومن بعدي ومن اضحى لاشجاني يرى
عني خذوا وبيَ اقتدوا وليَ اسمعوا وتحدَّثوا بصبابتي بـين الورى
ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سرٌّ ارقُّ من النسيم اذا سرى
واباح طرفي نظرةً امَّلتهـا فغدوت معروفاً وكنت منكَّرا
فدُهشت بين جمالهِ وجلالهِ وغدا لسان الحال عني مخبرا
فأدرْ لحاظك في محاسن وجهه تلقى جميع الحسن فيـه مصوَّرا
لو انَّ كلَّ الحسن يكمُلُ صورةً ورآه كان مهلِّلاً ومكبِّرا



محتويات الكتاب

من مؤلفات صاحب الكتاب

تطور الاساليب النثرية

في

الادب العربي

كتاب في نحو ٤٥٠ صفحة كبيرة يتناول النثر العربي وخصائصه الفنية منذ بزوغ الاسلام الى النهضة الاخيرة ، ويتخلله دراسات تحليلية لنخبة من امراء الاقلام وعرض كثير من نصوصهم الانشائية

ولعله اول محاولة علمية لدرس الاساليب النثرية وتتبع تطورها مع الزمان

الذكرى

وهي النشائد الخالدة التي نظمها شاعر انكلترا العظيم الفرد تنسون ، وقد نقلت نظماً الى العربية وروعي فيها ما امكن المحافظة على المعاني الاصلية

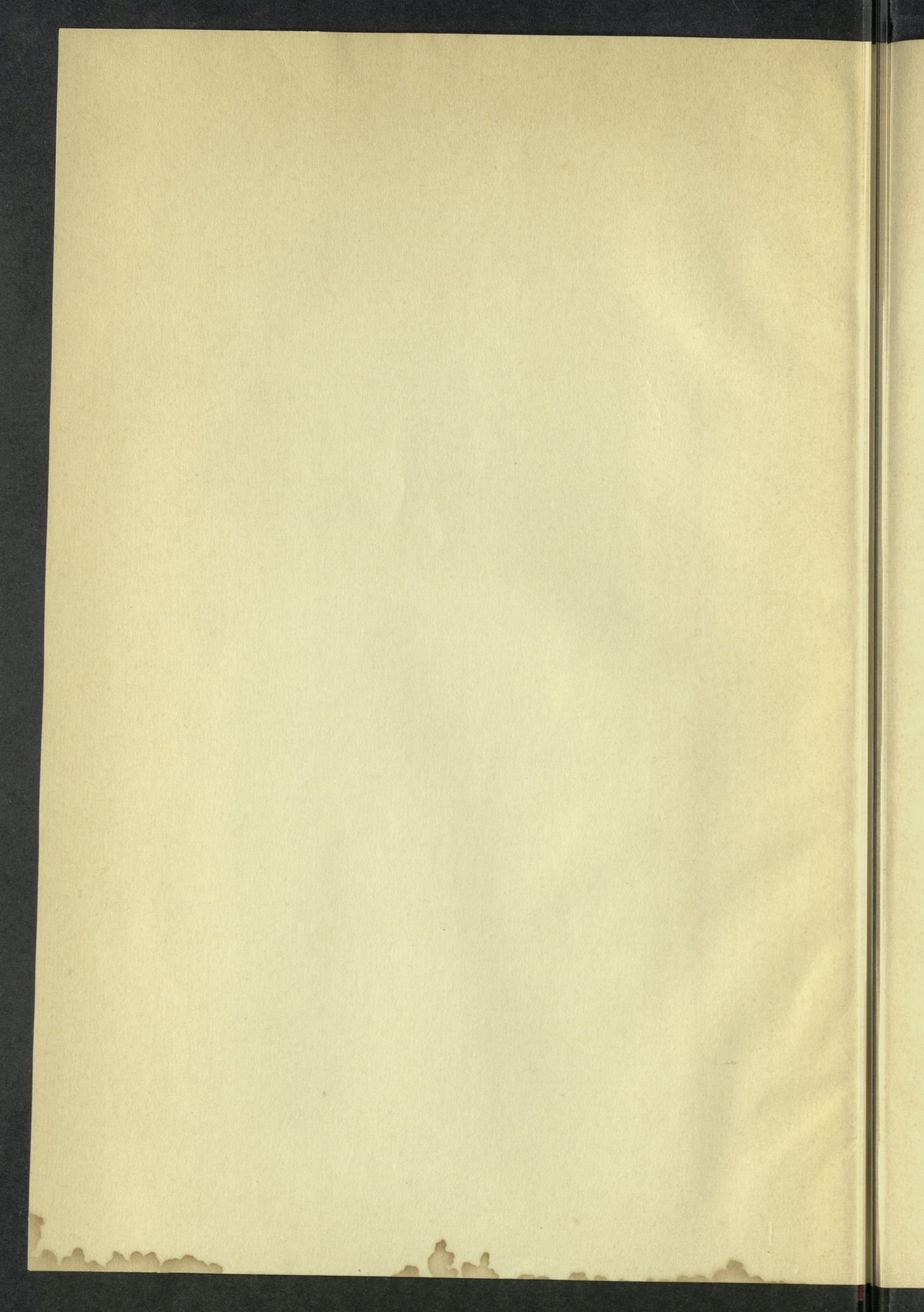
الدول العربية وآدابها —

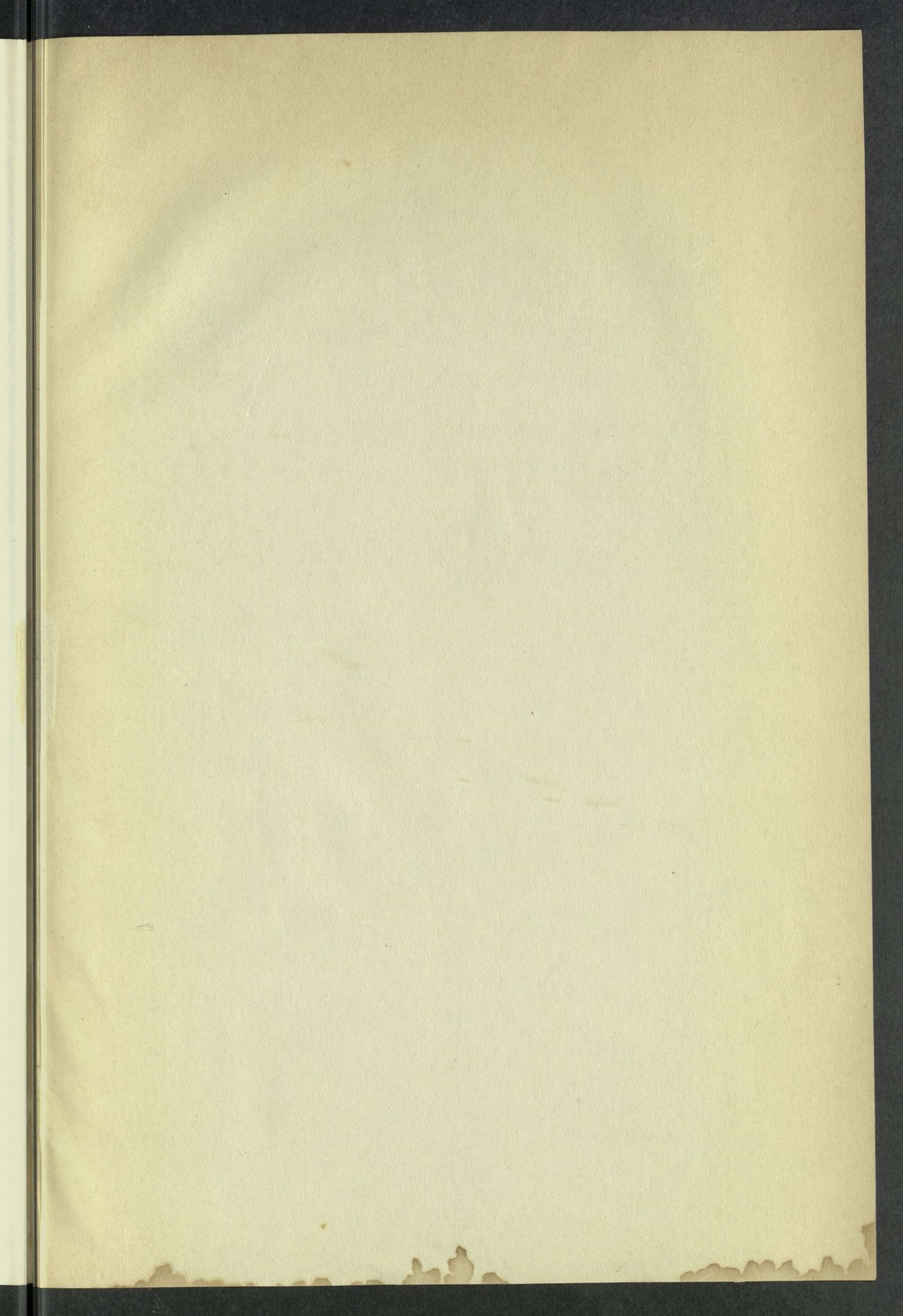
الطبعة الخامسة

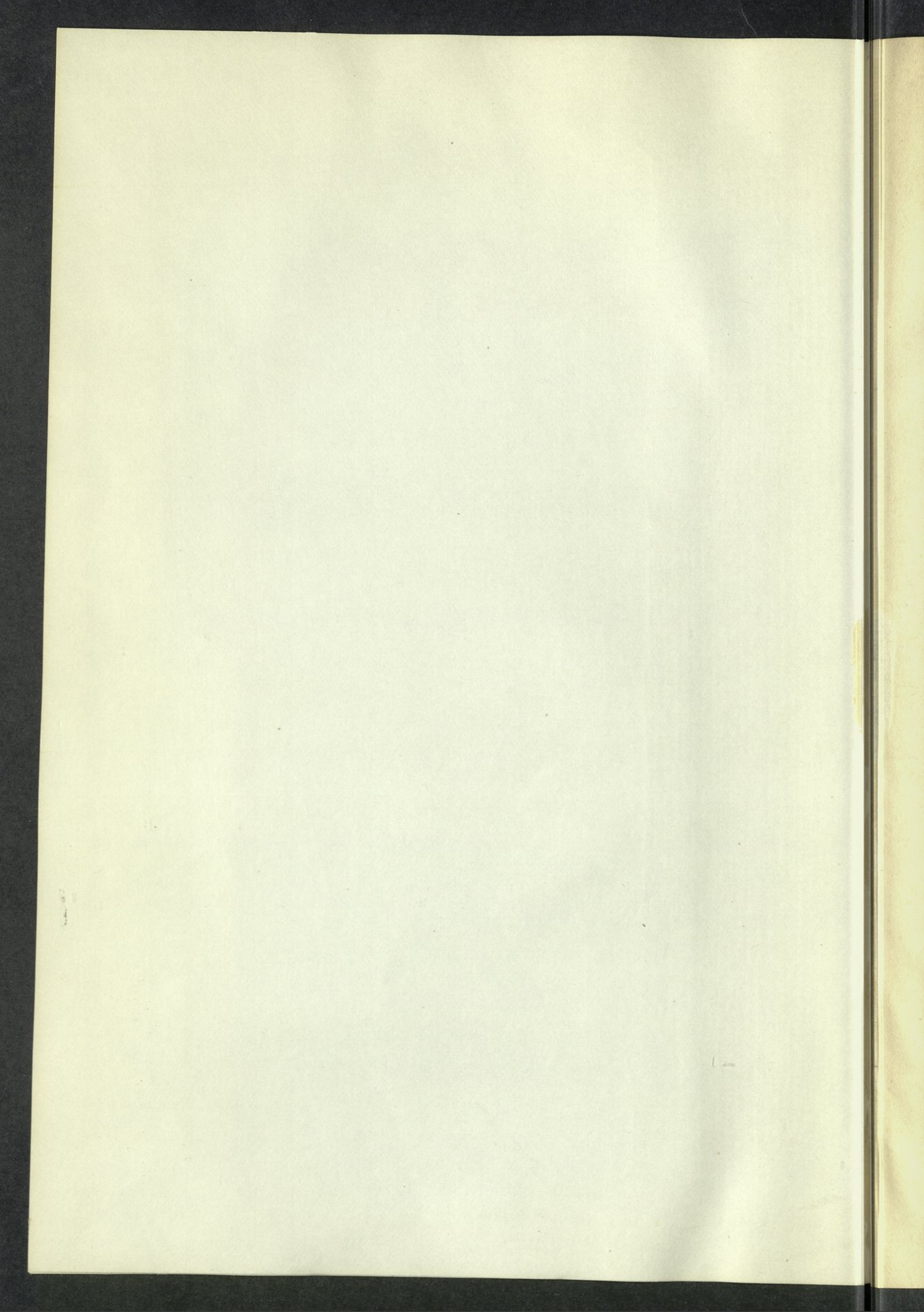
وهو موجز في تاريخ الادب يتناول الدول العربية وما نشأ فيها من الآداب . وفيه تراجم اشهر الشعراء والكتبة من اقدم العصور الى الوقت الحاضر – مقرونة بامثلة من اجود ما روي او نشر لهم

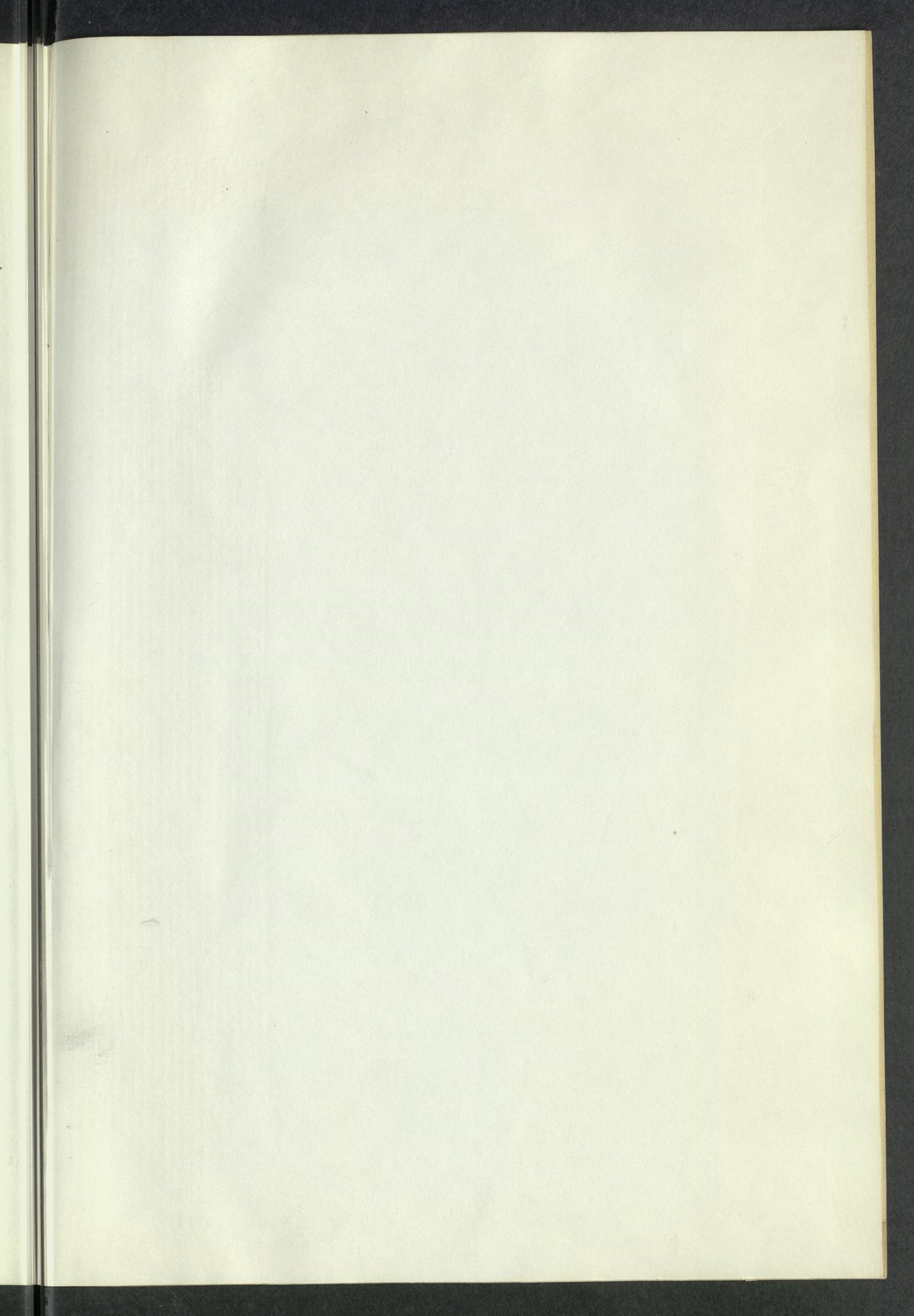
. . .

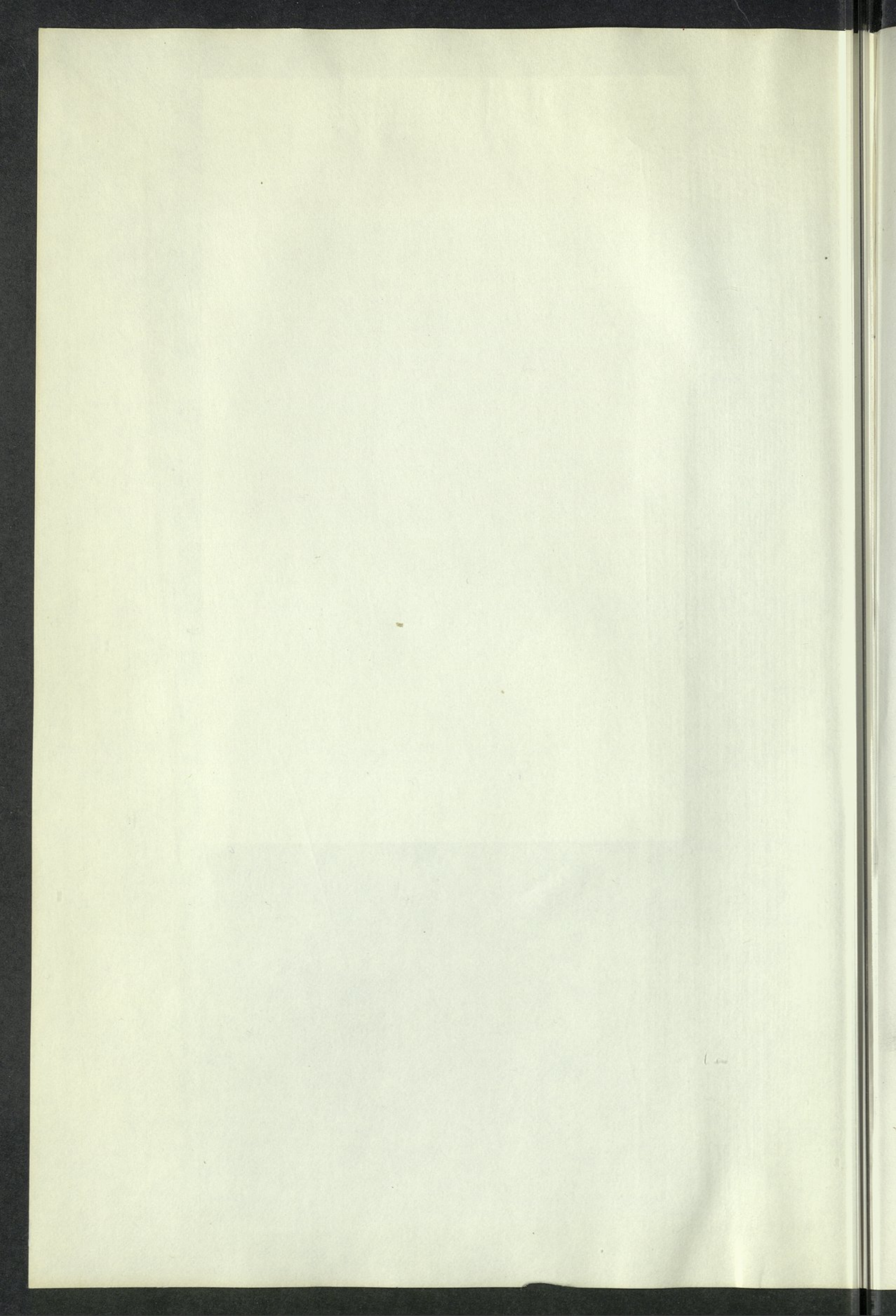
وهناك مؤلفات اخرى تطلب قائمتها من صاحبها او من المطبعة الاميركانية في بيروت











DATE DUE



